البحرية المصرية

الطريق إلى أكتوبر

فريق أول
فؤاد محمد أبو زكري

اهداءات ١٩٩٩
السيدة/ نادية الشاذلى
الإسكندرية

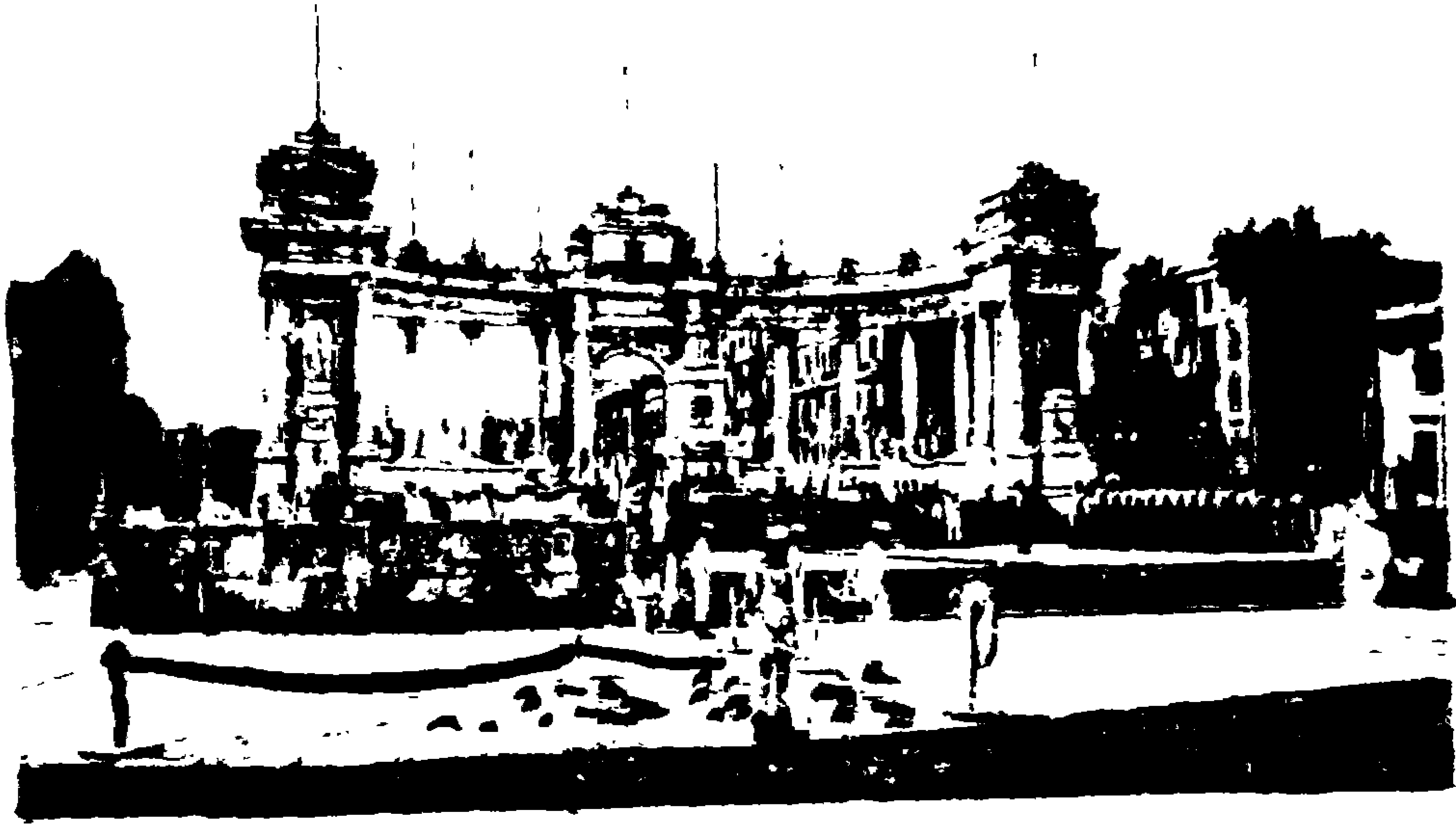
البحرية المصرية

الطريق إلى أكتوبر

فريق أول

فؤاد محمد أبو زكريا

بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى أخوة السلاح . . .

إلى كل مقاتل بحري . . .

من شهداء الماضي . . .

وجنود الحاضر . . .

وطلائع المستقبل . . .

فريق أول

فؤاد أبو ذكري

تقديـــــم

ما أشبه اليوم بالأمس البعيد :

منذ نحو خمسة آلاف عام اخترقت قوات مصر مياه البحر الاحمر الى "شبه جزيـــره سيناء" ، تنفيذا لأوامر الملك "ساحورع" لتعيد لشبه الجزيره الأمن والاستقرار ، وبعدها بقرابه سبعه عشر قرنا ، خرج "رمسيس الثانى" بحملته البحريه المشهوره الى مياه "باب المندب" ، حيث قضى على القراصنه الذين كانوا ينتهكون تجاره مصر .

اذا كان ماحدث منذ خمسين قرنا استهدف اقرار أمن مصر ، وصون اقتصادهـا ، فان ماحدث فى اكتوبر ١٩٧٣ ميلاديه قد استهدف نفس الغايات ، ولكن بأســلوب العصر .

وفيما بين الزمنين ، لم يعرف التاريخ حاكما ، أو قائدا مصريا تحمل مســئولية العمل العسكرى بالمنطقتين فى وقت واحد غير الرئيس محمد أنور السادات ، الـذى أمر القوات المصريه بالعبور الى سيناء ، وبمحاصره مضيق باب المندب .

وعلى هذا الامتداد الزمنى الطويل ، لعبت الأساطيل الحربيه ، والأساطيــل التجاريه الدور القيادى فى بناء حضارات الأمم ، وكتابه تاريخ شعوب العالم ، وهو دور نشأ وترعرع فوق صفحه مياه البحر المتوسط ، وبين ربوعه .

هذا الامتداد الزمنى الطويل ، هو فى الحقيقه الدعامه الحضارية المتينه التى ارتكز عليها السادات فى اتخاذ قراريه الجريئين : " العبور" ، وبهذا القرار استطاعت مصر أن تفرض "الحصار" . ولعل قرار الضغط على الاقتصاد الاسرائيلى بحصار بحرى عند مياه مضيق باب المندب هو قرار أيضا جد جرىء ، لأنه تخطى الحدود الإقليميــه الضيقه لمفهوم استراتيجيه استخدام القوة البحرية ، وانطلق بها الى آفاق الاستراتيجية الرحبه . وهى طفره أضافت لمسئوليات ، والتزامات مصر الوطنيه ، والقوميه أبعادا لـم تطرقها منذ قرون بعيده .

كانت مصر هى الرائد فى مجال صناعه السفن ،ونقل التجاره عبر البحار ، وكانت ـ بحكم موقعها الجغرافى وحضارتها ـ المعلم الأول لفنون استخدام القوه البحريه فى الدفاع عن أمن الوطن ، والحفاظ على أسباب رخائه ، وهى التى أعطت المثل ، والقدوه لمعانى الحرب من أجل السلام .

وليس ثمه شك فى أن الأمن ، والاستقرار فى هذا الجزء من العالم ـ الذى نعرفه حاليا باسم الشرق الأوسط ـ قد ارتبطا بقوة مصر ، ولا سيما قوتها البحريه ، حتى فى العهود التى أهدرفيها استقلالها . وقد أدرك المستعمر هذه الحقيقه ، وعرف أن التحكم فى قوة مصر ، هو مفتاح الموقف فى المنطقه كلها .

وكان من أثر النهضه الصناعيه فى أوربا فى القرن (١٨) أن توالت على بلادنا موجات الاستعمار الغربى ، وكلما انحسرت موجه تحركت موجه اخرى لسد الفراغ الذى خلفته الموجه المنحسرة ، وهكذا . وأخذت شدة تدفق الموجات الاستعماريه فى الازدياد ، وبخاصة بعد فتح قناة السويس ، واكتشاف منابع البترول ـ المصدر الجديد والرخيص للطاقه ـ فى الخليج العربى ، وشمال أفريقيا ، وقد صاحب ذلك تصاعد ترديد شعارى"الفراغ" ،"وسد الفراغ" ، الى أن اصبح هذا الفراغ ذريعه لتدخل قوى غريبه فى شئون المنطقه ، وفى مقدمتها الوطن العربى ،ومازالت مثل هذه الشعارات تهدد الأمن بالمنطقه .

لم يكن بوسعنا الا الرضوخ لفريه"الفراغ" وترك الغرباء يملئونه ، وينهبون ثروات بلادنا ومع هذا أيضا ، فقد أغلقوا أمامنا منافذ التقدم العلمى الحديث ، فحرمنا من القوة القادره على دحض هذه الفريه .

أما الآن ، وبعد أن فجرت حرب اكتوبر امكانات ،وطاقات الأمة العربيه ، فما علينا الا أن نمضى بهذه الإمكانات ، والطاقات فى الطريق نحو السلام ،والرخاء .

ولما كانت مصر هى درع ،وسيف الأمه العربيه ،والساهره على تحرير الإرادة العربية ، وصانعه انتصارات اكتوبر ، فقد شقت الطريق الى السلام ، وأصبحت هى الملتزمه الأول باقرار السلام ، والحفاظ عليه .

ونظرة على جغرافية مصر، وموقعها فى قلب الوطن العربى ، ندرك أنها - بدورها الحضارى عبر التاريخ ، والذى توجته بانتصارات اكتوبر ،واعادة فتح قناه السويس للملاحه العالميه ، ومبادره السادات للسلام - هى القوه القادره على فرض الوجود العربى بالمنطقه كلها ، واسقاط شعارات الفراغ، واعاده الأمن ، والاستقرار الى ربوع الوطن العربى .

ونظره أخرى على جغرافية الوطن العربى ، والموقع الفريد الذى يحتله على خريطه المصالح العالميه ، والسياسه الدوليه ، ندرك أيضا أن القوة البحريه - بما تتميز به من مرونه استراتيجيه ، وخفه حركة تأكتيكيه - هى الأداه المثلى لإقرار الأمن بالمنطقه ، والدفاع عن المصالح العربيه ضد مطامع الغرباء .

هذا الكتاب ليعتبر محاوله جمع ذخيرة مصر البحريه - عبر آلاف السنين - والتى شاركت فى تفجير انتصارات اكتوبر ، وكانت إحدى الدعامات الصلده التى ارتكز عليها السادات فى اتخاذ قراراته الشجاعه . . . والكتاب فى النهايه يحاول أن يقول " أن الإنسان المصرى صانع حضاره الماضى ، قادر على صنع سلام الحاضر بأذن الله" .

ومرة أخرى ما أشبه اليوم بالأمس البعيد ،،،

ديسمبر ١٩٧٨

فريق بحرى

فؤاد أبو ذكرى

المحتويـــات

الصفحة

تقديم أ - جـ

الجزء الأول

القوة البحرية عبر التاريخ

الباب الاول : نشأة وازدهار القوى البحرية . 1
الباب الثانى : العصر الاسلامى . 40
الباب الثالث : الامبراطورية العثمانية . 75

الجزء الثانـى

الحرب واستخدامات القوة البحرية

الباب الأول : الحرب والاستراتيجية . 113
الباب الثانى : الحرب البحرية واستخدامات القوة البحرية . 132
الباب الثالث : الاستراتيجية البحرية . 152
الباب الرابـع : الصراع العربى البحرى الاسرائيلى . 176

الجزء الثالـث

حرب رمضـان اكتوبـــر 73

الباب الأول : التحول الكبير . 248
الباب الثانى : قوى اكتوبر البحرية ،أبعاد جديدة للصراع . 273
الباب الثالث : الحرب . . المخاطرة المحسوبة . 301
الباب الرابـع : الحرب غير المباشرة . 341
الباب الخامس : اكتوبر فى ميزان الحروب . 369

الخرائط والصـــــور

الجـزء الأول

مواجهة الصفحـــة

١ ــ امبراطوريات العالم القديم (المصرية ، الأشوريه ، الحيثية)٠	٦
٢ ــ خريطة عالم البحر المتوسط حول عام ٨٠٠ ميلادية ٠	٥٠
٣ ــ خريطة الفتوحات الاسلاميـــــة ٠	٥٣
٤ ــ خريطة الامبراطورية العثمانيــــة ٠	٧٣
٥ ــ " جالى " بالشراع والمجداف (القرن الثامن عشر الميلادى) ٠	٧٥
٦ ــ نموذج مبكر لاحدى سفن البخار (القرن التاسع عشر الميلادى) ٠	٧٩
٧ ــ خريطة موقعه نافارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) ٠	٨٤
٨ ــ قناة السويس تتوسط العالم ٠	٩٧

الجـزء الثانى

١ ــ نماذج لسفن الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) ٠	١٣٤
٢ ــ نماذج لسفن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) ٠	١٣٤
٣ ــ نماذج للسفن الحربية الحديثة (١٩٧٧ ــ ١٩٧٨) ٠	١٣٨

الجـزء الثالث

١ ــ خريطة خطوط سير السفن التجارية من والى موانى اسرائيل (البحر المتوسط)	٢٨٠
٢ ــ مسرح البحر الأحمر (اكتوبر ١٩٧٣) ٠	٢٨١
٣ ــ بعض سفن الأسطول المصرى التى دخلت بها مصر حرب اكتوبر ٧٣ ٠	٢٨٨
٤ ــ مناطق العمليات البحرية المعلنة فى ٦ اكتوبر ١٩٧٣ ٠	٢٩٩
٥ ــ خريطة طلعة " القنص الحر " التى قامت بها زوارق الصواريخ المصرية ليلة ٧/٦ اكتوبر ٠	٣٠٢
٦ ــ خريطة معركة زوارق الصواريخ (٨ / ٩ اكتوبر) ٠	٣٠٤

الجزء الاول

القـــوة البحرية عبر التاريـــخ

الباب الأول

نشأة وازدهار القوى البحريه

مصر الفرعونيه

أستقر الانسان المصرى القديم فى أركان صغيره متناثره على شريط خصب ضيق يمتد على شواطئ وروافد نهر النيل لمئات الكيلومترات من الجنوب الى الشمال . ومن المؤكد أن المصريين القدامى وجدوا فى نهر النيل أفضل طريق يصل بين أوطانهم الصغيره فصنعوا ـ منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنه قبل الميلاد ـ طوفا من سيقان نبات"البردى" ثم أخذوا يطورونه إلى أن اتخذ شكل"قارب" مسطح القاع ليسهل ارتياده لمياه النهر ودلتاه الضحله .

ولكن برغم تماسك قارب البردى ،وكبر حمولته ،وسهوله صناعته ، إلا أنه كان سريع التلف . لذلك ، ومع تطور الانسان المصرى حضاريا واجتماعيا وسياسيا ورغبته فى خلق وحده تجمع هذه الأوطان الصغيره المتناثره ، أخذ يبحث عن بديل" للبردى " يصنع منه قوارب أكبر وأمتن ،فلم يجد أمامه إلا أخشاب الجميز والسنط التى كانت تزخر بها أدغال مصر . وعلى هذا يمكن القول بأن"القوارب" و"الملاحه النهريه" هيمنتا ـ الى حد كبير ـ على المجتمع المصرى القديم وحضارته وكانتا سبيله للمحاولات العديده التى بذلت منذ عهد ملوك الأسرة الأولى (حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م) لجمع جنوب الوادى بشماله فى وحده سياسيه تحت حكم ملكى شامل وهو نظام تميزت به مصر عن سائر شعوب العالم القديم .

ونرجو أن نوجه عناية القارئ إلى أننا سنستخدم ـ مجازا ـ فى هذه الحقبه من التاريخ إسم " سفينه" للتعبير عن جميع أشكال وأنواع"الفلك" التى صنعها المصريون القدامى أو غيرهم سواء أكانت مصنوعه من البردى أم من الخشب . وثمة حقيقه أكدها المؤرخين عن تطور السفينه المصريه القديمه مؤداها أن هذا التطور لم يمر بمرحلة "القارب" المحفور من جذوع الأشجار (وهو أحد الاطوار التى مرت بها صناعه سفن سائر شعوب العالم القديم) وانما انتقلت من "الطوف" البدائى الى سفينه متكاملة الصنع

وتحمل شراعا مربعا ، وهى السفينه التى ظهرت رسومها على أحد الأوانى الفخاريه الفرعونيه ، ويرجع تاريخها إلى حوالى ٦٠٠٠ سنه قبل الميلاد ، والتى مازالت معروضه حتى الآن بالمتحف البريطانى بلندن .

الأنشطه البحريه لمصر الفرعونيه

شهدت ضفاف نهر النيل فى عصر الدوله القديمه نشاطا كبيرا سواء ماكان منها بقصد التنقل والاتصال ، أو بغرض نقل الأحجار ، أو لنقل الجند أثناء محاولات توحيد أرجاء وادى النيل . واذن يمكن اعتبار نهر النيل هو المدرسه التى تعلم فيها المصريون القدامى فنون الملاحه ، والنقل ، ومنها خرجوا الى البحار. ولعل أولاشاره للخروج الى البحر فى مهمه حربيه فى التاريخ هى تلك التى سار بها الملك"سيرخيت" (٣٣٧٠ ق.م) الى سيناء لصد قبائل البدو والمهاجرين من صحارى غربى آسيا ، والتى أظهرت نقوش لوقائع هذه الحمله رسما للملك وهو يضرب بسلاحه ملك قبائل البدو(١) ويبدو أن القبائل عاودت نشاطها عند خليج السويس مره أخرى ،فبعث الملك " ساحورع" (٢٦٥٠ ق.م) قوة من ناقلات الجند عبر البحر الأحمر الى سيناء ، فقد وجدت رسوم على جدران مقبره هذا الملك تبين صور ناقلات الجند إلى سيناء ، ورسوم أخرى تبينها وهى عائده محمله بالأسرى من هذه القبائل (٢)

ومرة أخرى عاودت قبائل البدو الاعتداء على القوافل التى كانت توفدها مصر لشبه جزيره سيناء لجلب النحاس والفيروز ، فبعث الملك" ببى الأول" (٢٥٠٠ ق.م) عدة حملات قادها وزيره" يونى" لتأديب هذه القبائل والتى كانت آخرها حمله بريه بحريه نجحت فى القضاء على اعتداءاتهم . فقد أدرك " يونى" أن جنوب فلسطين هو مصدر الخطر،فأرسل نصف الجيش عبر الصحراء على حين حمل النصف الثانى على ناقلات الجند وأبحر بها الى منطقه جنوبى جبل"الكرمل" حيث التقى بنصف الجيش

(١) عن كتاب: "الحرب عبر التاريخ" للفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى .
(٢) نفس المصدر .

الأول وحصروا فيما بينهم قبائل البد و وقضوا عليهم (١). هذا وقد سجلت تفاصيل هذه الحمله ووقائعها فى نقوش ورسوم على جدران وأحجار مقبره "يونى" التى أظهرت أيضا الأحواض التى بنيت بها السفن التى اشتركت فى هذه الحمله . (٢) وتعتبر هذه الغزوة المبكره فى تاريخ الحروب البحريه أروع مثل للتعاون بين الجيش والبحريه ، والنضج المبكر فى التفكير والتخطيط الإستراتيجى ، والمهاره التكتيكيه فى وضع الخطط موضع التنفيذ خصوصا إذا علمنا أن القبائل التى تصدى لها "يونى" لم تكن من بدو الصحراء الرحل وانما كانو جزءا من الموجات " الآكاديه" المنظمه التى زحفت من شبه الجزيره العربيه على سوريا واتجهت جنوبا إلى مصر .

كانت حاجه مصر للأخشاب الصالحه لبناء السفن المتينه فى تزايد مستمر، ولعل هذا كان السبب فى محاوله ملوك مصر الحصول عليها من الخارج ، فقد جاء بأحدى المخطوطات القديمه عن انجازات " سنفرو" فرعون مصر عام ٢٨٥٠ ق.م: " جلب أربعين سفينه محمله بخشب الأرز" ، فالمعروف أن أراضى مصر تخلو من أشجار الأرز وأنها تنمو بغزاره فى غابات "فينيقيا" (فلسطين ولبنان حاليا) فلابد وأن يكون "سنفرو" قد أوفد بعثه بحريه لتأتيه بخشب الأرز من فينيقيا . ومن ناحيه أخرى فإن هذه العبارة تعد الإشاره الأولى لبدايه التاريخ المدون للتجاره البحريه والتى على إثرها نشطت حركة التجاره فى البحر المتوسط بين مصر، وسواحل "فينيقيا"، "سوريا" و جزيره" قبرص" .

ومن جانب آخر، إمتد النشاط البحرى التجارى للمصريين القدامى - منذ عهد الملك " ساحورع" - الى البحر الاحمر وتجاوزه إلى بلاد " بنط" (المعتقد أنها الصومال حاليا) . فقد كانت السفن المصريه تبنى عند رأس خليج السويس ، وتنحدر جنوبا مع هبوب الرياح السائده بطول البحر الأحمر عبر مضيق " باب المندب" الى "بنط" حيث يتم شحنها بحاجه مصر من "البخور" و"المر" وغيرها من محروقات قرابين الآلهه ، ثم تقفل عائده - سالكه نفس الطريق - فى اتجاه مضاد لهبوب الرياح ، وهو

---

(١) عن كتاب : "تاريخ البحرية المصريه" اصدار جامعه الاسكندريه سنه ١٩٧٣م - صفحه ٦٣-٦٥ وكتاب

عمل شاق يحتاج الى مهارة ودرايه بفنون الملاحه الشراعيه ،ومع ذلك فضل ملوك مصر استخدام السفن المصريه في جلب وارداتهم تفاديا لكثره الأيدى التى كانت تتناقلها عبر أراضى البلاد التى كانت تسلكها واقتصادا فى العمولات والمصروفات التى كان السماسره يتقاضونها نظير خدماتهم. ولعل نفس الأسباب هى التى دفعت الملكة "حتشبسوت" - بعد " ساحورع" بحوالى ألف ومائه وخمسين عاما - إلى تنظيم اكبر بعثه بحريه تجاريه عرفها التاريخ تضم خمسين سفينه شراعيه أرسلتها الى بلاد "بنط" لنقل شحنات ضخمه من المنتجات الزراعيه والعاج والحيوانات الحيه مثل القرده والفهود . ومن أهم ما أظهرته نقوش معبد " الدير البحرى " من أمر هذه الشحنات، هو وجود عدد كبير من أشجار "المر" والتى يحتمل أن الملكة استوردتها بغرض زراعتها فى مصر وذلك لخفض حجم وارداتها والاقتصاد فى ميزانيه التجاره الخارجيه . ومن المؤكد أن استبدال طريق البر بطريق البحر فى نقل واردات مصر ومحاوله زراعة الأشجار النادره التى تحتاج اليها البلاد يدل أيضا على النضج المبكر لسياسه مصر الاقتصاديه وانفتاحها التجارى على العالم الخارجي .

مرت وحدة وادى النيل فى عهد الأسرتين التاسعه والعاشره (٢٤٤٥ - ٢١٦٠ ق.م) بمحنه سياسيه عندما ثار أهل طيبه على فرعون مصر وأعلنوا استقلال مقاطعتهم عن بقيه القطر فنشبت الحرب بين الفرعون " خيتى الثالث" وبين" انتف عا" أمير طيبه الذى استقل أسطوله النيلى ، وسار به شمالا فتصدت له أساطيل خيتى وحليفه أمير أسيوط وألحقت بالأمير المتمرد هزيمه نكراء . ويرى كثير من المؤرخين أن هذه الموقعه تعد الأولى من نوعها في تاريخ المعارك البحريه في العالم، وهم يستندون فى ذلك إلى ماجاء بالنقوش الفرعونيه القديمه على لسان أمير أسيوط حليف الفرعون ،إذ قال"جاء أنتف كأنه الفهد المفترس بجيش مؤلف من أحلافه ، فخرجت لملاقاته ولم أتوان لحظه واحده عن منازلته فى سفنى (لاحظ هذه العباره) وقد حاولت استخدام ريح الشمال وريح الجنوب ، وكذلك الريح الشرقيه ،والريح الغربيه حسب الأصول الجويه (لاحظ هذه التعبيرات) وقد انتهت الحرب بأن غرق العدو فى النيل" ... الخ (١).ونحن نتفق مع هؤلاء المؤرخين ، فالوصف يؤكد أن المعركه دارت فوق صفحه النهر ،وليست على شواطئه

---

(١) عن كتاب" تاريخ البحريه المصريه" للاستاذ جميل خانكى ص ١٠

الامبراطورية المصرية والاشورية والحيثية

البحر الاسود
جبال القوقاز
الساميون
بحر قزوين
مملكة الحيثيون
آسيا الصغرى
فريجيا
الحيثيون
ميتاني
ميديا
جوتيوم
العيلام
قبرص
كريت
رودس
فينيقيا
سوريا
الاراميون
البحر المتوسط
فلسطين
كنعان
بابل
بابليون
الكلدان
الساميون
ليبيا
سيناء
مصر
الخليج العربي
الصحراء العربية
البحر الاحمر
طيبة

وأن القائد استخدم اتجاهات هبوب الريح للمناورة ، واتخذ أنسب أوضاع القتال ثم أخيرا أغرق المتمردين وسفنهم في النيل ، وهو مايؤكد أنها كانت موقعه نهريه استخدمت فيها كل مقومات القتال البحرى المتاحه في ذلك الوقت .

عهد الدوله الوسطى (٢١٦٠ - ١٥٨٠ ق٠م)

عاشت مصر عصرا طويلا من السلام والاستقرار السياسى إبان عهد الدوله الوسطى ووصلت إلى أرقى مراحل الحضاره والمدنيه فأخذت السفن المصريه تجوب البحر ، وتعددت رحلاتها إلى بلاد "بنط" تحمل إليها المنتجات والهدايا من مصر وتعود بأثمن السلع . وقد يكون هذا الرخاء أحد أسباب ضعف قابليه المصريين للقتال مما شجع "الهكسوس" (٢) على غزو مناطق من أراضى شمال مصر - حوالى عام ١٦٠٠ ق٠م - واحتلالها .

عهد الدوله الحديثه (١٨٥٠ - ٥٢٥ ق٠م)

تولى "أحمس الأول" فرعونا على مصر فى عام ١٥٨٠ ق٠م ، وكان أول عمل قام به هو شن الحرب على الهكسوس ، فاتجه بجيشه نحو دلتا النيل على حين حاصر الأسطول مدينه" أواريس" حيث انتصر أحمس على الهكسوس وفروا الى فلسطين ثم الى وادى نهر "العاصى " أمام مطارده جيوش أحمس لهم .

وأخذت مصر تسترد قوتها ومكانتها بعد أن أخضعت بلاد النوبه ، فعادت حركة التجاره البحريه مع بلاد "بنط" الى سيرتها الأولى ، والتى ازداد رواجها فى عهد الملكة "حتشبسوت" - على النحو السابق ذكره - إلا أننا نود أن نشير هنا إلى أن نقوش معبد "الدير البحرى" التى تسجل رحله بعثة هذه الملكه الى بلاد "بنط" تعطى وصفا لإبحار سفن البعثه فى نهر النيل جنوبا حتى مدينه قنا ومنها عبرت القناه إلى البحر الأحمر ، وهى القناه التى أمرت الملكه بحفرها عبر وادى الحمامات خصيصا لمرور السفن مباشرة ذهابا وعودة لتجنب التفريغ واعاده الشحن فيما لو أن الشحنات سلكت الطريق البرى بين النيل وساحل البحر الأحمر .

(١) الهكسوس : فرع من نسل الموجه الثانيه لقبائل المهاجرين من بدو الصحارى جاؤا من جنوب غربى سوريا للاستيلاء على وادى النيل .

وقد تميز عهد الدوله الحديثه بالغزوات والفتوحات الخارجيه التي بدأهـا الملك " أمنحتب الأول" (١٥٥٤ - ١٥٣٠ ق.م) عندما بادر بتوحيد النوبه وليبيـا والسيطرة عليهما ثم قام بغزو آسيا مخترقا سوريا حتى نهر الفرات. وجاء ابنـه "تحتمس الأول" ليحافظ على مجد أبيه ويغزو شعب "ميتانى" بأقصى شمال العـراق، ويقنع بهذه الانتصارات فيوجه اهتمامه لشئون البلاد الداخليه وتجديد المعابد .

ومرة أخرى تخلد مصر إلى حياه السلم والهدوء فتتراخى قبضتها على كل مـن "ميتانى" وسوريا وشمال فلسطين مما أدى الى تمرد ملك "قادش" (١) على مصر الـتى كان" تحتمس الثالث" قد ولى عرشها .

فى عهد "تحتمس الثالث" - من ملوك الأسره الثامنه عشره - بلغت قوه مصر العسكرية ولا سيما قوتها البحريه ، أوج عظمتها فعاود فتح بلاد الشام(٢) ، وبسط نفوذ مصر على سواحل " فينيقيا" وجزيره "قبرص" والكثير من جزر بحر"ايجه" والبلدان اليونانيـه المطله عليه (حوالى عام ١٤٤٥ ق.م) . ثم أخذ "تحتمس الثالث" يعد العده لاستعاده السيطره على" قادش" لأهميتها الاستراتيجيه والتجاريه باعتبارها المفتاح الرئيسـى للتجاره مع آسيا ، فأرسل أسطوله الى فينيقيا" محملا بالجند والعتاد الحربى حيـث استولى على مدنها الشماليه وزحف الجيش الى داخل البلاد وبذلك أمن هذا الجانـب من مسرح المعركه المرتقبه . وفى عام ١٤٤٠ ق.م تقريبا قاد تحتمس جيشا قوامه ٣٠ الف مقاتل الى المنحدرات الجنوبيه لجبل"الكرمل" بينما كانت قوات ملك"قادش" تحتل قلعـة "مجدو" التى تقع على المنحدر الشمالى للجبل ، ودارت بين الجانبين معركة انتصـرت فيها القوات المصريه الى أن وصلت الى مشارف مدينه"قادش" الحصينه التى تحيطهـا موانع طبيعيه لوقوعها بين نهر العاصى وروافده ، فتوقف عندها تحتمس الى أن أعـاد تنظيم قواته ، ثم عاود الهجوم وتمكن من احتلالها ،ثم اتجه الى "ميتانى" واعادهـا

---

(١) قادش مدينه ذات موقع استراتيجى هام يقع جنوبى"حمص" "الحاليه".

(٢) من مجموع الثمانى عشرة حملة التى قادها"تحتمس الثالث" ضد سوريا ،كانت الحملات الاثنى عشرة الاخيره منها حملات برمائية رائعه ، لذلك فالكتاب والمؤرخـون العسكريون يعتبرونه أبرع من نظم"العمليات البرمائية" وأمهر من استخدم الاساطيل فى نقل وابرار الجيوش .

للنفوذ المصرى ... وأصبحت كل هذه البلاد بما فيها جزر البحر المتوسط وبحر ايجه تدفع جزيه سنويه للخزانه المصريه .

ويعتبر تحتمس الثالث - في نظر كثير من المؤرخين - أعظم فراعنه مصر، ليس من أجل فتوحاته وغزواته فحسب بل أيضا لما عادت به هذه الفتوحات من نفع على الاقتصاد المصرى وازدهار لتجارة مصر الخارجيه .

سادت الامبراطوريه المصريه فترة أخرى من الهدوء الحربى والازدهار الاقتصادى إبان عهد الأسره التاسعه عشرة ولا سيما أثناء حكم الملك " سيتى الاول" (١٣١٣ - ١٢٩٢ قم) الذى ينسب اليه إعاده شق القناه التى تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق فرع النيل الشرقى . إستغل"الحيثيون" إهمال فراعنه مصر لشئون ممتلكاتهم الخارجيه وأخذوا يعدون جيشا قويا توطئه للانفصال ببلادهم عن الحكم المصرى ، على حين أخذت أساطيل شعوب الهند تنتهك سواحل مصر الشرقيه المطلة على البحر الاحمر وتعتدى على تجارتها المارة بهذا البحر، الى أن تولى" رمسيس الثانى" عرش مصر فى عام ١٢٩٢ قم.

بادر رمسيس الثانى الى تجهيز حملة بحريه ضخمه تتكون من اكثر من ٣٠٠ سفينه حربيه شيدها فى المكان الذى تقوم عليه"القصير" حاليا ، واتجه بها الى جنوب البحر الأحمر واستولى على سواحل الحبشه ثم سار الى" باب المندب" حيث طهر جزره وسواحله من القراصنه .

لم يكتف رمسيس الثانى بسحق القراصنه وأوكارهم فى تلك المنطقه ، بل قصد مسقط رأسهم على سواحل الهند ، وهناك التقى بأساطيلهم عند ساحل " السند" حيث دارت معركة طاحنه انتهت بانتصار رمسيس وعاد بعدها الى مصر سالكا نفس الطريق . (١)

(١) عن كتاب: تاريخ البحريه المصريه للاستاذ/جميل خانكى صفحه ٢٠
وكتاب : "حقائق الاخبار عن دول البحار" - اسماعيل سيرهنك ،جـ ٢ ص ٦

لم تكن القرصنه بالبحر الأحمر هي الخطر الوحيد الذى هدد مصر فى ذلك الوقت ،فقد صاحبتها أيضا حركات تمرد من أهالى الجنوب، ومناورات من الليبيين فى الغرب ،وعصيان من السوريين فى الشمال ، وبلغ الخطر على مصر ذروته عند ما اكتمل "للحيثيين" جيش قوى يقوده "موتاللو" المحنك . وكانت مهمة" رمسيس الثانى" مهمة شاقه ، فقد كان عليه أن يؤمن بلاده ، وأن يقضى على قوه "موتاللو" قبل أن يقدم على الزحف نحو مصر . وفعلا قام رمسيس بعدة حملات ضد النوبيين والليبيين، ثم وجه اهتمامه للقضاء على الحيثيين ، وقد استغرق هذا قرابه عشرين عاما استولى اثناءها على الأجزاء الشماليه من فينيقيا ثم تلاه بانزال قواته على سواحل سوريا ، ومنها توغلت جيوشه الى داخل البلاد حتى مدينه"قادش" معقل الحيثيين . ودارت بين الجانبين معارك كبيره انتصرت فيها الجيوش المصريه ، وحاصرت المدينه فطلب" موتاللو" قائد الحيثيين الصلح ، وتم عقد حلف دفاعي بين الطرفين . (١)

هذا وقد استمر حكم" رمسيس الثانى" قرابه ٦٧ عاما امتدت اثناءها فتوحاته فى جميع الاتجاهات بدرجه جعلت كثيرا من المؤرخين ـ أمثال " هيرودوت" و"تيودور الصقلى" و" شامبليون" ـ يعتبرون فتوحاته أكثر وأعظم مما فتحه الاسكندر المقدونى .

درج فراعنه مصر على تعيين حكام لهم ـ فى البلاد التى يحتلونها ـ من النبلاء الإقطاعيين الذين يدينون للفرعون بالولاء . وكانت ثغور ومدن الساحل الفينيقى تحظى بالجانب الأكبر من عنايه واهتمام ملوك مصر، لذلك دأبوا ـ منذ عهد "تحتمس الثالث" ـ على أن يقوم الملك بدورات تفتيشيه كل سنة ليتأكد بنفسه من استقرار الأمور، وأن تعليماته تنفذ بكل دقه . إلا أن الخلل الذى انتاب هذا النظام منذ تولى إخناتون عرش مصر فى حوالى عام ١٣٧٥ ق م وحتى اعتلاء رمسيس الثانى العرش، شجع قراصنه البحار الشماليه على تشديد اغاراتهم على ثغور ومدن الساحل الفينيقى واستفحل خطرهم لدرجه أنهم هاجموا جزيره قبرص وشنوا غارات بريه على شمال سوريا .

---

(١) من كتاب "الحرب عبر التاريخ" ، للفيلد مارشال "مونتجمرى" ، تعريب العميد/ فتحى عبد الله النمر، جـ ١ ص ٥٩ - ٦٥ .

ولم يكن بوسع رمسيس الثاني ان يفعل شيئا حيال هذا الخطر الذى يهدد الممتلكات المصريه بعد ان انهكت الحروب قوى جيوشه وأساطيله فضلا عن تقدمه فى السن ، ..... فتمادى قراصنه بحار الشمال فى عدوانهم . وجدير بالذكر ان اصل هؤلاء القراصنه يرجع الى قبائل " آريه" (١) متفرقه مهاجره نجحت فى توحيد صفوفها فبلغوا من القوة ما مكنهم من الاستيلاء على جزيره قبرص ،ثم الاستيلاء - عام ١٢٠٠ قم تقريبا - على جزء من دوله الحيثيين وتقدموا بقوات شبه نظاميه ، نحو سوريا واستولت أساطيلهم على جزيره " أرواد " وزحفوا جنوبا على الساحل الفينيقى ، وأصبحوا يشكلون تهديدا مباشرا لمصر خصوصا بعد ان كادت خطوط تجارة مصر مع سوريا وقبرص ان تتصدع وتعرضت السفن التجاريه فى شرقى البحر المتوسط للنهب والسلب بدرجه لم تشهدها المنطقة من قبل ... الى ان ولى " رمسيس الثالث" عرش مصر فكان له معهم شأن آخر .

ويمكن القول بأن ما واجه" رمسيس الثالث" لم يكن نوعا من القرصنه المعروفه التى كانت آخذه فى الانتشار فى شرقى حوض البحر المتوسط ، وانما كانت أشبه" بغزوه منظمه" نظرا لأنهم كانوا يتقدمون برا تصحبهم عربات كبيره محمله بممتلكاتهم وعائلاتهم بينما أسطولهم يسير بمحاذاتهم على الساحل الفينيقى ، لذلك عرفت هذه الغزوه بأسم "الهجره المسلحه" .

عندما اعتلى رمسيس الثالث عرش مصر (عام ١١٩٥ قم) كانت قوات المهاجرين الغزاه قد حطت رحالها عند سفح جبال "آمور" على مقربه من الساحل الفلسطينى استعدادا للزحف على مصر . بادر رمسيس بتحصين حدود البلاد ، وجهز أسطولا ضخما وزعه على موانى مصر الشماليه ، ثم قاد بنفسه قواته متجها إلى سوريا لملاقاة العدو حيث دارت بين الجانبين (حوالى عام ١١٩١ ق م) معارك بحريه وبريه عنيفة فى مكان يعتقد أنه على مقربه من مدينه "قيصريه" الحاليه على الساحل الفلسطينى ، انتهت بانتصار المصريين . (٢)

---

(١) خليط من سلالات سكان جزر البحر المتوسط مثل كريت وصقليه بعد امتزاجهم بقبائل مهاجره من آسيا الصغرى اغراهم ثراء بلدان شرقى حوض البحر المتوسط وتقاعس ملوك مصر من حمايه ممتلكاتهم وضعف الحيثيين بعد حروبهم الطويله على مهاجمه تلك البلدان وسلبها .

(٢) لم يهتد علماء الآثار الى مكان المعركه على وجه التحديد ، إلا أن "ماسبيرو" يستنتج من بعض النقوش الفرعونيه أن الموقعه البحريه حدثت بالقرب من قلعة كانت تسمى "قلعه رمسيس" وسميت فيما بعد باسم "قلعة سترابون" أي البلده التي سميت "قيصبيه" فى عهد الرومان ثم فى العصر البيزانطى . (عن كتاب " تاريخ البحريه المصريه" خانكى ص ٢٢

وليست مغالاة أن نقول أن هذه الموقعه - برغم الجهل بمكانها على وجه التحديد - تعتبر من أضخم المعارك البحريه التى دارت فى العالم القديم ،كما أنها تعد أول معركة بحريه حاسمة سجلها التاريخ ، لأنها قضت على اكبر تجمع للغزاه ، ووضعت نهاية للعدوان على تجارة وثغور بلدان شرقى حوض البحر المتوسط وانتقل النشاط العدوانى - بعد فترة من الزمان - إلى مناطق أخرى فى وسط غربى هذا البحر بمنأى عن متناول الأسطول المصرى .

أعاد انتصار الملك " رمسيس الثالث" فى معركة "آمور" البحريه لمصر أمجاد امبراطوريتها التى كانت لها فى عهد رمسيس الثانى بعد أن فقدتها قرابة قرن من الزمان ، فتوقفت هجرة الآسيويين إلى وادى النيل ، وتشتت شمل الغزاه ،ولم يأذن فرعون مصر لغير"الفلسطينيين" بالاقامه فى سوريا فى ظل الحكم المصرى .

ولعلنا نكون قد لاحظنا - حتى فى تلك العصور الضاربه فى القدم - مدى ارتباط أمن ورفاهية شعوب المنطقه بقوة مصر الحربيه ، وقدرتها على الحفاظ على تماسك واستقرار الأوضاع فى جنوب وادى النيل وفلسطين وسوريا .

ومن ناحيه أخرى لم يقتصر اهتمام فراعنه مصر على الفتوحات الحربيه ،والتجاره البحريه فحسب ، وانما عنوا أيضا بتشجيع الرحلات الاستكشافيه . فقد ذكر"هيرودوت" أن الأسطول المصرى قام - فى عهد الملك " نخاو الثانى" (ثانى ملوك الاسرة السادسه والعشرين) - برحلة طاف فيها حول القارة الافريقيه بدأها بالإبحار عام ٦١٦ ق.م من الميناء الذى يقوم على انقاضه ثغر"السويس" حاليا ، ثم عاد - بعد ثلاث سنوات - إلى ساحل مصر الشمالى عبر مضيق جبل طارق ، كما حاول الملك " نخاو" إعاده شق القناه بين النيل والبحر الأحمر إلا أن الصعاب التى واجهته جعلته يتوقف عن الحفر ، فقام ببناء أسطولين حربيين أحدهما للبحر المتوسط ،وآخر للبحر الاحمر ، ليدرأ عن سواحل مصر الشماليه والشرقيه خطر أى هجوم مفاجىء قد يقوم به المعادون لمصر من " البابليين" و"الكنعانين" وغيرهم من أهالى غرب آسيا .

صناعه السفن الفرعونيه وتطورها

كان من الطبيعي أن يصاحب هذا النشاط التجاري والحربي ، نشاط مماثل في صناعه السفن . فقد دلت النقوش المحفوره على الأحجار التي اكتشفت مع معبد "يوني" في عهد الملك "بيبي الأول" على أن مصر سبقت العالم في تصميم أحواض بناء السفن حيث يرجع تاريخ هذه النقوش إلى نحو ٣٠٠٠ سنه قبل الميلاد ، ورغم أن الحفريات لا تعطي مقاييس تلك الأحواض ، إلا أنه يمكن الاستدلال على سعتها من مقاييس السفن التي بنيت بها والتي كان يبلغ طول الواحد منها ٦٠ ذراعا وعرضها ٣٠ ذراعا أي مايعادل ١١٠ قدم طولا و٥٥ قدما عرضا .

هذا وقد أخذت النماذج الأولى من السفن الخشبيه نفس نهج البنيان العام الذى كان لقوارب البردى ، ورغم تطور بنائها فيما بعد إلا أن اجزاءها ظلت تشد إلى بعضها بواسطة ربطها بالحبال بطريقه دقيقه ومتينه بهرت العالم عند ما اكتشف سنة ١٩٥٤م - مركب الملك "خوفو" بمنطقه جنوبي الهرم الأكبر مفككا إلى اكثر من ١٠٠٠ قطعه ، والتي اتضح أن غالبيتها من خشب الأرز ، والقليل منها من خشب السنط ، أو الجميز المصرى ، وان بكل قطعه مهما كان حجمها فتحات أو ثقوب تسمح بمرور حبل متين يربط بينها وبين القطعه المجاوره وهكذا . ومع تزايد خروجهم للبحر أخذ المصريون القدامى ، منذ عصر الدوله الحديثه ، في تقويه أبدان سفنهم الخشبيه وجوانبها ، ثم تحولوا إلى طريقه تعشيق الكتل الخشبيه ، ثم شدها إلى بعض بالحبال . ولكن الغريب في الأمر أن المصريين لم يستخدموا "القلفطه" في سد الفراغات ، وانما كانو يحشونها بقطع خشبيه توافق سعة وشكل الفتحه معتمدين على انكماش الحبال عند ابتلالها في تماسك القطع المتجاوره .

وكانت السفن الفرعونيه القديمه تسير إما بالمجاديف فقط ، أو بالمجاديف والشراع ، ويتم توجيه مسارها بمجداف أو إثنين في المؤخر . هذا وقد دلت النقوش والرسوم القديمه أن سفن البحر كانت تحمل شراعا كبيرا مربعا أو مستطيلا معلقا على صاريه في الثلث الأمامي من السفينه التي كانت مزوده أيضا بعدد من المجاديف يتراوح بين ستة مجاديف وثلاثين مجدافا بحسب حجم السفينه .

والملاحظ أيضا عدم وجود تصميم أو شكل يميز السفينه الحربيه المصريه عن سفينة النقل والتجاره ، ولعل مرجع ذلك ان القتال البحرى لم يكن قد عرف بعد ،وأن الحاجه للسفن فى الحروب كانت قاصره على نقل الجند ومعداتهم الى مكان المعركة أو للعبور بهم بعض العوائق المائيه . ومع ذلك فقد ظهر فى بعض النقوش الفرعونيه القديمة عدد من السفن المصريه وهى تصطدم بمقدمتها بأجناب سفن الأعداء إما لأجل احداث فتحه بها بغرض إغراقها ، أو على الأقل لتحطيم مجاديفها واقعادها عن الحركه ، وبالتالى سرعه القضاء على طاقمها .

تنظيمات البحريه الفرعونيه

تدل الحفريات التى عثر عليها للدوله الحديثه على أن المصريين لم يميزوا بين مسميات قاده وأطقم السفن الحربيه ، وبين قاده وجنود الجيش ، أو العاملين بسفن النقل والتجاره فجميعهم (وعو) أى" نفر" أو" تاى سريت" أى " حامل اللواء" . . . . والفارق الوحيد هو اضافه اسم السفينه ، أو وحدة الجيش الى اللقب . كماكانت أطقم سفن الأسطول من البحاره المحترفين لا المجندين ، حيث يرقى الـ" وعو" الى"حامل اللواء" وهو بذلك يصبح المسئول عن تدريب البحاره ، والمشرف على فرقه السفينة بما فيها من مجدفين ، وكان لحامل اللواء (تاى سريت) مركز اجتماعى مرموق لدرجة انه كان يأتى - فى ترتيب قائمة موظفى الدوله - قبل حاكم"طيبه" نفسه . وقد يرقى "حامل اللواء" الى وظيفه اخرى بحريه هى وظيفه"أمين الترسانه" وهى إحدى قطاعات الخدمة العسكرية العامله . كما عثر أيضا فى بعض حفريات الدوله الحديثه على القاب أخرى مثل" حرى نفدو" والتى قد يكون قصد بها رئيس على مجموعه رؤساء سفن أى " قائد للاسطول" . (١)

---

(١) عن كتاب : "تاريخ البحريه المصريه" جامعه الاسكندرية - سنه ١٩٧٣ ص ٨١ - ٨٣ .

وكان الأسطول المصرى القديم يضم وحدات كبيره (٥٠ مترا فى عهد الملك "سنفرو") و "قوارب" صغيره ، ولعل ذلك هو الأصل فى اطلاق" الاسطولين البحريين" على مجموع سفن الأسطول .

وتدل النقوش أيضا على أن الأسطول كانت به قياده مستقلة عن قيادة الجيش الى أن كان عصر الأسره الثالثه فانضمت القيادتان تحت قائد واحد . وفى عهد الأسره الثالثه أيضا أنشئت أول إدارة للجيش فى مصر وسميت "بيت الأسلحه" توكل عاده الى أمير أو زوج أميرة . (١)

كما عرف المصريون القدامى "الترسانه" أو" دار صناعه الأسطول" وقد وضعوها تحت إمرة شخصيه كبيره تلقب " أمين الترسانه" أو " بانى السفن" (مدب دبت) يخضع "لقائد الأسطول" أو " قائد الجيش"، الى أن كانت الأسره الخامسة فأنشئ " بيت أسلحه" لكل من الوجهين القبلى والبحرى بكل منها قسم خاص لبناء سفن الأسطول يديره ماعرف باسم " مهندس السفن" .

وقد اشتهر من قاده السفن والأساطيل ـ فى تلك العصور ـ الأمير" يونى" الذى قاد حملة فلسطين فى عهد ببى الأول ، وحملة أخرى الى بلاد النوبه فى عهد الملك "مرن رع" والقائد" أحمس بن أبانا" الذى خدم بلاده فى عهود أربعه فراعنه من أحمس الأول الى تحتمس الثانى ،وحارب فى النوبه ، وضد سوريا ، وأظهر من الشجاعة والمهاره ما دعا الى الانعام عليه بالأوسمه ،واقطاعه أرضا تبلغ مساحتها ١٥٦ ألف متر مربع . وقائد آخر برزت كفاءته فى عهد " أحمس الأول" هو "نيشا" الذى أنعم عليه مليكه بقطعه أرض تزيد على ٢٣ ألف متر مربع، ولعل أشهر وأبرز القاده بعد الأمير "يونى" هو "نحوتى" فى عهد تحتمس الثالث الذى كافأه الملك بتعيينه حاكما على ممتلكات وأقاليم مصر الشماليه التى ضمت جزر البحر المتوسط الى ماوراء بحر ايجه .

---

(١) عن كتاب : "تاريخ البحريه المصريه ـ خانكى ـ ص ٣٣-٣٥ .

ازدهار القوى البحريه فى البحر المتوسط

أدت فترات الضعف التى مرت بمصر الى ظهور قوى أخرى فتيه فى آسيا كما أدى ركود الأسطول المصرى الحربى والتجارى الى حدوث "فراغ بحرى" أتاح الفرصه لبعض البلدان المطله على البحر المتوسط لتنميه قوتها البحريه .

فبرغم المحاولات العديدة التى بذلها ملوك مصر منذ عهد الأسره الحاديه والعشرين إلا أن الامبراطوريه المصريه أخذت فى الاضمحلال الى أن كان عام ٥٢٥ قم(١) عندما غزا "قمبيز" ملك الفرس (ايران) (٢) الأراضى المصريه واحتلها ، وخضعت مصر للحكم الفارسى الذى قابله المصريون بالثورات التى استمرت حتى فتح الاسكندر (٣٣٢ قم) .

ولنلق الآن بنظره سريعه على الأوضاع البحريه فى العالم الخارجى التى عاصرت فترات ازدهار قوة مصر البحريه وفترة اضمحلالها التى نحن بصددها .

فمنذ عهد "سنفرو" فرعون مصر (عام ٢٨٥٠ قم) نشطت حركة التجارة المنقولة بحرا بين مصر وجزيره "قبرص" و "بيبلوس" (بيروت حاليا) وجزيره "كريت". ومع النمو المطرد فى حجم تجارة مصر الخارجيه أخذ ملوك مصر يعتمدون على السفن "الكريتيه" فى نقل جانب من تجارتهم. وكانت جزيره "كريت" دائما بحاجه الى اسطول قوى وذلك بحكم موقعها الجغرافى ، وعلاقاتها التجارية التى امتدت الى سوريا ، وفلسطين ، وآسيا الصغرى شرقا والى "مقدونيا" شمالا ، والى سواحل مصر وليبيا جنوبا ، وحتى جزيره "سردينيا" غربا ولاسيما فى الحقبه من عام ١٨٠٠ قم الى ١٥٠٠ قم التى انتهت بزوال الحضاره الكريتيه بسقوط الجزيره تحت حكم الاغريق وبذلك آلت اليهم الامبراطورية

(١) فى عهد الملك "بساميتك الثالث" آخر ملوك الاسره ٢٦ ، وقد دخل "قمبيز" العاصمة "ممفيس" فى شهر مايو سنه ٥٢٥ قم.

(٢) ادت الحروب التى شنها الآشوريون منذ القرن السابع قبل الميلاد ضد جيرانهم ، واستيلائهم على "بابل" (٦٨٩ قم) ، وهجومهم على مصر (٦٧١ قم) ، ثم تدمير مملكة "العيلام" (٦٣٩ قم) الى ظهور مملكه "فارس" ونموها حتى أصبحت أقوى امبراطوريه فى الشرقين الأوسط والأدنى .

البحريه التي كانت للكريتيين . فلما تعرضت المدن اليونانيه الساحليه لاغــــارات وهجرة أهل الشمال ، حشد الاغريق قواهم ضد هذا الخطر فتوقف نشاطهم البحرى التجارى في البحر المتوسط في الفترة(١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق م) . وبزوال قوة الاغريــق البحريه ، ومن قبلهم قوة الكريتيين والمصريين ، انفتحت أبواب البحر المتوسط - على مصراعيها - للفينيقيين .

استغل الفينيقيون موقع بلادهم الجغرافي في مد نشاطهم التجارى الى الطرف الغربي للبحر المتوسط ،وأقاموا مستوطنهم الشهير في "قرطاج" على الساحل الافريقي (٨٠٠ق م) ووصل زحفهم الى جزر صقليه وسردينيا ومالطه وكريت ورودس وقبـــرص ، وبحلول عام ٤٨٠ق م تقريبا كان الفينيقيون قد أطبقوا على تجاره البحر المتوســط ، واتجهوا جنوبا الى البحر الأحمر ، ومن ثم الى بلدان شرقى افريقيا بعد انحســار النفوذ المصرى عن تلك البقاع .

نشأة السفينه الحربيه وتطور تصميماتها (٨٥٠ - ٤٠٠ق م)

أغرى انتشار التجاره البحريه وازدهار بعض سكان السواحل على الإغارة علــى السفن التجاريه ، وسلب حمولاتها وأسر بحارتها . وكان طبيعيا أن يزداد خطر هذه الاغارات على التجاره المنقولة بحرا بتباعد المسافات بين موانى الشحن ،وموانــى التفريغ أى بازدياد طول " خطوط المواصلات والتجارة البحريه" نظرا لطول مدة بقــاء السفن التجارية بالبحر بعيدا عن الأمن والحماية التى تتيحها لها موانيها .وأصبحت القرصنه مهنه يحترفها جماعات من المغامرين كوسيله مشروعه لكسب العيش ،فامتـدت إغاراتهم الى الموانى والمدن الساحليه يسلبون منها البضائع المعدة للشــحن ، أو ينهبون متاجرها ،ويخطفون أهلها لبيعهم في سوق الرقيق .

والحقيقه أن القرصنه بدأت منذ أن شقت التجاره طريقها فوق صفحه مياه البحــار منذ أقدم العصور، وكانت تجاره مصر - كما سبق أن رأينا - هى أول ماتعرض لتهــديد القراصنه ثم تبعتها تجاره اليونان .

فرغم انه بمضي الوقت فقدت القرصنه ـ كمهنه ـ بعضا من احترامها إلا أنهـا لم تفقد أبدا جاذبيتها للراغبين في الثراء ، لدرجه أنها ـ في وقت من الأوقات ـ أثرت على مسار الحضاره الاغريقيه القديمه عندما أخذ السكان ينقلون مقار إقامتهم داخل البلاد بعيدا عن الساحل الذى تتهدده إغارات القراصنه . . بل إن الأثينيين تكبدوا مشاق تشييد قاعده بحريه على البحر الأدرياتيكى لا لغرض إلا لحمايه حركة تجارتهم البحريه ضد المغيرين .

من مثل التهديدات والأخطار نبعت الحاجه لدى الشعوب لحمايه تجارتها عبر البحار ، وتأمين موانيها ومدنها الساحليه ضد هجمات القراصنه ، وغزوات الطامعين فى ثرواتها. فعمدت الأمم الى أكثر من وسيله لتحقيق ذلك : تحصين المدن الساحليه واحاطتها بالأسوار ، تحميل الجند على السفن التجاريه للدفاع عن شحناتها ، بناء سفن حربيه خاصه لحمايه المدن الساحليه ، ومطاردة سفن القراصنه . وقليل من الدول ـ مثل قرطاج ـ جمعت بين الوسيلتين ، الأسطول الحربى ، والقواعد الحصينه فى سعيها من أجل حمايه تجارتها البحريه .

فمن المؤكد أن التجارة البحريه كانت هى الدافع الرئيسى لتطور السياسة الدفاعيه لكثير من الأمم ، فبعد أن كانت السفينه الحربيه مجرد "منصه" عائمه يصطف فوقها الجند المسلحون بالسهام والنبال أو "حاويه" تنقل " الجيش الى ميدان المعركة أو تعبر بهم عائقا مائيا ، لا فرق بينها ـ من حيث التصميم والسرعه ـ وبين السفينه التجاريه ، أصبحت السفينه الحربيه ذات مواصفات خاصه وتحمل عددا أكبر من المجدفين والجند والبحريين وتخصصت فى أعمال الدفاع عن السفن التجاريه ، والمدن الساحليه .

ففى الفترة بين عامى ٨٥٠ و ٨٠٠ ق م ظهر طراز جديد من السفينه الحربيه يختلف عما سبقه من طرازات حيث برزت من مقدمه السفينه ـ تحت خط الماء مباشره ـ كتله خشبيه متينه مدببه الطرف ، "دكمه الخرق" (RAM) تستخدم فى ثقب بدن سفينه العدو بغرض إغراقها ، فتغيرت تاكتيكات القتال من مجرد التراشق بالنبال والرماح بين الجند المحملين على السفن (معركة بريه محمله بحرا) الى عمليات قتال

بحرى تستهدف ـ فى المقام الأول ـ القضاء على سفن العدو ، وماتحمله من قسوات ، اعتمادا على مهاره المجدفين ،وحسن تدريبهم على كيفيه اتخاذ السفينه أنسب موقع، وأنسب سرعه للتصويب والطعن "بدكمه الخرق" (١) الى المكان الحساس من بدن سفينه العدو. وعليه يمكن القول بأن القتال اصبح نوعا من التبارى فى المناوره من أجل اتخاذ الوضع الصحيح لطعن سفينه العدو بالدكمه (Ramming) ،وهو شكل أقرب مايكون للمناوره التى تقوم بها السفن الحربيه حاليا عند هجومها بالطوربيد .

وأدخل تعديل آخر على السفينه المصممه للقتال البحرى ، فقد أضيفت"منصه" خشبيه تمتد بطول السطح العلوى يصطف عليها حمله الرماح والنبال والاسهم وبذلك أصبح سطح السفينه مغطى بما يكفل الحمايه لأطقم المجدفين عند الاشتباك مع سفن العدو (٢).

وفى القرن السادس قبل الميلاد أدخل مصمموا السفن تحسينات جوهريه على بنيان السفينه الحربيه عند ما خلصوا المقدم من التقوس الذى لازمه لقرون طويله ليصبح اكثر استقامه تتيح امكانيه أفضل لاستخدام" دكمه الخرق" . ولما كانت هذه الدكمه هى السلاح الرئيسى ، لذلك عمد مصمموا السفن الى الإقلال من عرض السفينه وجعلها اكثر نحافه ذات شكل إنسيابى يوفر لها خفه المناوره مع عدم زيادة عدد المجدفين على ٢٠ رجلا فى المتوسط . ولما كان من الطبيعى انه كلما ازدادت قوة الصدمة بالدكمه ـ أى كلما زادت سرعه السفينه ـ كلما ازدادت شده إصابه سفينه الخصم ،لذلك اخذت تظهر سفن مزوده بثلاثين مجدافا (Triacontor) وبخمسين مجدافا (Pentecontor) (٣) حيث استخدمت الأولى فى العمليات التى

---

(١) المصادر:
عن كتاب : " The ancient Mariners", Casson, pp. 84-88
وكتاب : " Sea Power ", Adm. Nimitz, pp. L - 21
وكتاب"الحرب عبر التاريخ" للفيلد مارشال مونتجمرى ، تعريب العميد /فتحى عبد الله النمر، ص ٨٠-٨٨
(٢) نفس المصادر السابقه
(٣) نفس المصادر السابقه

تتطلب السرعه وخفه الحركه ، أما الطراز الثانى فكان بمثابه" سفينه القتال الخطى" (Ship of the line) أى " سفينه النيران الثقيله" . وحتى ذلك الوقت ، كان المجدفون فى كلا الطرازين يجلسون على دكك مصطفه فى صف واحد على نفس السطح،بمعنى أن السفينه ذات الخمسين مجدافا كان يعمل على كل جانب ٢٣ مجدافا ومجدافين فى المؤخر للعمل كدفه توجيه ، الأمر الذى يجعلها طويله البدن بدرجه قد تقلل من صلابتها الطوليه وتفقدها الكثير من خفه المناوره . ومن ناحيه أخرى ، فتقصير طول البدن يعنى تقليل عدد المجدفين وبالتالى خفض سرعه السفينه الذى بدوره سينتقص من فاعليه"دكمه الخرق" . لذلك،ابتكر مصممو السفن طرازا من السفن يسمح بجلوس المجدفين على صفين من الدكك ، أحدهما بمستوى السطح العلوى ويحمل ١٢ مجدفا على كل جانب وأسفله صف آخر يحمل نفس العدد . . . بذا أمكن الحفاظ على الخصائص المميزه للسفينه الخمسينيه المجداف ، وفى نفس الوقت أصبحت أقل طولا من سالفتها بمقدار الثلث تقريبا . وكانت مثل هذه السفينه اكثر صلابه وتحملا للبحر والقتال ، كما أصبحت أيضا هدفا أصغر حجما ، وأقل تعرضا للاصابه "بدكمه الخرق" . وتطور استخدام هذا التكنيك فى تصميم وبناء السفن فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد لمضاعفه عدد المجدفين بزيادة عدد الأسطح ،دون أن يترتب على ذلك زيادة كبيره فى حجم السفينه .

ومع تزايد الصراع بين الأمم ، وتصاعد حدة القتال البحرى ، نشبت الحاجه لسفن اكثر سرعه ، وأقوى فاعليه من السفن الخمسينيه مزدوجه الأسطح التى يتعذر أن تتسع لمزيد من المجدفين ،بدون تعميق بدنها،الأمر الذى يجعلها أثقل وزنا ، فتفقد بذلك الميزه التى كانت ستجنيها من زيادة عدد المجدفين . الا أنه أمكن - فيما بين عامى ٥٥٠ و ٥٢٥ ق.م - ابتكار تصميم متطور لسفينه حربيه"ثلاثيه الأسطح" (ترايريم) كانت هى الحل للمشكله . فقد أضيف صفا ثالثا من دكك المجدفين على كل جانب بارتفاع سور السطح العلوى وتبرز منه على شكل ركيزه ممتده قليلا خارج بدن السفينه (Out Rigger) مما اتاح مكانا لصف ثالث من المجدفين دون إدخال تغييرات تذكر على تصميم السفينه أو على خطوط بدنها . وكانت النتيجه : سفينه لها نفس سرعه وخفه مناوره سالفتها الثنائيه إلا أنها تتميز عليها بالقوة الفائقه . فأنتشر

التصميم الجديد في جميع الأقطار البحريه ،وفي مقدمتها فينيقيا ومصر واليونان وصقليه، لتصبح هذه السفينه " سيده البحار" دون منازع طوال القرن الخامس ، ومعظم القرن الرابع قبل الميلاد . وتظهر الوثائق التي خلفتها ترسانات الاغريق القدامى (وهي الوثائق الوحيده التي امكن العثور عليها) الشكل الذى كانت عليه هذه السفينه : طولها حوالى ١٢٥ قدما وعرضها ٢٠ قدما تقريبا لا يرتفع بدنها كثيرا عن سطح البحر اذ لا يزيد ارتفاع الجزء الحر عن ٨ أقدام أما الغاطس فيبلغ حوالى ٣ اقدام وهو غاطس صغير يسمح بسحبها على الشاطئ . وتوضح وثائق الترسانه الاغريقية أيضا عدد المجدفين على كل جانب : فعلى الصف السفلى كان يعمل ٢٧ مجدفا يعلوهم الصف الثاني وهو يحمل نفس العدد بينما يحمل الصف الثالث العلوى ٣١ مجدفا،بمعنى أن مجموع المجدفين بلغ ١٧٠ مجدفا بخلاف مجدافي الدفه . اكتسبت السفينه الحربيه الثلاثيه (ترايريم) بتصميمها المبتكر مميزات : السرعه العاليه (٧ عقده) والقوة القتاليه وخفه الوزن ، فضلا عن عدم تجاوز قطر دائرة دورانها نفس طول السفينه . هذا ويبلغ طاقم هذه السفينه ٢٠٠ رجل بخلاف الجنود ، فبالإضافه الى ١٧٠ مجدافا كان هناك ٢٥ صف ضابط وبحارا آخرين و ٥ ضباط موزعين على الأعمال البحريه المختلفه مثل رباط المقدم والمؤخر وضبط إيقاع المجدفين واحكام المناوره وشئون التدريب والرعايه الانسانيه . (١)

وفي جميع الأحوال كانت السفن الحربيه تحمل شراعا مربعا تستخدمه أثناء الطواف العادى ،أما المجاديف فكانت تستخدم عادة عند الدخول في معركه ، كما كانت الأجناب مكساه بسواتر خشبيه متينه (ARMOUR) لحمايتها وحمايه المجدفين . وكان هذا الطراز من السفن الحربيه يحمل سلاحين :"دكمه الخرق" التي أصبحت مصنوعه من البرونز ذات ثلاث بروزات حادة تنتهي كل منها بطرف مدبب ، أما السلاح الثاني فكان " جنود البحريه" (Marines) .

---

(١) عن كتاب : The Ancient Mariners, Dr. Casson,pp: 92 - 96

تاكتيكات وفنون القتال البحرى

صاحب تطوير" دكه الخرق" تقدما ملموسا وتعقيدات كثيره فى فنون القتال ولا سيما مناوره"الطعن" لما يتطلبه تنفيذها من أطقم مدربه على درجه عاليه من المهاره والانضباط والتى لاغنى لها عن قائد صائب التقدير سديد القرار ليكفل للمناورة النجاح . فالطعنه يجب ان تحدث والسفينه متقدمه بسرعه متوسطة لا هى عاليه ولا هى بطيئه ،فالسرعه العاليه تجعل الدكه تغور بعمق كبير داخل بدن سفينه الخصم ،فيتعذر على المجدفين إيقاف اندفاعها ، بسهوله ،والانفصال عن السفينه المصدومه فى الوقت المناسب ، مما يتيح لجند العدو فرصه اقتحام سفينتهم ،أما فى حالة التقدم بسرعه منخفضه فسيكون من السهل على سفينه الخصم تفادى الطعنه أو فى أقل القليل التخفيف من آثارها . ومن الطبيعى أن السرعه المناسبه للانقضاض هى السرعه المتوسطه نظرا لأنه إذا فشل الهجوم الأول كان بوسع المجدفين إيقاف تقدم السفينه ، وسرعه تغيير وضعها لمعاودة الهجوم ،وهو مالا يتأتى الا بالقدرة على التحكم فى سرعه السفينه ،وبالتالى السيطره على المناوره ودقه تنفيذها .

وكانت الأساطيل المدربه على"الطعنه" تتبع أسلوبين فى مناورتها : " الاختراق المباشر " أو " الالتفاف" . فعادة كانت السفن المتحاربه تبدأ المعركة فى مواجهة بعضها فى صفين بالطول : ففى حالة " الاختراق المباشر" وباشاره خاصه من القائد ، تندفع سفن الصف فى حركة مفاجئه وبسرعه عاليه تمكنهم من اختراق صفوف العدو وقبل أن تتاح له الفرصه لاتخاذ أى اجراء مضاد ،ثم تستدير لتطعن أجناب سفنه بدكمها وخرق أبدانها . أما" الالتفاف" فكانت مناوره اكثر سهوله،فهى لاتخرج عن قيام سفن الصف بحركة التفاف حول طرف صف الخصم وطعن سفنه من الخلف، بينما كان الدفاع ضد هذه المناورات اما باطاله المسافه التى يشغلها الصف حتى يتعذر على الخصم الالتفاف حوله بشرط الا تؤدى الاطاله الى فتح ثغرات فى الصف تتيح للخصم فرصة الاختراق ، واما بتغطيه أحد طرفى الصف بالاستناد الى شاطى مثلا فيتعذر تحويطها .

أما الأساطيل التي كانت تعوزها السفن السريعه ذات الطعنه القويه ،أو التي تفتقر الى اطقم تجيد مناوره "الطعن" فكانت تعتمد في قتال خصومها على "جنود البحريه " ومناوره "الالتحام" أى أسلوب القتال التقليدى القديم الذى يغنيهم عن تعقيدات تاكتيكات القتال البحرى الحديثه التي تفوق فيها الاغريق والقرطاجيون القدامى على سائر الأمم البحريه في ذلك الحين .

وتعتبر فترة الحروب " البلبزونيه" بين " اسبرطه " و " أثينا" (٤٣١ - ٤٠٠ق م) العصر الذهبى للأساطيل المدربه على تاكتيكات "الاختراق" و" الالتفاف" ومناورة "الطعن" ، والتي كانت ثمرة خبرة الحروب التي خاضتها اليونان ضد "الفرس" .

الدور الذى لعبته القوه الحربيه في الحروب الفارسيه اليونانيه

لعبت الأساطيل الحربيه ، والاساطيل التجاريه الدور الرئيسى في تاريخ الأمم والشعوب حيث كانت هى عماد الحملات الكبرى ، والفتوحات الواسعه . ويمكن القول بأن الأساطيل دأبت على تغيير الأشكال المعروفه للحروب ،وفرضت نفسها على مفاهيم القاده ، ولعل اكبر مثل لذلك هو الحروب الفارسيه اليونانيه ،والصراع الرومانى القرطاجى .

ففى عام ٥٥٢ق م ، وعلى مدى ٤٠ سنه ، أخضع الفرس لحكمهم كل أرض العراق وغرب آسيا ، وشرق أوربا ،وسوريا ، وفلسطين ،ومصر ،وأصبحوا - فى عام ٥١٢ ق م - سادة الشرق بلا منازع . وقد حافظ الفرس على حكمهم لتلك البلاد بفضل إستنادهم الى أسطول قوى استعانوا في بنائه بأهل فينيقيا ومصر، وهو الأسطول الذى مكنهم من إخضاع قبرص ، ومضايق البحر الأسود ،والبسفور، وشجعتهم قوتهم البحريه على أن يشن الفرس ثلاث حملات بحريه بريه كبيره على اليونان في الفترة ٤٩٤-٤٨٠ ق م والتي انتهت آخرها بموقعه " سلاميس" البحريه الشهيره (٢٣ سبتمبر عام ٤٨١ ق م) وقضت على قوه الفرس وعلى أطماعهم(١) . وتعتبر هذه المعركة واحده من أهم المعارك

(١) ضمت الحمله الثالثه فى عهد الملك "اكزرسيس" : ١٦٠ ألف سريه من الجنود تحملها حوالى ٣٠٠٠ سفينه نقل ، بينما ضم الأسطول الحربى اكثر من ١٢٠٠ سفينه حربيه غالبيتها ثلاثيه الأسطح ،وقد أطاحت العواصف بنحو ٤٠٠ سفينه حربيه وغرقت ٢٠٠ سفينه أخرى في معركه سلاميس .

الفاصله في التاريخ ، وأبرزت فعاليه استراتيجيه تجزئه قوة الخصم الى جزئيات صغيره ومهاجمتها بتركيزات شديده لتسهيل تدمير العدو"بالقطاعى" (Piecemeal) كما أكدت أهميه حرمان احد الخصوم(الفرس في هذه الحاله) من امكانيه اتصاله بحرا بقواعده ،وتمتع الطرف الثانى (اليونانيون) بحريه النقل ،والاتصال بحرا . وقد ترتب على هذه المعركة القضاء على الجانب الأكبر من الجيوش الفارسيه ،وعلى غالبيه أساطيلهم الحربيه والتجاريه ، فاضمحلت قوتهم مما شجع المصريين على الثوره ضدهم واجلائهم ـ اكثر من مرة ـ عن البلاد ، الى أن كان عام ٣٣٢ق م عندما حل الاسكندر المقدوني بمصر وأخرجهم وطاردهم متجاوزا بلادهم حتى وصل الى الهند .

الاسكندر المقدوني

بدأ " الاسكندر المقدوني" غزواته الضخمه ،وفتوحاته الواسعه ،دون ان يكون في حوزته أسطولا حربيا،إلا أنه عندما اصطدم مع الفرس ، وأخذ يزحف بقواته حول آسيا الصغرى شعر بما يشكله الأسطول الفارسي المرابط في مياه بحر ايجه ،وتجاه سواحل سوريا من خطر على خطوط إمداداته البحريه التى تربطه بمقدونيا ، بالاضافه لما في ذلك من احتمال قيام الفرس بعمليات إنزال قواتهم في المدن اليونانيه خلف مواقع تقدمه . ولم يكن بوسع الاسكندر التخلص من هذا الخطر باثاره معارك بحريه ضد الفرس طالما أنه لا يملك القوه البحريه التى تمكنه من ذلك ،فعمد الى حل المشكلة بطريقه فريده هي أن يجرد خصومه من قوتهم البحريه باستخدام قواته البريه إ كانت وجهة نظر القائد المقدوني ـ الذى لم تخل هيئة قيادته من مستشارين بحريين ـ أنه طالما أن السفن ، حربيه وتجاريه ،ترتكز على قواعد بحريه فان حرمانها من قواعدها سيبطل فعاليتها ان لم تضطر للاستسلام ، أو يؤدى بها ذلك الى الهلاك . وعلى هذا دفع الاسكندر بجيوشه المظفره نحو الموانئ والثغور، فخضعت له جميع مدن سواحل سوريا ، وفينيقيا ، على حين صمدت "صور" مما اضطره لأن يشدد حصاره للمدينه بطريقه بارعه ،وفى نفس الوقت أخذ يجمع السفن من الموانئ الفينيقيه مكونا أسطولا من حوالى ٢٢٠ سفينه حربيه .

وبعد حصار "صور" مثالا كلاسيكيا لعمليات "تطويق" الموانى" ،وأيضا الدفـاع عنها والتى تعتبر أعظم حصار عرفه التاريخ القديم . ففى يناير عام ٣٣٢ق م شـرع مهندسو الاسكندر فى بناء سد من الشاطئ" الى الصخره التى تحد الطرف الشمالى من الميناء" تحت وابل من القذائف التى أطلقها المدافعون من الأسوار، ومن السفن الصوريه ،والتى رد عليها الاسكندر بقصفهم بالمنجنيقات، فما كان من المصريين الا ان ارسلوا سفينتى حريق ،وأحرقوا أبراج الحصار المقامه على السد ، ثم أزال الجنود البحريون ماتبقى من السد . وبعد سبعه شهور من الحصار والقتال ، نجح الاسكندر فى تطويق الميناء" ،واقتحام أسوار المدينه وتم له احتلال "صور" وبعدها بشهريـن استسلمت غزة .

وترجع أهمية حصار "صور" واخضاعها - من وجهة نظر الاسكندر - ان احتـلال "صور" يفقد الأسطول الفينيقى قاعدته القويه ، فيضطر الى اللجوء الى اليونان ، أو يهيم على وجهه فى البحر متعرضا للهلاك ،وبذلك يتم تأمين قبرص ، ومياه بحر ايجـه ويصبح الطريق ممهدا أمامه لفتح مصر، وهى الأمنيه التى نجح الاسكندر المقدونـى فى تحقيقها بين عامى ٣٣٢ و ٣٣١ ق م حيث أسس مدينه الاسكندريه .

هذا وقد وافت المنيه الاسكندر المقدونى سنه ٣٢٣ ق م عن ٣٣ عاما بعد حكـم دام اثنى عشر عاما وثمانيه شهور دان لـه الشرق كله من نهر السند حتى سواحـل البحر المتوسط ومن مقدونيا فى الشمال حتى مصر فى الجنوب .

العصر البطلمى

بدأ حكم البطالسه فى مصر عقب وفاه الاسكندر المقدونى (يونيه عام ٣٢٣ق م) وانقسام امبراطوريته الى ثلاث ولايات كبيره : واحده فى " مقدونيا" تسعى لفـرض سيادتها على مدن اليونان وجزر بحر ايجه تحت حكم " انتيجونس" ،والثانيـه فـى سوريا تحت حكم" انتيوكس" ترقب الأحداث ، أما الولاية الثالثه فقامت فى مصر تحـت حكم "بطليموس الأول سوتر" الذى يحاول احكام السيطره على شرقى حوض البحر المتوسط ولاسيما أن معظم سفن أسطول الاسكندر قد آلت اليه .

وكان واضحا ـ منذ البدايه ـ أن ثمه صراع وشيك بين مصر ومقدونيا . فالبطالسه يستهدفون الحفاظ على استقلال مصر السياسى والاقتصادى ، وهو هدف يتطلب تحقيقه إحراز نوع من السياده البحريه فى شرقى البحر المتوسط، وبحر ايجه ، والتحكم فى خطوط التجارة والمواصلات البحريه . لذا كان البطالسه بحاجه لقوه بحريه قادره على تحقيق أهدافهم وحمايه ممتلكاتهم ضد المقدونيين ،ولكى يحتفظوا بأسطول قوى كان على البطالسه ان يتشبثوا بسواحل آسيا الصغرى حيث تنمو أشجار الأرز والصنوبر. ومن ناحيه أخرى كان المقدونيون يعتمدون على ماتوافر فى أراضيهم من الأشجار التى تصلح أخشابها لبناء السفن الا انهم كانو ـ فى الوقت نفسه ـ بحاجه لتنميه أساطيلهم الحربيه ، وبالتالى لمهاره وكفاءة الترسانات اليونانيه الموجوده فى آسيا الصغرى لزيادة معدلات انتاج السفن ولصيانتها .

ومن جانب آخر، كان حجم التجاره المنقوله بحرا آخذا فى الازدياد ، فقد امتدت طرق القوافل البريه لآلاف الاميال ، لتصل الى الجزيره العربيه ،والهند ، وغص البحر المتوسط بشبكة كبيرة من خطوط الملاحه البحرية تقطعها أضخم السفن تحمل التجارة بين شبه الجزيره الأيبريه فى أقصى الغرب ،وبين شبه الجزيره الهنديه فى أقصى الشرق . وقد أثار هذا الرواج التجارى تنافس الولايات الهلسنتيه كل تريد اغتنامه لنفسها ، وحرمان الأخرى منها ، لاسيما بين مصر ومقدونيا التى ـ باعتبارها الولايه المركزيه ـ حقدت على مصر لظفرها بغالبية أسطول الاسكندر .

لهذه الأسباب ـ بجانب الدوافع والأطماع السياسيه ـ تفجر الصراع بين البطالسه والمقدونيين والذى كان ، فى المقام الأول ،صراعا بحريا .

الصراع البحرى البطلمى المقدونى (٣٠٦ - ٢٠٣ ق.م)

قام بطليموس الأول ـ فور وصوله مصر ـ بالاستيلاء على ولاية "برقه" اليونانيه على حدود مصر الغربيه ، ولكن تنفيذا لسياسته فى توطيد استقلال مصر ضد مقدونيا قام بغزو "سوريا" (٣١٩ - ٣١٨ ق.م) ووضع يده على فلسطين ،ودخل بيت المقدس .

فلما شعر" أنتيجونس" بخطر التوسع البطلمي ، هاجم سوريا - سنه ٣١٥ ق م - وانتزعها من بطليموس الذى تراجع حتى مصر فبسط "انتيجوس" سلطانه الى حدود مدينـــــة " غـزة" .

الا أن تصميم "بطليموس" على استرجاع سوريا ، وفلسطين جعله يرسل حملتيـــن بحريتين الى قبرص، ليتخذ ها قاعدة للهجوم على سوريا . وفى سنة ٣١٣ ق م د خـل بطليموس الى الجزيره على رأس أسطوله القوى ، الذى كان تحت قياده "سيلوكـــوس" وأعلن ضم "قبرص" نهائيا الى ملكه . فلما كان ربيع سنه ٣١٢ ق م إنقض بطليموس علـــى الساحل الفلسطيني وسحق قوات "د يمتريوس" ابن "انتيجونس" (الذى كان متغيبا عن البلاد) عند شواطئ "غزة" (١) وأعاد بذلك سلطان مصر على فلسطين وفينيقيـــا ، وسوريا . وظل النزاع على سوريا وفينيقيا سجالا بين بطليموس وأنتيجونس ، إلـــى أن كانت سنة ٣١١ ق م عند ما عقد الامبراطوران صلحا تخلت مصر بمقتضاه عن سوريـــا وفينيقيا واستقلت" برقه" ولم يبق "لبطليموس" سوى مصر ، وقبرص .

ولكن سباق التسلح البحرى بين البلدين ، أدى الى تجدد الصراع من أجل السيطره على البقاع الشرقيه للبحر المتوسط.... فما هى حكاية هذا السباق ؟

بدأ "أنتيجونس" (٢) هذا السباق - عام ٣١٥ ق م - عند ما شرع مع ابنه "د يمتريوس" (الذى كان من اشهر مصممى السفن بجانب ماعرف عنه من براعه تاكتيكيه) فى بنـــاء أسطول حربى يضارع أسطول " بطليموس" . فأخذت مقدونيا تبنى سفنا "رباعيـــه" و"خماسيه" بل و"سباعيه" أيضا ، وهى تسميات منسوبه لعدد العاملين على المجداف الواحد فى نفس الوقت ، وهى تسميه اتبعت حتى "العشريه"، أما مازاد على ذلـــك مثل "الأربعينيه" فمن المرجح أن تكون راجعه الى ان المجاديف الثلاث التى تعلـــو

---

(١) يرى كثير من المؤرخين أن هذا العنصر هو الذى مهد السبيل أمام "سيلوكـــس" قائد الأسطول لاحتلال مدينه "بابل" وانشاء الامبراطوريه "السيلوكيه" أو "السلوقيه" فى آسيا . (تاريخ البحريه المصريه" للاشتاذ جميل خانكى ص ٧٩)

(٢) كان يلقب بالأعور وهو الذى أسس المملكه التى حكمت مقدونيا ، ومعظم بلاد اليونان حتى الغزو الرومانى ، وقد واصل ابنه "د يمتريوس" ثم حفيده "انتيجونس جوناتـــس" هذا السباق الذى استنفذ أموال مقدونيا ومصر على السواء .

بعضها في السفن ثنائيه أو ثلاثيه الأسطح كان يعمل عليها أربعون مجدافا في وقت واحد ،وقابل البطالسه التحدى بالتحدى ، فقام بطليموس الثانى ببناء سفن " عشرينيه" وأخرى " ثلاثينيه" ضخمة يعمل عليها ٣٠٠ مجدف وتتسع لحمل ١٢٠ محاربا ، كما كانت تحمل شراعين على صاريين منفصلين ارتفاع الواحد منها نحو ٥٧ قدما .

هذا ويمكن القول أنه منذ ذلك العصر المبكر بدأت السفن تبنى طبقا لمواصفات وخصائص تؤهلها لأداء وظائف محدده ، فالسفن الكبيره مثل"العشرينيه"و"الأربعينيه" تشكل القوة الضاربه الرئيسيه مثلها في ذلك مثل البارجه في العصور اللاحقه ،على حين كانت السفن الأصغر"كالعشريه" ومادونها هى سفن " القتال الأسطولى" (أشبه بالمدمرات والطرادات الخفيفه الحديثه) بينما اضطلعت السفن " ثلاثيه الأسطح" السريعه بوظيفه الاستطلاع والحراسه .

تزايد نمو أسطول كل من الخصمين ، الا أن أساطيل البطالسه ظلت هي المتفوقه عددا ، الى أن خرج"ديمتريوس" المقدونى باختراعه الجديد الذى قلب التاكتيكات البحريه رأسا على عقب، ألا وهو"المدفعيه البحريه" ! كان "ديمتريوس" يهتم كثيرا بأسلحه حصار المدن ،وهدم أسوارها ، لا سيما قواذف السهام، وقواذف الحجاره، فواتته فكره إدخال نفس الأسلحه على تسليح السفن.ولعل هذا كان أحد أسباب جنوحه لبناء سفن كبيره ،لتتحمل ثقل مثل هذه القواذف . فعلى مقدم بعض السفن وضع "ديمتريوس" قواذف تطلق سهاما طول الواحد ٢١ بوصه لمسافه ٤٠٠ يارده وهى مسافة تعتبر - بمقياس العصر - بعيدة المدى مكنت سفنه من الاشتباك مع سفن خصومه وتكبيدها خسائر كبيره ،بينما هى تحاول الاقتراب الى مسافه مرمى أقواسها قصيره المدى . لذلك كان القتال البحرى يبدأ "بغلالة" كثيفه من سهام القواذف ،ثم من سهام الأقواس تطلقها"البوارج" بينما تناور السفن الصغيره لاتخاذ وضع الانقضاض ، بدكه الخرق " . ولضمان حسم المعركه ،صنعت أبراج خشبيه يمكن تركيبها بسهوله -عند بدء القتال المتلاحم - على مقدم ومؤخر السفينه بارتفاع يتيح للرماه فرصه أفضل لتصويب رماحهم ونبالهم نحو أسطح سفن العدو وبدقه فائقه .

لما اطمأن كل من الامبراطورين الى قوته البحريه ،بدأ - في عام ٣٠٦ ق م - الصراع البحرى المرير بين بطليموس (أسطول قوامه ٣٣٦ سفينه من مختلف الطرازات) و"انتيجونس" المقدونى (أسطول قوامه ٣٣٠ سفينه من مختلف الطرازات بقيادة إبنــــه ديمتريوس) من أجل إحراز السياده على شرقى البحر المتوسط،وهو صراع استمر قرابه قرن من الزمان توارثه أحفاد كل من الملكين ، تدخلت فيه - بين الحين والآخــر - الدولة " السلوقيه" في سوريا للحفاظ على توازن القوى حتى لاتطغى قوى على الأخرى فتنقلب عليها .

توالت جولات الصراع البطلمى المقدونى طوال قرن من الزمان تبادلت خلالـــه القوتان السيطره على مياه شرقى البحر المتوسط الى أن تمكنت مقدونيا - بدعـــم من السلوقيين - من انتزاع ممتلكات مصر الخارجيه بينما قوة مصر آخذه فى الاضمحلال .

ليس ثمة شك ،أن البطالسه أقاموا امبراطوريتهم ،وحافظوا على تماسكها - طوال قرون ثلاث - بفضل حيازتهم "لقوة بحريه" مكنتهم من فرض سيادتهم على البحار الـــتى تحيط بممتلكاتهم ... فلما زالت هذه "السيادة" تصدعت امبراطوريتهم وانهارت .

والملاحظ أن هذه القوة لم يستمدها البطالسه من قوة أساطيلهم الحربيـــــة فحسب ، وانما من امتلاكهم أيضا لأسطول تجارى كبير ساعد ملوكهم الأوائل علــــى استغلال براعتهم فى الأمور الاقتصاديه ، لتنميه ثرواتهم باستخدام سفنهم فى نقــــل تجارتهم الخارجيه ، والعمل على زيادة حجم الصادرات عن حجم الواردات . وامعانا فى تنفيذ سيادتهم الاقتصاديه احتكر الملوك البطالسه المعاملات التجارية ، وفرضــوا ضرائب جمركيه ،ورسوما على التجاره الخارجيه ، فعمرت خزائنهم بالأموال التى سرعان ما استنزفها سباق التسلح ، والصراع البحرى على النحو السابق ذكره .

وبصفة عامة ، كان العالم فى تلك العصور يشهد إزدهارا كبيرا فى التجارة البحرية ونموا ملحوظا فى حجم السلعه نفسها ، وفى حجم الشحنات مما تطلب نموا مماثـــلا فى سعه السفن التجاريه التى سرعان ما أصبحت تتسع لحمل شحنات تتراوح بين ٢٠٠

و٣٠٠ طن من البضائع، بل إن بعضها تجاوز ذلك بكثير (١). وقد ترتب على ذلك أنه لم يعد بوسع الموانئ استقبال مثل هذه السفن، والتعامل مع شحناتها فيما عدا كبريات الموانى مثل "بيريوس" و"رودس" و"الاسكندرية". ومن ناحية أخرى، اقتضى تزايد حركة تردد السفن على الموانى العمل على توسيعها واعادة تجهيزها، وتحسين الخدمات بها، بل وانشاء موانئ جديدة.

وكان الحكام الهلسينتيون - فى مقدمتهم البطالمه - هم أقدر من يضطلع بمثل هذه المشروعات الضخمة نظرا لما تحت أيديهم من أموال موفورة، فسارعوا الى ادخال الكثير من التحسينات على موانيئهم ببناء حواجز أمواج ضخمة حول مراسى واحواض فسيحه، وشيدوا مخازن ومستودعات لحفظ البضائع، وأقاموا أرصفه حجريه لرسو السفن بدلا من سحبها على الشواطئ الرمليه. وتعد المشروعات التى اضطلع بها البطالمه فى مصر أروع واكبر ماحققه الهلسنيتون من تقدم.

فالى جانب إتمام تشييد مدينه الاسكندريه بمرفئيها الشرقى والغربى، واتخاذها عاصمة للبلاد، قاموا بتشييد مدينه "بلوز" (بورسعيد)، ثم أخذوا يقيمون سلسلة من الثغور والمدن الساحليه على البحر الأحمر، والتى ظلت غالبيتها باقيه حتى الآن ومن أهمها: "أرسينوى" (السويس) التى أسسها "بطليموس الثانى" عندما أعاد شق القناه القديمه التى كانت تصل النيل بالبحر الاحمر(٢) وثغر"برنيكى" عند رأس خليج العقبه، و"فيلوتيرا" (سفاجه)، و"ليكوس ليمن" على مقربه من القصير حاليا، وثغر "برنيس" فى مواجهة أسوان على رأس الطريق البرى القادم من قفط، ومدينه"أدوليس"

---

(١) بلغت حموله احدى السفن التجاريه السوريه - فى القرن الثالث قبل الميلاد - قرابه ١٨٠٠ طن من البضائع.

(٢) كانت هذه القناه تمر فى وادى الطميلات ماره "ببوسطس" (تل بسطه على مقربه من الزقازيق) و"هيروبوليس" عند الطرف الشمالى للبحيرات المره الى ان تنتهى عند "ارسينوى" (السويس).

جنوبى مصوع، كما يعزى الى "بطليموس الرابع" تأسيس مدينه على مقربه من مضيق باب المندب على الساحل الافريقى أطلق عليها اسم " ارسينوى" (١) . وهذه الوفره فى الموانى التى أسسها البطالسه على البحر الأحمر، وماتكلفه انشاؤها من أموال طائله لتعكس مدى الاهتمام بتجاره مصر مع البلدان المطلة على هذا البحر، وعلى المحيط الهندى، وحرص الملوك البطالسه على جذب اكبر قدر من حركة التجاره بين الشرق والغرب للمرور (ترانزيت) بمصر، وهو مايتضح من عنايتهم بتمهيد الطرق التى تربط وادى النيل بالموانى المصريه الواقعه على البحر الاحمر، وحفرهم للآبار، واقامة خزانات المياه على جانبيها . هذا وكان البطالسه يراعون أن تضم بعض هذه الموانى أماكن مخصصه لرسو السفن الحربيه ذات أسقف لحمايتها من السهام الحارقه، كما عنوا بتجهيز الموانى بكل أسباب ووسائل استقبال السفن، واصلاحها، وتداول شحناتها . وعند ما أصبحت السفن المصريه - فى عهد "بطليموس الرابع" - تقوم برحلات شبه منتظمه بين مصر، والهند مباشره دون إعادة الشحن فى ميناء عدن، خصص موظفون حكوميون للاشراف على حركه هذه السفن وتجارتها أطلق عليهم "مختصو البحرين" الأحمر والهندى .

وتعد منارة الاسكندريه - إحدى عجائب الدنيا السبع - أبدع ما أنجزه البطالسه لخدمه الملاحه البحريه ، وهى المناره التى وضع تصميمها المهندس " سوستراس " وبناها فى عهد "بطليموس الثانى" فى القرن الثانى قبل الميلاد على جزيره فاروس. وقد بلغ ارتفاع منارة الاسكندريه ١٣٥ مترا ومدى رؤيه شعلتها ٦٠ كيلو مترا وبفضلها انطلقت السفن تعبر مياه المنطقه ليلا ونهارا بعد ان كان ابحارها قاصرا على ساعات النهار فقط فعم بناء المنارات فى موانى سائر ممالك البحر المتوسط . وكان تزايد حركة تردد السفن على ميناء الاسكندريه ، ونمو حجم التجاره الوافده عليها حافزا للبطالسه لتحسين الميناء وتطوير الخدمات به ، فقاموا بتقوية واطالة حاجزا الأمواج ، ليضم مرفأين حيث ترسو السفن الكبيره فى المرفأ الشرقى ، بينما ترسو السفن الصغيرة فى المرفأ الغربى لحين مرورها فى القنوات الى نهر النيل .

---

(١) من كتاب "تاريخ البحريه المصريه" : خانكى ص ٧٢ - ٧٣
وكتاب "البحريه فى مصر الاسلاميه" للدكتوره سعاد ماهر - ص ٤٢ .

هذا وقد صاحبت هذه الأنشطه والمشروعات ، انجازات أخرى فى مجـــال الملاحه ، والكشوف البحريه ، فأرسل البطالسه عددا من البعوث الى شواطىء البحر الاحمر، والمحيط الهندى لاستكشاف موارد الثروه فيها ، والوقوف على مدى امكانيـه الاتجار مع الشعوب التى تسكنها . وقد نجحن هذه البعوث فى مهمتها بعـد أن قامت بمسح شامل لشواطىء " أثيوبيا" وسواحل بلاد العرب من رأس خليج العقبـه حتى مضيق باب المندب(٢٨٠ ق م) ، ثم تجاوزته ـ فى عهد بطليموس السابع ـ الى الساحل الشرقى لأفريقيا ، والى الهند . وقد جاءت رحلة " هيبالوس" فى القـرن الأول قبل الميلاد ،بكشف جديد لطريقه الاستفاده من رياح المحيط الهنـدى الموسمية فى ملاحة السفن من مضيق باب المندب الى الهند مباشره دون حاجـة للاستعانه بالمعالم الساحليه ، أو الطرق البريه . وقد كتب قادة البعوث تقارير وافيه عن مهامهم تناولت عادات الشعوب ،وماتضمه أراضيهم من ثروات ،ووصفا دقيقـا للشواطىء ، والمسافات بين المدن ،وبيان طرق الوصول الى الموانىء ، ووصف نظـم الحكم ومنتجات البلاد الزراعيه والحيوانيه . ولعل تشييد ثغر" برنيس" جاء ثمرة لهذه الكشوف التى أسفرت عن امكانيه تلبيه حاجه ملوك البطالسه الى الفيله عن طريق جلبها من بلدان شرق افرقيا الى هذه الميناء ، ثم نقلها برا الى قنا . هذا وقد ترتب علـى هذه الكشوف أيضا تأمين الملاحه بخليج العقبه مما أدى الى إعادة فتح طريق التجارة الى فينيقيا وفلسطين الخاضعتين للحكم المصرى ، فازداد ـ تبعا لذلك ـ دخـل الملوك البطالسه من المكوس ، والرسوم الجمركية على تجاره الصادر والوارد وتجـاره الترانزيت .

وعلى الرغم من كل الدلائل التى تشير الى قوة الأسطول البطلمى وتفوقه ، فـإن المعلومات عن حجم هذا الأسطول ونظمة قليله ،ومع ذلك فبالامكان استخلاص بعـض الحقائق من واقع نشاط هذا الاسطول .

فمن المؤكد ان الأسطول البطلمى ـ سيما فى عهد الملوك الثلاث الأوائل ـ لم يقل عن ٣٠٠ قطعه بحريه ، وأنه كان موزعا بتوازن رائع على القواعد ، والمناطـق الاستراتيجيه الهامه ،فكان لهم أسطول نهرى ، وآخر بمنطقه البحر الأحمر لكل منهما

قائد ،على حين وزعوا أسطول البحر المتوسط على قواعدة الرئيسيه مثل الاسكندريه ، وقبرص ، وجزيره" كوس" ببحر ايجه . وكانت وحدات كل أسطول موضوعه تحت قيادة "قائد عام" يتولى القيادتين البحريه والبريه ، كما يتولى أيضا ادارة شئون الولايات التى تقع فيها قاعدة أسطوله .

ومهما يكن من حجم الأسطول البطلمى ، والاختلاف فى تحديد عدد سفنه ، الا أنه من المعترف به أن بناء ، واعاده بناء هذا الأسطول ،وتطقيم سفنه ،وتشييد وتأمين قواعده والصراع من أجل السياده على شرقى البحر المتوسط قد استنزف الأموال التى عمرت بها خزائن الملوك البطالسه ، وأنهكت قوى مصر . لذلك أخلد ملوكهم الأواخر الى حياه السكينه والدعه ، والتى معها تزايدت حدة أزمات مصر ، واضمحلت قوتها العسكريه ، فضلا عن الخلافات الأسريه البطلميه فى الوقت الذى كان يشهد فيه العالم بزوغ قوة جديده فتيه هى "روما" التى ارتمى فى احضانها"بطليموس الثانى عشر" ومن بعده " كليوباتره" آخر ملوك البطالسه ، والتى كان يشاركها فى الحكم أخوها" بطليموس الثالث عشر" ـ وهو زوجها فى نفس الوقت ـ الى أن تم للرومان فتح مصر ، عام ٣٠ ق م ، على يد الامبراطور" أغسطس" .

الامبراطوريه الرومانيه (٥٠٠ق م - ٣٩٥ ميلاديه)

فى غمرة الأحداث ، والصراعات الداميه التى اجتاحت العالم الهلسنتى فى شرقى حوض البحر المتوسط ، كانت قرطاج ـ المستعمره التى أسسها أهالى"صور" منذ القرن الثامن قبل الميلاد ـ تتمتع بامبراطوريه تجاريه مزدهره تغطى غرب البحر المتوسط ، حتى مضيق جبل طارق ، لا ينافسها فيها منافس ،عمادها أسطول تجارى كبير ،وأسطول حربى قوى ، برع فى فنون القتال البحرى ، ومناورات"دكمه الخرق" . إلا أن الاستقرار والأمان اللذين نعمت بهما "قرطاج" تبددا عندما لاح على الأفق عبر خليج "مسينا"، إشراقة قوه نبتت فى إحدى المدن المغموره على نهر "التيبر" تدعى" روما" التى غدت ـفى اقل من قرنين من الزمان ـ سيدة شبه الجزيره الإيطاليه من وادى "البو" فى الشمال الى "كعب الحذاء" فى أقصى الجنوب . وهنا التهب النصف الغربى من البحر المتوسط بنيران الصراع الرومانى القرطاجى ،والذى عرف فى التاريخ "بالحروب البيونيه الثلاثه" .

أدى تصادم المصالح الى حروب مريره بين روما وقرطاج ، امتدت لأكثر من خمسين عاما (٢٦٥ - ١٤٦ ق.م) كانت - فى المقام الأول - حروبا بحريه دارت خلالها ثلاث جولات كبار . انتهت الجوله الأولى (٢٦٥ - ٢٤١ ق.م) بتدمير الأسطول القرطاجى . فلما أعد " هانيبال " حملته الكبيره لم يجد طريقا الى الأراضى الايطاليه الا باختراق أسبانيا ، واجتياز جبال الألب المغطاه بالثلوج ، الى أن وصل الى شمال ايطاليا مجتاحا الجيوش الرومانيه . إلا أن افتقاره لأسطول يخلصه من سيطرة أسطول روما ويأتيه بالامدادات ، والتعزيزات من أرض الوطن ، أتاح للرومان فرصه الصمود فى وجه الزحف القرطاجى ، والتحول الى حرب استنزافيه طويله ، أنهكت قوى هانيبال ، وشلت حركته . أما الجوله الثالثه (٢٠٨ - ٢٠٢ ق.م) فقد حققت فيها روما انتصارا حاسما على يد قائدها المظفر " سيبيو " الذى نزل بقوات ضخمة - فى ربيع عام ٢٠٤ ق.م - على سواحل شمال أفريقيا ، حيث نجح بعد عامين من القتال المرير ، فى هزيمة القرطاجيين فى موقعه " زاما " وزالت دولتهم ، وأصبحت روما أقوى قوة بحريه فى حوض البحر المتوسط .

وبذكاء وبراعه استخدمت روما أسطولها فى اخضاع " مقدونيا " (١٩٢ ق.م) وسوريا (١٨٩ ق.م) وتحولتا الى ولايتين رومانيتين ، ثم تبعتهما مصر (٣٠ ميلاديه) لتتربع روما على عرش السياده البحريه بعد أن دان لها البحر المتوسط من أقصاه الى أدناه . فلا غرو أن أطلق الرومان على هذا البحر (Marè Nostrum) أى " بحرنا " .

كان أسطول مصر الحربى ، فى بدايه الحكم الرومانى ، يتألف من السفن التى نجت من موقعه " اكتيوم " إلا أنه لم يعهد اليه بأكثر من مهمة الحفاظ على أمن الشواطىء المصريه ، وضفاف النيل ، اكتفاء بما حققته الأساطيل الرومانيه من استقرار فى جميع أرجاء البحار التى تطل عليها الامبراطوريه .

واعترافا بقيمة موقع مصر الجغرافى وأهميته لحركة التجارة البحريه ، رأى الرومان ضرورة إعادة شق القناه التى تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، فأصدر الامبراطور " تراجان " الرومانى (٩٨ - ١١٧ ميلاديه) أوامره بذلك ، فحفرت قناه تبدأ من " ممفيس "

(البدرشين) مارة بمدينه " بوبطس" (على مقربه من الزقازيق) و " فـــــاقوزا" (فاقوس) الى بحيرة المنزله حيث تواصل السفن مسيرتها حتى"بلوز" (بورســعيد) ، ومنها الى عرض البحر المتوسط . كما أعاد " تراجان" أيضا تطهير القناه القديمـــة التى كانت تبدأ من "بابليون" (القاهره) عند فم الخليج ، لتصل الى البحيره المـره ثم تبحر السفن جنوبا الى "القلزم" (السويس) ومنها الى البحر الأحمر .

القوة البحريه والدور الذى لعبته فى العصر الرومانى

وما دمنا بصدد الحديث عن الامبراطوريه الرومانيه ،وعصورها الزاهيه ،فلا بـــد لنا من وقفه قصيره مع " روما" التى خاضت أولى حروبها ، وهى لا تملك أكثر من عشـرين سفينه حربيه لتصبح - فى عهد الامبراطور"أغسطس" - أقوى قوة بحرية فى ذلك العصر . والسبب فى هذه الوقفه أن كثيرا من المؤرخين والكتاب العسكريين يميلون الى تقييـم الامبراطوريه الرومانيه على أنها " قوه بريه" وهو تقييم لا يمثل سوى نصف الحقيقه فقط . فمع الاعتراف بكفاءة وقدرات المقاتل الرومانى ، ومع الاعتراف بالفضل لطرق المواصلات البريه الجيده التى كانت تتمتع بها أراضى الامبراطوريه من أقصاها الى أدناهـــا ، الا أنه لا يمكن انكار فعاليه الدور الذى لعبته مياه البحر المتوسط،وكل شـبر مـن شواطئه فى ربط أرجاء هذه الامبراطوريه الواسعه برباط وثيق . فبعد معركة اكتيوم -وعلى مدى خمسة قرون -إنطلقت السفن التجاريه الضخمه تجوب البحار من البحـــر الأسود الى المحيط الأطلسى ،ومن الصين الى البحر المتوسط فى حمايه أساطيـل روما الحربيه ، والتى فى ظل سيادتها نعم عالم البحر المتوسط وحركة التجاره بيـن الشرق والغرب بالاستقرار والأمن فصدق القول " جميع الطرق تؤدى الى روما" !

ولنا أن نتساءل كيف كان بوسع روما التى نشأت على أكتاف أهل الريف أن تزدهر بدون القضاء على خصمها القوى" قرطاج " مالم تعمل على بناء أسطول حربى قـــوى أتاح لها اضعاف موقف قوات " هانيبال" فى ايطاليا ،ثم الانتصار فى معركه " زامـــا" التى وضعت نهايه الامبراطوريه القرطاجيه ، وهو الانتصار الذى جعل"روما" حريصـــه

على أن يكون أسطولها دائم التفوق على أساطيل خصومها ،مما مكنها من فرض سيادتها على مياه غرب البحر المتوسط . وبفضل هذا التفوق البحرى ،غامرت "روما" بقبول دعوة " رودس" - عام ٢٠١ق م - بالتدخل فى شئون دول شرقى حوض البحر المتوسط فأخضعت آسيا الصغرى ،وسوريا ، لنفوذها فى أقل من ثلاثه أعوام، ومرة أخرى نقول : أنه لو لم يستخدم" أغسطس" أسطوله الحربى المدرب والذى قاده " أجريبا" المحنك فى معركة" أكتيوم البحريه" لما كان بوسعه انهاء حكم " أنطونيو" لمصر، واخضاعها هى الأخرى (عام ٣٠ق م) لنفوذ روما ،والتى منها امتدت التجارة الى البلاد العربيه ،والهند بعد طول ركود ، بل وتجاوزتها بعبور السفن لخليج "البنجال" الى بورما ،وبحر الصين الجنوبى عبر قناة"ملقة" الى هانوى ،فانفتح طريق التجاره - فى نهايه القرن الثانى الميلادى - الى الملايو - وسومطره ، وجاوا ،والصين. ورغم ترامى أطراف تجاره الامبراطوريه الرومانيه الا أنها ترابطت بشبكه مواصلات بحريه ضخمة غايه فى دقه التنظيم ، فعلى سبيل المثال كان يعمل على خط مصر/الهند ما لا يقل عن ١٢٠ سفينه تجاريه سنويا بينما تعمل قرابة ٥٠ "ناقله حبوب" فى حمل القمح المصرى من الاسكندريه الى أهالى روما .

كيف كان بوسع روما أن تحافظ على سلامة وأمن شبكة المواصلات الضخمة هذه التى امتدت من الصين شرقا حتى مشارف القناه الانجليزيه ،وسواحل سيراليون على المحيط الاطلنطى ، مالم يكن تحت إمرتها أسطول حربى قوى مدرب أحسن تدريب وموزع طبقا لخطه استراتيجيه محكمه .

سقوط روما وقيام الامبراطوريه البيزنطيه

بوفاه الامبراطور " تيودور" سنه ٣٩٥م، اقتسم ولداه الامبراطورية الرومانية وجعلاها مملكتين : شرقيه وعاصمتها"بيزنطه" أو القسطنطينيه ، وصارت مصر إحدى ولاياتها ، وأخرى غربيه وعاصمتها" روما" .

وبنهايه القرن الخامس الميلادى زالت الامبراطوريه الغربيه كقوة سياسيه ،فقد حكم الفرنجه والبورجنديون بلاد "الغال" (فرنسا) ، وسيطر القوط الغربيون على أسبانيا وبسط "الواندال" نفوذهم على شمال افريقيا ،وخرجت أساطيلهم من "قرطاج" لتسيطر على البحر المتوسط، فسحقت ماتبقى من قوة بحريه لروما .

وعلى النقيض، كانت الامبراطوريه البيزانطيه بعاصمتها "القسطنطينيه" الجديده التى أسسها "قسطنطين" قوة متماسكه بفضل ازدهار الزراعه والصناعه ، والتجاره بولاياتها الثلاثه الكبرى : آسيا الصغرى وعاصمتها "القسطنطينيه" وسوريا وعاصمتها "انطاكيه" ، ومصر وعاصمتها "الاسكندرية" ، وكانت كل من هذه العواصم تعمل كقاعده تجاريه كبيره ... فالقسطنطينيه هى نهايه طريق أرمينيا والبحر الأسود ، وسوريا نهاية طريق الخليج العربى والطرق البريه عبر العراق ، على حين كانت مصر نهاية طريق البحر الأحمر الملاحى .

الا أن إهمال البيزنطيين لموانىء البحر الأحمر جعل غالبيه صادرات الشرق الأقصى تسلك طريق الخليج العربى (الفارسى) مخترقة جزيره العرب وأراضى الشام الى أنطاكيه أو القسطنطينيه ، مما أتاح للفرس فرصه التحكم فى خطوط المواصلات البريه والخطوط البريه / البحريه .

واعتمادا على ماكان فى حوزة بيزنطه من سفن نقل ، وسفن حربيه ، شرع "جستانيان" (عام ٥٢٧م) فى استعادة وحدة البحر المتوسط مركزا كل اهتمامه تجاه الغرب . وفى أقل من عشرين عاما ، كان "جستانيان" الذى أسند قياده حملاته للقائد المظفر "بليزاريوس" قد قضى على أسطول القوط الشرقيين ، وعلى قوة القوط الغربيين فى أسبانيا وعلى قوة الواندال فى أفريقيا ، فدان له معظم شمال أفريقيا ، وجزر صقليه ، سردينيا ، وكورسيكا ، والبليار ، وكل جنوب ايطاليا ،ومعظم الأندلس . وتقديرا من "جستانيان" لقيمة الموقع الاستراتيجى لعاصمة ملكه ، فقد أتم بناء الدفاعات القويه عن القسطنطينيه ، والتى كانت على شكل حزام ثلاثى من الأسوار ، وخندقين مائيين

عميقين ، وهى الدفاعات التى نجحت فى مقاومة الهجمات المتكررة على المدينه .

وعلى الجانب الآخر، استغل الفرس اهتمام بيزنطه بالغرب ، وقاموا بالزحف عبر حدود سوريا ومصر، فاستولوا على " انطاكيه" (عام ٦١١م) ، و"بيت المقدس" (عام ٦١٤م) ، ثم الاسكندريه (عام ٦١٩م) وخضعت هذه الولايات لحكم"كسرى" الذى واصلت جيوشه تقدمها حتى واجهت "القرن الذهبى" تجاه الدردنيل . وهنا أصبحت القسطنطينيه مهدده بخطر الفرس وبزحف " الآفار" من الغرب ،وكادت أن تعزل من البر تماما فى مواجهة القوات الفارسيه عبر الدردنيل ، مما حدا بالبطل "هرقل" حاكم شمال أفريقيا بالتقدم لانقاذ الامبراطوريه البيزنطيه . وبعد سلسلة من الحملات الحربيه المدعمة بحرا ،تمكن هرقل من هزيمه الآفار" وطردهم ،وأجبر الفرس على الانسحاب وطاردهم حتى وصل بقواته الى " المدائن" عاصمة ملكهم، وقضى على جيوشهم، لتنتهى الحرب عام ٦٢٩م بتعهد فارس بالانسحاب من أراضى سوريا ومصر ، وبدفع غرامة كبيره للقسطنطينيه .

لعل اعتماد البيزانطيين على القوة البحرية فى دعم امبراطوريتهم، والحفاظ على تماسكها هو ما دفعهم للاهتمام باحتلال المدن الساحليه، وتجنب التوغل فى الاراضى الداخليه ،واقامة عواصم ولاياتهم فى الثغور ولعله أيضا هو السبب فى أنهم كانو يعنون بتشييد الحصون والقلاع القويه، لحمايه حدودهم البريه ،ولذلك قل اهتمامهم ببناء جيوش كبيره مما سهل للفرس ،والعرب المسلمين من بعدهم، الاستيلاء على ممتلكاتهم الشرقيه .

ومن دلائل اهتمامهم بالقوه البحريه، والدور الذى تلعبه الأساطيل الحربية فى اقرار الأمن ،والحفاظ على السلام،ابتكار البيزنطيين لسلاحين من أخطر أسلحة الحرب البحريه هما : "النار الأغريقيه" و" قذائف اللهب" اللذان كانا من أسباب تفوق الأساطيل البيزنطيه .

"النار الاغريقيه"، سلاح فعال رهيب حافظ البيزنطيون على سر تركيبه فعجزت أساطيل خصومهم عن مقاومته أو اتقاء شره . وعلى الرغم من أن النيران قد استخدمت فى القتال البحرى منذ القرن الثانى قبل الميلاد عندما استخدمت سفن رودس "بواتق النار" المدلاه من مقدمتها ، الا أن الفضل فى تطوير تركيب النار واستخدامها يرجع الى المهندس اليونانى الأصل ، والصورى الجنسيه " كالينكس" والذى على يديه غدت "النار الاغريقيه" مادة قابله للأشتعال ويحتمل أنها كانت تحتوى على الكبريت ، وعناصر أخرى سهلة الاشتعال كالقار ، والزيت ، والنفط ، ومادة أخرى تشبه الجير الحى تتفاعل مع الماء فينتج عن هذا الخليط حرارة شديده ونيران متقده . وعقب اكتشاف "ملح البارود" أضيف هذا الملح الى " النار الاغريقيه" أو " النار المائعه" ، لينتج عنها مخلوط له خاصيه" الاحتراق الذاتى" أو " الاحتراق الداخلى" وقد عبأته السفن البيزنطيه فى " قدور" على شكل "عبوات" تتفتت - عند اصطدامها بالهدف - الى شظايا مشتعله تتناثر مضرمة النار فى كل مكان تصل اليه .

أما "قذائف اللهب" فكانت التطور المنطقى "لقواذف السهام" التى ابتكرها "ديمتريوس" المقدونى فى بدايه القرن الثانى قبل الميلاد . وقذائف اللهب عبارة عن ماسوره مركبه على سطح السفينه مصنوعه من البرونز محشور داخلها قصبه محشوة بالنار الاغريقيه ويبرز منها" فتيل الاشعال" . تصوب الماسوره تجاه الهدف ، ثم يشعل الفتيل ، فتشتعل القصبه ، فتتفجر باللهب وتدفعها الغازات المتولده الى خارج الماسوره ، فتنطلق عروق ، وألسنه من النيران نحو الهدف . وتدل وثائق الحرب البيزنطيه / العربيه على أن وزن هذا الصاروخ بلغ حوالى ٤٥٠ كيلو جرام على حين وصل مرماه الى ٧٠٠ متر تقريبا ! غير أن البيزانطيين لم يكتفوا بهذا السلاح البعيد المدى ، وانما طوعوه لاستخدامه فى الاشتبكات القريبه ، فجعلوه على شكل ماسوره كبيره من الخشب المبطنه بالبرونز ، موضوعه على السطح بمقدم السفينه ، فتحتها الأماميه متجهة للخارج ، بينما تتصل نهايتها الداخليه بمضخه هواء . تعمر الماسورة بمخلوط"النار الاغريقيه" وعند اشعالها ، وتشغيل المضخة ، ينبعث من الماسورة عمود من اللهب والذى يعتبر أول " قاذف لهب" فى العالم . بل أن البيزنطيين استنبطوا منه نماذج صغيره يمكن

لجنود البحريه حملها بسهولة ، حيث كانوا يخفونها خلف د روعهم الى أن تحين اللحظة المناسبة فيقذفوا أعد *هم بنيرانها !

وكلا السلاحين ـ النار الاغريقيه وقواذف اللهب ـ اطلق عليها البيزنطيون اسم "المدفعيه الحارقه" التي شيدت لها بيزنطه العديد من الترسانات المتخصصه في انتاج مختلف أنواعها .

غنى عن الذكر أن تصميمات السفن ، وفنون القتال البحرى ، تطورت لتلائم أسلحه العصر ، وأن يكون طبيعيا أن يزداد الاهتمام بعمليات الاشتباك بين السفن الحربيه ، ويقل شأن عمليات الحصار المباشر للثغور ، والمدن الساحليه بغرض اسقاطها وتتحول الى عمليات حصار غير مباشر تستهدف تحطيم ارادة الخصم ، عن طريق قطع اتصالاته عبر البحار ، والتي عرفت ـ فيما بعد ـ "بالمحاصره الاقتصاديه" على حين عرفت العمليات الأولى "بالحصار الحربى" وهما نوعان من الحصار مارسته كل من الامبراطوريه البيزنطيه ، والدوله الاسلامية منذ لقائهما الأول فى القرن السابع الميلادى .

كان عماد تشكيل الأسطول البيزنطى هو السفينه "درمون" أو العداء وهى مصممه لتحمل ثلاثة صوارى عليها ثلاثة أشرعه منفصله بالاضافه الى مائه مجداف ، يعمل خمسون على كل جانب فى صفين يعلوا الواحد الآخر . وعلى الرغم من تعدد طرازات "الدرومون" فان تصميمها كان على أساس ألا يزيد طولها عن ١٣٠ قدما مع تغير عرضها ، فبعضها كان بعرض يكفى لكى يعمل مجدفان على المجداف الواحد ، وبعضها كان أكبر عرضا ليسمح بعمل ثلاثة مجدفين على كل مجداف من مجاديف الصف العلوى وفى نفس الوقت تتسع لاستيعاب مزيد من الجنود ، والأسلحه . أما السفن الاكبر عرضا ، فقد تميزت بالتوازن بين القوة ، والسرعه اللتين اكتسبتهما من الاسلحه الاضافيه ، ومن امكانيه مضاعفه اعداد المجدفين على المجداف الواحد . ومثلها فى ذلك مثل سائر السفن الحربيه ، برزت مقدمه "الدرومون" لينتهى طرفها "بدكمة الخرق" . ولكن الأهم من ذلك ماجهزت به تلك "المدمرة" من أبراج فى المقدم ، يحتمى بداخلها الجند ، وهم يمطرون

سفن أعدائهم بوابل من نيرانهم . أما " الدرومون " الكبرى ، فقد أضيف اليها برج فى الوسط يبرز خارج جانبى سور السطح ، مدلى من كل طرف من طرفيه ثقل كبير، يسهل اسقاطه فوق رؤوس مجدفى السفن المعاديه عند الالتحام. وبصفة عامة كانت جميع السفن مزوده بقواذف اللهب فى المقدم، بينما تحمل السفن الكبرى " قواذف الصواريخ " على حين كانت السفن الأكبر من ذلك مسلحه - بالاضافة لكل هذا - بقاذفه لهب على أحد الأجناب، وأخرى بالمؤخرة . ولما كان خصومهم يستخدمون النار بشكل أو بآخر، فقد عمد البيزنطيون - حماية للأجزاء المعرضة من سفنهم - الى تغطيتها بقطع كبيرة من جلد الحيوان المشبعه بمحلول " الخل " الذى يبطل مفعول النيران وهو ماتفشل فى تحقيقه مياه البحر.

ومن ناحيه أخرى ، أنتظمت الاساطيل البيزنطية فى مجموعات اقليميه لها كل مقومات القوة من سفن وأطقم ، تتمتع بنوع من الاكتفاء الذاتى تدعمها ترسانات وصناع مهرة ومواد لاصلاح وبناء السفن ومراكز تدريب، بالاضافة الى تشكيل أسطول مركزى قوى .

****

الباب الثانـــــي

العصر الاســــــلامي

فتوحات العرب ، وبزوغ القوه البحريه الاسلاميه (٦٣٤-١٢٥٢م/ ١٣-٤١٣هـ)

حقيقه أن عرب الجزيره لم يشتهروا بطواف البحر بالقدر الذى اشتهرت به شعوب عالم البحر المتوسط، غير أن دنو فتوحات العرب من شواطىء البحار، وسكناهم للشعوب البحريه ، جعلهم يفطنون لأهميه القوة البحرية ، لدعم فتوحاتهم البريــه ، والحفاظ على مكاسبهم ، فبدءوا يستفيدون من خبره سكان البلاد التى خضعت لحكمهم فى بناء تلك القوة ... وقامت امبراطوريه اسلامية ضمت كل غرب آسيا ، حتى سواحل شرقى حوض البحر المتوسط، وكل شمال افريقيا ، وأسبانيا ، وجنوب فرنسا ، وغالبية جزر هذا البحر .

ففى الربع الأول من القرن السابع الميلادى كانت الحروب المتواليه قد أنهكت الامبراطوريتين العظمتين المتصارعتين - فارس وبيزنطه - فوهنت قواهما العسكريــه ، والاقتصاديه ، بينما ظهر فى جوف صحراء العرب الدعوة للدين الاسلامى على لسان سيد الأنبياء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . وفى عام ٦٢٨م - بعد عام واحد من انتصار البيزنطيين (أو "الروم" كما عرفهم العرب) على الفرس فى موقعة " نينوى" - وصلت رساله لكل من هرقل امبراطور الروم ، وكسرى عاهل الفرس يدعوهما فيها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام للدخول فى الدين الجديد ، ومنذ ذلك التاريخ اندلعت الحروب بين العرب والمسلمين والامبراطوريتين الكبيرتين .

اندفع العرب المسلمون - عام ٦٣٤م - من صحاريهم صوب الشمال والغرب حيث خضعت لهم سوريا عام ٦٣٤م (موقعه اليرموك) ، وتبعتها مصر فى عام ٦٤٠م (موقعة حصن بابليون) ، ثم سقطت الاسكندرية عام ٦٤١م . وبسقوط الاسكندرية انقطعت الصله المباشرة التى كانت للتجار البيزنطيين بالبحر الاحمر، والمحيط الهندى وأصبح العرب ، والفرس شركاء فى حركة التجارة المنقولة بحرا بتلك المناطق . ولعل السهولة

التى تم بها غزو إقليمى مصر وسوريا ترجع، الى جانب الأسباب الدينيه والاقتصادية ، الى اعتماد بيزنطة الكلى على القوه البحريه فى حماية الامبراطورية، واهمالها لأمر القوات البرية ، مما أفقدها القدرة على مواجهة غزو برى واسع النطاق .

ومما لا شك فيه أن العرب المسلمين الأوائل كانوا سادة الحرب البريه وحديثى العهد بالبحر وبالأساطيل ، وبنظم المدن الساحليه ، الأمر الذى دفعهم لاختيار المدن الداخليه عواصم لحكمهم ـ مثل دمشق فى سوريا ،والفسطاط فى مصر ـ على عكس الاغريق والرومان . ولكن عندما قادتهم غزواتهم الى مشارف البحار ،أدرك العرب ما للبحر من أهمية ، وكان معاوية ـ والى سوريا ـ أول من فطن لذلك . فالحقيقة أن الموقع الجغرافى لسوريا ، ومصر جعل منها بلادا لا يمكن عزلها عن البحر المتوسط، فلو أن العرب استمروا فى اغفالهم للشئون البحريه ، وأهملوا العلاقات التجارية التى كانت قائمة فى حوض البحر المتوسط لأدى ذلك الى أن تفقد هذه الاقاليم ثرواتها وينضب منها معين الذهب ، وأن تظل ممتلكاتهم الجديده معرضه لخطر هجوم أعدائهم على مدنها الساحليه ، فما زال البيزنطيون يملكون زمام البحر . ومما يؤكد هذه الحقائق الحاح معاوية على عمر بن الخطاب فى غزو بلاد الروم بحرا ،وهو ما دعا أمير المؤمنين الى أن يرسل لعمرو بن العاص والى مصر يسأله عن البحر، وماكتبه عمرو بن العاص فى رسالته الشهيره لعمر يصف له فيها البحر، وراكبيه والتى يقول فيها : " يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت البحر خلقا كبيرا ، يركبه خلق صغير، ليس الا السماء والماء"، الى أن يقول فى نهاية رسالته" هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وان نجا برق " ا فكتب عمر الى معاوية رافضا طلبه ،ويقول فى اجزاء من رسالته : " لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما ابدا ،وأنا سمعنا ان بحر الشام يشرف على أطول شئ على الارض ... والله لمسلم الى أحب مما حوت الروم ،فأياك أن تعرض" ...... الى آخر الرسالة .

لذلك نجد أن العرب اعتمدوا فى بادئ الأمر،فى مواجهتهم لقوة الروم البحريه التى داومت على الاغارة على " أنطاكيه " القريبه من قواهم ،على نظام " الرباط "

الذى يقوم على عدد من الحصون القوية يتجمع فيها الجند ، للدفاع عن المناطق الساحليه التى تتعرض لاغارات أساطيل الاعداء ... إلا أن سيطرة الروم البحرية على مياه شرقى البحر المتوسط ـ حتى ان العرب أطلقوا عليه "بحر الروم" ـ جعلت معاوية يزداد إيمانا بضرورة أن يكون للعرب قوة بحريه قادره على التصدى لأساطيل الروم التى مابرحت تهدد أمن الولايات العربية وأن على العرب أن ينتهجوا استراتيجية بحريه هجوميه .

استغل البيزنطيون حداثه عدوهم الجديد بالشئون البحريه ، وسارعوا يضربونه فى موطن ضعفه ، فأغارت أساطيلهم عدة مرات ـ بقياده هرقل ـ على مدن سوريا الساحليه وخصوصا أنطاكيه حيث لاقى العرب عناء كبيرا فى رد المغيرين . وفى عام ٦٤٥م جهز الامبراطور البيزنطى " قنسطانز الثانى" حملة بحريه بريه ضخمة بقيادة "مانويل" أعظم قادة الروم لاخراج العرب من الاسكندرية . ولاترجع أهميه الاسكندرية بالنسبة للبيزانطيين الى أنها كانت عاصمة حكمهم فى مصر فحسب ، بل وأيضا لأنها كانت أحد كبريات مصادر القمح للقسطنطينية .

كانت هجمة البيزنطيين على الاسكندرية هى أكبر حافز لمعاوية لينظم أسطولا حربيا فكان أول وال عربى يرسل حملة بحرية للغزو فى البحر المتوسط، اذ خرج معاويه ومعه امرأته من عكا فى عام ٦٤٨م على رأس أسطول بقيادة "عبد الله بين قيس الحرسى" متجها الى قبرص حيث لحق به أسطول اسلامى آخر من مصر تحت إمرة " سعد بن أبى سرح" ليصبح عدد السفن الاسلامية قرابة ١٧٠٠ سفينه حربية ونقل ، أخضعت قبرص ، واضطر القبارصه لمصالحه معاوية على جزيه ٧٢٠٠ قطعه ذهب تدفع لدمشق سنويا وأن يبلغوه بأية محاولة لهجوم "الروم" وان يسمحوا بأن تكون جزيرتهم قاعده هجوم للعرب ضد العدو ،وأن يمتنعوا عن مد العدو بأى عون . ثم بعدها بسنة واحدة سقطت جزيره "أرواد" فى يد العرب ، والتى كانت آخر وأقوى معقل للروم على السواحل السوريه .

توالت حملات العرب البحريه من قواعدهم فى مصر وسوريا خلال السنوات السته التاليه والتى كان أهمها معاودة الهجوم على قبرص لنقضها لشروط الاتفاقيه . ففى عام

٦٥٤م(٣٣ هجريه) سار أسطول قوامه ٥٠٠ سفينه تحت إمرة" أبى الأعور" الى قبرص،وأخضعها ، وعاد القائد الى سوريا بعد أن حطم تماما ميناء " قسطنطينا" ، وترك وراءه قوة من ١٢ الف رجل أقاموا فى مدينه شيدت خصيصا لهم . وبعدها هاجم "أبو الأعور" بأسطوله جزيرتى " صقليه" و " كريت " وعاد منها بغنائم كبيره .

شجع نجاح هذه الحملات معاوية على الاعداد للهجوم على القسطنطينية ذاتها ، فشرعت ترسانات الاسكندرية ، وطرابلس فى بناء السفن الحربيه ،وتجهيزها ، مما أثار المخاوف فى نفوس الروم لما استشعروه من قوة شكيمه العرب ،وأن فتوحاتهم لن تقف عند حد . فبادر " قنسطانز الثانى" ـ عام ٦٥٤م(٣٤هـ) ـ بتجهيز أسطولا من ٧٠٠ ـ ١٠٠٠ سفينه وأبحر به الى مشارف الاسكندريه حيث التقى بأسطول المسلمين الذى لم يتجاوز مائتى سفينه عند " فونيكه" غربى الاسكندرية (٢٩ أغسطس سنة ٦٥٤م) وكان الأسطول المصرى بقيادة" عبدالله بن أبى السرح" الذى انتابه القلق لتفوق أسطول الروم فى العدد على أسطول المسلمين ،ولكن كم من فئة قليله غلبت فئة كبيره باذن الله . التحم الاسطولان أولا بالسهام ،ثم أطلقوا الحجارة ، وأخيرا ربط المسلمون سفنهم بالسلاسل وتلاحموا مع الروم بالسيوف والخناجر. وكانت خطة ربط السفن بالسلاسل مع سفن الروم تهدف الى تطبيق أساليب القتال برا ـ التى حذقها العرب ـ فى القتال بحرا ، الذى حذقه الروم ، وجاءت الخطة فى صالح المسلمين ، فقد وجد الروم ألا قبل لهم بالصمود أمام هجمات المسلمين ، فهربوا وتشتتوا ، ودمر الأسطول البيزنطى عن آخره.وقد عرفت هذه الموقعه فى المراجع العربية بموقعه " ذات الصوارى " لكثره ساريات السفن التى اشتبكت فى القتال . وكان انتصار أسطول المسلمين فى تلك الموقعه بمثابة إنذار للبيزنطيين بالكف عن الإغاره على ممتلكات المسلمين ، فتراجعت أساطيل الروم عن هذه المنطقه من البحر المتوسط. ولعل ماكان يأمل فيه " قنسطانز" هو هزيمة العرب بحرا كى تتاح له فرصه استرداد سوريا ،ومصر، واستعاده مجد الامبراطوريه القديم ، وأن يحول ـ أيضا ـ دون وصول المسلمين الى سواحل الاناضول ،وماتزخر به من غابات السرو أحد المصادر الهامة للأخشاب اللازمة لبناء السفن .

ومن الملاحظ أن اللقاءات البحريه التى تباد لها العرب والروم ـ حتى ذلـــك الوقت ـ أتخذت شكل الاغارات والهجمات الخاطفة ، فلم تنته الى نتائج حاسمة ... فلا العرب فرضوا سيادتهم على شرقى البحر المتوسط، ولا هم خلصوه نهائيا ، مـــن سيطره الروم .

وعلى هذا ، فيمكن اعتبار انتصار العرب فى موقعه " ذات الصوارى " هو بدايـه فترة " هدنه" مع الروم ،لا سيما أن الجانبين شغلا ـ بعدها ـ فى حل مشاكلهمـــا الداخليه ، والتى اقتضت المصلحه أن يوقف كل منهما حربه ضد الآخر ،وهو توقـــف دام قرابة عشر سنوات الى أن استقرت الخلافة لمعاوية فى الشام ،وأعاد "قنسطانـــز" تثبيت دعائم ملكه فى الغرب ، فنشب صراع طويل بين القوتين البحريتين دام أكثر من ثلاث قرون .

الصراع البحرى العربى البيزنطى

انتظمت القوة البحرية الاسلامية فى العصر الأموى فى ثلاثة أساطيل شبــــه مستقله يتبع كل منها اقليم مستقل وهى : أسطول مصر ، وأسطول سوريا ،وأســـطول شمال أفريقيا . والى جانب هذه الأساطيل تشكلت مجموعه بحريه للعمل فى البحـر الاحمر، تتبع قيادة الأسطول المصرى . وانعقد لواء كل واحد من هذه الأساطيـل لأمير من امراء البحر،والمعتقد أن أمير البحريه المصريه هو الذى كان القائد العـام لجميع الأساطيل ، على حين استقل أسطول شمال افريقيا بعملياته .

كما اتجه اهتمام المسلمين الى دعم صناعة بناء السفن ، وتقوية القواعد ، والمراكز البحريه مستعينين فى ذلك بمهارة وخبرات المصريين والسوريين ، فقامت "دور الصناعه" الحديثه فى المواقع الاستراتيجيه الهامة فى مصر ،وسوريا ،لبناء السفن وترميمهـــا ، والى جانبها أنشئت مراكز التدريب وكان لها الفضل الأكبر فيما أحرزه العرب من تقدم ملموس فى فنون القتال البحرى .

ماكاد الأمر يستتب لمعاويه حتى أدرك أن القسطنطينيه هى مصدر كل مايتعرض له العرب فى حوض البحر المتوسط من مخاطر، وأن على العرب أن يفصلوا نهائيـا فى أمر سيادة هذا البحر، لذلك أصبح اسقاط القسطنطينيه هو المحور الذى تدور حوله سياسة معاوية البحرية .

وانطلاقا من سياسة " معاوية" ، توالت هجمات الأمويين ـ بحرا وبرا ـ على القسطنطينيه فيما بين سنة ٦٦٣م (٤٣ هـ) وسنه ٦٧٠م (٥٠هـ) ، ومع أن جميعها لم تنجح فى اسقاط عاصمة الروم، إلا أنها أكدت لهم أن صراعهم مع العرب ـ حتى فى البحر ـ سيكون مريرا .

ويمكن القول بأن استراتيجية العرب لاسقاط القسطنطينيه لم تأخذ شكل الحرب الشاملة الا فى سنة ٦٧٣م (٥٣هـ) عندما بدأ الحصار الأول للمدينة ، الذى استنفذ سبع سنوات تخللتها هجمات بحرية وبرية شنها العرب سنويا، الى أن انتهت بعقد اتفاقيه سلام بين الجانبين بعد أن فقد المسلمون غالبيه سفن أسطولهم .

وعاود المسلمون ـ سنة ٧١٧م (٩٩ هـ) ـ حصار القسطنطينيه ، وحاولوا عزلها عن البحر الأسود ، الطريق الرئيسى لوصول الامدادات والتعزيزات اليها ، إلا أن المحاولة باءت بالفشل بعد عام من الحصار، فاضطرت الحملة للأنسحاب الى سوريا .

ولنا أن نتساءل عن العوامل التى كانت وراء فشل الأمويين فى اسقاط القسطنطينيه على الرغم من بسالتهم واصرارهم، وما أسباب انتصار الروم .

اتفق جميع المؤرخين وغالبيه الكتاب العسكريين على أن أهم هذه العوامل هى :

(١) الموقع الجغرافي لبيزنطة ، وتحصينات العاصمه .

(٢) القوة البحريه البيزنطية ، وروعة تنظيمها .

(٣) النار الاغريقية التى جهل العرب سرها آنئذ .

فالموقع الجغرافي لبيزنطة أتاح للقسطنطينيه حماية طبيعية لسفنها ، ومنشآتها البحريه . فبحر الأرخبيل (ايجه) حتى الدردنيل بما يضمه من جزر وخلجان يشكل نطاقا يقى العاصمة هجمات العدو ، بينما يقف بحر مرمرة حاجزا مائيا منيعا ، على حين كانت قواعد العرب البحرية فى كل من سوريا ، ومصر ، وشمال أفريقيا مراكز مكشوفة يسهل الوصول اليها وضربها . ومن ناحية أخرى كانت تحصينات القسطنطينيه يتعذر التغلب عليها ، فقد كانت الأسوار البرية التى أقيمت منذ القرن الخامس الميلادى من جدار داخلى وآخر خارجى تعتبر أقوى ماعرف فى تلك العصور . وقد شيدت الأسوار الداخليه على بعد بضعه ياردات خلف الأسوار الأماميه ، وتعلو عليها ، حتى يمكن قذف النار الاغريقية على المحاصرين . أما الأسوار البحريه فكانت أقل مناعة اعتمادا على حراسة الأسطول لها الذى كان رابضا فى ميناء "القرن الذهبى" تحميه السلسلة الحديديه الممدودة عبر مدخله التى حالت دون مهاجمة السفن الاسلامية لسفن الروم داخل الميناء ، مما ترتب عليه عدم اقدامهم على مهاجمه القسطنطينيه من جهة البحر خشية تعرضهم لهجوم مضاد من السفن البيزنطيه التى يمكن اطلاقها من مربضها المؤمن فى القرن الذهبى . وهذه الحقيقه ثبت صحتها فيما بعد ، فلم ينجح الأتراك العثمانين فى فتحها سنه ١٤٥٣م الا بعد أن ثبتوا أقدامهم على ضفتى البسفور ، ومرة أخرى إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) عندما فشل الحلفاء فى الاستيلاء على المدينه ، لافتقارهم لمراكزبريه شرقى وغربى البوغاز على الرغم من استخدامهم للطائرات .

أما تنظيم القوة البحريه البيزنطية والذى سبق تناوله ، فقد أتاح للروم استخدام أساطيلهم بطريقه مرنه ، ومؤثره فى شرقى البحر المتوسط وغربيه ، وأعطى صورة واضحة لاستراتيجية بيزنطه البحريه التى استهدفت فرض سيطرة فعالة حفاظا على مصالحها ، وأراضيها فى حوض البحر المتوسط ضد أطماع الغزاة . هذا وقد أتاحت مراكز ومحطات التموين المتناثره فى المواقع الاستراتيجيه الحاكمه أن تمتد عمليات أساطيلها الى كل ركن من أركان البحر المتوسط ، وسرعه انتقالها من منطقة الى أخرى مع قدرتها على تأمين خطوط مواصلاتها البحريه ، والحفاظ عليها مفتوحه أمام حركة نقل الامدادات والتعزيزات . وعلى العكس ، جانب العرب التوفيق فى تنظيم قوتهم البحرية بالقدر

الذى يجعلها ندا لبحرية الروم، وذلك لافتقارهم للخبرة فى الشئون البحرية على الرغم مما بذلوه من محاولات لمحاكاة التنظيمات الروميه . ولقد كان من العسير على المؤرخين الاستدلال على استراتيجيه بحريه واضحه للعرب ـ فى ذلك العصر ـ مثلما استدلوا على استراتيجيه حروبهم البريه، لذلك فلا يمكن القول إلا أن عمليات العرب البحريه فى العصر الأموى لم تخرج ـ فى معظمها ـ عن اغارات خاطفه، ومحاولات حصار لم ترق الى مستوى مفاهيم التخطيط البحرى التى كانت لاعدائهم .

واخيرا النار الاغريقيه السلاح الرهيب الذى حافظ الروم على سر تركيبه، وتوسعوا فى استخدامه بوسائل متنوعه من الأقواس، والقواذف، والصواريخ المشتعلة، وقاذفات اللهب، مما أدى الى تكبيد الأساطيل العربيه خسائر فادحة، لم يكن من السهل استعواضها، وهو مايمكن ملاحظته من توقف الحملات البحريه ـ من ناحيه العرب ـ لفترات طويلة لاعادة بناء أساطيلهم، وتسليحها وتطقيمها، وتدريب الأطقم والجند .

التوسع الاسلامى

هو الاعصار المدمر، فقد اجتاح العرب المسلمون ـ منذ العصر الأموى ـ شمال أفريقيا، وعبروا مضيق "عمد هرقل" الى أسبانيا ونزلت قوات "طارق بن زياد" (٧١١م) عند سفح جبل لايزال يحمل اسمه، وتغير اسم المضيق الى "مضيق جبل طارق". تحول فتح أسبانيا (مملكه القوط الغربيين) الى سلسلة متلاحقه من العمليات البريه، وانطلقت جيوش العرب عبر جبال البرانس، واستولوا على الاقاليم الجنوبيه لبلاد الغال (فرنسا). وعلى الرغم من أن "موسى بن نصير" (والى أفريقيا)، وطارق بن زياد لم يستخدما الأساطيل فى فتح أسبانيا، الا أنه مما لا شك فيه أنهما اعتمدا عليها فى حماية خطوط المواصلات البحرية الطويله فى شمال أفريقيا ضد تدخل قوات الروم البحريه . ففى زحفهم استولى العرب على جزيره "قوصرة" (بنتلاريو) القريبة من الساحل الأفريقى، وسيطروا على المضيق الفاصل بينه وبين جزيره صقليه، وأغاروا على "سردينيا" وجزر "البليار"، و"صقليه" و"مالطه" و"كورسيكا"، وبضياع هذه الجزر انشلت حركة أسطول الروم فى قواعده، فانفتح الطريق أمام طارق بن زياد الى أسبانيا، وجنوب

أوروبا ،وأصبح العرب - فى منتصف القرن الثامن الميلادى - يحتلون ثلثى سواحل البحر المتوسط، ويسيطرون على غالبيه جزره ذات المواقع الاستراتيجيه الهامه ، هذا بجانب القاعده القوية التى أقامها عبد الله بن مروان فى " قرطاج" منذ سنة ٦١٨م وما شيده" موسى بن نصير" (والى أفريقيا) من دور صناعه لبناء السفن ،إختار لها موقعا على بحيره بعيدا عن الشاطئ، إحكاما لحمايتها من إغارات الروم ،ثم وصلها بقناه .... وهكذا أقيمت فى تونس قاعده أمينه للأسطول العربى ، أضيفت للقواعد القديمه فى مصر ،وسوريا .

عاصرت هذه الانتصارات الفترة التى انشغلت فيها بيزنطه بالانشقاقات الدينية وبالدفاع عن أراضيها ،الى أن استطاعت فى عام ٧٤٢م - بمعاونة" البندقيه" والبابويه- أن تستعيد جانبا من ممتلكاتها فى ايطاليا ،ونفوذها البحرى فى المنطقة .

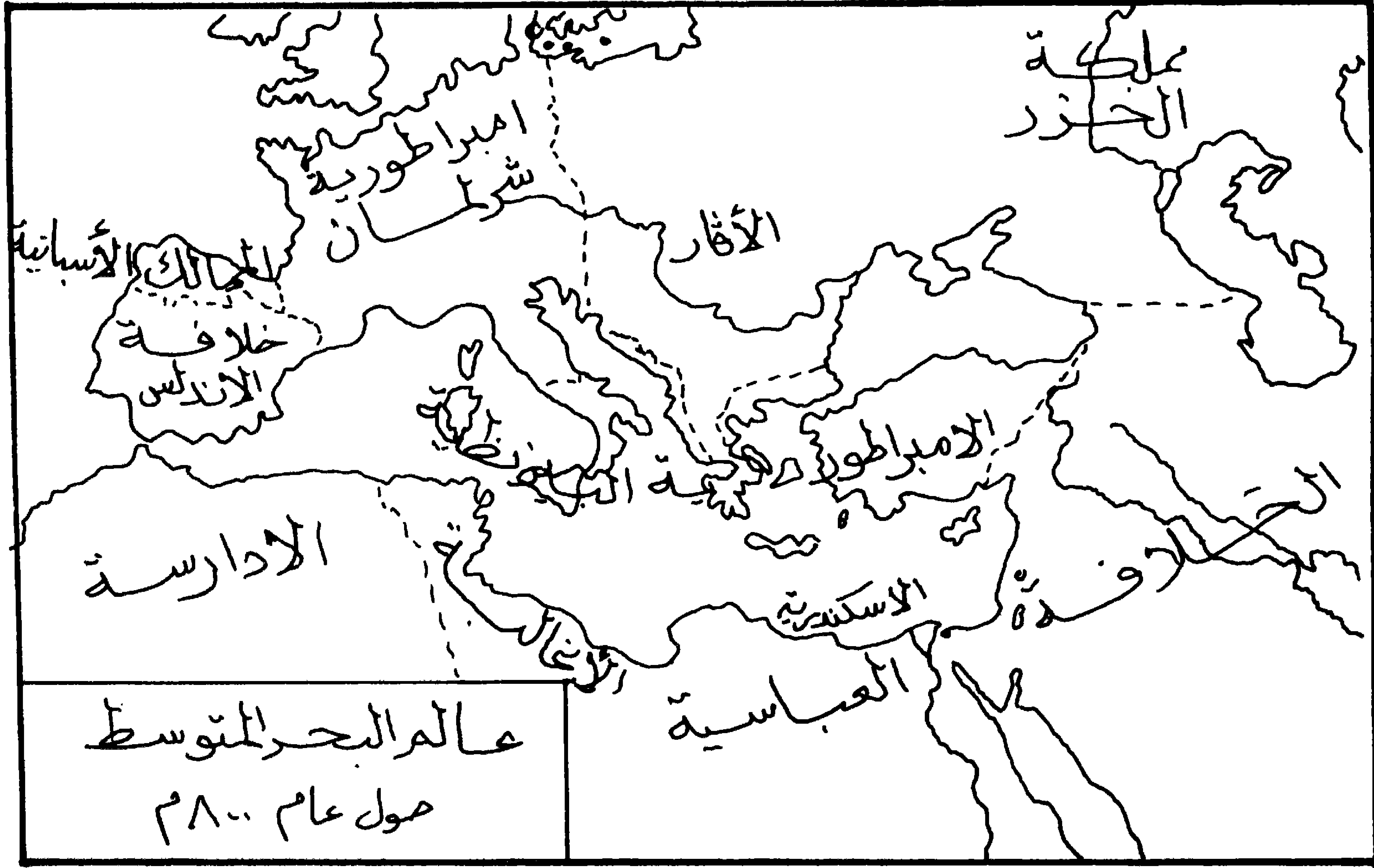
تنازعت القوتان الاسلامية ،والبيزنطية السياده على مياه شرق البحر المتوسط، الا أن الانتصار الحاسم الذى حققه الأسطول البيزنطى - عام ٧٤٧م - أعاد لبيزنطه سيادتها البحريه . ومن ناحيه أخرى ،أتاح طول مدة هذا النزاع فرصه تحرر"البندقيه" وجنوب ايطاليا - عام ٧٥٤م - من قبضه القسطنطينيه ، وهو حدث سيترتب عليه نتائج هامة ، ومؤثره فى تاريخ حوض البحر المتوسط . وبانتصارات بيزنطه ،تصدعت الوحدة الاقتصادية التى كانت تربط الولايات الاسلامية ، واندلعت فيها الثورات والفتن فتمزقت دولة الأمويين لتنتقل الخلافه الى " بغداد " عاصمة العباسيين ،وتحول مركز الثقل الاقتصادى والسياسى الى اقليم " داخلى" يرتبط فكريا وثقافيا بوسط آسيا ، والمحيط الهندى . وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط انتزع " الفرنجه" من قبضة العرب المناطق الساحليه من جبال البرانس حتى إيطاليا وبدأت أوربا تظهر على مسرح البحر المتوسط .

الخلافة العباســـــية

آلت سوريا ، ومصر للعباسيين بينما ظل الأندلس خاضعا للأمويين ، واســـتقل " الأدارسة" بمراكش (٧٨٨م) ، والأغالبة بتونس(٨٠٠م) ،ومع ذلك لم تكف الأساطيل العربية عن مناوأة قوة بيزنطة البحرية ، والاغارة على الجزر ذات المواقع الاستراتيجية في البحر المتوسط،وفي مقدمتها" قبرص" و " كريت" اللتان استخدمتهما الأساطيـــل العربية لشن الهجوم على التجارة البحرية ببحرإيجه . وعلى الرغم من الهجمـــات البحرية المضادة التي قام بها البيزنطيون ضد سواحل مصر وسوريا ، إلا أن أســطول " أحمد بن طولون" الذى قاده" ليو الطرابلسي" نجح - في ٢٦ يوليو عام ٩٠٤ الموافق ١٠ رمضان عام ٢٩١هـ - في تدمير " سالونيك" أقوى قواعد بيزنطه البحريه ،وبذا أمنت ثغور وسواحل سوريا ،ومصر شر الأسطول البيزنطي لمدة طويلة آلت خلالها للأساطيل العربية السياده على شرقي البحر المتوسط .

أصبحت بيزنطه محاطة بقوى المسلمين البحرية التي تتمركز في ثلاثة مناطق رئيسية :
(١) قوة الشرق وتعمل من كريت ،ومصر،وسوريا (٢) قوة الوسط وتعمل من المغـــرب وصقلية (٣) قوة الغرب وتعمل من الأندلس ،وحصر العرب النشاط البحرى البيزنطـي في المياه الضيقه لبحر قزوين ،والبحر الأسود ،وأجزاء محدودة من البحر الأدرياتيكي ، على حين ازدادت موارد العرب من المواد اللازمة لصناعه السفن،الأمر الذى ساعدهم كثيرا على التوسع في بناء الأساطيل الحربيه ،وبعضا من السفن التجارية .

ومع ذلك توقف نشاط الأسطول المصرى عقب فتح " سالونيك" بسبب تصاعد الصراع بين الخلافة العباسية ،والدولة الطولونيه التي كان قد اعتراها الوهن والضعف فـي مصر، وهو الصراع الذى انتهى بعوده مصر لسلطان العباسيين ،ثم استقل بهـــا الاخشيديون الذى عانى حكمهم انحلالا شديدا لدرجة أنهم عجزوا عن الدفـاع عـن " دمياط" عندما أغار عليها أسطول بيزنطي صغير عام ٩٥٨م/ ٣٤٧هـ وقتل وأسر نحو ١٥٠ من أهلها .


مملكة الخزر
امبراطورية شارلمان
الممالك الأسبانية
خلافة الأندلس
الأفار
الامبراطورية البيزنطية
الأدارسة
الأغالبة
الاسكندرية
الخلافة العباسية
عالم البحر المتوسط
حول عام ٨٠٠م

العصر الفاطمى

منذ أسس الفاطميون دولتهم فى المغربين الأدنى والأقصى سنة ٩٠٨م/٢٩٦هـ، وهم مهتمون اهتماما كبيرا بشئون البحرية - تجارية وحربيه على السواء - وبتنظيم ودعم أساطيلهم وتقوية الحصون والثغور ، فانتشرت دور صناعة السفن ، والقواعد البحريه الحصينه التى زودوها بأبراج المراقبة ،كما جهزوا سفنهم بالنار الاغريقيه لتكون ندا لسفن بيزنطة ،وخصصت لحملها سفن سميت" الحراقات" . ويمكن القول - بحق - أن الفاطميين كانوا أعظم الدول الاسلامية عناية بالقوة البحرية بعد الأمويين ،وهذا أمر يتضح من اعتمادهم على الأساطيل فى بسط نفوذهم على بلاد المغرب ،وفى تحدى السيادة التى كانت للأمويين بالأندلس على البحر المتوسط، ثم فى غزو السواحل الايطالية وتهديد أمن مدنها . ولعل أكبر دليل على الاستراتيجية البحرية التى انتهجتها الدولة الفاطيمية أنهم أقاموا عاصمتهم"المهدية" ذات الموقع الطبيعى الممتاز، والتحصينات المنيعة (٩١٥م/٣٠٣هـ)،على شاطىء البحر المتوسط بشمال أفريقيا ، وشيدوا بها دار صناعة كبيرة لبناء السفن ،وهم بذلك يكونوا أول الحكام المسلمين الذين أقدموا على مثل هذا العمل . وعلى امتداد حكمهم ،لم يكف الفاطميون عن"الجهاد" ضد البيزنطيين ،فمن قواعدهم فى المغرب أغارت أساطيلهم بقيادة " صابر الفتى" ، و" سالم راشد الكنانى" على " طارنت" ، و "ساليرنو" ، و" نابولى" سنة ٩٢٩م/٣١٧هـ،ثم بقيادة " يعقوب اسحاق" أغارت أساطيلهم على " جنوه" ، و" سردينيا" ،و" كورسيكا" ، وبلغت العمليات البحريه الفاطيمية ذروتها بفتح " جنوة" سنة ٩٤٥م/٣٣٣هـ وغزو الساحل الجنوبى لفرنسا . لقد أعجز هذا النشاط البيزنطيين عن مواجهة قوة الفاطميين البحرية ، وانهزموا أمام أساطيلهم فى موقعتين بحريتين حاسمتين الأولى عند" اذرنت" باقليم" قلورية" (الطرف الجنوبى الغربى من شبه الجزيره الايطاليه) فى سنة ٩٥١م/٣٤٠هـ ، والثانيه - " موقعة المجاز" - بالقرب من " رمطه" (بصقلية) سنه ٩٦٢م/٣٥١هـ .

توج الفاطميون انتصاراتهم بفتح مصر سنة ٩٦٩م/٣٥٨هـ على يد القائد المظفر " جوهر الصقلى" فى عهد الخليفه المعزلدين الله،الذى استطاع بفضل الأسطول المصرى أن يفتح الشام(٩٧٦م/٣٦٥هـ) ، وبذلك دخلت البحرية الاسلامية عهدا

جديدا أصبحت فيه مسئولة عن أمن وسلامه البحر الأحمر ضد قرامطة البحرين ، والقراصنه ،وسواحل البحر المتوسط شرقيه وجنوبه وغربه ضد أطماع بيزنطه ،والأمويين بالأندلس . كما كان لارتباط مصر والشام - لأول مرة في تاريخهما الإسلامي - بوحدة سياسية شاملة أثره الكبير في ردع الأساطيل البيزنطية التي ما فتئت تغير على ساحل سوريا ، وتنتهك ثغورها ومدنها وبالتالي الحفاظ على النفوذ العربي في شرقي البحر المتوسط - مثلما حافظوا عليه في غربيه - خصوصا وأن الشام كانت في اعتبار الأئمة الفاطميين " أرض جهاد " لاتصال حدودها الشمالية بالاراضي البيزنطيه . فمما يذكر أن استخفاف البيزنطيين لخلافة العباسيين كان قد بلغ حدا جعلهم يعمدون الى الهجوم على الشام ،وانتزاع بيت المقدس منهم. وفي سنة ٩٧٥م/ ٣٦٤هـ أبحر الأسطول البيزنطي الى الشام ،وفتح عددا من مدن الشمال ، ثم زحف جنوبا ، واستولى على بيروت ،وصيدا ،وصور، وعسقلان إلا أن القوات البيزنطية وقفت أمام " طرابلس " لمناعه أسوارها ، وحصانه الدفاع عنها التي مكنت هذه المدينه - بمؤازرة الأسطول المصرى - من انزال هزيمة نكراء بالأسطول البيزنطي اضطرته للانسحاب . وبعد أن وطدت الدولة الفاطمية سلطانها في القواعد البحريه في الشام، شرعت في مطاردة الفلول البيزنطيه في البقاع الشماليه .

كانت محاولة بيزنطه الاستيلاء على بيت المقدس حافزا قويا للفاطميين للتوسع في انشاء دور صناعه السفن ، وتنميه ودعم أساطيلهم ،وخصوصا في مصر باعتبارها الاقليم الذى يتوسط العالم كله . فقد وضع الأسطول المصرى نفسه في خدمة الجيش الفاطمي في قتاله ضد قرامطه البحريين في الشام ،ومصر خلال الفترة من ٩٧٠م / ٣٥٩هـ إلى ٩٧٢م/ ٣٦١هـ عندما انهزم القرامطه ،وانسحبوا عائدين الى صحاريهم في " الاحساء" . ومنذ ذلك التاريخ ،لم يتوقف الأسطول المصرى عن الابحار من تنيس ،ودمياط،والاسكندريه للقيام بدوريات حراسة عند صور وطرابلس لتأمين حصون الشام، والدفاع عنها . كما اشترك الاسطول المصرى أيضا في اخماد الثورات في الشام،والتي كانت أخطرها ثورة " العلاح" المعروف باسم" العلاقة" في مدينه"صور" سنة ٩٩٧م/ ٣٨٧ هـ- أيام خلافة الحاكم بأمر الله .

فتوحات الرسول
فتوحات الخلفاء الراشدين
فتوحات الأمويين
فتوحات العباسيين

أما المعارك البحريه التى اشترك فيها الأسطول المصرى ضد البيزنطيين بعد هزيمتهم عند طرابلس(٩٧٥م/ ٣٦٥هـ) فقد كانت احداها دفاعا عن الاسكندرية عند ما حاول أسطول بيزنطى (عام ٩٩٣م/ ٣٨٣هـ) الاقتراب من المدينه ،فتصدت له السفن المصريه وردته على أعقابه ،وفى سنة ٩٩٦م/ ٣٨٦هـ ،قام الأسطول المصرى بغزو الساحل البيزنطى ،وعاد ومعه بعض الأسرى ،ومرة أخرى تعرضت " طرابلس" لحصار بيزنطى من البحر والبر ، فاشتبكت السفن المصريه مع قوة الحصار البحرى (عام ٩٩٩م/ ٣٩٠هـ) فى معركة سريعه انتهت بهزيمة البيزنطيين ،فأضطروا للتخلى عن حصار المدينه .

ويمكن القول بأنه منذ مطلع القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) ساد شبه سلام بين الفاطميين والبيزنطيين ،الى أن نزل الصليبيون ببلاد الشام .

تقييم الصراع البحرى العربى البيزنطى

يعتبر النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) حقبه تحول كبير فى تاريخ عالم البحر المتوسط ـ بل والعالم بأسره ـ نظرا لما حدث إبانها من تغيرات على جانب كبير من الأهمية فى الأوضاع العامة للقوى البحريه .

فبعد نجاح الفاطميين فى ضم مصر،وسوريا ،والحجازالى ملكهم وارتباط القوة البحرية الاسلامية فى شرق البحر المتوسط بالقوة البحرية فى وسطه (صقليه وشمال أفريقيا) ، تحركت بيزنطة أيضا فاستولت على كريت،وقبرص، وطرسوس ،وشمال سوريا ، وعلى أجزاء أخرى من آسيا الصغرى ،والبلقان ،وبذا يكون أباطره القسطنطينيه قد وضعوا قوة بحرية لا يستهان بها فى مواجهة الخلافة الفاطمية فى مياه شرقى البحر المتوسط . هذا وقد أدى التوسع الفاطمى شرقا الى تفكك الأقاليم المغربية ،وتدهور القوة البحرية التى كانت لمحور صقليه/ شمال أفريقيا ،كما انهارت الخلافة الأموية فى الأندلس نتيجه للمنازعات القبليه مما أفقدها هى الأخرى قوتها البحرية .

وقد أغرى ضعف قوة المسلمين البحريه في وسط وغرب البحر المتوسط جماعات العالم الأوربى الغربى على الانقاض على هذه المناطق فازدادت قوة البندقيه وأخذت أساطيل جنوه وبيزا تتحدى قوة المسلمين في غربى البحر المتوسط على حين شرعت جماعات نورمندى وفرنسا في التدفق على ايطاليا عبر جبال الألب وعبرت جماعات أخرى جبال البرانس الى أسبانيا .

وعلى هذا ،دخلت قوى المسلمين في صراع ـ من طراز جديد ـ مع البيزنطيين ، والايطاليين (البندقيه وبيزا) ،ومع الفرنجه الطامعين في خيرات الأندلس . ولم يمضى وقت طويل حتى أخذت هذه القوى المتفرقة توحد كلمتها في ظل الكنيسه ، وامبراطورية روما المقدسة (تضم المانيا ،ومعظم ايطاليا) وغدت اغارتهم أشبه بهجوم شامل موحد يهدد المسلمين ،والبيزنطيين على السواء .

والجدير بالذكر أن الضربة التى تلقتها الخلافة الاسلامية في الشرق على يد بيزنطه ،والتى بها تخلصت من قوى المسلمين أدت أيضا الى سيطرة البيزنطيين على موارد المسلمين من الأخشاب ،والحديد ،وبالتالى أضعفت قدراتهم على بناء السفن ،بالاضافة الى تهيئة الأوضاع المناسبة لتحكم بيزنطه في خطوط المواصلات البحرية بين سوريا ومصر .

نخلص من ذلك إلى أنه في هذه الحقبه من التاريخ ،أخذت السيطره البحرية في شرقى البحر المتوسط تنتقل الى المسيحيين البيزنطيين ،بينما سيطرت المسيحية اللاتينية على غربية . ومما ساعد على حدوث هذا التحول الكبير عاملان رئيسيان : أولهما جغرافيه سواحل شمال البحر المتوسط التى هيأت للعالم البيزنطى ،واللاتينى وقايه طبيعيه ضد هجمات البحرية الاسلامية ،لما تميزت به من كثرة الخلجان ، والتعاريج وانتشار الجزر في مياهه الضيقه ،وثانيهما مانعم به العالم الاسلامى من رخاء وفير ،جعله يغفل شئونه البحريه ،ويتخلى عن اعمال القرصنه التى كانت في الحقيقه بمثابه طلائع قوى الاسلام البحريه ،ودعامه غزواتها ، وهى أعمال لاتقل شأنا عما قامت به طلائع القوى البحرية البرتغاليه والهولنديه ،

والبريطانيه بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون ... وبذا سقط عن الامبراطورية الاسلامية الحاجز الواقى الذى أقامته أساطيل القرصنه العربية فى جزر وشواطىء البحر المتوسط فى وجه الزحف البيزنطى / الاوروبى .

ومن ناحيه أخرى نجد أن النقل البحرى التجارى لم يلعب دوره فى استراتيجية المسلمين على النحو الذى عرفناه فى عصور الامبراطوريات البحرية الكبرى القديمه ، ولعل هذا راجع،أكثر من غيره الى سببين أساسيين : الاول ،افتقار الامبراطوريه الاسلامية لوحدة القياده ،وثانيهما أن مفهوم المسلمين لاستراتيجيه استخدام القوة البحرية كان منصبا على الجانب الحربى منها . فعلى الرغم من التقدم الذى أحرزته الأقاليم الاسلامية فى صناعه السفن ،وماقدمه المسلمون للعالم من مبتكرات علميه فى مجال الملاحه البحريه : كالإبره المغناطيسيه ،والخرائط ،وفنون الملاحه الفلكية ، بل والأشرعه المثلثه الشكل ، الا أنهم غفلوا عن أهمية حيازتهم لأساطيل تجاريه تربط بين أطراف امبراطوريتهم الواسعه . فلو ان المسلمين ملكوا هذه الأساطيل ـ حتى مع افتقارهم للوحده السياسيه ـ لحرصوا على سلامتها ،وعلى أمن حركة النقل البحرى ، ولدفعهم هذا الحرص الى انتهاج استراتيجيه بحرية متوازنه بين الغزو ، وتأمين خطوط المواصلات البحريه . ولكن عدم ممارستهم لعمليات النقل البحرى ، والمعاملات التجارية المصاحبه له ، قلل من اهتمامهم بشأن حمايته فتولى أصحاب المصلحه الحقيقين ـ ومعظمهم غرباء ـ أمر رعاية ،وحماية التجارة المنقولة بحرا ..... ففقد الوجود العربى البحرى معناه واتسم بالسلبيه .

الا أن أهم ماترتب على الأوضاع البحرية والاقتصاديه فى البحر المتوسط ، هو تحول كثير من البلدان الأوربيه مثل"جنوه" ،و" بيزا" ،و" البندقيه" الى النشاط البحرى للحصول على نصيب من خيرات الرخاء الاقتصادى ،كما بدأت أيضا بلدان أوربا تتحرك منجذبة نحو ميدان التجارة الدولية التى زخر بها حوض البحر المتوسط.

ظهور أوربا واندلاع الحروب الصليبيه

شهدت النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى تداعى الامبراطوريتين الاسلامية ، والبيزنطية فى حوض البحر المتوسط تحت هجمات الغزاه القادمين من

الشمال ، والغرب بعد انتصار أساطيل غرب أوربا اللاتيني على قوى المسلمين ، والبيزنطيين البحريه ،والتى بسطت نفوذها على صقليه ،وسردينيا ،وكورسيكا ، وجنوب ايطاليا ،وكذا أقاليم الشام الساحلية ،كما نجحت الأساطيل اللاتينيه أيضا فى الهيمنة على طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب . فقد استولى " السلاجقة" القادمون من وسط آسيا على أقليم آسيا الصغرى (سنه ١٠٧١م) واحتلت القبائل التركية إقليم جنوب روسيا ،على حين كانت القلاقل والفوضى تجتاح اقليم مصر ،وانشق شمال أفريقيا عن الخلافة الفاطيمية فى القاهره ... ولم يصمد أمام هذا الزحف المدمر الا الأندلس ،أما ماعداه فقد خضع لنفوذ أوربا الغربيه : النورمنديين والبنادقه ،والفرنسيين ،وغيرهم من الغزاه .

وعلى هذا تقطعت أوصال الامبراطوريه الاسلامية بينما أحاط الأعداء بالقسطنطينيه فجمعت" البندقيه" ،و" بيزا" (سنة ١٠٨٧م) حملة بحريه ضخمه قوامها ٤٠٠ سفينه ،وقوات بابويه كبيره نجحت فى النزول بشمال أفريقيا ، والاستيلاء على مدينه تونس التى غنموا منها أسلابا كثيره ،وأنسحبوا عنها بعد أن دفع أميرها (تميم بن المعز بن باديس) ثمنا كبيرا للانسحاب،وتعهد بعدم التعرض للسفن الايطاليه التجاريه فى المياه الافريقيه .

ولم تسلم صقليه أيضا من غارات قراصنه جنوب ايطاليا ،كما لم تسلم جزر البليار ، وبعض المدن الأندلسيه الساحلية من الاغارات البحريه المتكرره ،وماكاد عام ١٠٩٠م ينقضى حتى كانت صقليه ،ومالطه قد سقطتا فى قبضه النورمانديين .

مجمل القول ،أن هذه الأوضاع ،بالاضافه لتشجيع " البابويه" و " التقوى" المسيحيه أدت الى تجمع العناصر الاوربيه ـ على اختلاف مشاربها ،وأطماعها ـ تحت شعار " الحرب الدينيه المقدسة " ،ضد " الاسلام الوثنى " (هكذا أدعى الشعار المسيحى) ،لتندلع أولى حملات الحروب الصليبيه فى صيف عام ١٠٩٨م (٤٩٢هـ) .

الحملة الصليبيه الأولى

تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس فى يوليو سنة ١٠٩٨ م (٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ) بعد حصار دام أربعين يوما ، ثم توالى سقوط سائر ثغور ومدن الشام. ولعل نجاح الصليبيين ـ فى هذه المرحله ، وما بعدها ـ يرجع لعاملين رئيسيين : الأول هو مجئ حملة بحريه ايطاليه الى سواحل سوريا محملة بالمؤن والتعزيزات للاشتراك فى إخضاع المدن الساحلية الاسلامية ، والثانى هو عجز الأسطول السورى ـ بمفرده ـ عن مواجهه أساطيل الصليبيين التى حاصرت انطاكية حوالى ستة شهور ، وعدم وصول أسطول الفاطميين الى مياه سوريا ، لدعم أسطولها ضد الصليبيين (١) . ويعتبر ظهور الأساطيل الايطاليه أمام سواحل الشام (سوريا ، فلسطين) أكثر العوامل أهميه . فوجود أسطول " جنوة " أمام أنطاكية هو الذى حقق للصليبيين ما أحرزوه من نجاح ، وكان الأسطول الذى بعثت به " البندقيه " الى سواحل فلسطين هو الذى عاون الصليبيين على الاستيلاء على ثغرى " حيفا " و" قيصرية " (١١٠٠ م / ٤٩٤ هـ) .

بعد سقوط " عكا " (١١٠٣ م / ٤٩٧ هـ) و" طرابلس " (١١٠٨ م / ٥٠٢ هـ) و" بيروت " (١١٠٩ م / ٥٠٣ هـ) ، لم يعد صامدا فى وجه الغزو الصليبى إلا " عسقلان " التى أصبحت القاعده الرئيسيه للفاطميين تخرج منها الأساطيل الى السواحل الشاميه ، والثغور التى يحاصرها الصليبيون ، لإمدادها بالسلاح والمؤن ، حتى سقطت هى الأخرى فى سنة ١١٥٤ م / ٥٤٨ هـ بعد حصار من البحر والبر دام نحو سبع شهور.

---

(١) يبدو أن الدولة الفاطميه تنظر منذ البدايه الى الصليبيين على أنهم حلفاء لها ضد السلاجقه ، خصوم الفاطميين سياسيا ومذهبيا ، ولذلك تلكأت فى مواجهتهم . ولكن بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين ، وما ارتكبوا فيها من مذابح ، لم يسكت المسئولون الفاطميون أكثر من ذلك وعزموا على السير لاسترجاع بين المقدس التى اعتبروا سقوطها فى أيدى الصليبيين اعتداء صرخا موجها الى الدولة الفاطميه . (عن كتاب " تاريخ البحريه المصرية " اصدار جامعه الاسكندريه ، ١٩٧٣ ، ص ٤٨٣ و ٤٨٤) .

الحملة الصليبية الثانية

أسرع الأمير" عماد الدين زنكى" السلجوقى ،صاحب الموصل ، والعـــراق ، بتوحيد صفوف المسلمين ،وتمكن من طرد الصليبيين من " الرها" (١١٤٤م/ ٥٣٩هـ) وتحركت الحملة الصليبيه الثانيه ضد سوريا فى سنة ١١٤٧م/ ٥٤٢هـ ،إلا أنهـــا فشلت فى تحقيق أغراضها ، وانهزمت القوات الصليبيه أمام المسلمين بقيادةنورالدين (ابن عماد الدين وخليفته) الذى استولى على دمشق فى عام ١١٥٤/ ٥٤٩هـ .

أصبحت أراضى الشام بيد المسلمين فيما عدا إمارات السواحل ،ومملكة بيـــت المقدس التى ظلت بيد الصليبيين الذين أيقنوا ألاتجاة لهم الا عن طريـق البحـر المتوسط ،وأن السبيل الأسهل لمقاتله المسلمين ،والاحتفاظ ببيت المقدس ،هـو غزو مصر تجنبا لتفوق السلاجقه فى الشمال . ومن ناحيه أخرى ،وجد الســـلطان نورالدين أن السبيل لقهر الصليبيين هو تضييق الخناق عليهم من جميع الجهات فلا يكون لهم الا طريق البحر ،وهو وحده لا يكفى لاقامة دولة لهم فى الشرق .

الأيوبيون والحرب الصليبيه

لم يلبث أن دب الضعف فى الدوله الفاطميه فى أواخر القرن الحادى عشـــر الميلادى ،فتقلص ما كان لها من قوة بحريه . وعجز أسطولها عن حماية سواحـــل الشام ،والدفاع عن ثغوره ضد هجمات الأساطيل الصليبيه ،وكان ما اجتاح مصـــر والدولة الفاطميه من قلاقل ،وانقسامات داخليه خير مشجع للصليبيين على غزو مصر ، وهو أمر حظى بتأييد وتعضيد البنادقه الذين رأوا فيه مايخدم مصالحهم ، ففتـــح مصر يتيح لهم قواعد تجارية جديده ،وبذلك تتسع آفاق تجارتهم بين الشرق والغرب. غير أن محاولة الصليبيين الاستيلاء على مصر ،والاحتفاظ ـ فى نفس الوقت ـ ببيـــت المقدس يجعلهم يوزعون جهودهم على جبهتين متباعدتين تفصلهما عن قواعدهـــم الرئيسيه فى أوروبا خطوط مواصلات بحرية طويلة . ويبدو أن أمر تباعد الجبهتيـــن واستطالة خطوط المواصلات البحريه لم يكن مصدر قلق للصليبيين طالما ظل المسلمون على ماهم عليه من تمزق داخلى ،وانحسار بحرى .

إلا أن أحوال المسلمين ، في البحر والبر ، تبدلت بقيام الدولة الأيوبيـــه ، " المجاهده " (١١٦٩م - ١٢٥٠م / ٥٦٤-٦٤٨هـ) على أنقاض الدولة الفاطميـه .

فحينما ولى صلاح الدين الأيوبى حكم سوريا ومصر سنه ١١٦٩م / ٥٦٤هـ وجه عنايته نحو إعادة بناء قوة مصر البحرية ، ودعم الدفاع عن ثغورها ، وسواحلهـــا ، وفى سبيل ذلك قام صلاح الدين بعدة إصلاحات ، وتنظيمات نذكر منها على سبيل المثال :

١- انشاء ديوان خاص للبحريه ، عرف بأسم " ديوان الأسطول " يتولى الانفاق علـى دور الصناعه المختلفه التى أمدها بحاجتها من مواد بناء السفن ، وقد خـص لهذا الديوان موارد ماليه ضخمة من متحصلات بعض الأقاليم ، وديوان الزكاة .

٢- الاستعانه فى بناء سفن الاسطول بالأخشاب المحلية ، وبأخشاب الأرز والحديد من لبنان .

٣- رفع أجور رجال الأسطول ، والاستعانه ببعض البحاره المغاربه فى استكمال تطقيم السفن لما اشتهروا به من مهارة ، وشجاعه فى القتال البحرى .

٤- تحصين الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط مثل الاسكندرية ودميـاط وتنيس بعد ترميم أسوارها ، واعادة بناء أبراجها ، واحاطتها بالخنادق ، وأصبحت الاسكندرية أمنع ثغور مصر ، والقاعده الرئيسيه للأسطول المصرى .

٥- تشديد الحماية بالبحر الاحمر ، وتأمين سلامة التجاره ، والحجاج ، والأماكـــن المقدسة المطله عليه . (١)

---

(١) فى أواخر العصر الفاطمى ، هاجم أمير مكه بسفنه ثغر " عيذاب " وقطع الطريـــق على تجار مصر (١١١٨م / ٥١٢هـ) ، وتحت تهديد وزير مصر الأمير الأفضل ابن بدر الجمالى باستخدام القوة لردع المعتدين ، أعاد أمير مكه جميع ما أخذ من بضـــائع وأموال . لذلك نجد أن صلاح الدين يجهز حمله تستعيد قلعه " آيلة " من يـــد الصليبيين (١١٧٠م / ٥٦٦هـ) ، ثم يرسل حملة ثانيه تحتل اليمن (١١٧٤م / ٥٦٩هـ) ثم يبسط نفوذه على الحجاز مستهدفا فى ذلك السيطره على مدخل البحر الأحمـر وبالتالى حمايته من الخطر الصليبى .
(المصدر : " تاريخ البحريه المصريه " ، اصدار جامعه الاسكندرية " سنه ١٩٧٣ ، ص ٥٦٧ ، ٥٦٨) .

٦- تعزيز وسائل الدفاع، والحراسة الساحلية، وتكثيف نقط المراقبة على امتداد السواحل (المنائر)، وتزويدها بعدد كاف من "المنورين" يضطلعون بالمراقبة ليل نهار. (١)

الحملة الصليبيه الثالثه

ماكاد صلاح الدين يستقر بمصر، ويشرع في اعادة بناء قوتها الحربيه، حتى أحاطت به المؤامرات التى اشتركت فيها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد بغية إحياء الخلافة الفاطميه. وتمادى زعماء المؤمرات وعلى رأسهم" الشاعر عمارة اليمنى" الذى اتفق مع" غليوم الثانى" ملك صقليه على مهاجمة سواحل مصر فى الوقت الذى تشب فيه الثورة ضد الأيوبيين بالقاهره. ولذلك، أرسل غليوم الثانى (١١٧٤م/ ٥٧٠هـ) أسطولا ضخما قوامه ٢٨٢ سفينه حاصر الاسكندرية ثلاثة أيام متوالية، وقذفها بالمجانيق، ودمر بعض السفن التجارية الراسية بالميناء. ولكن الحامية المصرية ثبتت لهم، وأحرقت بعض سفنهم الى أن قدم صلاح الدين ومعه جيشه، فهاجم النورمان، وهزمهم فأضطروا للانسحاب بما تبقى لهم من سفن.

تحول الأيوبيين للهجوم

بعد عشر سنوات من التدريب الشاق، والعمل على بث روح الجهاد والحرب فى نفوس المسلمين، بدأ الاسطول المصرى - منذ عام ١١٧٩م/ ٥٧٥هـ - فى شن عمليات هجومية نشطة ضد الصليبيين. هذا وقد أدى انتصار صلاح الدين فى البحر - عند عكا، وجزيره أرواد - وفى البر فى موقعه" مرج عيون" الى أن يعقد معه أميرا بيت المقدس، وطرابلس الصليبيان عام ١١٨٠م/٥٧٦هـ، معاهده

---

(١) كان على" المنورين" اذا ماكشفوا عدوا فى البحر مقبلا من بعيد، أن يشعلوا النار على قمم المناور ليلا، أو يثيروا فيها الدخان، إن كان الوقت نهارا، هذا الى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير الأهالى. وكثيرا ما استخدمت الاشارات الناريه أو الدخانيه بأسلوب معين للاخبار عن حالة العدو، أوعدته، أو جنسيته أو غير ذلك. ويقال انه بهذه الطريقة كان من الممكن ابلاغ القاهره عن وقوع غاره فى أقصى شمال الشام فى ليله واحدة، أو نهارا واحدا (المصدر: نفس المصدر السابق ص٥٧٦).

سلام ،لم تدم أكثر من عشر سنوات كان الناصر صلاح الدين يعمل خلالها على جمع كلمة المسلمين ،وتوحيد صفوف الممالك الاسلامية . نجحت سياسة صلاح الدين في اقامة جبهة عربيه متحده تمتد من " برقة " غربا الى " الفرات " شرقاومن " حلب " و " الموصل" شمالا الى " اليمن " جنوبا ،أشبه ماتكون بالجبهه العربية في حرب اكتوبر ١٩٧٣ . وكانت الخطوة التاليه لصلاح الدين هى أن يشن هجوما شاملا على مملكة الصليبيين في بيت المقدس ... ومايعنينا في هذا المقام هو الدور الذى لعبه أسطول مصر في الصراع الوشيك .

فتح انتصار صلاح الدين على الصليبيين في معركة " حطين" (١١٨٧م/ ٥٨٣هـ) الطريق أمامه الى سائر الممتلكات الصليبيه ،الا أنه اختار أن يبدأ بالمدن الساحلية ليحرم الصليبيين من اتصالهم ـ عبر البحر ـ بقواعدهم في أوروبا الغربيه ،ويتاح له في نفس الوقت الاتصال بحرا بشطرى دولته في مصر والشام. لذلك تحرك الأسطول المصرى الى سواحل الشام ونجح ـ بالتعاون مع جيوش صلاح الدين ـ في استرداد قيصريه ،وبيروت ،والجبيل ،وعسقلان ،وعكا التى دارت في مياهها معركة عنيفه بين الأسطولين المصرى والصليبى انتهت بانتصار المصريين ،ودخولهم عكا (سنه ١١٩٠م) . وبذلك سقطت أهم معاقل الصليبيين على سواحل الشام فيما عدا " صور " التى استعصت على المسلمين ، بينما كانت جيوش صلاح الدين قد نجحت ـ في هذه الاثناء ـ في تحرير فلسطين ،واسترداد بيت المقدس(عام١١٨٧م/ ٥٨٣هـ) .

الحملة الصليبيه الرابعه

كان لسقوط بيت المقدس ،وضياع معظم ممتلكات الصليبيين ردود فعل كبيره في غرب أوربا ،فأخذت البابويه تدعو للقيام بحملة جديدة استجاب لها كل من فردريك بربروسا امبراطور المانيا ،وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ،وفيليب الثانى ملك فرنسا ،وهى حملة تعتبر من أكبر الحملات الصليبيه في جيوشها ،وأساطيلها امتدت رحاها ثلاث سنوات(١١٨٩-١١٩٢م/ ٥٨٥-٥٨٨هـ) .

حشد الصليبيون أساطيل يربو عدد سفنها على ٥٥٠ سفينه ،وهو عـــدد يفوق بكثير ماكان لدى صلاح الدين من سفن حربية ،فحاصر الفرنسيون عكا ،واحتل الانجليز قبرص ،وهم في طريقهم الى الشرق (عادت القوات الألمانيه أدراجهـــا لفشلها في الوصول الى مسرح الحرب برا) ،وأخذت القوات تنزل تباعا على عكـا ، فسار صلاح الدين الى مهاجمتهم ،واستطاع فتح الطريق البرى الى المدينـــه لامدادها بالمؤن ،والاسلحة ،والرجال كما هب الاسطول المصرى ـ في أواخر سنه ١١٨٩م ـ بقيادة أمير البحر"حسام الدين لؤلؤ" وتحت إمرته ٥٠ سفينه الى نجـده حامية المدنيه ،ونجح في تشتيت شمل الاسطول الصليبى ،وامداد الحامية بالطعام ، والسلاح ،متخذا من جون حيفا مأوى له من عواصف البحر في فصل الشتاء . كمـــا كانت الامدادات تصل الى حامية المدينه تحملها سفن الأسطول الشامى الرابضة في ميناء بيروت والتى كانت تقوم بغارات خاطفه على سفن الأعداء المارة ببيـروت في طريقها الى عكا وغنمت منها خمس سفن من أسطول ريتشارد قلب الأســد بمـا عليها من خيل ورجال وأموال . (١)

رغم استبسال الأسطولين المصرى ،والشامى ،وما أقدم عليه فريق من رجالـــه من أعمال بطولية مثل الضفدع البشرى " عيسى العوام" ،والأمير " مجاهد جمال الدين محمد " وأمير البحر" يعقوب الحلبى" ،الا أن تفوق الصليبيين البحرى ،واستغلالهم لجزيره قبرص كقاعده تموين امارتهم في المشرق العربى ،ومع نفاذ مؤونه حاميه عكـــا استسلمت المدينه في يوليو سنة ١١٩١م/ جمادى الأول سنة ٥٨٧هـ . واصــــل "ريتشارد قلب الأسد" ـ عقب سقوط عكا ـ زحفة جنوبا بحذاء الشاطىء ،تدعمه ســفن الأسطول الى أن تم له الاستيلاء على ساحل فلسطين من عكا الى يافا ، ولكنه توقف عند عسقلان التى أمر صلاح الدين بتخريبها حتى لا يستغلها الصليبيون اذا فكروا في الهجوم على مصر. ولكن فشل ريتشارد قلب الأسد في استرداد بيت المقدس، أظطره لعقد صلح " الرمله" ـ في نوفمبر سنة ١١٩٢م/٥٨٨هـ ـ مع صلاح الديـن ، والذى بمقتضاه تركت بيت المقدس بيد المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالحج ،

(١)كان أمير بيروت في ذلك الوقت هو عزالدين سامه الذى قاد بنفسه هذه الغارات الناجحـه .

والزيارة ،وأن يحتفظ الصليبيون بساحل الشام من صور الى يافا . وانتهت بطولات الناصر صلاح الدين الأيوبى بوفاته سنة ١١٩٣م/٥٨٩ هـ بدمشق حيث دفن بها ،كما انتهى نشاط ريتشارد قلب الأسد بوقوعه فى أسر النمساويين ، لتنتهى الجوله الرابعه من حروب الصليبيين فى الشام ،وتنطوى صفحة من أسطع صفحات الأسطول المصرى .

تكبدت البحرية المصرية خسائر كبيره إبان حملات الصليبيين على الشام ، لم يكن من السهل استعواضها ،وزاد الطين بلة وقوع خلافات ومنازعات بين ابناء البيت الأيوبى بعد وفاة صلاح الدين ،فاضمحل شأن البحرية المصرية ،وخارت القوة الاسلامية بوجه عام ،فأنتهز " عمورى لوزينان" - ملك قبرص- الفرصه ،واستولى على " بيروت" (١١٩٧م/ ٥٩٣هـ) .

وعلى الرغم من نجاح الملك العادل فى توحيد الدولة الأيوبية الا أنه فشل فى استرداد بيروت فاستعاض عنها بمدينه " يافا" التى استولى عليها فى نفس السنة ، ولكن الحقيقه أن البحرية الأيوبية كانت أضعف من أن تلعب دورا يذكر فى الأحداث التى توالت على المسرح شرقى البحر المتوسط منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادى . ولعل أصدق وصف لحال البحرية العربية فى ذلك الوقت ما قاله المقريزى :" ثم قل الاهتمام بالأسطول ،وصار لا يفكر فى أمره الا عند الحاجة اليه ... فصارت خدمة الأسطول عارا يسب به الرجل فى مصر ،واذا قيل لرجل يا أسطولى غضب غضبا شديدا ،بعد ماكان خدام الأسطول يقال لهم :" المجاهدون فى سبيل الله " والغزاة فى أعداء الله ،ويتبرك بدعائهم الناس " .

أما البحرية العربية فى المغرب فكانت -إبان الحملات الصليبيه - تجابه هى الأخرى أخطارا جسيمة من جراء مهاجمة ملك البرتغال للمسلمين فى غربى الأندلس ،وهى هجمات كانت تدعمها أساطيل الألمان ،والانجليز ،والفلمنك (الهولنديين) المتجهة الى الشام. لذلك كان على أسطول المغرب حماية المناطق

(١) عن كتاب: تاريخ البحريه المصرية " جامعه الاسكندرية " ص ٥٨٥ (عن "الخطط" للمقريزى الجزء الثانى صفحة ١٩٤) .

الاسلامية فى الغرب من هذا الخطر الصليبى ولعل هذا كان السبب فى احجام " يعقوب المنصور الموحدى" - خليفه المغرب - عن تلبيه طلب صلاح الدين (١١٩٠م/٥٨٦هـ) فى ارسال أسطوله، للمعاونة فى الحيلولة دون أساطيل الصليبيين وامداد قواتهم بالشام .

ومن ناحيه أخرى، ظل البحر الأحمر، وتجارة الشرق الأقصى ، والهند المارة به تحت السيطره المصرية، وأخذت ثغوره - مثل عيذاب والقصير - فى الازدهار وتناولتها التحسينات . وقد بلغ من اهتمام الأيوبيين ، والمماليك بعدهم بتجارة البحر الأحمر، وسواحلة الأفريقيه أن مدوا نفوذهم الى الحجاز، واليمن والى ميناء " سواكن" - إبان النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى - مما أدى الى احكام سيطره مصر على هذا البحر .

ولعل أهم ماترتب على الحملات الصليبيه، هو تصاعد نفوذ " البندقيه " لدى الصليبيين ، وتدخل حكامها، وتجارها فى تزجية الحملات طمعا فى الثراء، وجريا وراء مزيد من القواعد، والأسواق التجاريه فى شرقى البحر المتوسط ، وكانت مصر - بموقعها الجغرافى المتميز - هى مفتاح تجارة المحيط الهندى، والشرق الأقصى مع بلدان الشرق الأوسط وأوربا ، وأيضا - من وجهة نظر دعاة الحرب الصليبيه - هى المدخل الطبيعى الى بيت المقدس . لذلك كانت مصر هى مسرح الحملات الصليبيه التاليه التى اتسمت أهدافها بالأطماع الاقتصادية، أكثر منها بالسمات الدينية التى كانت عليها الحملات الأولى .

الحملات الصليبيه ضد مصر (١٢٢٨ - ١٢٥٠م/ ٦١٥ - ٦٤٨هـ)

تعرضت مصر لحملتين ، قامت الأولى من عكا ، ونزلت بدمياط (١٢١٨ - ١٢٢٠م) وأقلعت الثانيه من الموانى " الفرنسية الى " ليما سول" بقبرص ، ومنها نزلت - أيضا - بدمياط (١٢٤٨ - ١٢٤٩م) ، والطريف أن الحملتين - بعد استيلائهما على دمياط - وأثناء الزحف الى القاهرة أوقفهما المصريون عند المنصورة . ولعل الحملة

الثانيه التى قادها" لويس التاسع" كانت أعنف الحملتين ،حيث كبدت الفرنسيين خسائر جسيمه ،وسقط ملكهم أسيرا ،ولم يفك أسره الا بعد افتدائه بحوالى مائة مليون فرنك ،ليغادر هو وفلول قواته ـ فى مايو ١٢٥٠ ـ أرض مصر بعد أن فشلت الحملة فى تحقيق أغراضها ،والتى اقترنت أحداثها بنهاية الدولة الأيوبيه ، وانفصام عرى الوحدة بين سوريا ومصر ،وقيام دولة المماليك فى مصر .

العصر المملوكي

اهتم سلاطين المماليك ـ بعض الشيء ـ بشئون البحرية المصرية ،وعملوا على استعادة المكانة التى كان عليها الأسطول أيام صلاح الدين ، للاستعانه به فى حماية السواحل الشامية من هجمات " المغول" وطرد الصليبيين من أراضى الشام .

وقد نجح الأسطول الذى بناه " الظاهر بيبرس البندقدارى " فى تشتيت شمل المغول عند سواحل يافا ،وأنطاكية ، ثم قضى عليهم ـ عام١٢٦٨م/ ٦٦٧هـ ـ نهائيا ، ولم يكن قبل عام ١٣٠٢م/ ٧٠٢هـ عندما نجح السلطان" الناصر محمد بن قلوون" فى اتمام تطهير أراضى الشام من الصليبيين ، .... فاتخذوا من جزيرة " قبرص" ،و " رودس " (١) قاعدتين استخدموهما فى تنفيذ استراتيجيه استخدام القوة البحرية لمحاصرة تجارة الدولة المملوكية فى البحر المتوسط بغيه إضعافها اقتصاديا ،وعسكريا ،فيسهل التغلب عليها ،وبالتالى استعادة بيت المقدس .

بدأت القوات الصليبيه عدوانها باغارة وحشية على مدينة الاسكندرية فى شهر اكتوبر عام ١٣٦٥م/ شهر المحرم عام ٧٦٧ هـ،وأعملوا فيها القتل ،والتخريب ،

(١) انتزع الصليبيون جزيره" رودس " من قبضة البيزنطيين عام ١٣٠٩م

والسلب ،والنهب(١) مما حدا بسلاطين المماليك الى تقوية حصون المدينــــــه ، ودعم دفاعاتها ،وحفر الخنادق المحيطه بأسوار المدينه من جهه البحـر ، فتحول النشاط الصليبى الى سواحل وثغور الشام،وانتهاك تجارة مصر المنقولـــــة بحرا .

وللقضاء على مصدر العدوان الصليبى قرر السلطان " الأشرف سيف الديـن أبو النصر برسباى " توجيه حملات بحرية برية ضد قبرص : الأولى فى عـــــــام ١٤٢٤م/ ٧٢٧هـ ود مرت جانبا من ثغر" ليماسول" ،والثانية عام ١٤٢٥م/ ٨٢٨هـ حيث دمرت الأساطيل المصرية مينائى " فماجوستا" ،و " ليماسول" ،واستولـــت قوات الحملة على المدينتين ،ورفعت الأعلام المصرية على قلاعها وحصونها ،أمــا الحملة الثالثه فقد استهدفت إخضاع جزيرة قبرص - قاعده العدوان الصليبى - لنفوذ مصر . أبحرت الحملة ،فى أول يونية عام ١٤٢٦م/ ٨٢٩هـ من الاسكندرية متجهة الى الجزيره ،وتم لها احتلال " ليماسول" حيث أنزلت القوات البرية التـــى اندفعت الى العاصمة " نيقوسيا" ،لتلتقى بقوات الملك" جانوس" عند بلــــــدة " خيروكيتا" ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة القبارصه وأسر ملكهم. وأمام ثغر"لارناكا" نشبت معركة بحرية (١٠ يوليو عام ١٤٢٦م/ ٨٣٠هـ)انتهت بانتصـار الأسطول المصرى ،وتمكين القوات العربية من دخول " نيقوسيا" واحتلالهـــا -فى اليوم التالى - ثم إعلان أن قبرص صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف بيرسباى . وظلت الجزيره - منذ ذلك الوقت - تابعه للقاهره ،تؤدى لها الجزية السنوية حتى نهاية حكم المماليك على يد الأتراك العثمانيين عام ١٥١٧م/ ٩٢٣هـ.

---

(١) قال النويرى وصفا لما قام به الملك القبرصى" بطرس الأول لوزينان" فى اغارتــه على الاسكندرية : " دخلها لصا ،وخرج منها لصا" . وكان لمذبحة الاسكندريـــه ردود فعل عنيفه ،وسخط شديد ،فى انحاء العالم الاسلامى ،من شرقيه الى غربيه ويكفى أن نذكر ماقام به مسلموا أسبانيا عند ما شنوا غارات عنيفه على جيرانهـــــم المسيحيين قادها" أبو عبد الله محمد بن الأحمر" - سلطان غرناطه - سنه١٣٦٦م/ شهر المحرم سنة ٧٦٨هـ ،وكانت صيحه" يالثأرات أهل الاسكندرية" تنطلق مـــن حناجر المسلمين الاندلسيين أثناء هجومهم. فلما أرسل ملك " قشتاله" يطلــب الصلح من سلطان غرناطه ،رفض السلطان طلبه الا بعد أن ترد قبرص أمـــوال الاسكندرية ومعها أسراها ويصالحوا سلطانها ،والا السيف بينى وبينه (ملك قشتاله) حتى أملك أشبيليه ، (عن النويرى فى كتابه "الالمام" الجزء الاول) .

وعلى العكس، فشلت الحملات الثلاث التى بعث بها السلطان المملوكى "سيف الدين جمقق" ، فيما بين عامى ١٤٤٠م و ١٤٤٤ ميلاديه ، فى اخضاع جزيره " رودس" ثانية أقوى معاقل الصليبيين فى منطقة شرقى البحر المتوسط .

مما لا شك فيه أن الصراع العربى البيزنطى ، والحروب الصليبيه ، والنزاع بين المماليك وفلول الصليبيين ، تضافرت على إنهاك قوى الامبراطوريتين الاسلاميه ، والبيزنطيه ليصبح الطريق ممهدا لظهور قوى جديده فى هذه المنطقة من العالم.

اشتداد عود البندقية

أحسنت " البندقية" استغلال الظروف التى سادت حوض البحر المتوسط إبان الحروب الصليبيه فلعبت دورها بمهارة بين الجانبين ، حيث كانت تحصل من الصليبيين على مميزات تجاريه فى مقابل خدماتها لهم فى هذا المضمار ، بينما تقوم ببناء السفن وتؤجرها للمسلمين بأسعار باهظه ، فراجت صناعه السفن بها رواجا لم يسبق له مثيل . كما استثمر البنادقه موقع مدينتهم فى دعم مركزها كقوة بحرية ذات شأن ، وبحلول سنة ١٤٠٠م كانت أعلام" البندقيه" ترفرف على أكثر من ٣٠٠٠ سفينه ولها ٣٨٠٠ بحارا مدربا أحسن تدريب على الرغم من ان عدد سكانها لم يتجاوز ٢٠٠ الف نسمه (أشبه مايكون بحال "النرويج" فى وقتنا الحالى) وامتد نفوذها الى كريت ، وقبرص ، وبذلك تحكمت فى طرق الملاحة ، والتجارة البحرية فى شرقى ووسط البحر المتوسط .

ومن ناحيه أخرى كانت التجارة القادمة من الهند ، والشرق الأقصى تعبر البحر المتوسط الى أوربا إما عن طريق الخليج العربى إلى الاسكندرية ، أو عن طريق البحر الأحمر الى الاسكندرية ، ومنها يعاد شحن البضائع على السفن الى البندقيه وجنوه . ومعنى هذا أن تجارة الشرق المجزيه كان لابد لها أن تمر بأراضى الشام ، ومصر ، الخاضعتين لسلطان المماليك ، مما جعل البنادقة يخطبون ودهم ، حتى نالوا الحظوة لدى سلاطين المماليك واحتكروا ـ فى النهاية ـ نقل هذه التجارة العظيمة .

خشيت البندقية على مصالحها التجارية من جراء عدم استقرار الأوضاع بين المماليك والاسبتارية فقامت بالوساطة بين الجانبين إلا أن عناد الاستبارية دفعت البنادقة الى الاغارة على رودس، واجبارهم على رد ما أخذوه من المسلمين(١) وبذلك ازدادت أرباح البنادقة والمصريين بدرجة أثارت الحقد، والحسد في الممالك الأوربية المطلة على المحيط الاطلسي، فدفعتهم الى البحث عن طريق ثروات الشرق لا يخضع لاحتكار البحر المتوسط لها .

الوجود الأوروبي في المحيط الهندي

على اثر اكتشاف" فاسكودا جاما" - الملاح البرتغالي الشهير - لطريق بحري مباشر الى تجاره الشرق الاقصى، والهند، حول القارة الافريقية مارا برأس الرجاء الصالح (١٤٩٨م) (٢) تحولت هذه التجارة المجزية عن طريق مصر ففقدت البلاد موردا ماليا كبيرا أدى الى اصابتها بضائقة مالية اقتصادية حادة انعكست آثارها على مظاهر الحياه في مصر، ولا سيما الشئون البحرية . بل إن حلول الأساطيل البرتغالية بمياه المحيط الهندي، واكتشاف قارة أمريكا - في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر - وما صاحبها من تقدم علمي وتكنولوجي في صناعة السفن ،

---

(١) كتاب " تاريخ البحرية" ، اصدار جامعة الاسكندرية، ١٩٧٣ - ص ٦٠٦

(٢) كان هنرى ملك البرتغال الذى اشتهر باسم " هنرى الملاح " هو أول من شجع على ايجاد طريق الى الهند مارا بغرب افريقيا، وكان الملاح البرتغالي "بارتلوميا دياز" أول من وصل بسفنه الى الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية، واطلق عليه "رأس الزوابع" لما فيه من أهوال في محاوله مواصله السير حوله (١٤٨٧م) . تابع الأسبان حركة الاستكشافات البحرية ونجح "كريستوف كولمبس" (١٤٩٢م) في عبور المحيط الأطلسي، واكتشاف قارة امريكا" العالم الجديد" وبعده بحوالي ست سنوات وصل الملاح البرتغالي" فاسكودا جاما" الى "رأس الزوابع" ودار حوله وتمكن - بمساعده الملاح العربي" احمد بن ماجد" - من الوصول الى " كاليكت" بالهند، فأطلق اسم رأس الرجاء الصالح على رأس الزوابع تفاؤلا واستبشارا بنجاحه (١٤٩٨م) .

والاسلحه والمعدات الملاحيه (١) ،كانت هى بدايه المتغيرات التى أدت الى قلب أوضاع العالم سياسيا ،واقتصاديا ،عسكريا .

لم تتعرض مصالح العالم الاسلامى فى المحيط الهندى والبحر الأحمر، أو علاقاته التجارية بالهند ،والشرق الأقصى ،وبلدان شرق افريقيا لمثل ماتعرضت له مصالحه ،وتجارته ،بل وأمنة فى البحر المتوسط من صراعات،فتمتعت التجارة البحرية فى تلك البقاع بنوع من الاستقرار جعلت شعوبها تتجاوز عن بناء أساطيل حربية قوية على غرار أساطيل البحر المتوسط . لذلك لم يجد البرتغاليون ـ منذ حلت سفنهم بمياه المحيط الهندى فى أواخر القرن الخامس عشر ـ مشقة فى الاغارة على السفن ،واغتصاب شحناتها . وقد شجعت هذه المغانم المبكرة ملوك البرتغال على إرسال أساطيلهم الى المحيط الهندى ، فأخضعت "كجرات" ، وسواحل "الدكن" (٢) ،وجزيره " هرمز" الواقعة عند مدخل الخليج العربى (سنة ١٤٩٨م) وقصفت بمدفعياتها مدينه" ملبار" تركيزا على السفن التجارية المصرية التى كانت بالميناء ،حتى دمرتها عن آخرها وقضت على من كان عليها من نساء ،وأطفال

---

(١) عندما أخذت الافكار تراود الغرب فى اختراق المحيط،والوصول الى الهند ، والشرق الأقصى شرعت الدول ـ منذ منتصف القرن الخامس عشر ـ فى بناء سفن قوية قادره على مشاق رحلات المحيط ،وعلى قدر من السرعه تتيح لها عبور الأطلسى دون الحاجة للاصلاح أو اعادة التموين . ولذلك حلت السفينه ذات الأربع صوارى التى تحمل أشرعه مربعه ومثلثه محل السفينه التجارية القديمه التى لا قبل لها بتحمل امواج وانواء المحيط الاطلسى ،والتى اقتصرت صلاحيتها على الملاحه البحرية المحدودة ،والابحار الساحلى بالبحرين الأحمر والمتوسط،كما كان للتقدم العلمى الكبير فى حساب السرعه والمسافه ،بالاضافه لاستخدام البوصلة المغناطيسية والاسطرلاب(آلة السدس) الفضل الاكبر فى تطوير فنون الملاحه البحريه مما مكن السفينه الجديده من السير بأعالى البحار ـ بعيدا عن العلامات الأرضيه ـ بدرجة أمان مقبوله .

(٢) الجزء الشمالى من الساحل الغربى لشبه القارة الهنديه .

(سنة ١٥٠٠م) . أخذت سفن الاسطول البرتغالى تعربد فى مياه الخليج العربى ، وتنتهك ثغوره ، ويقول سرهنك فى كتابه حقائق الاخبار عن دول البحار : "واخذت سفنهم (البرتغال) تمخر فيما بين البصره ، وعدن ، وتتعدى على كل سفائن مصر ، والعرب التجارية ، وتنهبها ، وتستولى عليها وبذلك انقطع طريق التجاره بين الهند ومصر".

صممت البرتغال على القضاء على طريق تجارة الشرق القديم قضاء مبرما ، فتوالى ارسال أساطيلها الى المحيط الهندى التى أخذت تهاجم سفن المصريين ، والبنادقه لا فى المحيط الهندى فحسب ، بل وأيضا فى البحر الاحمر ، وقامت بعدة غارات قرصانية على عدن ، وعصب ، ومصوع متخذه من جزيره" سومطره" عند باب المندب قاعده تشن منها هذه الغارات ، وتحاصر الأسطول المصرى فى حركته بين موانى مصر ، والموانى الهنديه . وعلى هذا أرسل "السلطان الغورى" - حاكم مصر - حملة بحرية قوامها ٥٠ سنة بقيادة الأمير" حسين الكردى" لردع البرتغاليين حيث التقت بسفنهم فى مياه مدينه " جوا" الهنديه (يناير سنة ١٥٠٨م) و دارت معركة بين الجانبين انتهت بهزيمة البرتغاليين ، وأسر سفينه القيادة بعد قتل قائدها . أعاد البرتغاليون تنظيم صفوفهم ، لينتصروا - فى النهاية - على سفن المصريين والبنادقه عند جزيره" ديو" على مقربه من " بمباى" سنة ١٥٠٩ ميلاديه . بهذا الانتصار تحولت تجارة الشرق نهائيا عن موانىء عدن وجده ، وسواكن ، والسويس الى الطريق البحرى المباشر حول رأس الرجاء الصالح ، وانقطع طريق التجارة بين مصر ، والهند ، والبحر المتوسط ، وقضى على نشاط العرب فى تجارة المحيط الهندى . غير أن التقاء الأسطول المصرى بالأسطول البرتغالى عند جده ، سنة ١٥١١م ، وانتصاره عليه أعاد البحر الأحمر تحت سيادة مصر ، بينما انسحب الأسطول البرتغالى الى المحيط الهندى ، حيث فشلت جميع محاولات الأسطول المصرى المتعاقبه فى اقصاء البرتغاليين عنه . وماكاد القرن السادس عشر ينتصف إلا وكانت البرتغال قد أقامت امبراطوريه تجاريه بامتداد المحيط الهندى الى

---

(١) سنه ١٥٠٣م ، كان الأسطول البرتغالى يضم أكثر من ٢٠ سفينه حديثه بقياده فاسكو داجاما .

اليابان واحتكرت سفنها نقل تجاره الشرق الى أوروبا فى ظل سيادة الأساطيـــل البرتغالية .

منذ ذلك الوقت تصارعت القوى الأوربيه الفتيه مثل هولندا ، وفرنسا ،وأسبانيا ، وانجلترا على بسط نفوذها على تلك البقاع،وتسابقت هذه القوى ـ فى نفس الوقت ـ على الوصول الى " الأرض الجديده" على الجانب الآخر من المحيط الأطلسى . وقد أدى ذلك الى نتيجتين على جانب كبير من الاهمية : الأولى ،تحول البحرالمتوسط والبحر الاحمر والخليج العربى الى مياه ثانوية انحصر العالم العربى وراءهـــا ، ولم تعد سفنهم تصلح للرحلات الشاقه عبر المحيط،والثانيه نشوب حروب استعمارية وتحريريه بين القوى الغربية الناشئة كانت ـ فى المقام الاول ـ حروبا بحرية اقتحمت بالضرورة المياه المحيطه بالاقطار العربية ،واحتلت أراضيها ،ليشهد القرنـــان السادس عشر ،والسابع عشر أعنف المنافسات التجارية ، وتصادم المصالح ،والمتغيرات الاقتصاديه ،والتى صاحبتها قفزات واسعه فى تصميمات السفن ،وفى الملاحـــة البحريـة .

الأتراك العثمانيون

من ناحيه أخرى ،نجم عن اضمحلال الامبراطوريتين الاسلامية ،والبيزنطيـــة ظهور قوى أخرى فى البحر المتوسط،هى قوة" الاتراك العثمانيين" ،وهم قوم ينتمون الى الجنس" التورانى " ،وموطنهم الأصلى تلال وسط آسيا ،واعتنقوا الدين الاسلامى ، واستوطنوا آسيا الصغرى . وبعد وفاة " ارطغول" ـ زعيمهم الأول ـ ســـنه١٢٨٨م أسس خليفته" عثمان" أول دولة تركية مستقلة ،ونسبت اليه وأخذ يمكن نفوذها شمالا وغربا . وعلى مر السنين ،نجح الأتراك فى الاستيلاء على العاصمة " البيزنطيـــه " (١٤٥٣م) وصارت عاصمة " الدولة التركية الاسلامية" وأطلقوا عليها اسم"اسطنبول" ، ثم استولوا على " طرابيزون" ، و" سينوب" على البحر الاسود ،ومالبثوا أن استولوا على جزر بحر ايجه وزالت الامبراطوريه البيزنطية نهائيا ليصبح شرقى حوض البحـــر المتوسط جزءا من الامبراطورية العثمانيه .

وجدت دولة المماليك نفسها محصورة بين قوة الأتراك العثمانيين فى الشمال ، وقوة البرتغال فى المحيط الهندى ، والبحر الأحمر وهى عاجزة عن مواجهة خطر القوتين - الحربى والاقتصادى - فلم تلبث أن انهارت الدولة المملوكية أمام جيوش السلطان العثمانى " سليم الأول " وسارت سوريا ، ومصر - منذ سنه ١٥١٧ - ولايه عثمانية .

****

الباب الثانــى

الامبراطورية العثمانيه

التوسع العثمانـى

في سنة ١٥١٢ ،ولي السلطان " سليم الأول " عرش العثمانيين ، فبـادر إلى محاربة المماليك . جهز سلطانهم " قانصوه الغورى" جيشا خرج به الـى الشام ،حيث التقى بالجيش العثمانى فى موقعه " مرج دابق " شمالى مدينــه " حلب " سنة ١٥١٦ انهزم فيها " الغـورى " ودانت الشام للعثمانيين ،ومنهـا زحف " سليم الأول" على مصر ،حيث هزم " طومان باى " -آخر المماليك - عنـد المنطقة التى يقوم عليها حى " العباسية" حاليا ،ليدخل القاهره فى ١٥ فبرايـر سنة ١٥١٧ ،وصارت مصر ولاية عثمانيه .

بعد أن تم له فتح مصر ،عمد السلطان سليم الى نقل صناع السفن المصريين الى " القسطنطينيه" فأغلقت معظم دور الصناعه أبوابها ،وأهمل شأن الأسـطول المصرى . وبعد استقرار العثمانيين بمصر والشام ،أدركوا ماللقوه البحرية من أهمية ولا سيما أن " البندقيه" كانت تقف لهم بالمرصاد فأخذوا يدعمون قوتهم البحريـه ، الى أن ولى " سليمان القانونى" العرش العثمانى سنه ١٥٠٢ فأزداد الاهتمـام بشئون البحرية ،والثغور المصريه .

هذا وقد وضع العثمانيون تنظيما جديدا لادارة ثغور مصر الثلاثة :الاسكندرية دمياط ،السويس ،تحت اشراف ثلاثة قبودانات أتراك يخضعون مباشـرة للادارة السلطانيه ، كما دب أيضا بعض النشاط فى دور صناعه السفن ،فانتجت عددا مـن السفن الحربية استخدمها الباب العالى - سنة ١٥٥١ - فى استخلاص " عـدن" من قبضة البرتغال . وفى العام التالى عادت السفن المصرية الى المحيط الهندى تطارد سفن البرتغاليين وتغير على مواقعهم فى مسقط ، وجزيره هرمز إلا أنها لم تحرز نصرا حاسما على الرغم مما غنمته من غنائم .

غدت الدولة التركية ـ فى عهد " سليمان القانونى " ـ قوة بحرية من الدرجة الأولى آلت لهم بفضلها جزيره " رودس " ، وأخضعوا " الجزائر " ، و" تونس " ، و " طرابلس " ، و " اليمن " ـ بالاضافة الى منطقة " عدن " ـ لتصبح جميعها ولايات عثمانيه .

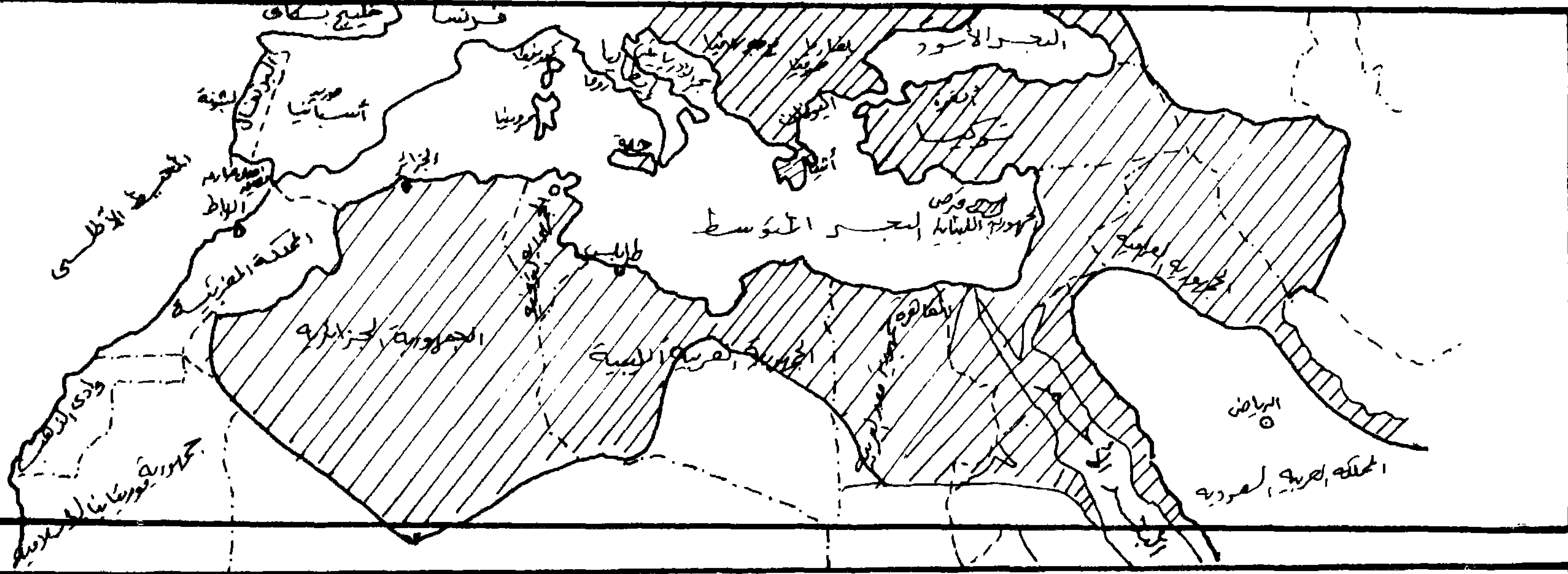
قويت شوكة الأتراك العثمانيين فى البحر المتوسط بعد أن دانت لهم أهم المواقع الاستراتيجية به ، والتى منها انطلقت أساطيلهم تهاجم سفن المسيحيين التجاريه ، وتستولى على شحناتها ، وتأسر بحارتها ، كما أغار الأتراك بسفنهم على السواحل الأوربيه المطلة على البحر المتوسط ، يدمرون ويسلبون مدنها .

وقد أثارت مطامع الأتراك ، واعتداءات سفنهم ثائرة المسيحيين الغربيين ، إلا أنهم لم يتحدوا فى وجه هذا الخطر الجديد بالسرعه التى اتحدوا بها ضد العرب المسلمين إلا عندما قام الأتراك ، سنة ١٥٧٠ م ، بغزو جزيره قبرص ، فاتحدت صفوفهم فيما عرف بأسم " الحلف المسيحى " الذى ساهمت فيه كل من أسبانيا ، وايطاليا ، بأسطول كبير تحت لواء البابا " بيوس الخامس " .

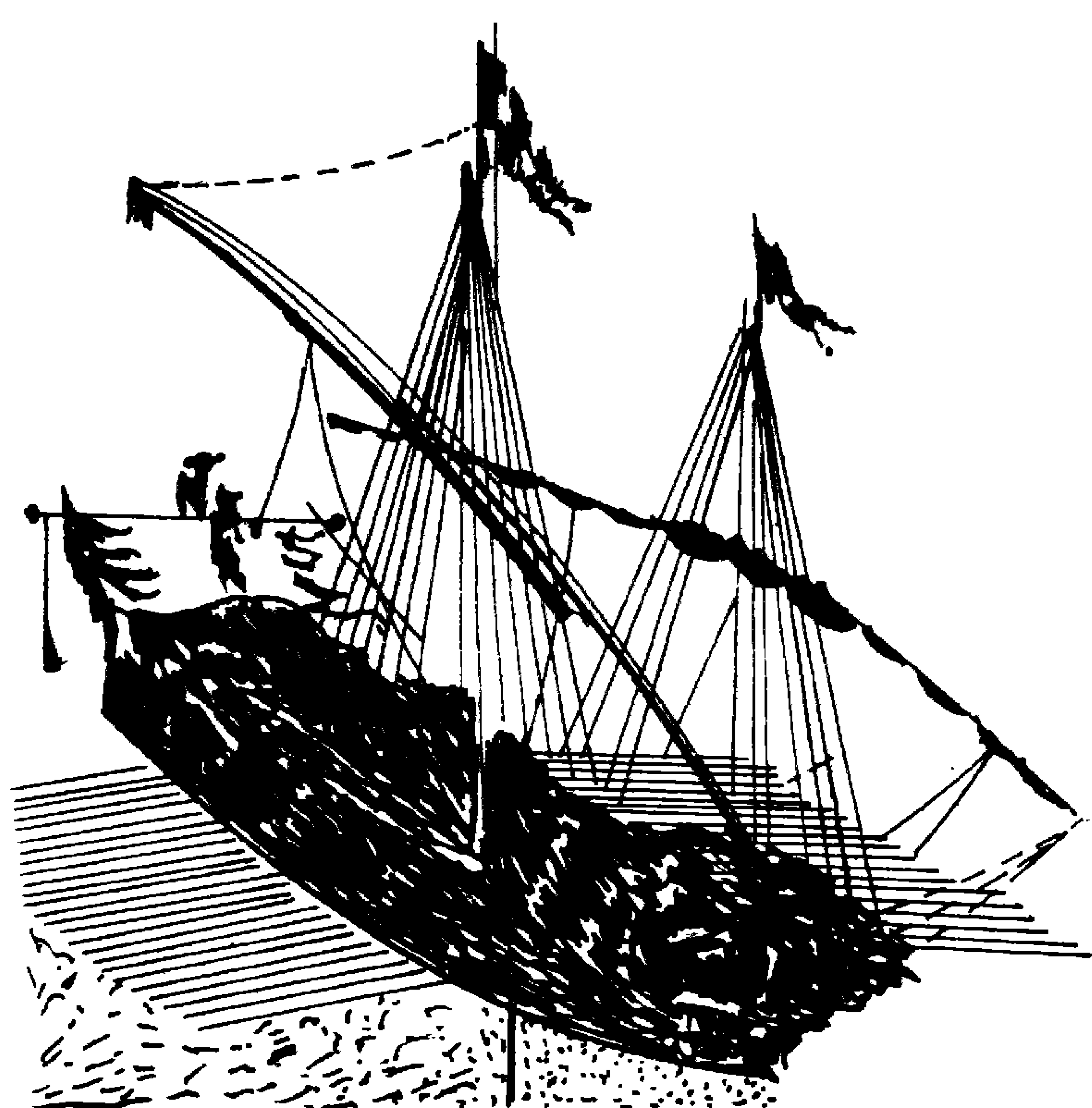
موقعه " ليبانتو " البحريه (أكتوبر ١٥٧١)

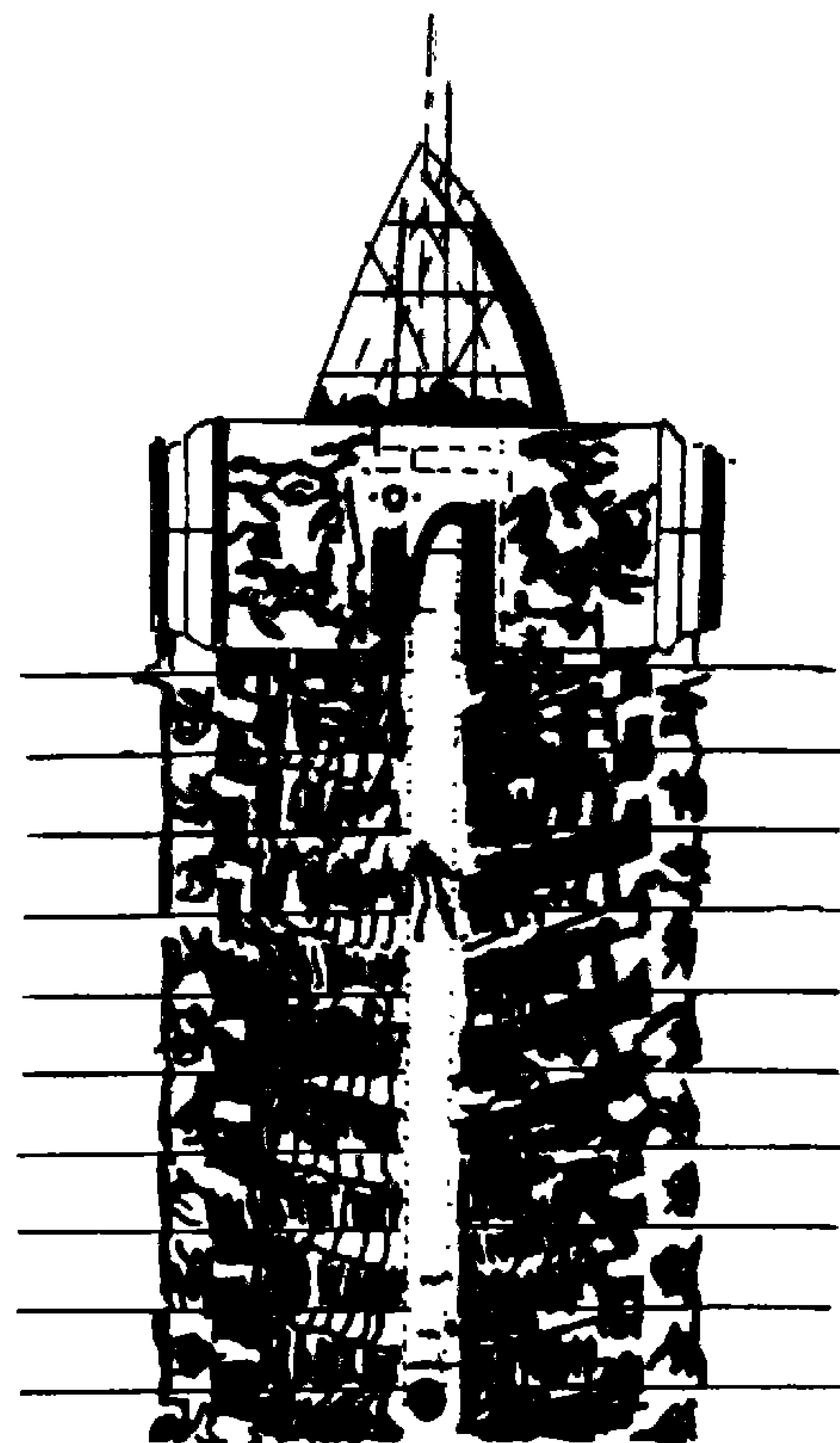
كان المسيحيون على ثقة من أن استخلاص جزيرة قبرص من الأتراك لن يكتب له النجاح الا بالقضاء على الأسطول التركى . لذلك اتجه أسطول الحلف المسيحى ـ المكون من ٢٠٠ سفينه حربيه وحوالى ١٠٠ سفينه نقل وامداد ـ بقيادة " دون جوان " النمساوى الى مياه " مسينا " فى انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على الأسطول الذى جهزته تركيا والذى كان قوامه هو الآخر ٣٠٠ سفينة حربية وانعقد لواؤه لأمير البحر " على باشا " .

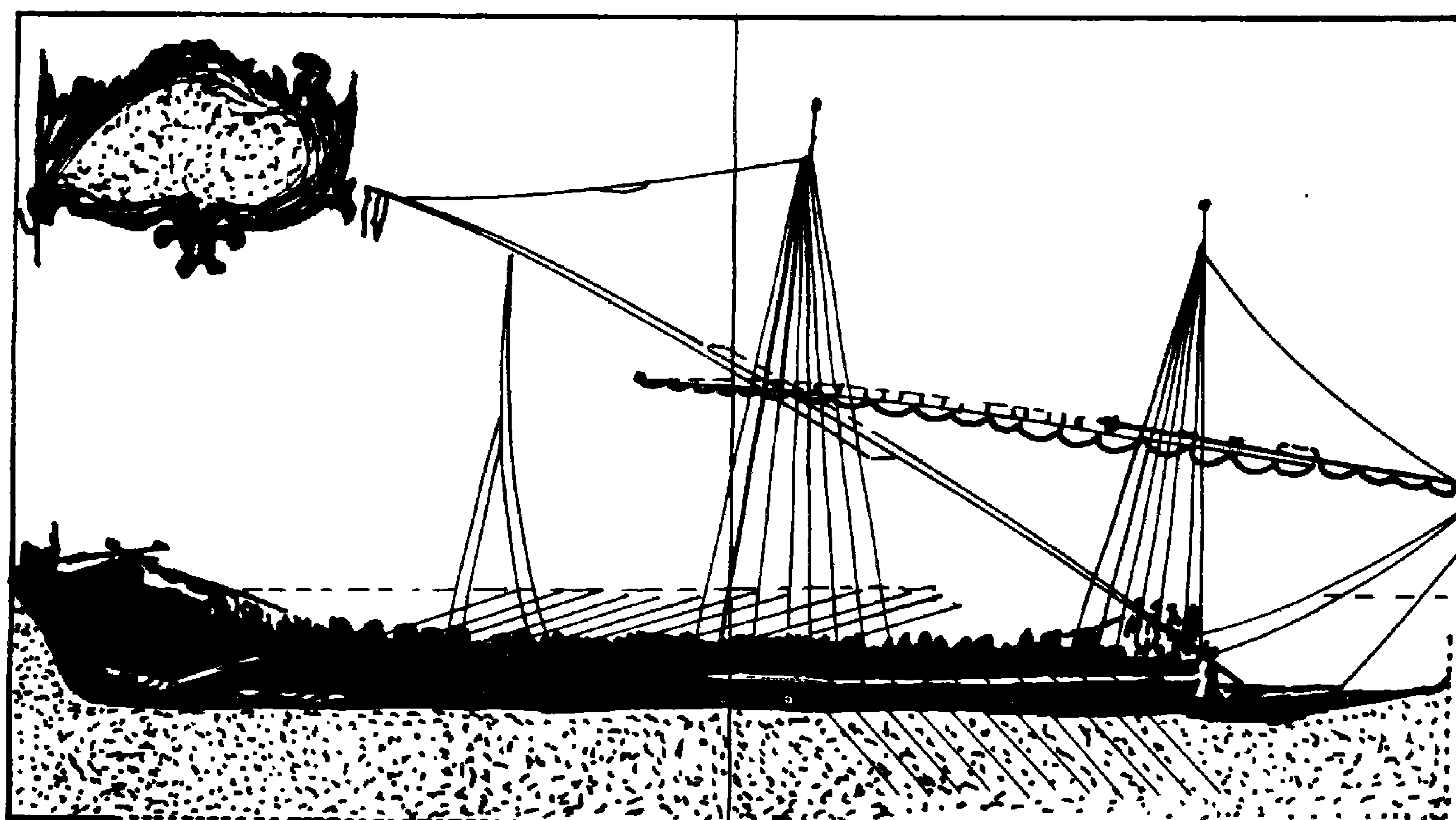
وفى صباح يوم ٧ اكتوبر سنة ١٥٧١ م التقى الأسطولان (نحو ٥٠٠ سفينه حربيه) فى مياه " ليبانتو " غربى شبه جزيره المورة ، ودارت بينهما معركة من أعنف وأشهر المعارك البحريه انتهت بهزيمة الأسطول التركى ، بعد أن لحقت بالجانبين



الامبراطورية العثمانية (١٥٦٨ م)
مقارنة بأقطار العالم العربي حاليا







"جالى" بالشراع والمجداف (القرن ١٨)

خسائر فادحة فى السفن وفى الأرواح. (١) وترجع شهرة هذه المعركة لأهميتها التاريخية اذ أنها كانت آخر المعارك البحرية الكبرى ـ فى البحر المتوسط ـ التى استخدمت الأساطيل فيها سفن المجداف . أما نتائج المعركة فلم تكن ذات أثر حاسم :فالحلف المسيحى لم يستثمر نصره البحرى فى استعادة قبرص ،ولا هو خفف من عنف الاغارات على سفن المسيحيين التجارية ،بل العكس صحيح ،اذ أدى تحطيم الأسطول التركى الى اضعاف سيطرة الأتراك على مياه البحر المتوسط ،ليخلو المسرح لفئات من القراصنه " البربر " انتهكت ـ بسفنها " الكورسير " الشهيرة ـ التجارة البحرية فارضين الاتاوات على السفن التجارية التى ترتاد مياه غربى البحر المتوسط .

حملات الفرنسيين والانجليز على مصر

استهدفت الصراعات والحروب ـ إبان القرنين السابع عشر ،والثامن عشر ـ التوسع فى اقامة المستعمرات فى الشرق والغرب الأمر الذى جعل الدول الاستعمارية الأوربية تركز اهتمامها على توطيد أقدامها فى ممتلكاتها الجديده ،الى أن جاءت الثورة الفرنسية ، وقام" نابليون بونابرت" بحملته الشهيرة على مصر فى صيف سنه ١٧٩٨م ، فعاد البحر المتوسط يشد اليه انتباه سائر الدول الاوربيه ،وفى مقدمتها بريطانيا التى أدركت مدى الخطر الذى يمكن أن تتعرض له مصالحها ،وممتلكاتها فى الشرق (٢) من جراء وجود خصم لها على هذه الدرجة من القوة فى منطقة البحر المتوسط .

(١)كان قوام الأسطول الحربى التركى ٢٥٠ سفينه من طراز"جالى" يقدر طاقمه بنحو ٥٠ الف بحارا ويحمل ٢٥ ألف جندى بحرى ،بينما كان قوام الأسطول المسيحى ٢٠٠ سفينه من نفس الطراز ،ويقدر طاقمه بحوالى ٤٤ الف بحارا ،ويحمل ٢٨ الف جندى . هذا وقد بلغت خسائر الأتراك ١٩٠ سفينه بين غريقه وأسيرة ، ٣٠ ألفا من الأرواح ،أما خسائر الحلف المسيحى ،فلم تتجاوز ١٢ سفينه ،و٧٧٠٠ نفس.

(٢)على مدى سنين طويله ،وصراعات ضاريه ،أقامت بريطانيا لنفسها نفوذا اقتصاديا وسياسيا وعسكريا قويا ،فى بلدان وشواطىء الخليج الفارسى ،والهند ،والمحيط الهندى ،وفى المشرق (ليفانت) ،وبنت أيضا سلسلة من القواعد البحرية ـ لدعم قوتها البحرية المتمركزه بالهند ـ فى كل من " سانت هيلينا" ومدينة " الكاب" و" بومباى" و" مدراس" ،و "كلكتا" ،و"بنانج" ،و" بندرعباس" ،وغيرها .

ففى شهر مايو سنة ١٧٩٨م ،أبحر" نابليون " بجيش قوامه ٥٠ ألف جندى تحمله ١٨٠ سفينه نقل يرافقها أسطول من ٥٥ سفينه حربية ،متجها الى مصر، مستوليا فى طريقه على جزيره " مالطة" الى أن وصل للاسكندرية فى اليوم الأول من شهر يوليو، واستولى عليها وترك بها سفن النقل ،ليرسو بسفنه الحربية فى ميناء خليج " أبى قير " ثم زحفت القوات الفرنسية جنوبا الى أن دخلت القاهرة فى ٢٣ يوليو من نفس السنه . وفى هذه الأثناء كان الأسطول البريطانى - بقيادة " هوراشيو نلسون" القائد البحرى الشهير - يجد فى مطاردة الأسطول الفرنسى ، الى أن وصل الى مشارف الاسكندرية فى أول أغسطس ثم تجاوزها (دون أن يتعرض لسفن النقل الفرنسية الراسية بالميناء حتى لا يكشف عن وجوده) ، متجها الى خليج أبى قير ،حيث دارت بين الأسطولين معركة عنيفه - عرفت ونسبت الى نلسون بأسم " معركة النيل " - انتهت فجر اليوم التالى بالقضاء على أسطول الفرنسيين الا من أربع فرقاطات فرت الى مالطة .

وعلى الرغم من هذه الهزيمة فلم تنسحب القوات الفرنسية من مصر، فجهزت تركيا ،وبريطانيا حملة بحرية بريه كبيره اتجهت - سنة ١٨٠١- الى مصر ،فأضطر الفرنسيون لطلب الصلح وغادروا البلاد نهائيا .

لم يهدأ النزاع البحرى بين بريطانيا ،وفرنسا الى أن كانت هزيمة الأسطول الفرنسى - فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ - على يد " نلسون " فى موقعه "الطرف الأغر" (ترافلجار) الشهيرة . وبتخلص بريطانيا من قوة خصمها (فرنسا) ،عاود الانجليز هجومهم على مصر سنة ١٨٠٧ بقياده " فريزر" إلا أن المقاومة العنيفة التى لقيها فى رشيد ،والاسكندرية اكرهته على مغادرة الأراضى المصرية فى سبتمبر من نفس السنه ،والتى يرجع الفضل فيها لجهود " محمد على باشا " الذى كان قد ولى على مصر قبل سنتين من حمله بريزر .

الأسـرة العلوية فى مصر

عهد محمد على باشا (مايو ١٨٠٥ ـ أغسطس ١٨٤٩)

ظل الأتراك العثمانيون محتفظين ـ بفضل تفوقهم ـ بسلطانهم فى البلاد التى أخضعوها قرابة أربعه قرون ، ومع ذلك قامت حركات تمرد فى بعض الولايات العثمانية ضد " الباب العالى " نتج عنها إعلان الاستقلال ، أو الحكم الذاتى بها مثلما حدث فى مصر على يد " على بك الكبير " ، وكذلك فعل كل من الأمير " فخرالدين البرزى " فى سوريا ، وفلسطين ، والأمير " بشير الشهابى " فى لبنان و " الوهابيين " فى شبه الجزيره العربية ، كما أخذ نفوذ تركيا ينحسر عن " القرم " ، وسواحل البحر الأسود أمام زحف نفوذ روسيا ، مما أتاح لها فى النهاية حرية الملاحة فى المضايق التركية ، لتظهر أساطيلها فى مياه البحر المتوسط الدافئه .

لذلك أهملت الدولة العثمانية أمر البحرية المصرية ، فأخذ الضعف والانحلال يتطرقان اليها منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وحتى مطلع القرن التاسع عشر عند ما ولى " محمد على باشا " أمر مصر فى يناير سنة ١٨٠٥ ، الا أن اهتماماته بالبحريه لم تظهر الا بعد حمله فريزر على مصر سنه ١٨٠٧ ، وكانت الحملة الوهابيه (١٨١١) هى المولد الحقيقى للأسطول المصرى الحديث .

فى أوائل عام ١٨١١ أصدر السلطان العثمانى أوامره لوالى مصر بتجهيز حملة لاخماد ثورة الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية ، فاستغل محمد على هذه الفرصه للبدء فى اعادة بناء قوة مصر البحرية . وقد تمكنت ترسانه بولاق من تصنيع أجزاء ٢١ سفينه نقلت الى السويس ، حيث تم تجميعها ، وتركيبها هناك . وفى شهر أغسطس من نفس السنه تجمعت بميناء السويس ٦٣ سفينه من مختلف الأشكال والطرازات . (١)

(١) تكلف بناء تلك السفن ، واستئجار البعض الآخر نحو ٢٥ مليون قرش ، وتضم ١٨ قرويت (Corvette) و ١٠ أباريق (Brig) و ٢٥ سفينه من طراز " داو " ، ١٠ سفن مجداف تسمى " زعيمة " بنيت بطرابلس . والقرويت سفينه حربيه كبيره (٢٠٠ طن تقريبا) مصنوعه من الخشب تحمل ٢٤ مدفعا زنة دانته خمس أوقات ، أما الأبريق ، فهى أصغر حجما (١٠٠ طن تقريبا) تحمل ٢٤ مدفعا بعرباتها زنه دانته ثلاث أقات ، وتتميز بخفه الحركه . هذا بالاضافه الى ٢٧ فلوكه تحملها السفن الكبيره ، لتقوم بنقل التموين ، والافراد بين السفن وبعضها ، وبينها وبين الساحل .

كانت الحملة الوهابيه التى انعقد لواءها لابراهيم باشا ابن محمد علـــى ، أساسا ، حملة بريه أقتصر دور الأسطول على عمليات نقل القوات ، والمهمـــات ، وتأمين انزالها ، والاستيلاء على بعض المناطق الساحلية بالحجاز، لاتخاذهـــا نقط ارتكاز للعمليات الحربيه داخل شبه الجزيره العربيه . لذلك استولـــى الاسطول المصرى ـ بعد إبحاره من ميناء السويس فى ٣ سبتمبر سنة ١٨١١ ـ علـــى مرفأى " المويلح " ، و " الوجه" ، ثم ثغر " ينبع " الذى نزلت عليه القوات المحملـــه على السفن (٧٠٠٠ من الجنود المشاه) بينما اتخذت قوات الفرسان (٢٠٠٠ فـارس) الطريق البرى من العقبة جنوبا بمحاذاة الساحل الى ميناء ينبع . إلا أن بقـــاء الحملة المصرية بالأراضى الحجازية سبع سنوات ألقى عبئا كبيرا على كاهل الأســطول المصرى الناشئ الذى اضطلع بمهمة نقل الحملات الثلاث الى شبة الجزيـــرة ، وأمدادها بكل ماتحتاج اليه من مؤن ، وعتاد ، بالاضافه الى المساعده فى كل العمليات الساحلية التى كانت تستهدف إنزال قوات مصرية خلف خطوط الوهابيين والإطباق عليها من اتجاهين متضادين ، الى أن تم للحملة النصر فى النهاية .

ومع أن الحملة الوهابيه لم تكن اختبارا حقيقيا لقوة الأسطول المصرى ، الا أنها عادت على مصر بعدة فوائد أهمها : أن والى مصر أصبح بامكانه بناء أسطول برضاء الباب العالى ، وأن نفوذ مصر قد امتد الى سواحل البحر الأحمر ، الطريق الرئيســى الى تجارة الهند ، بالاضافه الى أن الحملة أتاحت الفرصة لتطهير مياه هذا البحـر من القراصنه ، وتأمين التجارة مع الهند ، خصوصا بعد إعادة تجهيز ميناء " القصـير" ليكون صالحا لاستقبال السلع الشرقيه . لهذا اهتم محمد على بتنظيم حراسة منتظمة على سواحل البحر الاحمر ، وتخصيص قوة بحرية للقيام بدوريات مطاردة ، وأصبحـــت السويس " القاعدة الرئيسيه لأسطول البحر الأحمر " (١)

---

(١) لم تعترض الحكومة الانجليزيه ـ سيدة الموقف فى المنطقة وقتئذ ـ على ارســـال الحملة ، فى بادئ الأمر ، لأن الوهابيين كانوا يهددون تجارتها فى البحرالأحمر ، والخليج العربى ، ولأن قوة مصر البحرية فى ذلك الوقت لم تكن لتعمل لها انجلترا أى حساب ولكن امتداد نفوذ مصر الى البحر الأحمر ، وخصوصا بعد استيلاء ابراهيم باشا على منطقة " تهامة " باليمن ، أثار مخاوف بريطانيا من أن يكون ذلك مقدمـــه للاستيلاء على " عدن " والتحكم فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

عاد البحر المتوسط ـ بعد انتهاء الحرب الوهابية ـ يشد اهتمام والى مصر نظرا لأن تواجد أسطول قوى فى هذا البحر يحقق لمحمد على هدفين أساسيين : أولهما تأمين وجوده فى مصر ضد نزوات السلطان العثمانى ، ومؤامرات أعدائه ، وفى مقدمتهم والى عكا ، وثانيهما دعم الاقتصاد المصرى بمعاونة هذا الأسطول فى نقل صادرات مصر بعيدا عن تحكم شركات الملاحة الأجنبيه فى التجارة المصرية ، ولا سيما أن جميع سفن النقل ـ حتى ذلك الوقت ـ كانت مزودة بوسائل الدفاع عن نفسها ، ومتأهبه لدخول أى معركة ضد القراصنه ، ورد أى عدوان عليها . وعلى هذا فيمكن القول بأن الدوافع لانشاء أسطول البحر المتوسط كانت ـ فى المقام الاول ـ دوافع سياسية واقتصادية .

كان إيمان محمد على بحتميه وجود أسطول حربى ، لتأمين سلامة حركة النقل البحرى ، هو الذى جعلة ينتهج سياسة تكوين الأسطولين فى وقت واحد ، وأن يعمل على تنمية البحرية التجارية جنبا إلى جنب مع البحرية الحربية . إلا أن هذه السياسة ـ على الرغم مما فيها من حكمة وبعد نظر ـ أحاطت بها عدة عوامل أهمها : عدم توافر قدر كاف من المواد الخام اللازمة لصناعه سفن كبيره حديثه الطراز ، وقلة عدد الفنيين من ذوى الخبرة فى هذا المجال ، وافتقار البلاد الى ترسانة معدة إعدادا مناسبا ، لإنتاج السفن الحربيه . لذلك نجد أن بناء الأسطول المصرى مر بثلاث مراحل رئيسيه : شراء السفن من أساطيل الدول الأجنبيه ثم التوصية ببناء سفن الأسطول فى الموانى الاوربية ، أما المرحلة الثالثة فكانت إعادة تشييد دار صناعه الاسكندرية ، والاعتماد عليها فى سد حاجة الأسطول من مختلف السفن .

ويمكن اعتبار المرحلة الأولى من مراحل تنمية أسطول مصر الحديث ، أنها محاولة ساذجه من والى مصر ، لم يكتب لها النجاح المرجو ، لأنه وقع فى براثن سماسرة جشعين باعوه سفنا قديمه من مخلفات أساطيل الدول الأجنبيه ـ غالبيتها سفن تجاريه ـ إما غير صالحة للغرض ، أو أن استصلاحها يستنفذ أموالا طائله . بل إن تحويل بعضا منها الى سفن حربيه تم بطريقة غير علمية ، أو فنيه ترتب عليها فقدانها سرعه الحركة ، وخفة المناورة ، الأمر الذى حدا بمحمد على إلى الاتجاه الى التعاقد على بناء السفن الحربية لدى الترسانات الأوربية .

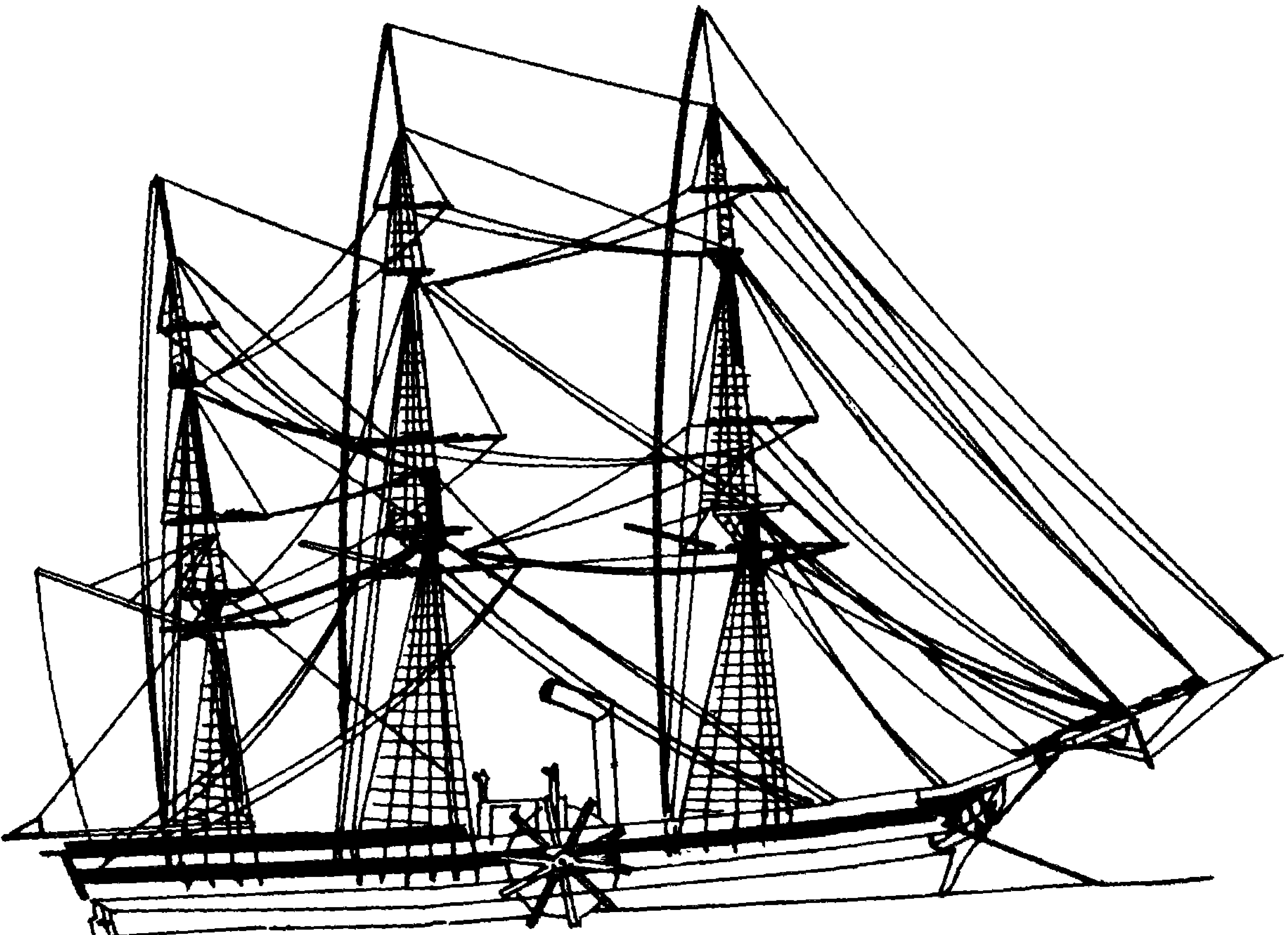
قامت الترسانات في كل من فرنسا ،وايطاليا ،وانجلترا بتلبيه طلبات محمد علي فحصل منها ـ خلال الفترة من أغسطس سنة ١٨٢٦ ،ومارس سنة ١٨٢٧ ـ على ثماني سفن حربية قوية التسليح ،هذا بخلاف عدد آخر تم بناؤه في " جنوه " ،و " الجزائر " وغيرها[١] وبذلك تمكن والى مصر من تكوين أسطول قوى اشترك منه في معركة " نافارين " (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧) ٣١ سفينه من مختلف الطرازات وقد تحطم وضاع معظمه في المعركه .

أما المرحلة الثالثه فقد جاءت عقب معركة نافارين التي تحطم فيها أسطول مصر الناشيء ـ والتي سنوردها تفصيلا فيما بعد ـ وما واجه بناء سفن حربية في الترسانات الأجنبيه من صعاب جمة ،مما جعل محمد علي يقرر أن يعيد بناء أسطول جديد في مصر معتمدا في ذلك على انشاء ترسانه حديثه بالاسكندرية مستعينا بالخبره الفرنسية وماتبقى في الترسانه القديمة من خبرات محلية .ولم يكن هذا الأمر الهين ،فمصر مازالت تفتقر للمواد الأساسية اللازمة لهذه الصناعة مثل الأخشاب ،والواح الحديد ،والنحاس ،والحبال ،والقطران وغيرها ،بالاضافة الى النقص في الخبرة في العلوم الحديثه وتكنولوجيا بناء السفن . لذلك استخدم والى مصر المهندس الفرنسي " دى سيريزى " (٢) للاضطلاع بمهمة تشييد ترسانة الاسكندرية التي بديء في وضع أساسها في ٩ يونية سنة ١٨٢٩ . هذا وقد حاولت بعض الشركات الأجنبيه النيل من المشروع،فلما فشلت في ذلك لجأت الى المغالاة في أسعار المواد الخام التي كانت توردها لمصر وكانت في أكثر الأحيان من الأنواع سريعة التلف . إلا أن هذه العراقيل لم تصرف والى مصر عن مواصلة السير في بناء أسطول مصر محليا ،لأنه كان يعتبره تحررا من قيود الدول الأوربية الكبرى ،وتحكمها في قوة مصر البحريه . ومن ناحيه أخرى كانت العلاقات بين مصر والسلطنة العثمانيه آخذه في التدهور ،مما ينذر بقرب وقوع صدام بين محمد علي

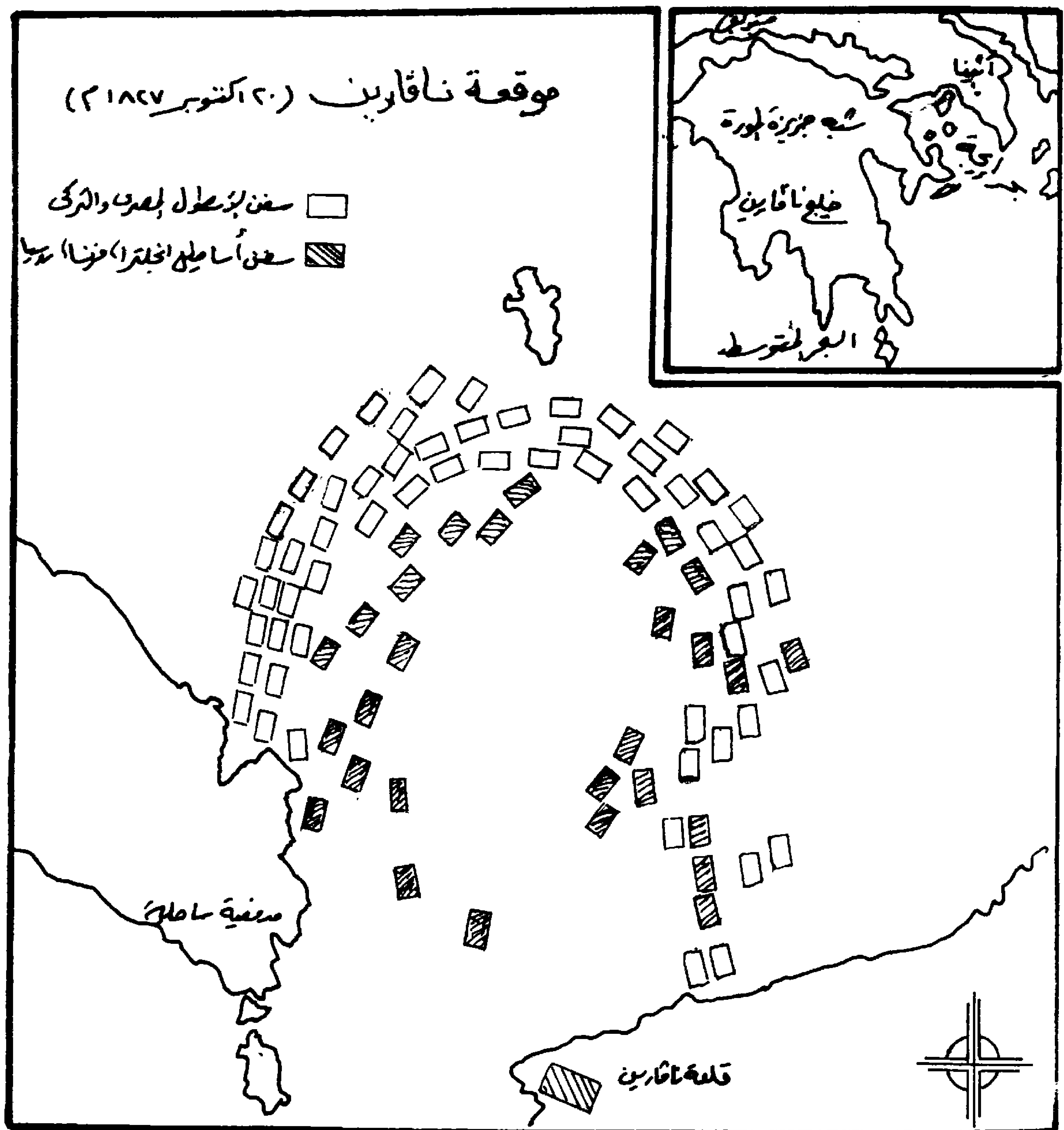
---

(١) يورد اسماعيل سرهنك في كتابه" حقائق الأخبار في دول البحار" الجزء الثاني ، بيانا بمجموع عدد السفن التي تم بناؤها في الخارج على النحو التالي :ـ
٤ فرقاطات(٢٤٠ مدفعا)٦ قرويت(٢٢٣ مدفعا) ٣ أبريق (٦٠ مدفعا) ، ٢ غولت (٤٢ مدفعا) .

(٢) هو نفس المهندس الذى كان يشرف على بناء السفن المصرية في فرنسا ، وقد تسلم عمله في مصر في ابريل سنة ١٨٢٩م.



نموذج مبكر لإحدى سفن البخار (القرن ١٩)


موقعة نافارين (٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م)
سفن الأسطول المصري والتركي
سفن أساطيل انجلترا وفرنسا وروسيا
شبه جزيرة المورة
أثينا
خليج نافارين
البحر المتوسط
مدفعية ساحلية
قلعة نافارين

والسلطان . لذلك حرص محمد على على بناء أسطول يفوق فى قوته الأسطول التركى ، وزيادة على ذلك فقد ازداد ايمانا بأن نجاح العمليات البريه توقف ـ على حد كبير ـ على مساندة القوة البحرية لها ومؤازريها .

هذا وقد بدأ المهندس " دى سيريزى " باصلاح ، وترميم ماتبقى من سفن بعد معركة " نافارين " ، ثم السير فى بناء أسطول جديد فى ترسانه الاسكندرية الجديدة التى انتهى تشييدها واستكملت معداتها فى أواخر سنة ١٨٣٢ ، والى جانبها قامت عدة مصانع أخرى ، لتزويدها بحاجتها من مواد البناء ، مثل الحديد المسبوك وصب المدافع ، وتصنيع النحاس لتبطين السفن وبارود المدافع والأسلحة النارية الأخرى .

ومن دواعى الفخر أن ترسانة الاسكندرية الجديدة أنتجت ٤٨ سفينه حربية من مختلف الطرازات والأحجام (١٢ غليونا أو بارجة ، ١٢ فرقاطة ، ١٣ قرويتا ، ٦ فولتات ، ٥ أباريق) انضمت للخدمة العاملة فيما بين عامى ١٨٣١ و ١٨٣٨ ، هذا بالاضافه الى ٦ سفن تجارية بجانب ٩ بواخر أخرى لنقل البريد بين موانىء مصر ، وتركيا ، وللتنقل بين وحدات الأسطول أثناء الحملات .

وقد اتسمت خطة محمد على فى بناء قوة مصر العسكرية بالتكامل والتوازن ، ولاسيما القوة البحرية فأنشأ لها " ديوان البحرية " الذى كان له الاشراف العام على كل مايتعلق بشئون البحر . ومع نمو الأسطول المصرى ، وتزايد الالتزامات البحرية ، أخذ " ديوان البحرية " ينقسم الى أقسام ، ودواوين مستقلة ، لكل منها مدير ، أو ناظر والتى من أمثلتها " ديوان الدونتمه (الأسطول) " ، و " ديوان البحر " و " مصلحة الترسانة بالاسكندرية " . وكما فعل مع المدارس الحربية ، فقد استعان محمد على بضباط بحريين فرنسيين لانشاء المدرسة البحرية ووضعت تحت اشراف " ناظر الجهادية " والتى استمرت تؤدى عملها بكفاءه حتى أواخر أيام حكم محمد على (١) . وعندما أظهرت الدروس المستفاده من الحروب البحرية مدى الحاجه

(١) قامت هذه المدرسة بتخريج صفوة ممتازة من الضباط البحريين العظام ، نذكر منهم على سبيل المثال : حسين شيرين قبودان ، وجعفر مظهر قبودان ، ومصطفى الكريدلى قبودان ، وخورشيد قبودان ، ومحمد راشد قبودان ، ومطوش قبودان وسليم قبودان (اسماعيل سرهنك " حقائق الاخبار لدول البحار " الجزء الثانى) .

لتحسين مستوى أداء مدفعيات السفن ، أنشئت مدرسة خاصة لتخريج " مساعدى المدفعية البحرية " (سنة ١٨٣٦) بجوار ترسانة الاسكندرية وكانت تستوعب نحو ١٢٠٠ تلميذ . هذا وقد خصصت بعض السفن لتدريب البحارة على الفنون البحرية ،وأسلحة القتال ،والتعرف على معالم البحر المتوسط عن طريق زياراتها لجزر وسواحل هذا البحر . ومن ناحية أخرى ،اهتمت سياسة محمد على بالرعاية الصحية لرجال البحرية ،وعائلاتهم فأنشئت مستشفى جديد بالاسكندرية علاوة على مستشفى المحمودية ،ومستشفى رأس التين ،كما امتدت الرعاية الصحية الى السفن أيضا فأقيمت مستشفيات بالسفن الكبيره ،ووحدات خدمة طبيه على السفن الصغرى . (١)

حرب المورة

أخذت ثورة اليونانيين ضد الحكم العثمانى تشتد ـ فى عشرينات القرن التاسع عشر ـ تؤيدها روسيا التى وجد فيها القياصرة الروس فرصة مواتيه لتحقيق مطامعهم فى ممتلكات العثمانيين ،والقضاء على حكمهم فى أوربا . وفى بداية الثورة كانت السفن اليونانية المسلحة تهاجم سفن تركيا التجارية فى مياه بحر ايجه ،وتستولى عليها ،إلا أن هجمات اليونانيين تجاوزتها الى السفن المصرية ،لذلك لاقت دعوة السلطان العثمانى بتطهير مياه البحر المتوسط من القراصنه ،قبولا لدى والى مصر .

أبحرت الحملة الأولى من الاسكندرية فى ٢٥ يونية سنة ١٨٢١ ،قوامها ١٤ سفينه حربيه تحمل ٨٠٠ مقاتل وانضمت الى الأسطول التركى عند مياه جزيرة كريت وقاما معا بمطاردة اليونانيين واستوليا على ٤٠ من سفنهم .

ولم تمض شهور قليلة الا وقد طلب السلطان العثمانى من والى مصر تجهيز حملة ثانيه بحرية لمهاجمة جزيرة كريت معقل الثوار اليونانيين ،وتخليص الحامية

(١) لم تقتصر الرعاية الطبيه على المرضى فحسب ،بل كان يجرى كشف طبى شهريا على رجال البحرية يستبعد على أثره من لاتسمح له حالته الصحيه بمواصلة العمل بالبحر. كما أن المستشفيات البحرية هذه كانت تقوم بعلاج المدنيين أيضا ،ورجال السفن الأجنبيه المارة بالاسكندرية .

(المصدر: "تاريخ البحرية المصرية" اصدار جامعه الاسكندرية ،سنة ١٩٧٣م) .

التركية المحاصرة هناك . تكونت الحملة التى أعدتها مصر من ٨٧ سفينه حربية ونقل تحت قيادة " حسن بك " تحمل جيشا قوامه ٤٤٠٠ جندى مشاه و ٤٠٠ من الفرنسان و ٢٠٠ من الطوبجية (المدفعية) ، ووصلت الحملة الى كريت فى مايو سنة ١٨٢٢ حيث اشتبكت مع الثوار فى معارك عنيفه انتهت باستسلام الثوار، واعادة الأمن والنظام الى ربوع الجزيرة .

ولما شبت الثورة فى شبة جزيرة المورة ، وعجزت القوات العثمانية عن اخمادها ، لم يكن أمام السلطان التركى الا الاستعانة بمصر. فأعد محمد على حملة من ٥١ سفينه حربيه و ١٦٠ سفينه نقل ، وعهد بقيادة الأسطول الى " محرم بك" بينما تكونت القوات البريه من ١٧ ألف من المشاه ، و٤ بلوكات (سرايا) من المدفعية و ٧٠٠ من الفرسان ، حملتهم سفن الأسطول بعدتهم ، وعتادهم، تولى" ابراهيم باشا" القيادة العامة للحملة التى أبحرت من مصر فى ١٠ يوليو سنة ١٨٢٤ بعد أن كانت بعض وحدات الأسطول قد سبقتها ، وقامت بتطهير مياه بحر ايجه ، واستولت على جزيرتى " سكاربنتو" و " ناكسوس" لتأمين حركة نقل القوات .

اتجه الأسطول المصرى الى خليج " ماكرى" على ساحل الأناضول حيث أنزلت القوات البريه ، ثم اشتبك بالأسطول اليونانى فى معارك مقتضبه ، أدرك معها ابراهيم باشا ألا قبل لأسطوله الناشىء بأسطول اليونانيين متمرس القتال البحرى ، مما دعاه لتجنب ملاقاتهم بحرا إلى أن يتم هزيمتهم برا .

وقد واتت ابراهيم باشا الفرصة حينما حدث اضطراب فى معسكر اليونانيين استغله فى الخروج من خليج " ماكرى " ، وأنزل قواته فى جنوبى شبه الجزيره - عند ميناء " مود ون " - فى ٢٦ فبراير ١٨٢٥ .

تمكن ابراهيم باشا من فك حصار القوات التركية فى " كورون " ، ليتجه بعدها لحصار مدينه " نافارين" من البحر والبر . ومع أن الحصار البرى كان قويا إلا أن ضعف الحصار البحرى أتاح استمرار وصول الامدادات الى المدينه ، غير أن استيلاء القوات المصرية على جزيره " اسفاختريا" المواجهة لميناء " نافارين " أدى فى

النهاية الى تشديد الحصار البحرى على المدينه مما اضطر حاميتها للتسليم ، ودخلتها القوات المصرية فى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ . لم يهدأ لليونانيين بال ، وصح عزمهم على الانتقام بتوجيه ضربة شديده للأسطول المصرى فى ميناء" مودون" حيث دارت معركة حامية بين الجانبين خسر الأسطول المصرى فى نهايتها ١٢ سفينه . وبعد " نافارين" سقطت " مسولونجى " (واحدة من أمنع مدن الثوار) بعد حصار بحرى ، وبرى طويل ، وبعد قتال مرير ، والتى كان الاستيلاء عليها يعنى انتهاء القتال فى شبه جزيره المورة ، واستسلام الثوار .

الا أن هزيمة اليونانيين فى المورة ، لم يحل دون اتخاذ لفيف من المحاربين الثوار من جزيرتى " هيدرا " ، و" سبيمترى " قواعد يشنون منها هجمات بحريه عنيفه على سفن العثمانيين التجارية مهددين بذلك أمن حركة التجارة البحريه فى شرقى البحر المتوسط . لذلك اعتزم والى مصر ـ بالاتفاق مع السلطان العثمانى ـ على الاستيلاء على الجزيرتين لاعادة الأمن والنظام للمنطقة .

موقعة نافارين (٢٠ اكتوبر ١٨٢٧)

اتخذت الدول الأوربية من النزاع التركى اليونانى ذريعه لتدخلها المباشر فى شئون المنطقة خصوصا بعد الانتصارات العثمانية المصرية فى شبة جزيرة المورة . خشيت انجلترا أن تنفرد روسيا بحل القضية ، فعرضت عليها ، وعلى فرنسا أن يشتركوا معا فى إيجاد حل مقبول للقضية يتمشى مع أمانى اليونانيين القومية . وفى ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ عقدت الدول الثلاث ـ فى لندن ـ معاهده فيما بينهم ، تخولهم حق التدخل المباشر لحل النزاع التركى اليونانى ، على أساس منح اليونانيين الاستقلال الذاتى تحت السيادة العثمانية ، وأن يوقف الجانبان المتنازعان الأعمال العدوانيه ، لاتاحه الفرصة أمام الدول الثلاث للتوفيق بين الطرفين . واشترطت المعاهده أنه فى حالة رفض السلطان العثمانى لهذا العرض فى خلال شهرين من إبلاغه به ، فالدول الثلاث حق استخدام القوة لتنفيذ قراراتها . وتأكيدا لتمسكها بذلك ،

أرسلت الدول الثلاث بوحدات من أساطيلها الحربية (١) إلى بحر ايجه للضغط على الباب العالى ، والحد من وصول الامدادات الى المورة ، وعهدت بقيادة هذه القوة الى الأدميرال " ادوارد كودرنجتون " قائد المجموعه الانجليزيه .

لم يتراجع محمد على عن عزمه الاستيلاء على جزيره " هيدرا " ، فواصل إعداد العدة لغزو الجزيره . وفى ٥ أغسطس سنة ١٨٢٨ أبحرت حملة مشتركة قاصده شبه جزيره المورة قوامها ٤٨ سفينه حربيه ، و ٤٠ سفينه نقل عليها قوة مصرية مكونه من ٢٠٠٠ مقاتل (٢) ونجحت الحملة فى الافلات من الحصار الذى فرضته أساطيل الدول المتحالفه الثلاث ، وأن تنضم الى الأسطول العثمانى (٢٣ سفينه أخرى) ، لتتجه بعدها الى ميناء نافارين حيث أنزلت القوات البريه ، ثم ألقى الأسطول مراسيه فى الميناء (٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧) متخذا من نافارين قاعدة لعملياته .

اذا كان الأسطول التركى المصرى يتفوق ـ عدديا ـ على أسطول الحلف الأوربى ، إلا أنه كان دونه خبره فى النواحى التاكتيكية والقتاليه ، بالاضافه الى أن سفن أسطول الحلفاء كانت أحدث طرازا ، وأقوى تسليحا . ومن ناحية أخرى ، أثار نمو قوة مصر البحرية فى شرقى البحر المتوسط قلق بريطانيا فأخذت تتحين الفرصه للاطاحه بالأسطول المصرى الناشئ ، قبل أن يشتد عوده . ولم تكن هذه الحقائق بخافية على والى مصر ، وابراهيم باشا قائد عام الحملة ، لذلك نجده يشدد على قائدى الأسطولين المصرى ، والعثمانى بتجنب الاحتكاك بأسطول الحلفاء .

---

(١) تكونت هذه القوة من ٢٨ سفينه حربية كالآتى : ١٢ سفينه انجليزية بقيادة الادميرال " سير ادوارد كودرنجتون " ، ٩ سفن روسية بقيادة الأدميرال "هيدن" ، ٧ سفن فرنسيةبقيادة الأدميرال " رينى " وبلغ مجموع مدفعايتها ١٢٦٦ مدفعا .

(٢) تكونت هذه الحملة كالآتى : ٢٢ سفينه حربية مصرية ، ١٦ سفينه عثمانية ، ١٠ سفن تونسية ، أما سفن النقل فكانت جميعها مصرية وقد تولى " محرم بك " قيادة المجموعة المصرية التونسية عاقدا لوائه على البارجه (الجهادية) ، أما المجموعه التركية فكانت بقيادة " طاهر باشا " على البارجه " بند ينو شريف " على حين تولى ابراهيم باشا القيادة العامة للحملة (تاريخ البحرية المصرية ـ لجميل خانكى) .

واتت انجلترا الفرصه التى انتظرتها . فقد تعرضت القوات المصرية ـ داخل شبه جزيره المورة ـ لتكرر هجوم الثوار عليها ، مما أضطر ابراهيم باشا لترك" نافارين" والزحف للداخل لنجده قواته ، فبعث قادة الحلف الثلاثى انذارا الى ابراهيم باشا (١٨ اكتوبر ١٨٢٧) بالكف عن ذلك وأنهم يحملونه تبعه ما ادعوا بأنه"نقضا للهدنه" ،وما سيترتب على ذلك من اجراءات . ولكن هذا الانذار لم يصل ابراهيم باشا لوجوده خارج " نافارين " فقرروا اقتحام الميناء . وكان لهذا القرار دوافعه التاكتيكية أيضا ،فقادة أسطول التحالف كانو يدركون ألا جدوى من الحصار البحرى فى فصل الشتاء نظرا لما يمكن أن يصيب سفنهم من أعطاب،وأضرار من جراء العواصف إن هى انتظرت مدة طويلة بالبحر المكشوف خارج الميناء ،وأن البحر المكشوف يعطى الأسطول المصرى العثمانى فرصة الاستفاده بتفوقه العددى بما يتيحه له من حرية المناورة على عكس موقفه الحرج فى المساحه المائية المحدودة داخل الميناء .

وتقتضى الظروف والملابسات التى أحاطت " بموقعة نافارين" وماترتب عليها من نتائج سياسية وعسكرية خطيره ،أن نتناولها بشيء من الاسهاب .

فى يوم ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧ ـ أى بعد الإنذار الثلاثى بيومين ـ كان الموقف فى نافارين هادئا كعادته بعد تعليمات والى مصر بالامتناع عن إعلان الحرب على سفن هذه الدول ،وبعد أوامر قائد عام الحملة لقائدى الأسطولين المصرى والعثمانى بعدم الاحتكاك بأسطول التحالف الثلاثى . وفى صباح اليوم المشهود ، كانت السفن المصرية والعثمانية راسية داخل الميناء فى ثلاثة صفوف على شكل نصف دائره يمتد طرفاها من يمين البوغاز الى جزيره " اسفاختريا" : فى الصف الاول البوارج والفرقاطات وفى الصف الثانى القراويت ،أما الصف الثالث فكان يضم الأباريق ،وباقى السفن الصغيره ،بينما كانت بعض الحراقات تقوم بحراسة البوغاز. هذا وكانت السفن المصرية فى موضع مركز نصف الدائره تحيط بها السفن العثمانيه من الجانبين . ويجدر أن نشير هنا الى أمرين سيكون لهما أكبر الأثر فى سير

المعركة الوشيكة وفى نتائجها : أولهما أن وضع السفن المصرية فى الوسط يفرض قيدا على أقواس نيران مدافعها ، ويشل حركتها إن هى أرادت رفع مراسيها ، وثانيهما أن وجود ضباط ومستشارين بحريين فرنسيين على الأسطول المصرى يفرض قيدا ـ من نوع آخر ـ على كفاءة أداء السفن المصرية فى مواجهة السفن الفرنسية المعادية .

لكل هذه الأسباب والملابسات ، بدأت سفن التحالف الثلاثى فى اقتحام ميناء نافارين فى صباح يوم ٢٠ اكتوبر تتقدمها مجموعه السفن الفرنسية ، والانجليزية تتبعها السفن الروسية ووجه القائد الفرنسى نداء الى الفرنسيين ، والأجانب الذين يعملون على السفن المصرية بمغادرتها قبل نشوب القتال . فلما أجابهم محرم بك لطلب اعفائهم من العمل معه ، غادروا السفن المصرية ، واستقلوا سفينة نمساوية عادت بهم للاسكندرية .

شرعت السفن المتحالفه تتخذ مواقعها فى شكل نصف دائرة بحيث تواجه كل منها احدى السفن المصرية ، أو العثمانية ، وبذلك انشلت حركة باقى السفن فى الصفوف الخلفيه ، وقيدت أقواس نيران غالبيه سفن الأسطول . واشتعلت شرارة المعركة على أثر ماقام به الحلفاء من استفزازات مدبرة ، بتبادل عدة أعيرة ناريه بين الجانبين ، سرعان ماتحول الى جحيم من النيران ، بين مدفعيات خمس أساطيل من أقوى أساطيل العالم ، كل يريد تدمير الجانب الآخر . لم يكن أمام الأسطول المصرى ـ وهو فى هذا الوضع العاجز ـ إلا أن يستبسل فى الرد بعنف على العدوان ، لدرجة أن بعض الحراقات المصرية كانت تترك مرساها وتندفع ـ وهى مشتعلة ـ مصطدمة بسفن العدو لاضرام النار فيها .

وانتهت المعركة الى النتيجه التى يمكن أن نتوقعها من مثل هذا الموقف وهى تدمير الأسطولين المصرى ، والعثمانى ، وقد بلغت خسائر مصر ١٥ سفينه ، وبلغت خسائر تركيا ٥٠ سفينه . وبعد عودة ابراهيم باشا إلى نافارين أمكن ترميم

بعض ماتبقى من السفن المصرية (١٧ سفينه حربية و ٣٥ سفينه نقل) ثم أبحرت للاسكندرية حاملة الجرحى والمصابين وعددا كبيرا من الأسرى اليونانيين .

الآثار التى ترتبت على نافارين

لم يكن تحطيم أسطول مصر فى نافارين هو نهاية تحرش انجلترا بمصر ، فقد توجه الأدميرال الانجليزى " كود رنجتون " الى الاسكندرية ، وهدد محمد على بضرب المدينه ، إن لم يبادر بسحب قواته من المورة . فأدرك والى مصر أنه من الحكمة ـ ازاء تآمر الدول المتحالفه ـ أن يتفق معها ، حتى يتمكن من الخروج من هذا الموقف الحرج الذى كلف مصر غاليا . (١)

انتهى الموقف ـ فى أغسطس سنة ١٨٢٨ ـ باتفاق الحلفاء ، مع محمد على ، وليس مع السلطان العثمانى ، على اجلاء القوات المصرية من اليونان ، فيما عدا بعض المدن حيث يسمح لمصر بابقاء بعضا من قواتها فيها ، كما نص الاتفاق أيضا على تبادل الأسرى ، واعادة ما استولى عليه الحلفاء من سفن مصرية . وفى أوائل اكتوبر من نفس السنة تم انسحاب القوات المصرية من اليونان .

خرجت مصر ، والوالى محمد على من حرب المورة بنتائج هامة نلخصها فيما يلى :

١ـ أن الأسطول المصرى الناشىء لم يشتد عوده بعد ليخوض حربا ضد دول أوربية كبرى ، اذ أن هزيمته أمام أساطيلها على هذا النحو كانت منطقية على الرغم من صموده . وأن على والى مصر أن يبنى لمصر قوة بحرية مرهوبة الجانب حتى لا ينجرف حكمه أمام تيارات التآمر السياسى ، والضغط الاقتصادى من جانب السلطان العثمانى أو الدول الأوربية الكبرى .

---

(١) بالاضافة الى تحطيم الأسطول المصرى ، خسرت مصر أيضا قرابة ٣٠ ألف جندى ، ونحو ٧٧٥ ألف جنيه قيمة نفقات الحمله . (كتاب " تاريخ البحرية المصرية ـ اصدار جامعه الاسكندرية ، سنة ١٩٧٣) .

٢ـ أن انهاء حرب المورة تم باتفاق الدول مع والى مصر مباشرة الأمر الذى اكسب محمد على أهمية كبيرة فى نظر العالم، وجعله نذا للسلطان .

٣ـ أن الباب العالى ـ بمفرده ـ أعجز من أن يحمى ممتلكاته ، وهو وضع يمكن استغلاله فى سلخ مصر عنه ، لذلك قرر محمد على ، تمهيدا لاتخاذ هذه الخطوة ، أن يوطد علاقاته بالدول الأوربيه ذات الشأن ، وفى مقدمتها انجلترا .

٤ـ أن من الحكمة أن تنفض مصر يدها من الباب العالى ـ الذى أطلق عليه "الرجل المريض" ـ حتى لا يتورط محمد على معه فى مصيره المحتوم ، وأن يعد القوات المصرية للعمل ضد الباب العالى ، وليس لمساعدته . ولعل ذلك كان السبب القوى الذى جعل محمد على يرفض طلب السلطان العثمانى بتقديم مساعدة عسكريه عند ما نشبت الحرب الروسية التركيه .

ويشهد التاريخ لمحمد على بالشجاعه ، ورباطة الجأش فى تحمله لكارثه نافارين ، وعزمه على المضى فى إعادة بناء قوة مصر البحرية معتمدا فى ذلك على ترسانه الاسكندرية التى بدئ فى انشائها فى منتصف عام ١٨٢٩ ، على النحو السابق ذكره ، وفى نفس الوقت إصلاح ماتبقى من سفن حربيه ، والتوصية ببناء سفن أخرى جديده فى ترسانات ايطاليا وفرنسا .

فى هذه الأثناء ـ أوائل سنة ١٨٣١ ـ تجددت الاضطرابات ، والقلاقل فى أرجاء الدولة العثمانية ، ومع اضطراد نمو قوة مصر العسكرية ، والاقتصادية شرع السلطان العثمانى يحيك الدسائس ، والفتن ضد محمد على لدى " عبد الله باشا الجزار" والى عكا ، والمنافس القوى لمحمد على فى شرقى البحر المتوسط ، وقد عرف عنه قوة الشكيمة ، وكثرة التقلب ، وكراهيته الشديده لمصر. فلما ضاق محمد على ذرعا بموقف السلطان العثمانى ، ووالى عكا ، أعد حملة لتأديب عبد الله الجزار والتخلص ـ فى نفس الوقت ـ من دسائس تركيا ، ووطأة سلطانها .

حروب الشام

تم اعداد الحملة فى اكتوبر سنة ١٨٣١ والتى انقسمت الى قسمين : قوات برية بحته تتكون من ١٥ ألفا من المشاه، و ٥٠٠٠ من الفرسان، وعدد وافر من سرايا المدفعية تتخذ طريق البر من القاهرة بقيادة ابراهيم باشا، والقسم الثانى قوامه نحو ١٠ آلاف مقاتل تحمله السفن بحرا الى يافا، حيث يتقابل مع القوات الزاحفه برا . أما الأسطول المصرى فكان يضم ٢١ سفينه حربيه، عدا سفن النقل، تحت قيادة أمير البحر " عثمان نورالدين " .

تحرك الجيش المصرى من القاهرة فى اكتوبر سنة ١٨٣١ متجها الى الشام وأبحرت الحملة البحرية من الاسكندرية فى أوائل نوفمبر من نفس السنه متجهة الى "يافا " التى استسلمت للقوة المصرية، ومنها الى " حيفا " التى استسلمت هى الأخرى، ونزلت عليها القوات المصرية حيث تم لها الاتصال بمقدمه قوات ابراهيم باشا الزاحفة على الساحل، واتخذت " حيفا" قاعدة للعمليات الحربية فى الشام، والتى كانت بداية لما عرف " بحروب الشام".

رفض محمد على وساطة قناصل الدول الأوربية بالكف عن الحرب، كما رفض طلبا مماثلا للسلطان، فقد شجع النجاح المبكر الذى أحرزته القوات المصرية فى الشام على توجيه ضربة الى عكا، واسقاطها . وفى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١ بدأ حصار عكا، الثغر الحصين الذى امتنع على نابليون .

وفى صبيحه ٨ ديسمبر، بدأ الأسطول المصرى يقصف القلعة بنيران مدافعه التى ردت عليها القلعة بنيران حامية، وعلى الرغم من الثغرات التى أحدثتها طلقات مدافع الأسطول فى الأسوار(١) فإن المدينه ظلت صامدة مدة ثلاث شهور،

(١) يبدو مما جاء بوثائق حصار عكا، وقصفها من البحر، أن أسوار القلعة كانت مبنيه من جدران مزدوجه يفصل بين الجدار الخارجى والداخلى فراغ ملىء بالرمال الناعمة لامتصاص صدمة دانات المدافع، والحيلولة دون اختراقها للجدران . كما أستعانت حامية عكا ببعض بطاريات المدفعية البرية المخفاه بمهارة على الشاطىء، وهى التى ردت هجمات السفن الأمامية للأسطول المصرى، وأصابت عددا منها .

مما اضطر ابراهيم باشا لطلب تعزيزات من مصر منتهزا الفرصة لترميم واصلاح ما أصاب بعض سفنه من أعطاب . وبمجرد وصول التعزيزات ،وأعاد تجهيز أسطوله ، شدد ابراهيم باشا هجومة على عكا من البحر، والبر إلى أن تمكنت القوات المصرية من اقتحامها لتسقط المدينه في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ بعد حصار دام ستة شهور، وبعد أن تكبد الجانبان خسائر فادحه (١) .

أحدث سقوط " عكا" دويا كبيرا فى الأوساط البحرية العالمية ، خصوصا وأن اسم هذه المدينه ارتبط باسم " نابليون " أشهر قادة القرن التاسع عشر العسكريين . أما الباب العالى فقد استبدت به المخاوف من جراء اشتداد بأس قوة مصر العسكرية ، بعد أن تأكد له أنها تفوق قواته البحرية والبريه ، وهى مخاوف شاركته فيها روسيا ، وانجلترا ، وفرنسا إلا أن كلا منها كان له سياسته فى التخلص من قوة مصر العسكرية .

انحصرت مهمة الأسطول المصرى ـ عقب سقوط عكا ـ فى دعم ومؤازره الجيش المصرى المتقدم شمالا على طول الساحل ، وتعقب الأسطول التركى ، لمنعه من التدخل فى تحركات القوات المصرية أو معاونة القوات العثمانيه بالشام . وإنجازا لمهمته ، أبحر الأسطول المصرى ، بقيادة عثمان نورالدين الى قبرص ، و "مومريس" على ساحل الأناضول متجنبا الاشتباك مع الأسطول التركى اكتفاء بشل حركته دون تدميره ، وهو مبدأ خطير لسلبيته ، فالقضاء على أسطول العدو هو أفضل سبيل لاحراز التفوق ، وبالتالى فرض السيطرة البحرية على مسرح العمليات كله ، لا سيما أن الجانبين يدركان تمام الادراك مدى أهمية التفوق البحرى فى هذه الحرب . ولكن إحجام عثمان نورالدين عن الاشتباك مع الاسطول التركى ـ على مايبدو ـ كان لحرصه على عدم تكبيد الأسطول المصرى خسائر تقلل من امكاناته التى يعتمد عليها والى مصر فى امداد قواته بالشام بحاجتها من مؤن وعتاد ،

(١) شاعت بين رجال الأسطول المصرى عباره " أنه فتح عكا" للتدليل على الصعوبة التى لاقاها الأسطول فى إسقاط المدينه الى أن أصبحت هذه العبارة مثلا شائعا للتعبير عن صعوبة أمر من الأمور .

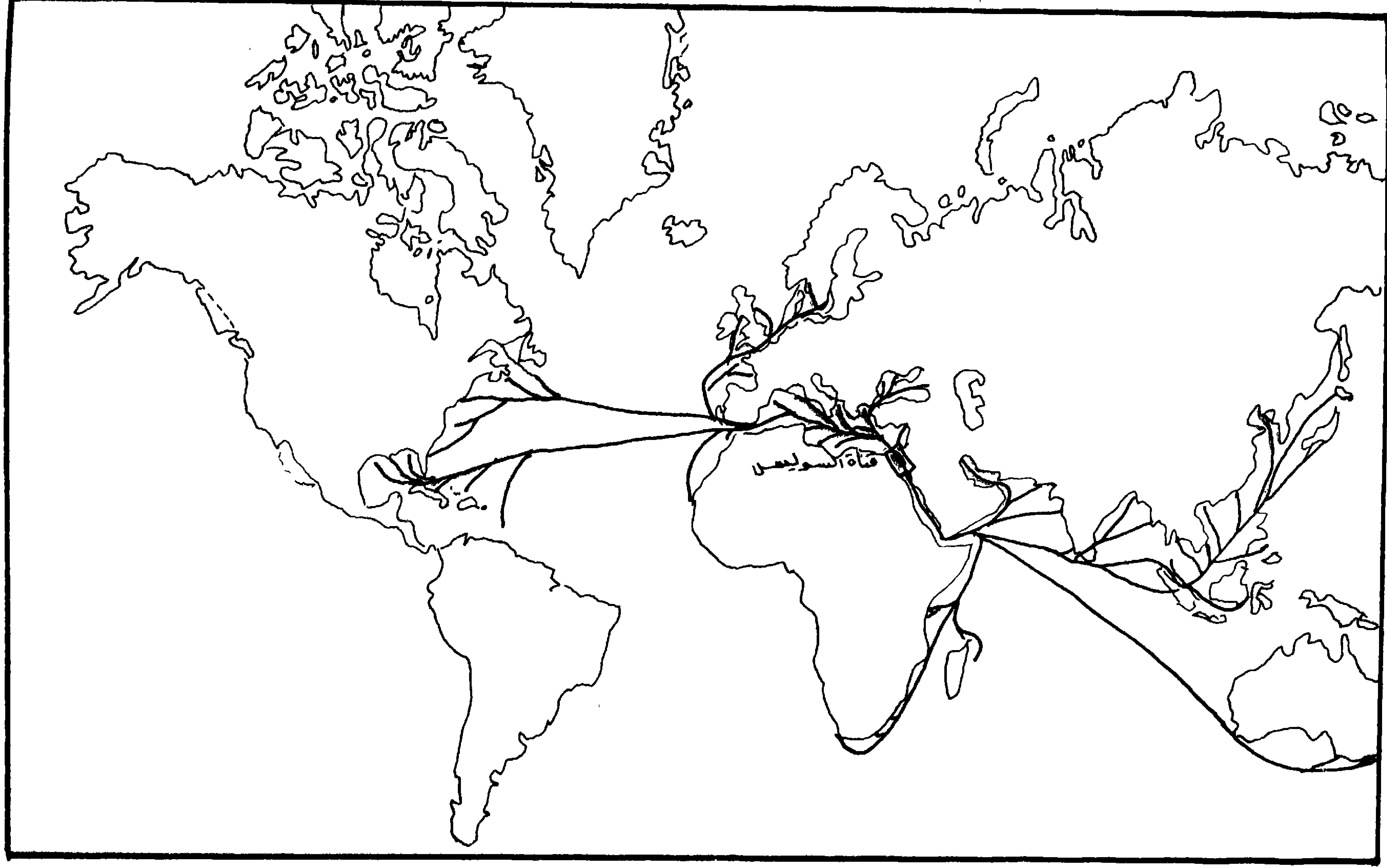
وأن النصر فى هذه الحرب يتوقف ،الى حد كبير ،على سلامة هذا الأسطول . لذلك كان الحرص على عدم تعريضه للخطر يفوق الرغبة فى الالتحام بالعدو وتدميره .

واصلت القوات المصرية تقدمها داخل أراضى الأناضول ،واحتلت مدينة " كوتاهية " الى أن وصلت الى مشارف " أزمير" مما دعا الدول الأوربيه - وفى مقدمتها انجلترا ،وروسيا - للتدخل فى النزاع بين محمد على ،والباب العالى . وكان إصرار والى مصر على ضم كل الشام ،وولاية "أدنة " الى ملكه سببا فى عرقلة الجهود المبذولة لانهاء الحرب . الا أن انتصارات القوات المصرية فى الأناضول اضطرت السلطان العثمانى ،لقبول الدخول فى مفاوضات مع محمد على ، انتهت الى عقد اتفاقية " كوتاهية " بين الطرفين فى ٨ أبريل سنة ١٨٣٣ .

نصت الاتفاقيه على أن يتنازل السلطان لمحمد على عن كل سوريا ،واقليم أدنة مع تثبيت ولايته على مصر ،والحجاز ،وكريت . ولعل حاجة مصر الملحة الى الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول ، كانت هى الدافع الأساسى لتمسك محمد على بولاية " أدنة " الغنية بالغابات على الرغم من أنها ولاية تركية صميمة .

لم تهدأ حدة التوتر بين محمد على ،والباب العالى ،فهرع السلطان الى روسيا ،وعقد معها معاهدة سرية (٨ يوليو سنة ١٨٣٢) وضعته وبلاده تحت تصرف روسيا .

هذا وقد اعتبر السلطان العثمانى اتفاقيته مع روسيا بمثابة هدنه مسلحة يلتقط فيها أنفاسه استعدادا لجولة ثانيه مع محمد على ،فأخذ يثير السوريين ضد الحكم المصرى ،مما استنفذ جهدا كبيرا من القوات المصرية ، الى أن تم اخماد ثوراتهم .



قناة السويس تتوسط العالم

وبعد عدة تحرشات من جانب السلطان العثماني، ومحاولته انزال قوات تركية على الساحل السوري، وفشل جميع محاولات تهدئة الموقف، استقر رأى محمد على على الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية، وأصبح الموقف يهدد بالانفجار في أى لحظة. وحدث ماتوقعته جميع الأطراف عند ما قامت القوات العثمانيه بمهاجمة القوات المصرية عند " نصيبين " في ٢٤ يونية سنة ١٨٣٩، ودارت بين الجانبين معركة عنيفه أحرز فيها المصريون انتصار حاسما على العثمانين.

التدخل الأجنبي واضمحلال قوة مصر البحرية

كان بزوغ نجم محمد على، وانهيار الدولة العثمانية على هذا النحو ذريعه لتدخل الدول الأوربية الكبرى، لفرض ماتراه من حلول - تحمي مصالحها - على الجانبين المتنازعين. وبعد عدة اختلافات في الرأى، عقدت الدول الثلاث - انجلترا، فرنسا، روسيا - إتفاقيه " لندن " في يوليو سنة ١٨٤٠، لوضع الحل النهائي، لما عرف " بالقضية الشرقية "، ووضع حد لطموح محمد على وعناده. طالبت الاتفاقيه والى مصر بالاكتفاء بحكم مصر، وبحق وراثته لابنائه من بعده، ويقتصر حكمه لسوريا مدى حياته، وأن يتنازل لتركيا عن باقى الأقاليم التي احتلتها قواته وأن يعيد لتركيا أسطولها. فلما رفض محمد على شروط اتفاقيه لندن، شرع الأسطول الانجليزى بتنفيذ بنود الاتفاقيه، بأن قام بقصف " بيروت " بالمدافع، لانزال القوات التركية، ثم استولى على ثغرى " حيفا "، و " صيدا " وفي الوقت نفسه أثارت انجلترا القلاقل في سوريا، ولبنان ضد ابراهيم باشا، الى أن اضطر محمد على - في النهاية - الى سحب قواته من الشام بعد أن لحقتها خسائر كبيره، وقبول قرارات إتفاقية لندن.

صدر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١، فرمان سلطاني لايخرج - في مضمونه - عما سبق أن قررته إتفاقيه الدول الكبرى الثلاث. ولكن شدة وطأة هذا الفرمان على والى مصر لما تضمنه من قيود جائره خصوصا فيما يتعلق بالشئون العسكرية

الداخلية ،الجأته الى الدول الأوربية صاحبة الاتفاقية التي ضغطت على الباب العالي ،فأصدر فرمانا جديدا في يونية سنة ١٨٤١ خفف فيه من حدة القيود (١) ولكن ظلت بنوده تحرم على والى مصر بناء سفن حربية الا بأذن خاص من السلطان العثماني ، وألا يزيد حجم القوات المصرية البرية - في وقت السلم - على ١٨ ألف جندى في الوقت الذى كان عدد رجال البحرية المصرية وحدها يقدر بنحو ١٥٣١٠ مقاتل .

لعلنا نكون قد لاحظنا أن المشكلة الكبرى التي كانت تواجه بناء قوة مصر البحرية - على مر العصور - هى الافتقار إلى قدر كاف من المواد الأساسية اللازمة لبناء السفن ،وفى مقدمتها الأخشاب الصالحه لهذه الصناعه ،وازدادت حدة هذه المشكلة عندما أخذ الحديد يحل محل الخشب في بناء السفن ،ثم بعد استخدام الفحم مصدرا للطاقه واحلال الآله البخاريه - كقوة محركة - محل الأشرعه إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر،وهى الفترة التي عرفت " بعصر الثورة الصناعيه" .

ويمكن القول أن هذا النقص كان أحد الدوافع القوية لحكام مصر لاخضاع البلاد الغنيه بالغابات للنفوذ المصرى ،والتي كانت آخرها تمسك محمد على الشديد بولاية " أدنه " على الرغم من انها اقليم تركى بحت . أما الآن - في عصر البخار،والحديد - فقد غدت صناعه السفن بمصر شأنها في ذلك شأن جميع البلاد التي تخلو أراضيها من موارد الفحم وخام الحديد مشكلة غاية في التعقيد ،..
أضف الى ذلك القيود التي فرضها فرمان سنة ١٨٤١ على حجم الأسطول المصرى ، والضائقة المالية التي نجمت عن النفقات العسكرية الباهظة التي تكبدتها ميزانيه البلاد في حروب الشام .

---

(١) فرض فرمان فبراير سنة ١٨٤١ ،بجانب نصوص تحديد قوة مصر العسكريه ، قيدا على سلطة والى مصر في منح الرتب والترقيات العسكرية بحيث لاتتعدى رتبه الصاغ(الرائد حاليا) فصدر فرمان يونية متضمنا حق والى مصر في منح الرتب العسكرية حتى رتبة الأميرالاى (العميد حاليا) أما فيما يزيد عن هذه الرتبه فمن حق السلطان العثماني وحده . (عن كتاب " تاريخ البحرية المصريه" ، جامعه الاسكندرية) .

تضافرت هذه العوامل مع الضغوط الاقتصاديه ،والأطماع الاستعماريه ، على سرعه اضمحلال قوة مصر البحريه . ففى سنه ١٨٤٠ كانت قوة الأسطول الحربى ١٠٠ سفينه ،والأسطول التجارى ١٤٥ سفينه نقل،ووصل إجمالى عدد رجال البحرية الى أكثر من ١٦٣٠٠ بحارا ،وقدرت قيمة المصروفات البحريه بنحو ¼ الميزانيه العامة للدولة . أما فى السنوات القليله التاليه على صدور فرمان سنة ١٨٤١ ،فقد انخفض حجم الأسطول الحربى الى حوالى ٢٠ سفينه والأسطول التجارى الى ١٣ سفينه نقل ،وانخفض بالتالى عدد البحارة الىأن وصل الى قرابه ٣٦٥٠ رجل ،وهبطت قيمة المصروفات البحرية الى حوالى ١/١٠ من ميزانيه البلاد (١) . الا أن هذا لم يكن يعنى تصفيه البحرية المصرية ،فقد تحول الاهتمام الى مجال النقل البحرى الذى غذته ترسانة الاسكندرية ببعض السفن التجارية التى قامت عليها" القومبانية المصرية" لنقل التجارة ،والركاب ،والبريد بين مصر،و" الآستانة" ،كما استخدم جانب من فوائض الأسطول الحربى فى الأغراض المدنيه مثل نقل الأخشاب من الأناضول ،وسائر أرجاء البحر المتوسط الى مصر .

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٦٥٥ - ٦٦٠

عهد الخديو اسماعيل (يناير ١٨٦٣ - يونيه ١٨٧٩)

تولى الخديو اسماعيل حكم مصر، سنة ١٨٦٣ ، أثناء تيار هذه الأحـــداث ولكن اسماعيل صمم على انعاش قوة مصر البحرية ، وهو انعاش لم يدم طويـــــلا اذ ما كاد حكم اسماعيل يشرف على نهايته ، حتى أصيبت البلاد بتدهـــــور اقتصادى شديد ، واضمحلت البحرية المصرية مرة ثانيه ... الى أن انتهى أمرها نهائيا باحتلال الانجليز لمصر فى عام ١٨٨٢ .

بدئ فى إعادة بناء قوة مصر البحرية باعادة تنظيم ديوان البحرية ، وتجديد ترسانة الاسكندرية ببناء بعض وحداته على حين تم بناء البعض الآخر فى ترسانات أوروبا ، وبنيت واحدة فى الولايات المتحدة الامريكية (الفرقاطة محمد على) .

هذا وقد بلغ عدد سفن الأسطول المصرى - فى مستهل حكم اسماعيل - ١٨ سفينه تسعه منها حربية ، وتسع سفن لنقل الجند ، وقد وزعت على أسطولـــين : أسطول البحر المتوسط ويضم ٤ سفن حربيه ، وسفينتى نقل ، بالاضافة الى مجموعـــة من السفن المساعدة الشراعية والبخارية ، وقاعدته الرئيسيه الاسكندرية ، وأسطـــول البحر الأحمر ، ويضم ٤ سفن حربية ، و٦ سفن نقل ، وقاعدته الرئيسيه السويس .

ولأول مرة فى تاريخ مصر العسكرى تستعين البحرية المصرية بضباط أمريكيين ، وهم الضباط الذين استخدمهم الخديو اسماعيل ضمن هيئة أركان الجيش المصرى التى أنشأها الخديوى حديثا ، وعهد برئاستها الى الفريق " ستون " وذلك فـــى شهر مارس سنة ١٨٧٠ . (١)

---

(١) تاريخ البحريه المصريه ، جامعه الاسكندريه ١٩٧٣ ، ص ٦٩١

وعلى الرغم من أن البحرية المصرية لم تستفد كثيرا بهؤلاء الخبراء الأمريكيين - لعدم ثقة القادة المصريين فى اخلاصهم - الا أن فريقا منهم اشترك مع مجموعة من الضباط، والصناع المصريين فى تصنيع الطوربيدات البحرية (وهو سلاح كان العالم لا يزال حديث العهد به) وتجربتها فى خليج أبى قير وميناء رشيد (١). كما اشترك بعضهم مع الضباط المصريين فى عمليات مسح طوبوغرافى لجانب من السواحل المصرية، ورسم خرائط لها، كذلك قامت بعثة مشتركة الى الصومال لدراسة إمكانية إقامة فنار عند منطقة رأس "جود فون" على المحيط الهندى للحد من حوادث جنوح السفن فى مياه تلك المنطقه .

هبت رياح الظروف المواتيه، لكى يعمل خديو مصر على تنمية الأسطول المصرى عندما عجز السلطان العثمانى عن إخماد ثورة "محمد بن عائض" أمير العسير باليمن، فاستنجد السلطان بالخديو اسماعيل طالبا منه إرسال حملة مصرية للقضاء على هذه الثورة . وتلبيه لهذا الطلب، قامت سفن الأسطول بنقل الحملة من ميناء السويس الى ثغر جده، وهاجمت الثوار بمنطقة "قنفذه"، وتمكنت - بعد قتال طويل - من اخماد الفتنه ثم عادت القوات المصرية، على دفعات الى ميناء السويس .

ومرة أخرى طلبت الحكومة العثمانية - سنة ١٨٦٦ - مساعدة القوات المصرية على تحقيق مافشلت فى تحقيقه القوات التركية، وفى هذه المره كان الطلب هو إخماد ثورة "كريت" . لم يتوان اسماعيل فى الاستجابة لهذا الطلب، وجهز قوة برية من ١٨ ألف مقاتل، وأسطولا قوامه عشر سفن حربية ونقل بقيادة الأميرالاى (عميد) "قاسم بك" وأبحرت الحملة من الاسكندرية فى ٩ يوليو قاصده جزيرة

(١) كان هذا بناء على تقرير قدمه الفريق "ستون" للخديوى اسماعيل فى سبتمبر سنة ١٨٧٣ يتضمن دراسة عن تطور أسلحة الحرب تحت سطح البحر، ويوصى فيه بتكوين فرقة بحرية خاصة لاستخدام الطوربيدات، والألغام البحرية، وغيرها من أسلحة الحرب تحت الماء، والتى كانت فى طور تطورها الأولى فى البحريات العالمية . (نفس المصدر - ص ٦٩١، ٦٩٢).

كريت حيث بقيت بها قرابة ١٥ شهرا تمكنت خلالها من القضاء على الثورة واقرار الأمن والنظام فى ربوع الجزيرة .

قناة السويس (١٧ نوفمبر ١٨٦٩م)

ومن ناحية أخرى ،كان العمل يسير على قدم وساق فى شق قناه السويس التى بدئ بحفرها فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ ، وتم افتتاحها فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ . ويجدر بنا أن نتناول أمرها من كافة جوانبه بشئ من التفصيل ، نظرا لما أحدثته من تغيرات جذريه فى جغرافية النقل البحرى العالمى ، والاستراتيجية الدولية ، وانعكست آثارها بصورة ، أو بأخرى على أحوال مصر السياسية ، والاقتصادية ، والعسكريه .

ان فكرة إيصال مياه البحر المتوسط بمياه البحر الأحمر بممر مائى يرجع تاريخها الى أقدم العصور ، وكانت فى مبدأ الأمر تنحصر فى شق قناة بين أحد أفرع النيل ، والبحيرات المرة ، أو البحر الأحمر ، أما ايصال البحرين بممر مائى مباشر فلم يبدأ التفكير فيه إلا فى العصر الاسلامى ، لكن عمر بن الخطاب نبذ الفكره ، خشية أن يستخدم الروم هذه القناة للعبور الى البحر ومهاجمة الأراضى الاسلامية المقدسة ، واعتراض طريق الحجاج .

أما فى العصور الحديثه ، وعلى وجه الخصوص فى عصر الدولة العثمانية ، فقد ألحت فكرة إيصال البحرين بممر مائى مباشر على تفكير الدول صاحبة المصلحه العظمى فى تجارة الشرق . اذ من المؤكد أن شق مثل هذه القناه كان أحد أهداف الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد كلف نابليون بونابرت كبير مهندسيه " جاك مارى لوبير" بدراسة مشروع قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، فأسفرت دراساته عن أن مستوى سطح البحر الأحمر أكثر ارتفاعا من مستوى سطح البحر المتوسط بمقدار ثمانيه أمتار ونصف تقريبا . لكن من الدراسات التاليه التى انتهت بالدراسة التى اشترك فيها المهندس الفرنسى

" لينان " الذى كان يعمل بالحكومة المصرية فقد أثبتت - سنة ١٨٤٧ - أن الفارق بين منسوبى مياه البحرين طفيف جدا ، ولا يؤثر على مشروع شق القناة ، إلا أن محمد على - والى مصر وقتئذ - رفض المشروع قائلا " لا أريد فى مصر بسفورا آخر" ، والمعنى هنا واضح .... فهو لا يود أن يفتح أبوابا جديده تغرى القوى الأجنبيه بغزو مصر .

ومن ناحية أخرى كان لاضطراد نمو تجارة بريطانيا مع الهند ، والشرق الأقصى إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وانتظام حركة السفن التجارية بين الهند ، وموانى مصر المطلة على البحر الأحمر - مع ماكان يقابلها من نشاط مماثل بين انجلترا والاسكندرية - كان دافعا للحكومة الانجليزية على بذل عدة محاولات مع السلطان العثمانى ، لاعادة استخدام الطريق المصرى القديم ، عوضا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، نظرا لأن الطريق الأول يوفر نحو ١٠٠٠ ميل من المسافة بين لندن وبومباى .

وكان من ثمرة هذه المحاولات البدء فى مد خط حديدى بين الاسكندرية والقاهرة (تم تشغيله فى سنة ١٨٥٦) ، وخط آخر بين القاهرة ، والسويس (تم افتتاحه فى سنه ١٨٥٨) .

فى هذه الأثناء كان السياسى الفرنسى المتقاعد " فرديناند دى لسبس "(١) عاكفا على دراسة وثائق الحملة الفرنسية على مصر ، وكل ماكتب عن شق قناه تربط بين البحرين المتوسط والأحمر ، وقد انتهى بعرض نتائج دراساته على والى مصر " محمد سعيد باشا " الذى وافق على المشروع ، وأصدر - فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ - فرمانا " لفرديناند دى لسبس " بعقد امتياز بناء " قناة البحرين " أجلة تسعة وتسعون عاما تبتدىء من يوم افتتاح القناه ، كما نص الفرمان على أنه عند انتهاء مدة الامتياز

(١) فرديناند دى لسبس (Ferdinand de lesseps) سياسى فرنسى تبنى مشروع حفر قناه عقب اعتزاله الحياه السياسيه . ولم يكن " دى لسبس " - على غير مايعتقد البعض - مهندسا ، أو ماليا ، أو اخصائيا ، أو حتى رجل أعمال وانما هو مغامر لبق ذو شخصية قوية استغل صداقته القديمه بوالى مصر " محمد سعيد باشا " فى اقناعه بجدوى المشروع .

تحل الحكومة المصرية محل الشركة ، وتؤول اليها القناة ، وجميع المنشآت التابعة لها ، وأن تختص الحكومة المصرية نفسها بحصة قدرها ١٥٪ من صافي الأرباح سنويا . وفى ٥ يناير صدر فرمان الامتياز الثاني متضمنا اللائحه التأسيسية "للشركة العالمية لقناة السويس البحرية ، شركة مساهمة مصرية" . وفى ١٥ ديسمبر ١٨٥٨ تم تأسيس الشركة برأس مال قدره ٢٠٠ مليون فرنك فرنسي (مايعادل ٧٫٧١ مليون جنيه مصرى وقتئذ) مقسما على ٤٠٠ الف سهم ، قيمة الواحد منها ٥٠٠ فرنك ، وحصلت مصر على ٤٤٪ من الأسهم .

ضرب العمال أول معول فى أرض مدينه " الفرما " (حيث تقوم بورسعيد حاليا) يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ حيث رفع" دى لسبس" علم مصر ، وألقى خطابا مطولا . وقد سخر فى أعمال الحفر أيدى عاملة مصرية بمعدل ٢٠ الف عامل شهريا ، وكان على كل منهم أن يحفر بيدية مترين مكعبين يوميا ، تحت ظروف عمل قاسية ، ونقص الماء والغذاء ، أدت الى انتشار الأمراض الفتاكة التى قضت على نحو مائة ألف منهم .

لما اعتلى اسماعيل عرش مصر ، أصدر فرمانا - فى يوليو سنة ١٨٦٤ - معدلا للفرمانين الأولين ، ينص على الغاء السخرة ، وتخفيض مساحة الأرض الممنوحة للشركة ، واسترداد قناة المياه العذبه التى تم حفرها فى فبراير سنة١٨٦٢ ، لتوصيل مياه النيل الى مواقع العمل ، ودفعت مصر ثمنا لتنفيذ هذا الفرمان ٨٤ مليون فرنك فرنسى كتعويض للشركة (٣٫٢٤ مليون جنيه مصرى) ، ثم عاد الخديوى اسماعيل وطلب من الشركة التنازل عن حقها فى الاعفاءات الجمركية ، وعن بعض الامتيازات الأخرى الممنوحة لها ، بمقتضى الفرمانين الأول والثانى ، فوافقت الشركة على ذلك مقابل حصولها على تعويض قدره ٣٠ مليون فرنك فرنسى (١٫١٦ مليون جنيه مصرى تقريبا) واضطر اسماعيل - ازاء عجزه عن السداد ، وتراكم الديون على الحكومة المصرية - إلى التنازل عن الأرباح السنوية للأسهم المملوكة لمصر فى القناه لمدة ٢٥ عاما .

وفى ١٨ مارس ١٨٦٩ دخلت مياه البحر المتوسط - لأول مرة - فى حوض بحيرة التمساح ، وفى أغسطس من نفس السنه صبت مياه البحر الأحمر فى نفس البحيرة ،

وبعدها بثلاثة أيام تلاقت مياه البحرين المتوسط والأحمر، وتصافحت أمواج الشرق مع أمواج الغرب وانتهت بذلك أعمال هذا المشروع الضخم الذى استغرق تنفيذه عشرة أعوام .

واذا كان مشروع قناة السويس قد جاء فى وقت أحتدم فيه الجدل بين مؤيدى ومعارضى استخدام الماكينه البخارية فى السفن الحربية، واذا كانت حرب القرم هى التى وضعت حدا لهذا الجدل، فإن افتتاح قناة السويس للملاحه ـ فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ ـ هو الذى قضى نهائيا على أى ريبة فى تفوق " الباخرة" سواء أكانت تجارية أم حربية على نظيرتها " الشراعية " . فقناه السويس بحكم أنها الطريق الأقصر الذى يربط بين الغرب والشرق جذبت اليها غالبية التجارة العالمية التى كانت تسلك طريق رأس الرجاء الصالح، ولكن سعتها المحدودة، ووضعها بالنسبة لاتجاه الريح، بالاضافة الى جغرافية البحر الأحمر ووضعه ـ هو الآخر ـ بالنسبة لاتجاه الريح السائد، جعل " الملاحه الشراعية " فيهما أمرا متعذرا إن لم يكن مستحيلا إلا على حساب الوقت الذى وفرته القناة .

ولسوء حظ مصر، كانت بريطانيا هى المستفيد الأكبر من منجزات العصرالعلمية، والتكنولوجية، ومن التوسع الاستعمارى، فبنت لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف أحاطتها بكل وسائل الأمن حتى أطلق عليها" الأمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس" . وأخذت توطد نفوذها فى البحرين الأحمر والمتوسط، لترقب ماتسفر عنه الأحداث بمصر والتى أضفت عليها قناة السويس أبعادا استراتيجية جديدة على حين لم يكن لمصر من أسباب القوة مايمكنها من الحفاظ على أمنها، بالاضافة الى ما أصاب اقتصادها من تدهور بسبب تراكم الديون التى اقترضها الخديوس اسماعيل وعجزه عن سدادها .

شرع النفوذ الانجليزى يتسلل الى مصر عن طريق قناة السويس . ففى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ اشترت الحكومة الانجليزية من الخديوى اسماعيل ـ تحت الحاح حاجته للمال ـ مافى حيازته من أسهم القناه بمبلغ ١٠٠ مليون فرنك فرنسى (٣٨٥٨٠٠٠ جنيه

مصرى تقريبا) . وكانت انجلترا تهدف من وراء الصفقه الى وضع قدمها فى الشركة حتى يتسنى لها التدخل فى إدارتها ،وفى رسم مستقبل القناة ،وبالتالى يتغلغل النفوذ الانجليزى فى الحكومة المصرية ،وهو ماحدث بالفعل الى أن تم لها ـ فى أغسطس سنة ١٨٨٢ ـ احتلال مصر(١) .

وعلى الرغم من أن " اسماعيل " جر مصر الى ضائقه مالية خانقة ،إلا أنه ـ من ناحيه أخرى ـ لم يتوان عن استغلال ظروف ضعف الدولة التركية ،واستمرار حاجتها للقوات العسكرية المصرية،فى العمل على الإستقلال بمصر، وتوسيعحدودها خصوصا داخل أراضى افريقيا حيث مجرى نهر النيل ومنابعه .

نجحت الحملات المتوالية التى أرسلها اسماعيل فى البحر الأحمر، وإلى ساحل أفريقيا الشرقى المطل على المحيط الهندى فى أن تضم لمصر ثغور"سواكن" و" مصوع" (سنة ١٨٦٥) ،و" بربرة " و " زيلع" (سنة ١٨٧٥) ،فامتد الحكم المصرى على طول الساحل الغربى للبحر الأحمر من السويس شمالا الى " عصب " جنوبا على الجانب الداخلى لمضيق باب المندب، ومن ثم الى الجانب الخارجى منه الى " تاجورة" و " زيلع" وإلى " بربرة " ،وحول " القرن الأفريقى " إلى ثغر " كيسيمايو" .

ومن حق التاريخ علينا أن نذكر للخديو اسماعيل مجهوداته فى إعادة بناء قوة مصر البحرية ،ورعايته لشأنها فى ظروف غير متكافئة ، مع ما أحرزة العالم الغربى من تقدم صناعى ،وازدهار اقتصادى كنتيجة للمنجزات العلمية ، والتكنولوجية التى عمت كل مرافق حياته .

---

(١) كانت انجلترا قد استولت سنه ١٨٣٩ ،على "عدن"، و جزيره " بريم " وأصبحت تهيمن على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . ونظرا لما اكتسبه هذا البحر من أهمية عقب افتتاح قناة السويس ،أنشئت بمصر ـ سنة ١٨٧١ ـ محافظة خاصة بأقاليمه سميت " محافظة سواحل البحر الأحمر " .

بلغت قوة أسطول مصر الحربى ١٨ سفينه حربية ،و٣ ركائب خديوية جملة مدافعها ١٣٥ مدفعا ،على حين بلغ حجم الأسطول التجارى ٢٦ باخرة تضمها " الشركة العزيزيه " التى كان لها فضل كبير فى نشاط حركة تجارة مصر الخارجية ، وربحت الشركة أرباحا وفيره ،مما دفع الخديو اسماعيل الى تحويلها (سنة ١٨٧٣) الى إحدى الادارات الحكومية ، تحت أسم " مصلحة وابورات البوستة الخديوية " .

وفى عهده أيضا اكتمل بناء الميناء الجديد بالسويس ،وحوض إصلاح السفن ، كما شرع فى توسيع ميناء الاسكندرية ،واصلاحه ،حتى لا تتحول التجارة الخارجيه الى بورسعيد التى كان قد بدئ فى انشائها ، وقارب مشروع قناة السويس الانتهاء . وقد جلب الخديوى اسماعيل من فرنسا (سنة ١٨٦٨) حوضا عائما مصنوعا من الحديد بدلا من حوض الاسكندرية الحجرى الذى بنى أيام محمد على ،ثم أنشأ حاجز الأمواج الضخم الذى لا يزال قائما حتى اليوم ،وشيد بداخل الميناء أرصفة للشحن والتفريغ . هذا وقد تكلفت مشروعات ميناء الاسكندرية نحو ٣ ملايين من الجنيهات ،واستغرق تنفيذها أكثر من ثمان سنوات(١٨٧١ - ٢٨٧٩) . كما اتجه اهتمام " اسماعيل " الى تسهيل الخدمات الملاحية ،فتم فى عهده تشييد فنارى البرلس ،ورشيد (سنة ١٨٦٨) ،وفنارى دمياط،وبورسعيد (سنة١٨٦٩) ، وفنار العجمى (سنة ١٨٧٣) ،وفنار حاجز الأمواج (سنة ١٨٧٦) ،وفنار القبارى (سنة ١٨٧٧) . أما فى البحر الأحمر ،فقد أنشأ فنارات السويس ،ورأس الغريب، والأخوين ،وشدوان وفنار الوجه (١) بالحجاز ،كما أنشأ أيضا فنار" بربرة " فى خليج عدن على المحيط الهندى .

وعندما أنشئت المحاكم المختلطة بمصر سنة (سنة ١٨٧٦) صدر،مع ماصدر من قوانين ،القانون التجارى البحرى الذى استحدث على التشريعات المصرية الباليه

---

(١) كان على سواحل البحر الأحمر الفنارات قبل عصر الخديو اسماعيل : فنار زنوبيا ، وفنار الزعفران جنوبى السويس ،وفنار الأشرفى ،وفنار ابى الكيزان ،أما الوجه فكانت متصرفية تابعه للحكومة المصرية وقتئذ (عن كتاب " تاريخ البحرية المصرية" خانكى ص٣٧٩ ، ٣٨٠) .

مبادئ قانونية على أساس ما آلت اليه التشريعات الحديثه فى البلاد الأوربية لمسايره التقدم الذى أحرزته الملاحة البحرية الدولية وماصاحبها من تعقيدات فى قضاياها وتنوع مشاكلها .

وبخلع اسماعيل عن عرش مصر ،وتولى ابنه " محمد توفيق باشا" فى ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩،انطوت صفحة أخرى من صفحات قوة مصر البحرية بعد أن أصابها الاضمحلال والركود ،كنتيجة مباشرة للأزمة المالية الطاحنه ،والتدخل الأجنبى فى مصر .

الاحتلال البريطاني لمصر

سنحت الفرصة لبريطانيا عندما قام " احمد عرابى باشا" ،ومجموعه من زملائه الضباط على رأس قوات من الجيش المصرى بالثورة ضد " الخديو توفيق " ومعاونيه من قناصل الدول الأوربيه (عام ١٨٨١ / ١٨٨٢) مطالبا باصلاح أحوال البلاد التى عمها الفساد ،والفوضى ، والتدخل الأجنبى ،وكانت هذه الطليعة من رجال الجيش انما تعبر عن مشاعر الأمة ،وأمانيها التى كان يتبناها الحزب الوطنى الذى يضم صفوة من المفكرين الوطنيين ، وقد رضخ الخديو لمطالب الضباط ، وتولى " أحمد عرابى " وزملائه مقاليد الوزارة المصرية .

اعتبرت بريطانيا ماحدث تهديدا لمصالحها ومصالح سائر الدول الأجنبيه فى مصر، واتخذت منه ذريعة لكى ترسل الى مياه الاسكندرية (فى ٢ مايو سنه ١٨٨٢) أسطولا مشتركا انجليزيا (بقيادة الأدميرال بوشان سيمور) وفرنسا (بقيادة الأدميرال كونراد) على حين انعقد فى الآستانة ،فى ٢٣ يونية من نفس السنة ، مؤتمر دولى للنظر فى أمر " المسألة المصرية " .

تطورت الأحداث بسرعة تدعو للريبة . فقد ادعى الأدميرال الانجليزى سيمور ـ فى رسالة بعث بها الى الحكومة البريطانيه فى أول يوليو سنه ١٨٨٢ ـ أن

الاستعدادات العسكرية تجرى على قدم وساق بالاسكندرية ،وأن "أحمد عرابى " بصدد سد بوغاز الميناء في وجه السفن البريطانيه توطئة لضربها بمدافع الطوابى .

وبعد تبادل الرسائل ،والمشورة بين الحكومتين البريطانية والفرنسية ، وسفرائها وقناصلها ،وقائدى أساطيلهما ،وبعد تبادل رسائل الاحتجاج بين قائد الأسطول الانجليزى وقومندان موقع الاسكندرية " طلبة عصمت باشا" ، انتهى الأمر الى انسحاب الأسطول الفرنسى إلى بورسعيد تنفيذا لتعليمات حكومته ، وصدور إنذار نهائى أرسلة الأدميرال " سيمور " إلى " عصمت باشا" في صباح يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ ـ بناء على تعليمات الحكومة البريطانيه ـ مؤداه أنه إن لم تتوقف الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الأسطول البريطانى ،وتسليمه بطاريات المدفعيه الساحلية لتجريدها من السلاح قبل فجر اليوم التالى ،فانه سيقوم بتدميرها عند شروق شمس يوم ١١ يوليو .

وبكل الاستخفاف بالقيم الإنسانية ،والمواثيق الدولية ،صبت مدافع الأسطول الانجليزى نيرانها ـ فى الساعه السابعه من صباح يوم الثلاثاء ١١ يوليو سنه ١٨٨٢ ـ على طوابى ثغر الاسكندرية ،وعلى المدينه ذاتها (١) . واصل الأسطول قصفه للاسكندرية من السابعه صباحا حتى السادسة مساء تخلله فترات توقف قصيره ،

---

(١) كان الأسطول البريطانى يتكون من ٨ سفن مدرعه وه سفن مدفعية وسفينه طوربيد واحدة وسفينه استطلاع واحدة ،معظمها مسلح بمدافع أرمسترونج جملتها ٧٧ مدفعا . على حين لم يكن بالاسكندرية الا سفينتان مصريتان من مخلفات أسطول اسماعيل هما " المحروسة " و " محمد على " لاتعتبران سفنا حربية . أما الدفاع الساحلى ،وقلاع الميناء فكان مكونا من عدة طوابى (حصون)ممتدة بطول الساحل من العجمى غربا إلى أبى قير شرقا ويبلغ عددها نحو ١٧ طابية منها ثلاث طوابى لحماية الميناء ،وواحدة عند العكس للدفاع عن مدخل الميناء ، وجميعها يرجع تاريخها لعهد " محمد على باشا " ،أو الحملة الفرنسية ،وكانت فى سنة ١٨٨٢ بحالتها التى كانت عليها منذ انشائها . (عن كتاب " تاريخ البحرية المصرية " خانكى ـ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩) .

لاعادة تنظيم صفوفه ،أو تصحيح الضرب . وانتهى اليوم الأول بتدمير معظم الحصون ،واصابة الكثير من مساكن الأهالي ،وقتل نحو ٢٠٠٠ نفس على حين لم تصب سفن الأسطول المعتدى الا باصابات طفيفة ،ولم تزد خسائرهم على خمسة من القتلى ،و١٩ من الجرحى . وعاود الأسطول الانجليزى ـ صبيحة اليوم التالى ١٢ يوليو ـ قصف الطوابى المحيطة بميناء الاسكندرية فخربها . وبعد فشل مفاوضات إيقاف الضرب لإصرار الأدميرال " سيمور" على احتلال قلاع " العجمى" و " الدخيله" و" المكس" ورفض طلبه ،استأنف الأسطول ـ فى الساعه الرابعه من بعد ظهر نفس اليوم ـ قذف الطوابى ،فتهدمت قلعة " المكس" ،مما اضطر الحامية لاخلائها ، وبات واضحا أن قوات الاسكندرية أضعف من أن تقف فى وجه قوة الانجليز وحنكتهم . وفى صباح يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ ،عندما سكنت تماما جميع الطوابى ،أنزل الأدميرال " سيمور" كتيبة من جنود البحرية إحتلت قصر رأس التين ،وشبة جزيرة رأس التين،فكانت الاسكندرية بذلك أول مدن مصر تقع تحت نير الاحتلال البريطانى.

وكعادة الإنسان المصرى عندما يلتقى بعدو يفوقه قوة،نجده يستمد من أصالته وجذور حضارته شجاعة خارقة فى القتال ،وقد أشاد باستبسال قوات حامية قلاع الاسكندرية وشجاعتهم العديد من المراقبين العسكريين ،وفى ذلك كتب الرائد البحرى الأمريكى " كاسبار جود ريتش" ـ الذى شهد المعركة البحرية من سفينه خارج ميناء الاسكندرية ـ يقول : " برغم تفوق الأسطول البريطانى على المصريين فى المدفعيات حجما وعددا ،إلا أن الطريقة التى تحملوا بها النيران الكثيفة المنطلقة من الأسطول البريطانى كانت تدعو للاعجاب،فقد ظلوا صامدين بجوار مدافعهم،وبطرياتهم بشجاعه منقطعه النظير ... إن طابية أم قبيبة كانت تحت قيادة مصرية رائعه الكفاية اضطرت الأسطول البريطانى الى أن يركز عليها أضخم مدافعه من مسافات بعيدة هربا من نيرانها ،وقد سببت هذه الطابية متاعب جمة للسفن المعادية ،وأصابتها بإصابات شديده" ... إلى أن يقول : " كانت روح المصريين المعنوية عالية للغاية حتى أن البريطانيين فوجئوا تماما بثباتهم واستماتتهم فى التمسك بمواقعهم" . (١)

(١) عن كتاب "تاريخ البحرية المصرية" جامعه الاسكندرية ـ ص ٧٣١.

منذ احتلال الانجليز لمصر، وهم جادون في تصفيه البحرية المصريـــــه ، فالغيت نظارتها (سنة ١٨٨٥) ، وبيعت كل سفنها فيما عدا اليخت " المحروسه" (سنة ١٨٨٨) وعهدوا إلى خفر السواحل بمهمة حراسة الشواطئ المصريـــه ، واتدت الكوارث الى نفوذ مصر الخارجي ، فخرجت القوات المصرية من الســودان (سنة ١٨٨٥) ، وأنسحبت بعدها من ثغور " بربرة " و " تاجورة" و " مصـــوع". بذلك فرضت بريطانيا سيطرتها على طول خط التجارة البحرية بين الهنـــد ، والجزيرة البريطانيه عبر المحيط الهندى ، والبحر الأحمر، وخلال قناة السويـس ، ثم عبر البحر المتوسط وشددت هيمنتها على التجارة العالمية المنقولة بحـــرا ، وقويت شوكة أسطولها الحربى بما أتيح له من قواعد جديدة ، ومحطات التزود بالفحم والمؤن .

وبعد أن قضى الاحتلال البريطانى على الأسطول الحربى المصرى ، شـــرع فى تصفيه بحريتها التجاريه ،.. وهكذا يكون الاستعمار البريطانى - بنهايـــة القرن التاسع عشر - قد جرد مصر من قوتها البحرية ، ولم يعد لديها سوى ســفن وبواخر مصلحة خفر السواحل (١) ، واليخت المحروسة ، والركائب الخديويه بالنيل ، وحفنه من السفن النيليه الصغيره التابعه لنظارة الأشغال العمومية ، ومصلحـــة الفنارات .

ولأن النشاط البحرى - حربيا كان أو تجاريا - وثيق الصلة بالأحداث العالمية ولأن موقع مصر الجغرافى ، ولا سيما بعد أن صارت خاضعه لأقوى قوة بحريه فـــى العالم فى تلك الحقبة من التاريخ ، يجعلها أكثر ارتباطا بالأحداث العالمية ،.. لذلك سنعرج على ما كان لمثل هذه الاحداث من تأثير فى مستقبل قوة مصـــر البحريه .

---

(١) كانت مصلحه خفر السواحل تضم - سنة ١٨٩٨ - ست وحدات ، أربعة بخاريـــة واثنتين شراعيتين (عن كتاب " تاريخ البحرية المصرية" خانكى - ص ٤٢٥)

فبنهاية القرن التاسع عشر أصبحت الأوضاع فى الشرق الأوسط، والعالم المحيط به على النحو الآتى : مصر ترزح تحت نير الاحتلال البريطانى، بينما تخضع ليبيا للحكم التركى المباشر، وتخضع تونس والجزائر للحكم الفرنسى الذى تغلغل نفوذه الى المغرب، على حين ظلت سوريا، وفلسطين، ولبنان تابعة للقسطنطينية رغم تضاؤل النفوذ التركى بها . أما المواقع الاستراتيجية الهامة فى البحر المتوسط فكانت أوضاعها كالآتى : جبل طارق وجزيرتا مالطه، وقبرص لانجلترا، وجزيرة كورسيكا لفرنسا، وجزيرة سردينيا لإيطاليا، وجزر البليار لأسبانيا، أما جزيرة كريت فصارت يونانية تتمتع بالحكم الذاتى بعد زوال الحكم المصرى عنها نهائيا سنة ١٨٥٢، وانسحاب القوات التركية والثوار اليونانيين منها سنة ١٨٩٨ .

وفى هذه الحقبة من التاريخ، أحرزت صناعات السفن والأسلحة تقدما كبيرا. فالى جانب المدافع كبيرة العيار، وطوابيها الدوارة ظهرت الطوربيدات، وشرعت الدول الكبرى تبنى سفنا من طرازات ذات خصائص متميزه عن بعضها " كالبارجه" و " الطراد المدرع" ، و " المدمرة " ، و" زورق الطوربيد " إلى أن جاء مولد " الغواصة " فى مستهل القرن العشرين .

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

كانت مصر ترزح تحت الاحتلال البريطانى ، فلم يجد الانجليز صعوبة فى أن يعلنوا (فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤) أن مصر أصبحت " محمية بريطانية " ، وأن يخلعوا الخديو " عباس حلمى الثانى " ويولوا مكانه الأمير " حسين كامل " ، أحد أمراء الأسرة العلوية ، وأن ينعموا عليه بلقب " سلطان " (١) . هذا وقد جاء فى التبليغ البريطانى بتولية السلطان حسين الصادر فى ١٩ ديسمبر أنه " بزوال السيادة العثمانية تزول أيضا القيود التى كانت موضوعه بمقتضى الفرامانات العثمانية لعدد جيش سموكم ، وللحق الذى لسموكم فى الانعام بالرتب والنياشين " (٢) . . . . والملاحظة الجديرة بالاهتمام أن هذا البلاغ جاء خلوا من أى ذكر لبحرية سموه ، وهو أمر يعكس خشية بريطانيا أن تقوم لمصر قوة بحرية ولا سيما وأن مصير الحرب التى تخوضها مازال فى ضمير الغيب .

وضعت الحرب أوزارها فى ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ باستسلام المانيا ، ووضعت معاهدة " فرساى " (٢٨ يونيو سنة ١٩١٩) بعض الولايات التركية تحت انتداب احدى الدول العظمى المنتصرة ، فظفرت بريطانيا " بالانتداب " على العراق و " شرق الاردن " (المملكة الأردنية الهاشمية حاليا) وفلسطين ، بينما انتدبت فرنسا لسوريا ، ولبنان ، وحصل الحجاز (المملكة العربية السعودية حاليا) على استقلاله ، بموجب معاهدة " سيفر " (أغسطس سنة ١٩٢٠) ، وانفصلت باقى الولايات العربية عن تركيا .

ومن ناحية أخرى تحول الحكم بتركيا من نظام الخلافة الإسلامى الى النظام الجمهورى (سنة ١٩٢٥) بزعامة " مصطفى كامل " (أتاتورك) الذى نقل عاصمة البلاد من القسطنطينية الى " أنقره " وبذلك تقطع ماكان بين الدولة التركية ،

---

(١) كتاب " The Middle East In World Affairs " G.lenczowski , p. 394 .

(٢) كتاب : " تاريخ البحرية المصرية " خانكى ـ ص ٤٢٧ .

والعرب المسلمين من صلات . وفى نفس هذا الوقت تقريبا ،وبعد تولى " موسولينى" حكومة ايطاليا (سنة ١٩٢٢) وطمعا منه فى إحياء أمجاد الامبراطورية الرومانية القديمة ، استخدم قواته الموجودة فى " برقه " و " طرابلس " للقضاء على ثورة الوطنيين فى ليبيا التى انتهت بأسر زعمائها ،واعدامهم سنة (١٩٣٢) ، وخضعت ليبيا للنفوذ الايطالى . (١)

وكأن العرب لم يكفهم مالحقهم من بلاء ، فيخرج عليهم " بلفور " بتصريحة المشئوم (٢ نوفمبر ١٩١٧) بأحقية اليهود فى إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين ، فأطاح هذا التصريح بالبقية الباقيه من استقرار وأمن الأمة العربية على النحو الذى سيأتى ذكره فيما بعد .

وعلى الصعيد العسكرى ،فقد أثبتت الحرب العالمية الأولى فعالية الدور الذى يمكن أن تلعبة " الطائره" و " الغواصة" فى أى صدام مسلح مقبل ،وهما أداتا قتال أعطتا أبعادا جديدة للحرب البحرية .

ولعل أبرز النتائج التى أسفرت عنها الحرب العالمية الأولى - بل وأخطرها - هو ازدياد ارتباط الغرب بمنطقة الخليج العربى إثر ظهور " البترول " بوفرة بالبلاد العربية المحيطة بالخليج ،وفى ايران ، وتوكيد تفوقه كمصدر للطاقة . وقد أضفى " بترول الخليج" أهمية متزايدة على قناة السويس - وبالتالى مصر - باعتبارها أقصر طريق لنقل هذا البترول الى أوروبا ،فشددت بريطانيا قبضتها على مصر حفاظا على تماسك امبراطوريتها وعلى رفاهية ورخاء الشعب البريطانى .

---

(١) فى سنة ١٩١١ انتهزت إيطاليا فرصة ضعف الدولة العثمانية ،وأرسلت أسطولا الى ليبيا أحتل "طرابلس" ،و" بنغازى " ، و" درنة " فاضطرت تركيا إلى عقد صلح مع الحكومة الإيطالية تنازلت لها بمقتضاه عن " طرابلس" طمعا فى استمالة إيطاليا لجانبها فى مواجهة دول البلقان التى كانت بصدد توحيد صفوفها ضد تركيا .

اعادة بناء البحرية المصرية الحديثه

لم تغفل مصر أبدا ،حتى وهى فى أسوأ ظروف الاحتلال ،عن تحقيق أمانيها فى اعادة بناء قوتها البحرية ،وقد سلك المصريون فى سبيل ذلك شتى الطرق للمحافظة على تراثهم البحرى من الاندثار . وكانت مصلحة خفر السواحل ، بسفنها المتواضعه هى إحدى هذه الطرق .

وكان أسطول مصر الحربى التابع لمصلحه خفر السواحل ،يضم : الطوافات " الأميرة فوزيه " ،و" الأمير فاروق ، و " سلوم " و السفينه " مباحث " وبعض الزوارق الساحلية . إلا أن رغبة الملك فاروق (تولى عرش مصر فى أبريل ١٩٣٦) فى تنمية قوة مصر البحرية جعلت البرلمان - فى دورة سنة ١٩٣٨/ ١٩٣٩ - يقر مشروع إنشاء قوة " دفاع بحرى " ويوافق على تخصيص اعتماد قدرة ١٢٥ر١ مليون جنيه مصرى لهذا الغرض . ولكن نشوب الحرب العالمية الثانيه فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ حالت دون تنفيذ المشروع .

ومع اصرار بريطانيا على الحيلولة دون مصر ،وبناء قوتها البحرية ،فان الحكومة المصرية أصدرت قرارا - فى ٣٠ يونية سنة ١٩٤٦ - بانشاء البحرية المصرية ،تحت اسم " السلاح البحرى الملكى " وتعيين أمير البحار(فريق) " محمود حمزه باشا" قائدا لهذا السلاح الوليد . وفى ديسمبر من نفس السنه صدر المرسوم الملكى بتنظيم السلاح البحرى وقد نص على أن : (١) يطلق على القوة البحرية المصرية اسم " السلاح البحرى الملكى" ، (٢) يكون السلاح المذكور قائما بذاته ،ويلحق بوزارة الدفاع الوطنى ، (٣) يتألف السلاح البحرى الملكى من وحدات بحرية حربيه ، ويتولى قيادته قائد عام يكون له من السلطة ،والاختصاص ما للمديرين العامين للمصالح . وبذلك انتقلت غالبيه الضباط ،والجنود ،والوحدات البحرية من مصلحة خفر السواحل الى الخدمة بالسلاح البحرى الناشىء .

وفى هذه الأثناء وابان الحرب العالمية الثانية كان قد انضم للقسم البحرى بمصلحه حفر السواحل ثلاث دفعات من طلبة الكلية البحرية (الملكية) : الأولى قوامها تسع طلبة لا قوا حتفهم إلا واحد منهم، والثانية قوامها عشرون طالبا أحدهم واضع هذا الكتاب ، والثالثة تضم عشرين طالبا ،وهى الدفعات التى كانت اللبنة الأولى من ضباط السلاح البحرى الحديث .

وفى صيف عام ١٩٤٧ ،اشترى السلاح البحرى تسع كاسحات الغام خشبية من البحرية البريطانيه ،وسفينه نقل وانزال جند ،وبعض زوارق الإنزال المتوسطة ، والخفيفة وهى الوحدات التى أنضمت إليها طوافات مصلحة خفر السواحل ،ود خلت بها مصر(سنة ١٩٤٨) أول صدام بحرى مع اسرائيل فى سلسلة الصراع العربى الاسرائيلى الذى أستمر ثلاثين عاما حتى الآن .

****

الجزء الثاني

الحرب واستخدامات القـــوة البحرية

البـــاب الأول

الحـرب والأسـتراتيجيـــــة

لم يعد الأنسان بحاجة الى من يعرفه بمعنى الحرب ،وكل مايمكن أن يضاف الى ماقيل عنها هو ماقاله الفيلد مارشال " مونتجمرى " من أنها " الحكم النهائـــى عند ما تفشل جميع الجهود السلمية للتوصل الى اتفاق ،وهو حكم يستند الى القــوة والعنف أكثر من استناده الى الحق " . (١)

أما الحرب ذاتها فهى صدام تستخدم فيه قوة السلاح ، قد يمتد ويتســـع -زمانا ومكانا - فيصبح حربا شاملة ،أو ينكمش فيغدو حربا محدودة ،وفى الحالتيـن ، وبعد أن ازدادت تعقيدات الحرب الحديثة ، فقد شد الصدام المسلح اليه كـــل أوجه نشاط الحياه ،ومرافق الدولة ،واستنفذ جل جهد القوى العاملة ،وقوى الصناعة تلبية لمتطلبات المجهود الحربى . لذلك أخذت القيادة السياسية على عاتقهـــا مسئولية توجيه الحرب فهى " أخطر من أن تنفرد بها القيادة العسكرية" . ولعـــل هذا الخطر هو الذى ولد الخوف لدى قوى العالم الكبرى ،مما جعلها تعد نفسها لنوع آخر من الصدام ،هو الحرب النووية .

مبادئ الحـــــرب

للحرب قواعد ،وضوابط تمتد جذورها لآلاف السنين ، ظلت تتفاعل مع كل حـرب عبر التاريخ وتنصهر بالخبرة ، وتتطور مع التقدم العلمى ،والتكنولوجى لتستقر - فـــى النهاية - على هيئة " مبادئ أساسية " هى التى تعارفنا على تسميتها " مبـــادئ الحرب " ،أو " قوانين الحرب " .

---

(١) كتاب " الحرب عبر التــاريخ " ، مونتجمرى ، (تعريب العميد /فتحى عبد الله النمر) ص ١٣ .

وفى هذا الصدد ، يقول " كارل فون كلوسويتز " : " مع أن الحرب لا منطق لها ورغم ذلك فلها قواعدها" . ولم يكن ماكتبه " كلوسويتز " فى القرن التاسع عشر شيئا جديدا تماما ، فقد وضع الجنرال الصينى " صن تزو " ـ فى القرن الخامس قبل الميلاد ـ ثلاث عشرة قاعدة كضوابط للحرب وسلوكها . وسواء أكان عدد هذه المبادئ ثلاثة عشر كما رآها " صن تزو " أم عشرة كما يراها السوفيت ، والبريطانيون ، أم تسعة كما يراها الامريكيون، فلا خلاف على مضمونها ومعانيها التى تنحصر ـ بصفه خاصة ـ فى الآتى :

١ ـ إختيار الهدف والتمسك به

وهو أمر طبيعى ، فلكل عمل غاية لا مناص من وضعها نصب أعيننا إن نحن أردنا اتمام العمل ـ الذى بدأناه ـ بنجاح . وفى حالة العمل العسكرى ، فلا بد من التعبير عن " الهدف " بوضوح ، وبشكل محدد قاطع لا مجال فيه لأى لبس أو ابهام .. كأن يكون مثلا " تدمير تشكيل العدو البحرى " أو " دعم عمليات الجيش ... على المحور الساحلى بين النقطة ... والنقطة ... بنيران كذا ... الخ"، أو أن يكون " إبرار كتيبة من اللواء كذا على المنطقة كذا فى أول ضوء يوم كذا" . ومن ناحية أخرى ، فإن التمسك " بالهدف " لا يعنى عدم استبداله بهدف آخر يتفق وتغير الموقف ، أو تطوره فالفيصل ـ فى جميع الحالات ـ أن يكون هناك هدف واضح يؤدى بنا ـ فى النهاية ـ الى تحقيق مآربنا .

٢ ـ تركيز القوى

هو فى المقام الأول يعنى احراز تفوقا على العدو فى المكان المناسب، والوقت الحاسم سواء أكان هذا التفوق ماديا ، أو معنويا ، ليتاح لقواتنا إمكانية إنزال ضربة قاصمة بالعدو ، أو مواجهة ضرباته فى مختلف الاتجاهات . والمعنى الآخر" لتركيز القوى " هو فرض ارادتنا على الموقف ، وخلق ظروفا صعبة يتعذر على العدو مجابهتها. والتركيز ليس " حشدا " (Massing) بمعنى تجميع أكبر عدد من القوات والعتاد ، وانما هو يعنى تجميع" امكانيات قتالية " بالقدر اللازم لاحراز الهدف فى المكان المناسب والوقت الفاصل . ومن الطبيعى أن تختلف نوعية ، وحجم مثل هذه

الامكانيات بأختلاف الموقف أو الظروف ،أو باختلاف المكان والزمان .

٣ـ الاقتصاد فى المجهود

ان استخدام هذا المبدأ بحكمة يتيح لنا " فائض قوة " أو " احتياطى " كاف نواجه به متطلبات العمليات فى شتى المسارح ،أو نستعين به على تطوير أحد المواقف لصالحنا . والأقتصاد فى المجهود ،يعنى أيضا الاستخدام المتوازن للامكانيات المتاحة ،والحد من استنفاذ جهد القوات،واستهلاك الذخيرة ،والمعدات فيما ليس منه طائل . ولكنه ـ من ناحية أخرى ـ يجب ألا يؤخذ مبررا للضن على العمليات القتالية بحاجتها ،أو الاحجام عن تقديم الدعم لها .

٤ـ التعاون

ليس ثمة شك أن " التعاون " كان وسيظل ،هو الرباط المتين الذى يشد أزر الأمكانيات ،والجهود المتاحة ،ويجعل منها قوة متماسكة قادرة على تحدى قوة العدو . والنصر فى الحرب الحديثة ـ بحكم طبيعة و أبعاد نزاعات العصر وخصائص أدواتها وأسلحتها ـ أحوج مايكون للتعاون الوثيق بين مجالات العمل العسكرى ، والسياسى ،والاقتصادى . أما على مستوى العمليات الحربية ،فان أبرز علامات التعاون بين القوات المسلحة هى ـ بدون شك ـ " العمليات البرمائية " سواء ما كان منها بغرض الابرار ،أو الاخلاء . ولعل التشكيلات البحرية وعملياتها القتالية هى النموذج الأمثل لمفهوم التعاون ، نظرا لما تحمله القطعة البحرية الواحدة من أسلحة ومعدات متباينة الخصائص ، والأستخدامات ومع ذلك فأنها " بتعاونها" فيما بينها تشكل قوة متجانسة ذات تأثير فعال .

٥ ـ الأعمال الهجومية

" الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع" ،فهو أصدق مايقال للتعبير عن القصد من الأعمال الهجومية لا سيما فى العمليات البحرية نظرا لطبيعة المسرح ، والمعنى وراء

الأعمال الهجومية هو " انتهاك " أمن العدو ،وانتهاز الفرص أو خلقها " لتحدى" قوته . ولسنا بحاجة لتأكيد تأثير" الضربة الأولى " ـ خصوصا ان كانت مركزة ـ على العدو وعلى مصير المعركة ... وما الضربة الأولى الا احدى سمات " العمل الهجومي".

٦ـ الأمن

الأمن هو ـ في المقام الأول ـ الحفاظ على سلامة الوطن ومصالحة في الداخل والخارج ضد اعتداءات العدو . إلا أنه من العسير ـ إن لم يكن مستحيلا ـ الحفاظ على سلامة القوات المسلحة أثناء الحرب وكل مايمكن عمله هو اتخاذ سلسلة من الاجراءات والاحتياطيات لتوفير أكبر قدر من الوقاية للقوات والمعدات عند الاشتباك مع العدو والتقليل من نسبة الخسائر والاصابات الناجمة عن العمليات القتالية . وليس معنى هذا ،المغالاة في الحرص والحذر أو تجنب خوض المخاطر أو التخلي عن الإقدام والجسارة ،والا أنقلب الحال وسادت عملياتنا الخوف والتردد ،وهما أولى بوادر الهزيمة . ومن ناحية أخرى فأن التوازن بين " الأعمال الهجومية"و"احتياطات الأمن " هو مفتاح النجاح في " مباغته " العدو وتفويت فرصة " مباغتته" لنا .

٧ ـ المفاجأة

لا شك أن المفاجأة هي أمضى مبادىء الحرب وأشدها تأثيرا على الروح المعنوية ، ولا نغالي اذا نحن قلنا أن احراز المفاجأة هو نصف الطريق الى النصر. وتقدر قيمة المفاجأة بمقدار الصدمة التي تحل بالعدو وما ينجم عنها من شلل وبمقدار الوقت الذى يستغرقه العدو ليفيق منها ويبدأ في اتخاذ الأجراءات المضادة للخروج من الموقف الذى وقع فيه . والسبيل الى احراز المفاجأة متعدد ومتنوع،فعلى المستوى الاستراتيجي ـ مثلا ـ يمكن تحقيق المفاجأة باختراع أسلحة جديدة واستحداث أجهزة ومعدات مبتكرة أو بتكتم نوايانا وتحركات قواتنا . أما على المستوى التعبوى والتاكتيكي فيمكن الحصول على المفاجأة عن طريق ابتكار تكنيك جديد في استخدام سلاح معروف ،أو القيام بعمل قتالي جرىء أو غير مألوف ،أو بتضليل العدو عن اتجاهات عملياتنا الرئيسيه بتحركات خداعية في اتجاهات ثانوية . هذا وتفقد المفاجأة

الكثير من قيمتها ومفعولها اذا لم نستثمر آثار وقعها على العدو بمواصلة الضغط عليه ومطاردته ،واذا لم نتحوط من مفاجأة العدو لنا .

٨ ـ المرونة

المغزى الحقيقى للمرونة هو القدرة على الأنتقال من وضع الى آخر بسهولة ويسر فى أقل وقت ممكن ،ولذلك فإن كثير من الكتاب العسكريين يطلقون أسماء متعددة على هذا المبدأ مثل : " حرية العمل " (Freedom of Action) وخفة الحركة " (Mobility) ،و "القدرة على المناورة " (Manouveribility) ولكننا نفضل التسمية " مرونة " لأنها تحمل معانى المرونة فى التفكير وفى التخطيط وفى العمل وهى بذلك تضم كل معانى سائر المسميات . وفعالية المرونة تعتمد ـ أساسا ـ على توافر خطط بديلة ،وتوافر قواعد موزعة بأتقان استراتيجى على مختلف المسارح . كما أنها تعتمد أيضا على وجود " احتياطى " كاف يمكن دفعه فى اتجاهات متعددة لدعم وتعزيز العمليات فى أى مسرح . وتتحقق المرونة فى العمليات القتالية عن طريق السرعة فى إعادة تقدير الموقف وفى اتخاذ قرارات حاسمة فى الوقت المناسب وسرعة استجابة القوات والوحدات للقرارات الجديده . ومما لا شك فيه أن المرونة ـ من ناحية أخرى ـ تتيح لنا سرعة التخلص من آثار المفاجأة التى قد يكون أحرزها العدو ،أو على الأقل التخفيف من آثارها المادية والمعنوية .

٩ ـ الدعم اللوجستيكى

ويقصد به توافر امكانيات بالقدر والنوعية التى تمكن القوات والوحدات من الحفاظ على كفائتها القتالية أو سرعة استعادتها ،وأيضا القدرة على استعواض الخسائر . والدعم اللوجستيكى ـ الذى تتيحه عادة القواعد الرئيسية ـ يشمل ،امداد الوحدات بحاجتها من الرجال والأسلحة والذخائر والأجهزة والمعدات والمأكولات واعادة تموينها بالوقود والزيوت والمياه العذبه . وهو يشمل أيضا امكانيات اصلاح ومعالجة اصابات الوحدات والقوات وأعطاب الأجهزة والآلات . أما فى حالة عدم وجود قواعد على مقربة من مسارح العمليات لتقديم مثل هذه الخدمات ، فيمكن الاستعاضة عنها بتشكيل " قواعد متحركة " (Mobile Bases) تضم

مجموعات من السفن ذات نوعيات خاصة مثل سفن الورشة وسفن الامداد (ذخيرة ، أسلحة ، أطعمة) وسفن المستشفى وسفن ناقلات البترول . إن مثل هذه القواعد تكسب الأساطيل المقاتلة نوعا من الاكتفاء الذاتي ، وتقلل من حاجتها للعودة الى قواعدها الرئيسية وبالتالى استطالة مدة عملها بمسرح عملياتها .

الاستراتيجية الشاملة

إن أصل التعبير" استراتيجية " يرجع الى الكلمة اليونانية القديمة (STRATEGUS) ومعناها الحرفى " جنرال " أى القائد الأقدم ، إلا أن الأغريق القدامى كانو يطلقونها على وزير الدولة المفوض بسلطات واختصاصات أوسع من غيره من الوزراء .

كانت أثينا ، فى القرن الخامس قبل الميلاد ، تضم عشر ولايات يمثلها عشرة ألوية فى الجيش، كل منها تحت قيادة استراتيجوس (جنرال) ، .. ثم تشكل من هؤلاء الجنرالات مجلس أعلى للجيش . واستمر العمل بنظام هؤلاء الجنرالات من رجال القبائل البارزين ، حتى قرب نهاية ذلك القرن ، عندما أصبح انتخابهم من عامة المواطنين ، وأسندت اليهم اختصاصات ، وسلطات سياسة واسعة إلى جانب مسئولياتهم العسكرية ، وظهر نفوذهم الكبير فى توجيه سياسات الدولة ، والاشتراك فى إبرام المعاهدات وفى توقيعها .

وفى القرن الرابع قبل الميلاد بدأ تعيين الجنرالات (الاستراتيجوس) وزراء ، فأخذ نفوذهم كعسكريين يزداد ، حتى فاق نفوذ الوزراء المدنيين ، وبعد عهد الاسكندر الأكبر أصبحوا رؤساء حكومات ، وقادة للجيوش ، ووزراء للخارجية ، وكانوا يشغلون مناصبهم عن طريق الانتخاب لمدة سنة .

وشهدت مصر القديمة ، أيضا مثل هذا النظام فى الحكم ، وذلك فى القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث تم تعيين أمثال هؤلاء الأستراتيجيون حكاما على المحافظات

" محافظون " (The Nomes)وطغت سلطاتهم المدنية على النواحي العسكرية ، في الحكم ،واستمر الحال على ذلك المنوال الى أيام حكم الرومان لمصر وحتى القرن الرابع الميلادى .

تطور استخدام اللفظ استراتيجوس بعد ذلك ليعطى معنى يرتبط بما يتناوله من أعمال هو " فن الجنرال " (Art Of The General) وأصبح يعبر عن المسائل العليا المتعلقة بالحروب وانتشر استخدامه بهذا المعنى في أواخر القرن الثامن عشر عندما كانت الحروب بسيطه ومحدوده نسبيا .

كما اقتصر استخدام هذا الاصطلاح على أعمال التخطيط للحرب وتحريك القوات الى مسارح العمليات وادارة هذه العمليات، .. أى على الأعمال العسكرية العليا دون غيرها من أعمال تجرى على أرض المعركة أو في الميدان .

الا أن آفاق استخدام لفظ " الاستراتيجية " لم يتسع الا بعد القرن الثامن عشر الميلادى ،وأصبح يشمل كل الموضوعات الرئيسية التى تنطوى تحت عمليات تعبئة واستخدام طاقات الدولة وامكانات القوات المسلحه في الحرب وفى السلم أيضا .
ويعتبر البارون " جيمينى " و " كارل فون كلوزويتز " من العسكريين الأوائل الذين قاموا بدراسة الاستراتيجية . كما أن " ماكيافيللى " يعد أيضا من الرواد الذين تناولوا بأفكارهم موضوع الاستراتيجيه ،حيث يتضح من كتاباته " فنون الحرب " مدى ترابط طبيعه المجالين المدنى والعسكرى في وقت الحرب . ورغم أن " ماكيافيللى " لم يكن رجلا عسكريا ولا دخل له بهذه المهنة ، الا أنه كان يفكر على أساس أن العمليات الحربية هى وسيلة لتحقيق أهداف الأمة .

ومع ذلك فان نابليون يعتبر أول قائد عسكرى وضع الاستراتيجية ـ بمفهومها الجديد ـ موضع التنفيذ . ففى أيام ماقبل نابليون مباشرة ،استخدم هذا الاصطلاح للتعبير عن العلوم والفنون التى تؤدى الى حسن ادارة حركة القوات العسكرية بما يكفل هزيمة العدو أو تخفيف آثار هزيمة قواتنا . أما الدراسات التى أجريت على

حروب نابليون فقد استبان منها أنه كان يستخدم الضغط الاقتصادى واطالة أيام الحرب لإنهاك العدو واستنزافه، مما يدل دلالة واضحة على مدى ترابط الادارة الحربية بالادارة المدنية فى تسيير شئون الدولة . لذلك نجد أنه فى عام ١٩١٩ خرج الجنرال " فردريك موريس" على العالم بتعريف شامل للأستراتيجية يقول أنها " فن استخدام الطاقات الوطنية لتحقيق أهداف الحرب" .

تعريف الأستراتيجية

لم يختلف العسكريون ولا المؤرخون ولا المفكرون كثيرا فى تعريف الاستراتيجية. ورغم ذلك لم يتوقف سيل الأيضاحات التى تحاول أن تلقى مزيدا من الضوء على مفهوم هذا التعبير . . " الأستراتيجية " . بل ان الكثيرين قطعوا شوطا طويلا فى محاولة لتعريف معنى " الحرب" وكادت هذه المحاولات أن تبتعد بنا عن حقائق الواقع وتشدنا الى المناظرات الكلامية ومبارزات النظريات . إلا أن الحروب الحديثة وضعت حدا لهذا التشتت الفكرى وأعادت الدارسين الى الواقع وأن الحرب" مازالت هى : "الامتداد لسياسة الدولة بأستخدام القوة المسلحة لتحقيق الأهداف الوطنية "، وهذا الأمتداد يشغل مساحات معينة تدور فيها معارك قتالية هى التى تعرف " بمسارح الحرب" (Theatres of War) .

فاذا اتفقنا على أن الحرب هى امتداد لسياسة الدولة وأنها أحد مجالات تحقيق الأهداف الوطنية، فمن الطبيعى أن توضع معالم الصورة التى ستكون عليها الحرب جنبا الى جنب مع رسم سياسة الدولة ومداومة إعادة النظر - بين الحين والآخر - فى هذه الصورة حتى تكون أقرب ما تكون لتوقعات المستقبل، وعلى هذا فيمكن القول بأن " الاستراتيجية " هى فى أبسط وأشمل تعاريفها انما تسعى الى " تعبئة طاقات وامكانات الأمة وتنميتها لأجل تحقيق الأهداف الوطنية " .

ومن هذه الأستراتيجية الشاملة تنحدر الاستراتيجيات العسكرية والتى يمكن تعريفها بأنها : "إستخدام موارد وطاقات الأمة ودفعها الى مسارح الحرب لملاقاة العدو وهزيمته" . بمعنى أن الأستراتيجيات العسكرية تمد يدها لتأخذ من موارد

الوطن ثم تدفع - باليد الأخرى - بهذه الموارد الى مسارح الحرب . . ولكنها لاتمتد الى أبعد من ذلك ،أى أنها لاتدخل هذه المسارح لتشترك فى القتال الفعلى الدائر فيها .

ومع ذلك فإن دور الاستراتيجية لا يتوقف عند هذا الحد ، فهى - بوصفها المسئولة عن تهيئة الموارد والطاقات الوطنية ودفعها لمسارح الحرب - صاحبة الحق فى مراقبة حسن استخدام هذه الموارد والطاقات فى المسارح المختلفه . وهو ماتعارفنا على تسميته " بإدارة الحرب والسيطرة على عملياتها " ، وهى مهمة متممة للوظيفة الأساسية للاستراتيجيات العسكرية ،وهى بذلك أكثر قدره - من غيرها من الأستراتيجيات - على توجيه البحث العلمى والتكنولوجى بما يتفق وتطورات العمليات القتالية ،وعلى تقدير حجم الموارد اللازمة لمواجهة حركة تقدم الحرب وتوزيع هذه الموارد على مسارحها المختلفه .

وعلى كل ، فالاستراتيجيات العسكرية - وهى تؤدى مثل هذه المهام - تستمد خططها من السياسة القومية للدولة وتلتزم بها .

علاقة الاستراتيجية بسياسة الدولة

لكل دولة أهدافها التقليديه المتوازنة ،وأهدافا أوجبتها الظروف ، وأكثر هذه الأهداف خطوره هو تأمين سلامة الوطن ضد المعتدى ، وهذا الهدف أصبح على مر السنين ،يشمل حماية مصالح الدولة فى الميادين الدبلوماسية والاقتصادية والنفسانية . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن للوطن حقه فى الحياة فى المجال العالمى وهذا يعنى التداخل فى التجارة وفتح أسواق لمنتجاته الوطنيه وهو يعنى أيضا الرغبة فى رفع مستوى معيشة المواطنين ، كما قد يكون من أهداف الدولة نشر مبادئها وعقائدها بين شعوب العالم الخارجى .

إن الأهداف الوطنيه تتحكم فى رسم سياسة الدولة القومية سواء فى المجالات الداخلية أو فى المجالات الخارجية ،والسياسة القومية هى نقطة البداية فى التخطيط الاستراتيجى .

هذا ويمكن القول عن حق ، أن الطريق الذى تسلكه الدولة لتحقيق أهداف سياستها ما هو إلا إستراتيجية تماما كما يستخدم نفس الأصطلاح فى الشئون الحربيه . وعلى كل ،ففى " الحرب الباردة " الغير مصحوبة بعمليات حربية ،استخدمت الكلمة " استراتيجية " للدلالة على تجميع وادارة المناورات فى الميدان السياسى والميدان التكنولوجى .

والسؤال الآن ،هل يجوز اطلاق كلمة" استراتيجيه " على غير الأمور العسكريه ؟ والاجابة بلا تردد هى " نعم " ،فقد أصبح واضحا مدى ترابط الأمور المدنية بالأمور الحربية وتداخلها بما يتعذر معه الفصل بين اهتمامات المشتغلين بكليهما . فما الاستراتيجية إلا منهج تتحكم فيه نفس العوامل الجغرافيه والاقتصادية والبشرية والعلاقات الدولية التى تتحكم فى أى أعمال كبيرة على مستوى الأمة ،ولا اختلاف بين المنهجين إلا فى طبيعة مقومات إحداها وأدوات تنفيذها عن الأخرى .فالدوله لها استراتيجيتها الشاملة أو العليا ،التى تنطوى تحتها استراتيجيات أساسيه : حربيه ، اقتصاديه ، دبلوماسيه ، تكنولوجيه ... الخ .

وتتكون الاستراتيجية الحربية من استراتيجيات برية وبحرية وجوية ،لكل منها طبيعه ومقومات تختلف عن طبيعة ومقومات الأخرى ،إلا أن جميعها ترمى الى تحقيق الأهداف القومية كل فى مجال استخدامها . فالاستراتيجية الحربية ، مثلا ، تهدف إلى إنزال الهزيمة بقوات العدو ... لقد كانت هزيمة العدو فى المعركة فى العصور القديمة تعنى كسب الحرب وبالتالى تحقيق أهداف الأمة . وظل الاعتقاد بأن قهر العدو هو هدف الاستراتيجية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية التى انتهت بهزيمة المحور فى عام ١٩٤٥ فتغيرت النظرة الاستراتيجية الى المنازعات والصراعات الدولية وبرزت أهداف جديدة لها .

وعلى كل ،بمجرد صياغة الدولة لاستراتيجيتها فى حرب شاملة ،فيجب استغلال كل موارد وطاقات الأمة من أجل تحقيق هذه الاستراتيجية . وحتى تكون الاستراتيجية الوطنية مثمرة ،فيجب حشد وتوجيه القوى غير الحربية فى اتجاه المجهود العام » .

أى من أجل زيادة الانتاج الصناعى ، واستخدام العلم فى تطوير وابتكار الأسلحة والمعدات الحربية ،أو القيام بمجهود ناجح ضد معنويات شعب العدو وفى نفس الوقت رفع معنويات مواطنينا ». وهكذا عشرات غيرها من مجهودات غدت جزءا عضويا من الأستراتيجية القومية التى تدعمها الأستراتيجية الحربية من أجل تحقيق أهداف الأمة. لذا كان لزاما أن تترابط سياسة وخطط الدولة ـ فى جميع مرافق حياة المجتمع ـ لاحراز النصر النهائى الذى هو الهدف الرئيسى للاستراتيجية الشاملة .

وتعتمد الاستراتيجية الحربية فى نجاحها على اتباع مبادئ معينه سبق ذكرها ،وهى مبادئ تقليدية يجوز تطبيقها عند تناول شئون الدولة الداخلية والخارجية بما يحقق الأهداف الاستراتيجية القومية ،فمثلا مبدأ " الأقتصاد فى المجهود " يصلح استخدامه فى الشئون الأقتصادية كما يصلح مبدأ " التعاون " فى تناول الشئون السياسية .. وهكذا .

أهداف الاستراتيجية

إن دخول الطائرة مضمار الحرب ،وتزايد اعتماد الحرب الحديثة على طاقات الانتاج الصناعى ،أضفى على الأستراتيجية أبعادا لم تكن تصل اليها من قبل وأضاف اليها هدفا جديدا يتمثل فى : " توجيه الضربة الى قلب العدو " .والمقصود " بالقلب " هنا هو " المراكز الصناعية " التى كانت ـ حتى وقت قريب ـ بمأمن من أسلحة القوات البرية والبحرية .

وليس ثمة شك أن هزيمة المانيا ـ فى الحرب العالمية الثانية ـ لم تظهر بوادرها الا بعد الضربات الجوية العنيفة والمتلاحقة التى وجهها الحلفاء الى مراكز صناعاتها وفى مقدمتها صناعات الحديد والصلب والصناعات الحربية وعلى الخصوص مصانع الطائرات ومراكز تجميع الغواصات. (١) كما أن الفضل الأكبر فى انهاء الحرب الاميركية اليابانية يرجع الى الكميات الهائلة من القنابل الناسفة والحارقة التى ألقتها

(١) خلال عامى ١٩٤٤ / ١٩٤٥ قامت قاذفات الحلفاء بألقاء ١٣١ ألف طن من القنابل شهريا على أهداف صناعية داخل الأراضى الألمانية. (عن تقرير
"The United States Strategic Bombing Survey "

القاذفات الأمريكية على المراكز الصناعية والتجمعات السكانية اليابانية خلال النصف الأول من عام ١٩٤٥ (١) ، والتى أعقبها القاء قنبلتى " هوراشيما " و " نجازاكــى " النوويتين .

ومع أن استسلام المانيا جاء نتيجة مباشرة لعملية الغزو الكبيرة " أوفر لــورد " التى قام بها الحلفاء على " نورماندى " وأن استسلام اليابان لم يأتى نتيجـــة لأى عمليات غزو لأراضيها ، الا أن استراتيجية " ضرب القلب " التى انتهجها الحلفاء هى التى فتحت الطريق الى نفس النتيجة .. هزيمة العدو .

بهذا لم تعد الحرب الحديثة تقتضى من القوات المتحاربة أن " تلتقـى " وأن " تدخل " فى معارك تصادمية لكى ينتصر طرف على الطرف الآخر ويحقق بذلـــك أهدافه القومية . فقد يكفى القاء مثل هذه القنابل المدمرة على مراكز العدو الصناعية وتجمعاته السكانية للقضاء على قدرته على مواصلة القتال .

ومن ناحية أخرى ،يمكن إصابة " القلب " بانتهاج استراتيجية " الحصار الاقتصادى" البحرى التى تستهدف حرمان العدو من وارداته من المواد الأولية الصناعية والمواد الغذائية التى يجلبها عبر البحار،وأيضا تقييد حركة صادراته الى العالم الخارجى . ولعل أقرب مثل لذلك هو الحصار الذى فرضته البحرية المصرية على اسرائيل إبـان حرب اكتوبر ١٩٧٣ عند مضيق " باب المندب " فى أقصى جنوب البحر الأحمر ، وعند المياه الضيقة فى منتصف البحر المتوسط .

---

(١) على سبيل المثال : فى احدى الغارات على القطاع الجنوبى الغربى لمدينــة طوكيو يوم ٢٣/٥/١٩٤٥ ،قامت ٥٢٠ قاذفة امريكية بالقاء ٣٦٤٦ طن من القنابــل الحارقة لمدة ساعتين على رقعة من الأرض لاتتجاوز مساحتها ١١ ميلا مربعـــا ، أى أن معدل القصف يعادل ١٠٠٠ رطل فى الثانية الواحدة .
عن كتاب
" Strategy in the Missile Age " , Brodie , pp. 12& 13

وقد أحدث مايقدمه العلم والتكنولوجيا - كل يوم - من جديد في مضمار الحروب تغييرات في ترتيب أولويات أهداف الاستراتيجية وأضافت اليها عوامل جديـــدة . فحتى وقت قريب كان " القضاء على رغبة العدو في المقاومة عن طريق شـــل قدراتـــه الصناعية"، هو الهدف الثاني للأستراتيجية ،فأصبح - الآن - يحتل المقـــام الأول في استراتيجية العصر . ومن الطبيعي أن " هزيمة قوات العدو العسكرية " لـــم تعد - هي الأخرى - الهدف أو الغاية المرتقبة من عمليات القوات المتحاربة ،بعـد أن غدت هزيمة القوات المسلحة لاتعني ،بالضرورة،" القضاء على قدرة العدو وعلـــى مواصلة القتال " .

ولعل الدليل المقنع على هذه المتغيرات،هو ماتبذله الدول من جهود فـــي ابتكار الصواريخ بعيدة المدى وتعدد رؤوس الحرب النووية التي تحملها ،وتطويـــر القوى المحركة للطائرات والسفن والغواصات لاطالة مدى عملياتها ورفع سرعاتهـــا ، وذلك لاسقاط أسلحة الدمار الشامل على قلب خصومهم في أقل وقت ممكن .

ترتب على هذه المتغيرات والتطورات أن تقاربت - كثيرا - أهداف استراتيجيات الدولة وذابت ما كان بينها من فواصل ،مع احتفاظ كل استراتيجية بأهدافهـــا المباشرة أو بما يمكن تسميته " أهدافا تخصصية " اقتصادية ،دبلوماسية ،أو عسكرية .

مستويات الاستراتيجية :

ان اتساع مجالات العمل الاستراتيجي وتشابكه وتداخله ،أدى الى وضع مستويات للعمل الاستراتيجي ،وجعل الدراسون للتاريخ العسكري يتفقون على تقسيـــم الاسترتيجيه الى ثلاث مستويات رئيسيه هي : " الاستراتيجيـــه العليـــا (Grand Strategy) ، والاستراتيجيه الكبرى " (Major Strategy) ، و " الاستراتيجية الميدانية " (Field Strategy) ، وهذه الاخيرة تطـــورت - بمقتضيات مفاهيم الحرب الحديثة - وأصبحت تعرف بأسم " المستـــوى التعبـــوى" (Opration Level) وغدت له دراساته وبحوثه المستفيضه .

الاستراتيجية العليـــا

هى قمة الاستراتيجيات ، يضطلع بها رئيس الدولة شخصيا وهو المسئول عن اعطاء قرار التحرك الأستراتيجى على المستوى القومى فى كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية فى الداخل والخارج . وفى صياغته للأستراتيجية العليــا ، يستعين رئيس الدولة بمستشارين خبراء بشئون الدولة الداخلية والأوضاع العالميـة وبالشئون العسكرية ، يمدونه بما يحتاجه من بيانات ومعلومات تعطى صورة واضحـة للموقف الناشب وتنبوءاتهم عن المستقبل المرئى . وباستيفائه لحاجته من البيانـات والمعلومات ، يشرع رئيس الدولة مع معاونيه فى صياغة الأستراتيجية الشاملة الـتى ستنتهجها الدولة .

ويجدر الإشارة هنا إلى أنه لا حدود للأستراتيجية العليا ولا حكم لأحد على القرار الأستراتيجى على عذا المستوى الا ماتفرضه الظروف والعوامل الجغرافيـة والسياسية والأقتصادية والعسكرية والبشرية التى تؤثر على الأهداف القومية . لذلك نجد الأستراتيجية العليا تتناول أساسا ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ الأمـور التالية :ـ

١ـ الظروف الدولية العامة وتأثيرها المباشر وغير المباشر على الموقف الناشـب أو المتوقع نشوبه : الأصدقاء والحلفاء ، ردود الفعل المتوقعه لدى باقـى الدول وما قد ينجم عنها آثار على تحركاتنا وعلى تحركات الخصم .

٢ـ حجم موارد وطاقات الخصم ومقدار الثقل الذى ينتظر أن يلقى به فى الصـراع المرتقب وتحت أى ظروف .

٣ـ حجم موارد وطاقات الأمة وامكانيات تطويرها ودعمها وامكانية شل أو إضعـاف موارد وطاقات الخصوم .

٤ـ إمكانية جذب أصدقاء وحلفاء جدد أو الاستفادة بدول الحياد فى تعزيـز موقفنا واضعاف موقف الخصم .

من هذه المقارنة ،التى يعرفها العسكريون " بتقدير الموقف " ،يخلص رئيس الدولة الى صيغة قرار ،تبدو فيه ملامح الأستراتيجية التى ستنتهجها الدولة حيال الموقف وما يعقب صدور القرار من تطورات أو أحداث . وعادة مايتضمن قرار رئيس الدولة بيان واضح للأهداف الأستراتيجية فى اطارها العام .

الاستراتيجية الكبرى

هى مجموعة من الأستراتيجيات تأتى فى المستوى أو المقام التالى للاستراتيجية العليا ،تحتل المساحة العريضة التى تشغلها جميع أنشطة ومرافق الدولة والتى تتضمن الأستراتيجيات العسكرية : البرية والبحرية والجوية . وعلى الرغم من أن هذا هو مكان الأستراتيجيات العسكرية إلا أنها ـ دون غيرها من الأستراتيجيات الكبرى وبصفة خاصة فى زمن الحرب أو التهديد بالحرب ـ تظل خاضعه للأشراف المباشر لرئيس الدولة حتى ولو لم يكن متمتعا بصفة القائد الأعلى للقوات المسلحه .

وتستمد " الاستراتيجية الكبرى " اتجاهاتها من الأهداف القومية التى أقرتها " الأستراتيجية العليا" . فقد تدعو توقعات تطور الموقف المرتقب،الى الحد من اعتماد قطاع الصناعه الوطنية على الواردات بنفس المقدار الذى كان يجلبه القطاع عبر البحار فى زمن السلم ،فيصبح على القطاع الصناعى أن يصيغ استراتيجيته على هذا الأساس كأن يحتفظ باحتياطى كبير من المواد المتوقع هبوط وارداتها وتوزيع المخزون جغرافيا بما يتلاءم والأوضاع العسكرية والتطورات المرتقبة للحرب ، . أو أن يعمد الى تصنيع بدائل للمواد الأولية الطبيعية والحد من استهلاكها ،وهكذا .وعلى ضوء ذلك ، تشرع قيادة القوات المسلحة ـ كأحد اتجاهاتها الأستراتيجية ـ فى مواءمة برامج صناعاتها الحربية مع موقف قطاع الصناعات الوطنية الذى عليه بالتالى أن يوازن حصص المواد الأولية والوسيطة بين متطلبات الصناعات الحربية والصناعات المدنية .

ومن ناحية أخرى نجد أن قطاع السياسة الخارجية يمارس نشاطا مكثفا للتهدئة ـ مثلا ـ من ردود الفعل التى قد تنجم عن النزاع المسلح المرتقب أو تضييق رقعته وعدم فتح جبهات أخرى . ولعل أهم تحرك يقوم به هذا القطاع هو الحصول على

قواعد أو تسهيلات فى الموانى البحرية والجوية الأجنبية أو الصديقة تعتمد عليها القوات المسلحة فى عملياتها المقبلة ،وهو تحرك سياسى ـ سواء أسفر عن نتائج إيجابية أو سلبية ـ له وزن كبير فى خطط القيادة العسكرية إذ على نتيجة هذا التحرك يتوقف أسلوب ومدى التوزيع الأستراتيجى للقوات المسلحة بصفة عامة والقوتين البحرية والجوية بصفة خاصة .

و " الأستراتيجية الكبرى " تتمتع بدينامكية أكثر بكثير من " الاستراتيجية العليا" لأنها مرتبطة مباشرة بكل قطاعات ومرافق الأمة وبالحياة اليومية لشعبها ومرتبطة بالحركة السياسية والأقتصادية العالمية ،ومرتبطة ـ وهو الأهم ـ بأمن الوطن وسلامة أراضيه أى بالقوات المسلحة والعمليات الحربية .

ومن الطبيعى أن تختلف " الأستراتيجية العسكرية الكبرى" بحسب مجال عمل كل فرع من أفرع القوات المسلحة ،فالأستراتيجية البحرية تختلف عن استراتيجيات شقيقاتها التى تختلف بدورها فيما بينها ،. . إلا أن هذا الأختلاف لا يعنى انفصام الصلة بينها وانما هو نابع من اختلاف طبيعة مسرح عمليات كل منها مع استمرار ترابطها فى اطار الأستراتيجية الكبرى والتزامها ـ ككل بإحراز الأهداف القومية .

الأستراتيجية الميدانية

الأستراتيجية الميدانية تشتغل بالأمور المتعلقة مباشرة بالعمليات فى مسارح الحرب وانتقاء المسرح وتجهيزه ،بمعنى أنه : حتى يمكن تحقيق الأهداف ،ماهى العمليات التى على القوات أن تقوم بها فى هذا المسرح أو ذاك وكيف ومتى وأين ، وماهى مهام كل قوة من قوات المسرح . ووضع الاجابات على هذه الأسئلة هو التخطيط للعمليات التى ستدور فى المسرح عند نشوب الحرب أو عند الأستعداد لها ،ثم إدارة وتسيير هذه العمليات فى إطار الخطة الأستراتيجية العامة الصادرة عن القيادة المعنية برية كانت أو بحرية أو جوية . وكما كان الأمر فى الأستراتيجية الكبرى من توزيع القوات الرئيسية على مسارح الحرب ،فان الأستراتيجية الميدانية تقوم بتحريك القوات المخصصة لكل مسرح الى قطاعات ومناطق عملياتها فى هذا المسرح أو ذاك ،توطئة لا شتباكها فى المعارك مع قوات العدو . . ثم إعادة تحريكها وفقا

لتطورات المعارك ولتحقيق تكامل بين عمليات القوات فى كافة قطاعات المسرح الواحد . أما تحريك القوات بين مسارح الحرب المختلفة ،فهو من اختصاص ومسئولية الأستراتيجية الكبرى ،وفى كثير من الظروف تتولى الأستراتيجية العليا هذا الأمر وهى التى تتخذ فيه قرارا لأنه يتعلق بالحرب ككل .

ولعلنا نكون قد لاحظنا عدم اشتغال أى مستوى من مستويات الأستراتيجية بالأعمال القتالية التى ستدور على الأرض وبالبحر وفى الجو » . وهذا يرجع لأن تلك الأعمال تتجاوز مجالاتها أبعاد الأستراتيجية التى تنتهى مسئولياتها - الابتدائية - عند تهيئة المسارح لاستقبال العمليات المرتقبة . أما الصدام بين القوات وما ينشب بينها بين اشتباكات وما تقوم به من مناورات فى المعارك هو " التاكتيك " (Tactics) .

التاكتيك

التاكتيك هو فن القتال الفعلى فى ساحة المعركة سواء كانت على الأرض أو فى البحر أو فى الجو . وهو يتناول كل مايتعلق بأوضاع وتشكيلات القوات ومناوراتها فى المعركة عند ما تقترب المسافات بين القوات المتقاتلة بحيث يصبح كل طرف فى مدى عمل أسلحة الطرف الآخر ويغدو الأمر مرتبطا بمكان ووقت وطريقة توجيه الضربة . واذن فيمكن القول بأن التاكتيك يعنى استخدام القوات والأسلحة فى ميدان القتال وهو بذلك ينطوى على شقين أساسيين : تاكتيك عام وتاكتيكات خاصة بكل سلاح من أسلحة القتال بالمدفعية والمدرعات والمشاه والطائرات، بل قد ينقسم كل من هذه الأسلحة الى تاكتيكات فرعية فالطائرات مثلا منها المقاتلات والقاذفات والأستطلاع لكل منها تاكتيكاته الخاصة والتى فى مجموعها تعطى التاكتيك العام .

واذن فالتاكتيك مرتبط ارتباطا وثيقا بعناصر أساسية أهمها ،الفرد والسلاح وساحة القتال ،وهو يتأثر مباشرة بالعوامل الطبيعية والفلكية وبمناورات الأطراف المتقابلة . ولعل أهم مايتميز به التاكتيك هو استجابته السريعة لتطور الأسلحة وتقدمها وفى نفس الوقت فهو يملى مطالبه على العلوم والتكنولوجيا لتقدم له المبتكرات

والمخترعات التى تمكنه من التغلب على العدو . والسمة الرئيسية للتاكتيك هـــى السرعة : السرعة فى الحركة ،وفى التحول من وضع الى آخر ،وفى اســـتغلال أى بادرة خطأ من جانب العدو أو تغير فى الأحوال الجوية وأخيرا - وليس آخـــرا - السرعة فى اتخاذ القرار . فالتاكتيك - بخلاف الأستراتيجية - نادرا مايتاح لـــه الوقت للتخطيط بعيد المدى المسبق لأنه رهن بمتغيرات المعركة والظروف المحيطة بها وهو لذلك - أيضا - كثيرا مايخرج عن نصوص الخطط السابق وضعها والأمر فـى النهاية متروك لفطنة القائد وكفاءة تدريب قواته .

****

الباب الثاني

الحرب البحرية واستخدامات القوة البحرية

الباب الثانـــــــى

الحرب البحرية واستخدامات القوة البحرية

الحرب البحرية ،بصفة عامة ،لاتخرج من كونها أحد أشكال الصدام المســـلح الذى تلجأ اليه الدولة عندما تفشل جميع الجهود السلمية للتوصل الى اتفـاق ، . وهو صدام تستخدم فيه قوة " السلاح البحرى " متخذا من مياه البحار والمحيطــات مسرحا لعملياته .

المحيطات والبحار كمسارح حرب

تغطى مياه المحيطات والبحار ٧١٪ من سطح الكرة الأرضية ،ويعيش أكثر من ثلثى سكان العالم فى شريط ساحلى تحف بهذه المياه لا يزيد أقصى عرض لـه عـن ٣٠٠ كيلو مترا، وأن الثغور والمدن الساحلية تمثل غالبيه مدن العالم الكبـــرى . وتحمل البحار والمحيطات مايربو على ثلاثة أرباع حجم التجارة العالمية تنقلها أكثر من ٦٦ ألف سفينه تجارية قيمة حمولاتها تعادل ٥ر٦٠٨ مليون طن تقريبا . والبحر أيضا مصدر رزق وغذاء لكثير من المجتمعات تنطوى - فى أعماقه - ثروات معدنيـــة وكيماوية وفيرة .

والطريف ،والذى قد لا يعرفه إلا قلة من القراء ،أن البحار المالحة التى تضمها الكرة الأرضية وصل عددها الى ٦٣ بحرا مفتوحا ومغلقا صنعتها تضاريس وتعاريــج سواحل القارات وطبوغرافية أراضيها . (١)

ومن الحقائق العلمية ،أن سرعة انتقال الصوت فى مياه البحار تتراوح بين ١٤٥٠ متر و ١٧٥٠ متر فى الثانية تزداد بأرتفاع درجات حرارة الماء بمعدل ٥ر٤ متـــر/ ثانية لكل درجة مئوية ،وهى تزداد أيضا بزيادة العمق (ضغط الماء) بمعدل ٧ر١ متر/ ثانية لكل ١٠٠ متر(١) وهى خواص يستفاد بها فى صناعة الأجهزة الأكوستيكية وأسلحة تحت الماء وتطويرها .

(١) عن "Encylopaedia Britanica " , Vol. 13, p. 482

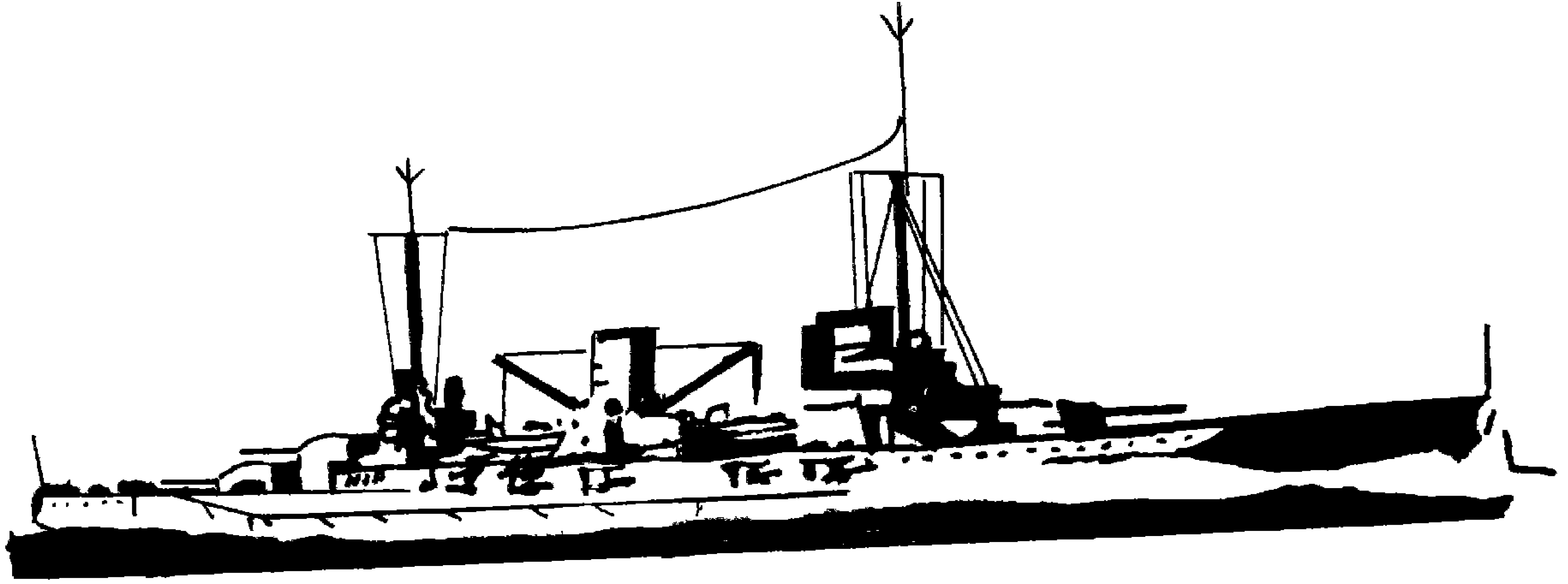
(٢) نفس المصدر : ص ٤٨٣

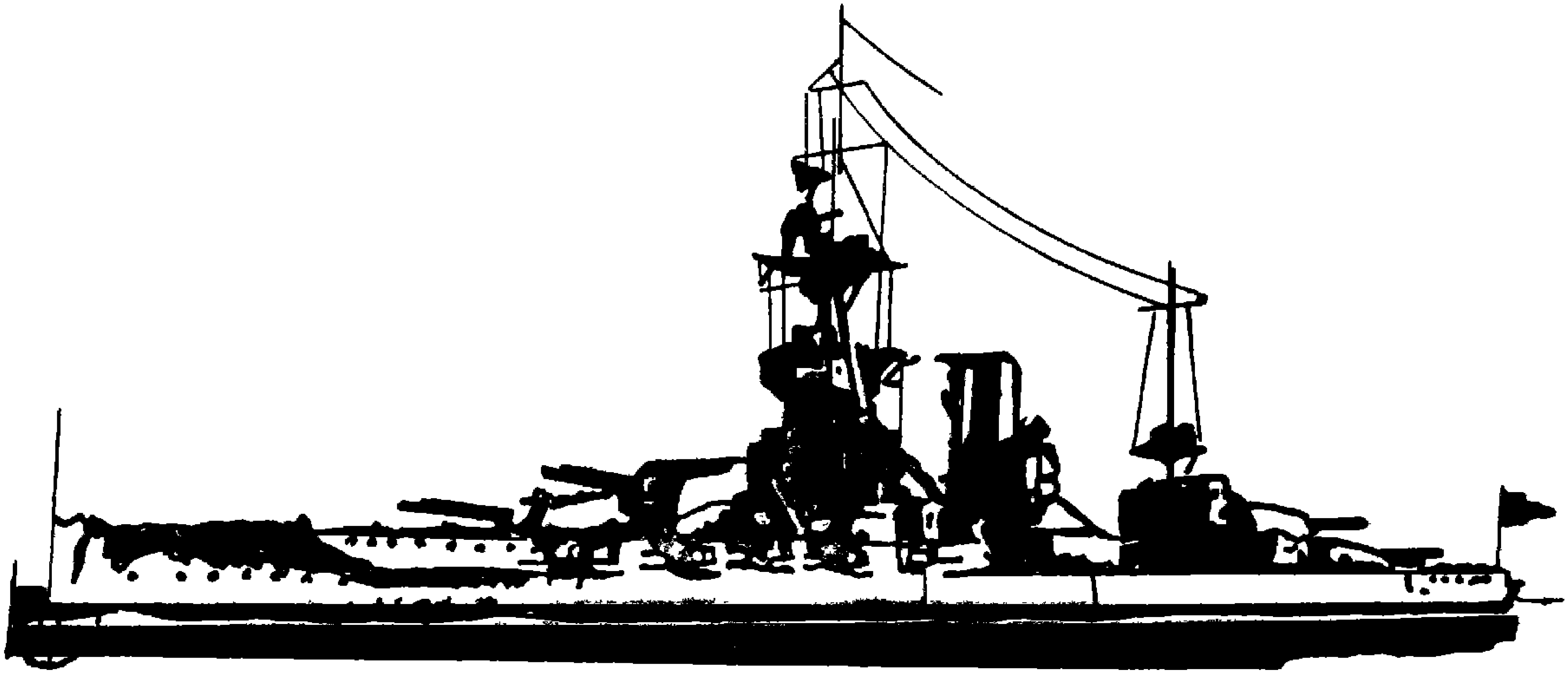
وكانت البحار ـ فى وقت من الأوقات ـ تعتبر فاصلا يباعد بين شعوب العالم القديم ،إلا أن رغبة الانسان فى التنقل والتعرف على الأمصار التى تحيط به جعلته يصنع الفلك ويطوره ويجوب به أرجاء البحر ينقل الحضارة من مكان لآخر وينشر المعرفة فيما وراء هذه البحار التى غدت أفسح وأروع وسيط يصل بين الأمم والشعوب .

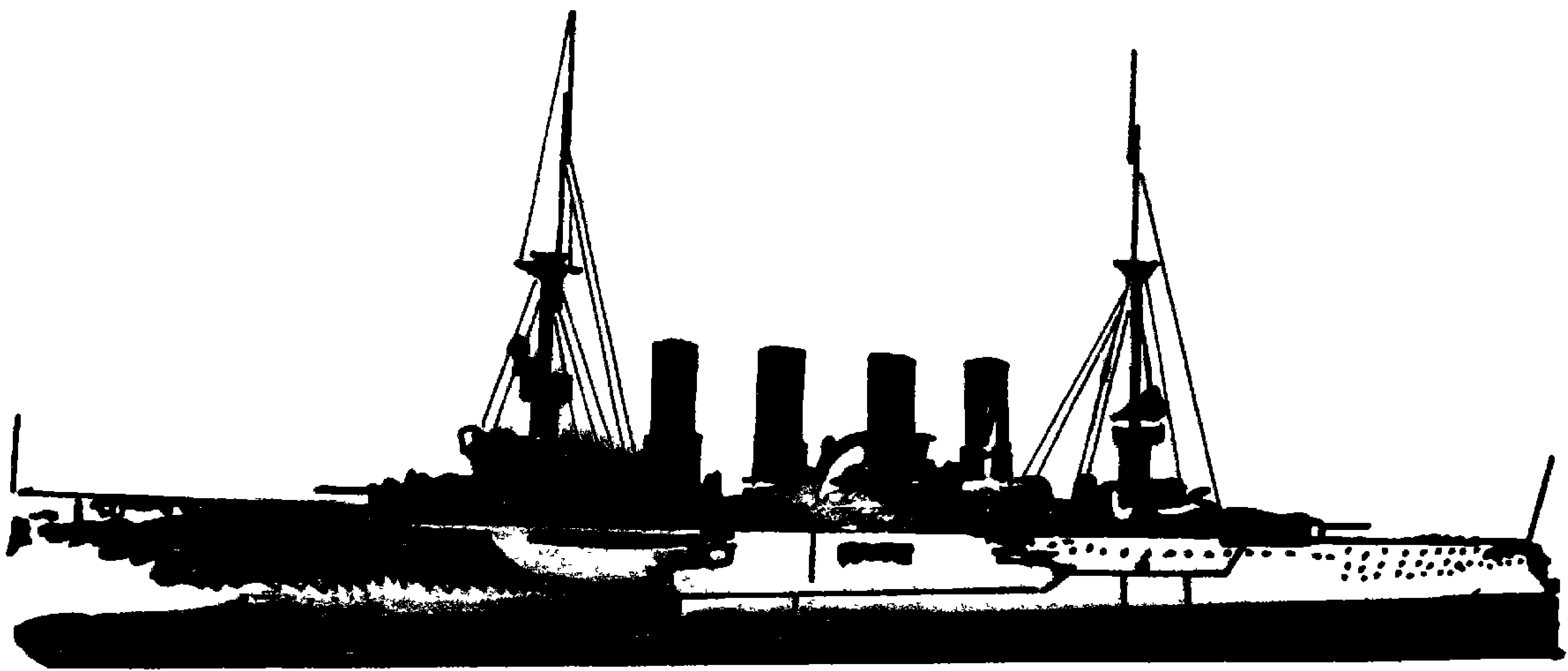
وتتميز البحار بامكانيات لا حدود لها لاستيعاب أكبر حركة نقل دون أى قيد على وسيلة النقل أو حجم محمولها أو نوعيته ، . فأعالى البحار ملك مشاع للجميع وطريق اتصال ليس بحاجة إلى رصف أو صيانة أو إصلاح ،تبحر فوق صفحتها السفن ما شاءت لها سلامتها أن تسلكه من مسارات لا سلطان لأحد عليها إلا قوانين الملاحة والنقل والتأمين لذلك فإن السفن تعد أرخص وسيلة نقل فى العالم .

وقد وصف العرب المسلمين البحر ـ عندما تعاملوا معه أول مرة على ضفاف البحر المتوسط ـ على لسان عمرو بن العاص فى رسالته للخليفة عمر بن الخطاب : " أنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ،ليس الا السماء والماء ،إن ركد أحزن القلوب وان ثار أزاغ العقول يزداد اليقين فيه قلة والشك كثرة ،هم فيه كدود على عود ،إن مال غرق وان نجا برق " . بينما قال فيه السير " والترراليى " ـ بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا ـ " من يسيطر على البحر يسيطر على التجارة ،والذى يسيطر على التجارة يسيطر على ثروات العالم وبالتالى يسود العالم ذاته".

هذا ويمكن التعامل مع البحار والمحيطات على أساس أنها طريق سهل ميسور للاتصال واما بأعتبارها عائقا يمثل عمقا دفاعيا كبيرا فى وجه الغزو أو العدوان ، .. فقد اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية ـ فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ـ من المحيطين الأطلسى والهادى درعا اتقت به أراضيها من ويلات الحربين . وقد يبدو ـ نتيجة للتقدم الكبير فى سرعة الطائرات والصواريخ ـ أن عاملى الوقت والمسافة يكادا ينعدمان وبالتالى فان قيمة البحار " كعمق دفاعى " فى طريقها للزوال . والحقيقة ان المخترعات الالكترونية الحديثة والأسلحة المضادة أتاحت لهذه المساحات الواسعة من المياه المكشوفة أن تعمل " كعمق انذارى " من الطراز الأول فضلا عن عمقها الدفاعى التقليدى .

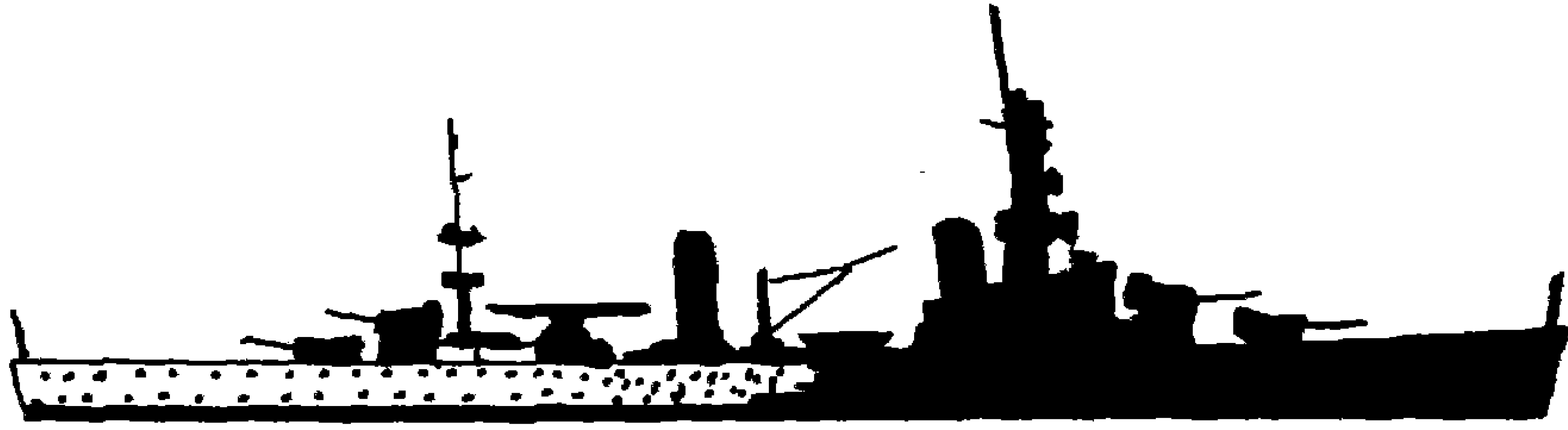




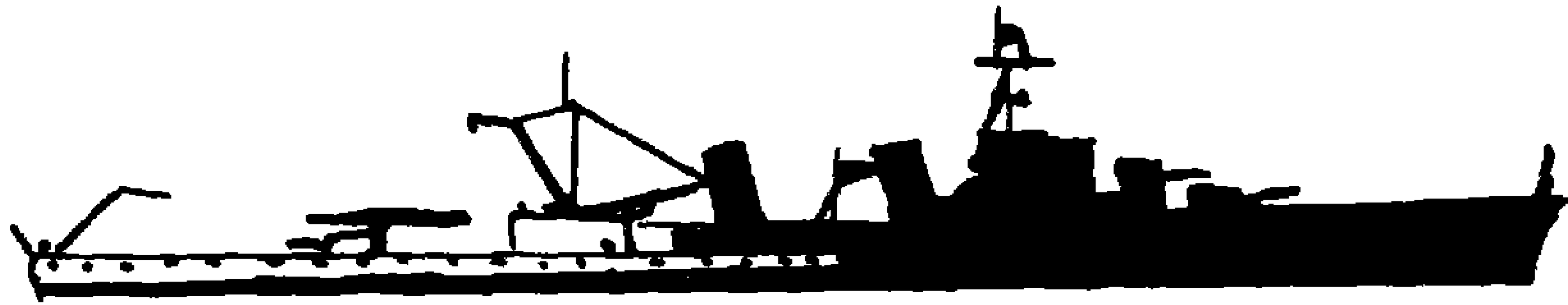


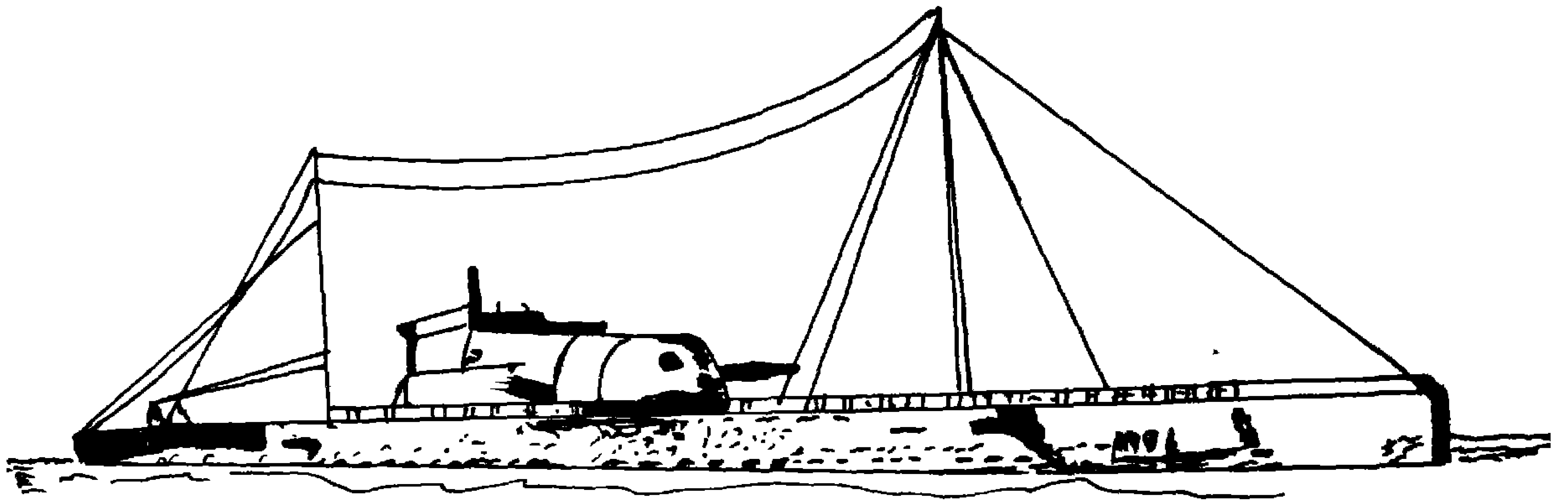
نماذج من سفن الحرب العالمية الأولى

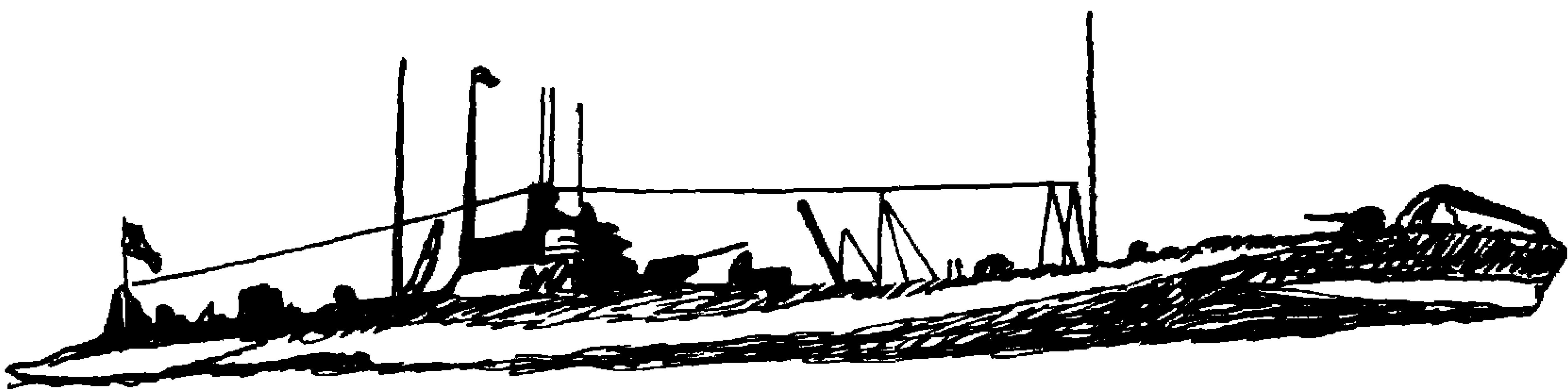




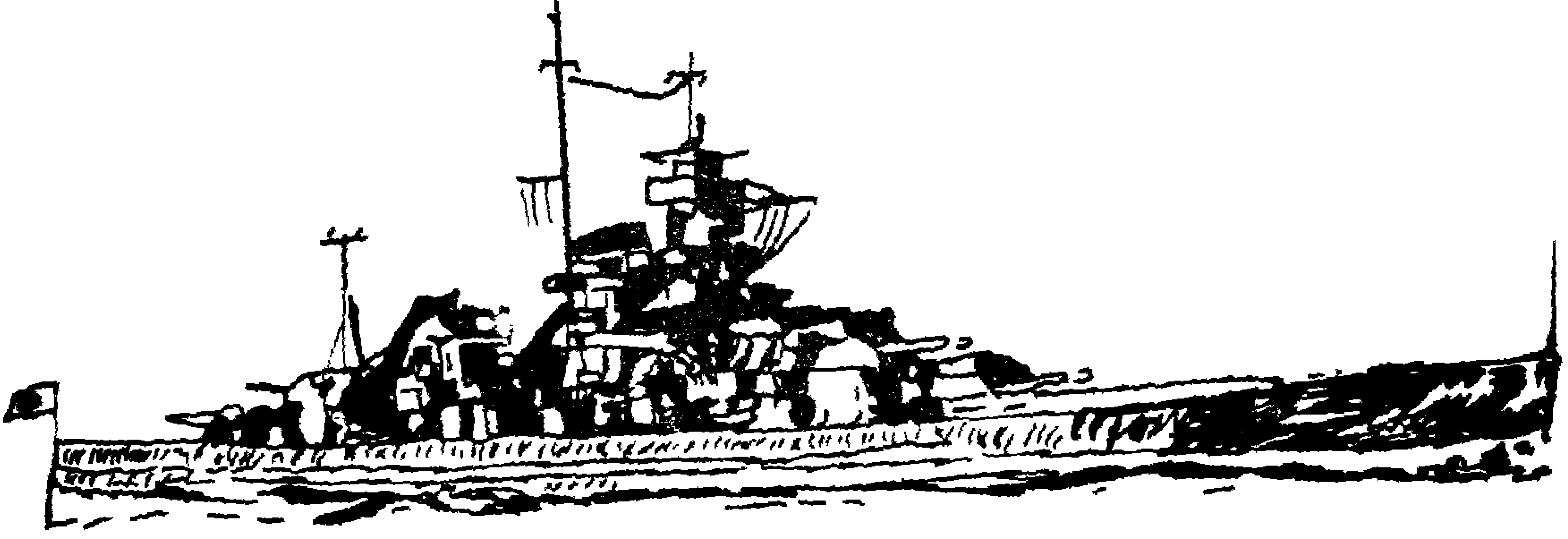


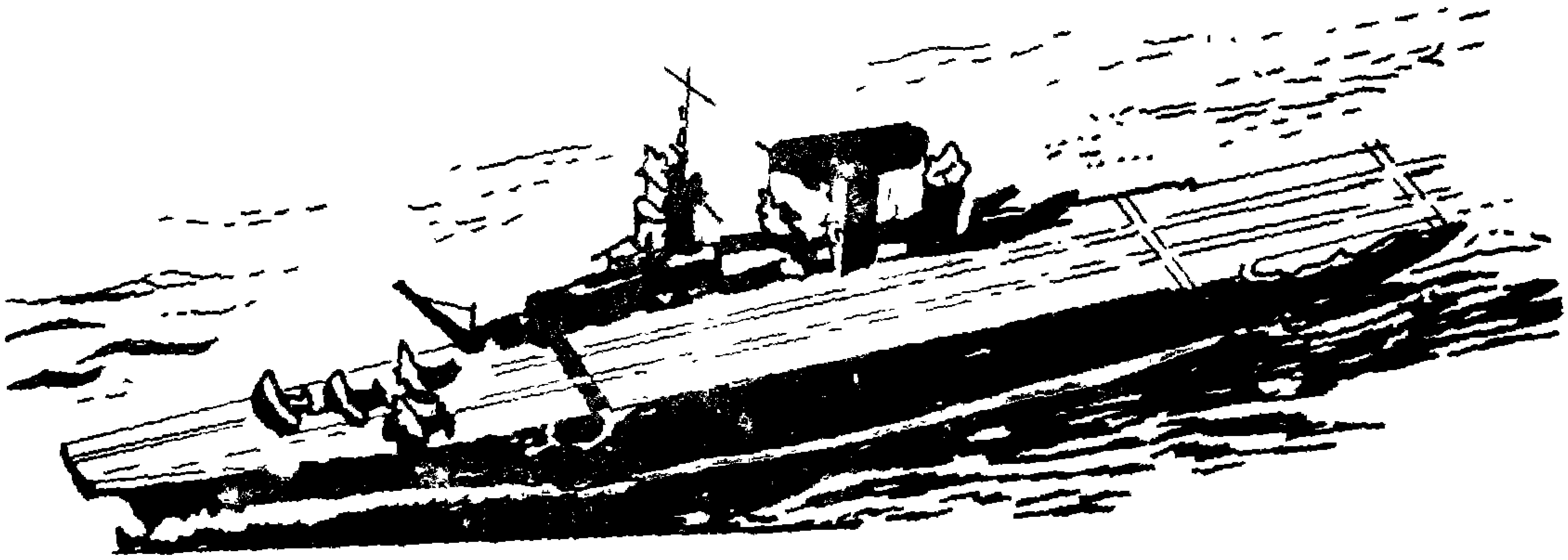


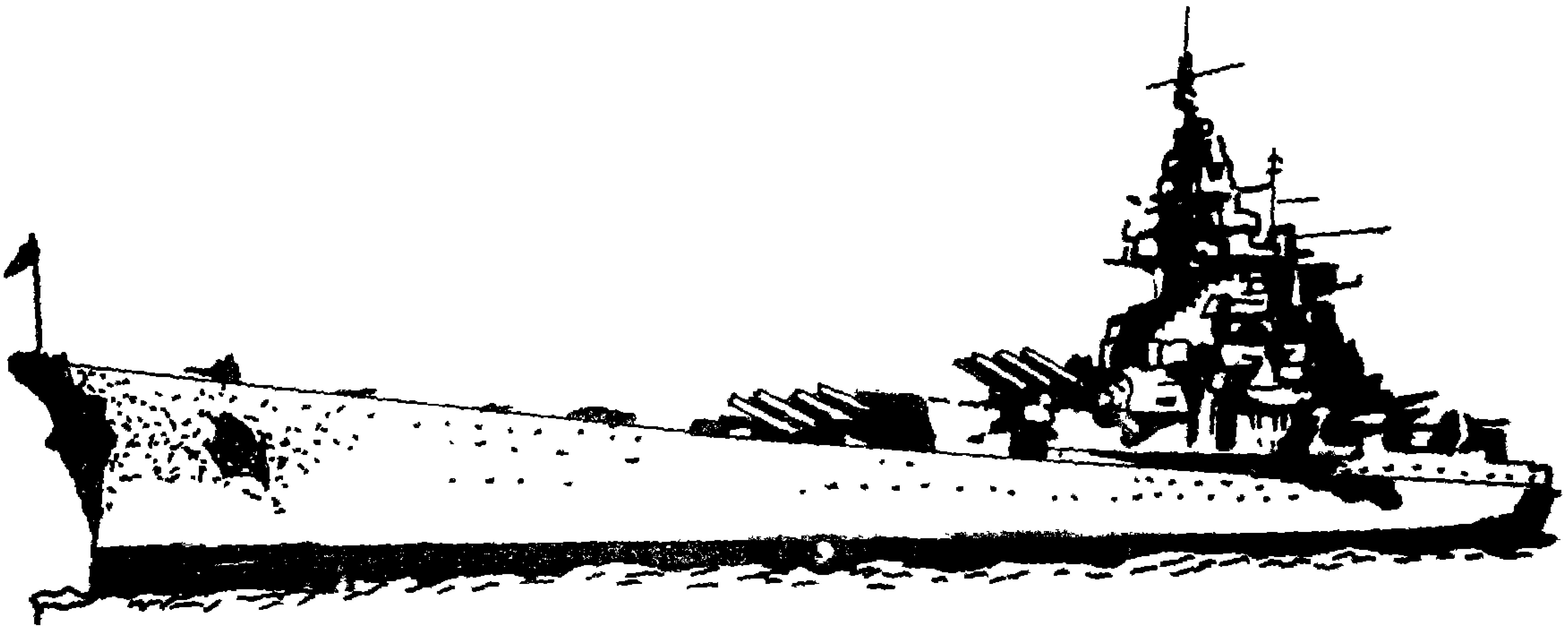




نماذج من سفن الحرب العالمية الثانية







نماذج من سفن الحرب العالمية الثانية

ومن ناحية أخرى ،فمياه أعالى البحار ـ كمسرح من مسارح الحرب ـ لا يمكن " احتلالها " أو " التشبث " بها بالشكل الذى تتم به فى العمليات البرية ،لذلك يسعى " السلاح البحرى " الى فرض " سيادة " تؤدى الى حرمان أحد أطراف النزاع من حرية استخدام البحار بينما يتمتع الطرف الآخر بهذه الحرية وهذا هو المغزى الحقيقى للحرب البحرية .

أدوات الحرب البحرية وموارد ها

الحرب البحرية هى حرب موارد وصمود نظرا لأنها تستهدف ـ فى المقام الأول ـ القضاء على سلاح الخصم البحرى وشل حركة سفنه التجارية ،وكلا النوعين من السفن ـ حربية أو تجارية ـ يستغرق بنائها وقتا طويلا فضلا عن تكلفة بنائها الباهظه .
فالمدمرة الحديثه ـ على سبيل المثال ـ يستغرق بنائها ثلاث سنوات ويتكلف نحو ١٠٠ مليون دولار ،على حين يستغرق بناء سفينه تجارية متوسطة الحمولة ٢٠ ألف طن مثلا ـ قرابة ١٨ شهرا ويتكلف بنائها ١٥ مليون دولار تقريبا ،. أى أن غرق ١٠ مدمرات و ٢٠ سفينه تجارية أثناء الحرب يعنى خسارة للدولة مقدارها ١٣٠٠ مليون دولار ومطلوب ـ لتعويض هذه الخسارة ـ تدبير : أولا مبلغ مماثل ،ثانيا نصف مليون طن من الحديد والصلب ،ثالثا ألفين من رجال الأسطول المدربين وثلاثمائه من رجال البحرية التجارية (اذا نحن اعتبرنا أن نسبة الخسائر فى الأرواح لا تتعدى ٥٠ ٪ من طاقم السفينه) ،هذا فضلا عن تشغيل ترسانات السفن والمصانع بكامل طاقتها لمدة سنتين على الأقل .

واذا كانت الوظيفة الأساسية للسلاح البحرى هى القضاء على سلاح الخصم البحرى وشل حركة سفنه التجارية وبالتالى تخريب اقتصاده ،فهذا لا يعنى أن الحرب البحرية قاصره على معارك تصادمية بين أساطيل الخصوم وانما هى مجموعة من العمليات لكل منها طابعا مميزا استمدته إما من نوع الأداة الرئيسية المستخدمة مثل " عمليات الغواصات " أو نوع السلاح المستخدم مثل " عمليات الألغام " واما بالغاية المستهدفة كعمليات " الحصار " وعمليات " حماية القوافل " و " العمليات البرمائية " . وليس المقصود أن كلا من هذه العمليات هو شكل مستقل عن الأشكال الأخرى ،فقد تكون

عمليات الغواصات ـ مثلا ـ جزءا من حرب شاملة موجهة ضد اقتصاد الخصم أو جزءا من " استراتيجية " حصار الخصم حيث تلعب السفن الحربية والطائرات والألغام أدوارها التقليدية جنبا الى جنب مع الغواصات . ومن ناحية أخرى فقد تكون " عمليات الحصار " مقدمه لعملية غزو، أو العكس فقد تكون " العمليات البرمائية " هى أحدى أجزاء " تحويط " الخصم" أو " عزله " بغرض حصاره . . وهكذا . والأمثلة على ذلك كثيره، فقد استخدمت ألمانيا ـ فى الحرب العالمية الثانيه ـ كل ماكان متاحا لها من سفن حربية وسفن تجارية مسلحة وغواصات وطائرات وألغام فى حصارها للجزيره البريطانيه . . فأحاطت مياه الجزيره بحقول الألغام، وشنت طائراتها هجمات موفقة على موانى الجزيره وعلى حركة النقل الساحلى بينما أطلقت لغواصاتها العنان لمهاجمة خطوط النقل والمواصلات عبر شمال المحيط الأطلسى فى الوقت الذى أخذت فيه سفن السطح تهاجم البواخر التجارية فى جنوب المحيط. (١) ومن ناحية أخرى قام الحلفاء بسلسلة من العمليات البرمائية على شمال أفريقيا ثم جزيرة صقلية ثم الأطراف الجنوبية والجنوبية غربية من ساحل ايطاليا مستهدفين حصار القوات الألمانية فى وسط أوروبا الى أن قاموا بالغزو الكبير على ساحل " نورماندى " الفرنسى الذى فتح الطريق أمام قوات الحلفاء لهزيمة ألمانيا .

ومما لا شك فيه أن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى أحرزته أجهزة ووسائل الأتصال وأسلحة الحرب والقوى المحركة ،فرض نفسه على الحرب البحرية وأحدث تغييرات جوهرية فى أدواتها وأسلحتها ،ومع ذلك فمن المتوقع أن تظل أشكال

---

(١) فقد الحلفاء أبان الحرب العالمية الثانيه ٥١٥٠ باخرة تجارية قيمة حمولاتها ٢١٫٦ مليون طن ،منها : ١٫٤ مليون طن (٥٣٤ باخره) بفعل الالغام، ٢٫٩٨ مليون طن (٨٢٠ باخره) بفعل الطائرات، ١٤٫٧ مليون طن (٢٨٢٨ باخره) بفعل الغواصات، ١٫٨١ مليون طن (٤٣٧ باخره) بفعل السفن الحربية والسفن التجارية المسلحه والباقى بفعل سائر أدوات الحرب والحوادث .
(عن كتاب : "The War at Sea Roskill , Vol. 3 Appendix R

العمليات البحرية محتفظة بملامحها الأساسية . ومن المتعذر الجزم بما ستكون عليه صورة الصراع في البحر في أي حرب مقبلة نظرا لأن هذه المنجزات العلميه والتكنولوجية - ولله الحمد - لم توضع موضع الاختبار العلمي بعد . ولكن بالامكان تصور السمات الرئيسية لمثل هذا الصراع على ضوء المناورات البحرية التي تقوم بها قوات الدول الكبرى وقوات الأحلاف العالمية مثل " الناتو " و " سيياتو " و " وارسو " وعلى ضوء القصف الصاروخي الذى قامت به الزوارق المصرية وأغرقت به المدمرة الأسرائيلية "إيلات" في ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ بأعتباره أول اشتباك قتالى فعلى - يشهده العالم - بأسلحة الحرب الحديثه . أما المؤشر الثاني الذى يعطينا تصورا أقرب مايكون لسمات الحرب البحرية المقبلة ،فهو التعديلات الجذرية التى أدخلتها القوى البحرية الكبرى - خلال العشرين سنة الماضية - على تشكيل أساطيلها ونوعية وحداتها .

اختفت البارجة (Battleship) (١) ومثيلاتها من سفن " نيران المدفعية الثقيلة " لتحل محلها وحدات أقل حجما وأكثر سرعة تنتج كمية نيران أكبر ذات قوة تدميرية أشد أتاحتها لها المحركات التى تعمل بالطاقة النووية والقذائف بعيدة المدى ورؤوس الحرب الفتاكة وأجهزة التوجيه والتصويب الفائقة الدقة .فظهرت طرازات من " الطرادات " (Cruisers) و " المدمرات " (Destroyers) بعضها يعمل بمحركات نووية والبعض يعمل بمحركات الديزل ،إلا أن غالبيتها أصبح مزودا بقذائف صاروخية متوسطة وبعيدة المدى للأشتباك السطحى (ضد السفن ولقصف الساحل) وضد الطائرات وضد الغواصات . ولم يقف تطوير السفن الحربية

---

(١) كانت البارجتين اليابانيتين العملاقتين " ياماتو " و " موساس " هما أكبر وأقوى سفن حربية شهدها العالم اذ كانت حمولة كل منهما ٦٤ ألف طن وسرعتها ٢٧ر٧ عقده وتحمل ٩ مدافع عيار ١٨ر١ بوصه ، ٦ مدافع عيار ٦ر١ بوصه و ٧ طائرات . وجاء أغراق " ياماتو " بطائرات الحاملات الأمريكية في موقعة " خليج ليت " (اكتوبر سنه ١٩٤٤) بمثابة حكم بالاعدام على البوارج . ولعل آخر ماشهده العالم من نشاط لمثل هذه البوارج العملاقة هي العمليات التى قامت بها البارجة الأمريكية " ايوا " في الحرب الكورية والتى على أثرها أحيلت هى وشقيقاتها الثلاث " ميسورى " و " وسكونس " و " نيوجرسى " الى التقاعد توطئه لتخريدها . وتبلغ حمولة الواحدة ٤٥ ألف طن وسرعتها ٣٣ عقده وتحمل ٩ مدافع من عيار ١٦ بوصة ، ٢٠ مدفعا عيار ٥ بوصات، ١٣٠ مدفعا مضاد للطائرات ويبلغ عدد طاقمها نحو ٢٧٠٠ فردا .

عند هذا الحد بل تجاوزه الى تصميم وانتاج وحدات أصغر حجما وأخف وزنا تحمل نفس نوعيات أسلحة الطرادات والمدمرات الحديثة ، فأكتسبت الأساطيل قوة ضاربة جديدة تتميز بالسرعة الفائقة وخفة المناورة لم تكن متاحة لها من قبل .

ولعل أبرز هذه المؤشرات على الاطلاق ،هو " الغواصة " الحديثة واقبال القوتين العظميين ـ الأتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية ـ على بناء المزيد منها ومواصلة تطويرها ،حتى أصبح لكل منها أسطولا من الغواصات قائما بذاته بأعتباره " قوة ضاربة استراتيجية " من الطراز الأول تكاد تستقل عن التشكيلات المعروفة " للسلاح البحرى " . فالغواصة الحديثة أصبحت :ـ

١ـ تعمل بمحركات الطاقة النووية التى ليست بحاجة لأعادة الشحن الا بعد مضى ١٠ سنوات على الأقل والتى اكسبتها ـ بجانب طول المدى ـ سرعات عالية وصلت الى ٣٠ عقدة تحت سطح البحر .
٢ـ تحمل بالاضافة الى الطوربيدات الصاروخية ،من ١٦ الى ٢٤ صاروخا موجها بعيد المدى يصل الى ٦٠٠٠ ميل يمكن اطلاقها من وضع الغطس .
٣ـ الصواريخ مزودة برؤوس حرب نووية أى أن الغواصة الواحدة بوسعها توجيه ضربة نووية الى حتى ٢٤ هدفا فى فترة زمنية لاتتجاوز ٣٠ دقيقة .. ونظرة الى معدل نمو أسطول الغواصات الأمريكى وأسطول الغواصات السوفيتى النوويين فيما بين عامى ١٩٦٤ و١٩٧٧ (١) ، فيها الكفاية للدلالة على أبرز المؤشرات لصورة الحرب البحرية المقبلة :ـ

السنة	الولايات المتحدة	الاتحاد السوفيتي
١٩٦٤	٣٣	٢٢
١٩٧٧	٦٨	٨٨

والجدير بالذكر أن انتاج غواصة واحدة من هذا الطراز يتكلف مابين ٧٠٠ مليون و ١٢٠٠ مليون دولار،وأن الولايات المتحدة الأمريكية بصدد تنمية قوتها الضاربة الأستراتيجية بثلاثة عشر غواصة نووية بكل منها ٢٤ أنبوبة صواريخ بعيدة المدى

(١) نشره Jane's Fighting Ships , 1977/1978

(٦٠٠٠ ميل على الأقل) كل صاروخ يحمل ١٠ قذائف نووية موجهة الى عشرة أهداف منفصلة ،بمعنى أن هذه القوة سيكون بوسعها القيام بهجوم ذرى على ٣١٢٠ هدفا منفصلا (١). وهذه المجموعة من الغواصات بالاضافة لما تملكه البحرية الأمريكية حاليا من غواصات مشابهه سيجعل من أسطول الغواصات الأمريكى قوة نووية تعادل نحو ٥٥٪ من اجمالى القوة النووية الأستراتيجية الأمريكية (٢). ومن أخرى ،فالولايات المتحدة تملك أيضا حوالى ٩٠ غواصة نووية مزودة بصواريخ وطوربيدات مضادة للغواصات بجانب طرازات أخرى للحراسة والدوريات الساحليه . وباعتبار أن الولايات المتحدة الأمريكية والأتحاد السوفيتى هما الدولتين العظميين المتصارعتين ،فإن هذا الأستعراض لحجم وقوة أسطوليهما من الغواصات ومعدلات نموها بالمقارنة بسائر الوحدات البحرية (٣) - فيما عدا حاملات الطائرات - لخير دليل على أن الغواصات أصبحت هى القوة الضاربة الرئيسية سواء أكانت الضربة على الصعيد الأستراتيجى أو على المستوى التعبوى التاكتيكى .

هذا ويمكن القول بأن التقدم الذى أحرزته الغواصات لا يضارعه سوى التقدم الذى أحرزته الطائرات . فقد أصبحت الطائرات البحرية سواء ما يعمل منها من الحاملات أو من قواعد أرضية ،فائقة السرعة ومزودة بجميع أنواع القذائف الصاروخية للقتال الجوى والسطحى والمضاد للغواصات،بل أن بعضها يحمل رؤوس نوويه لمهاجمة الأهداف الأرضية والساحلية وتجمعات السفن .وانطلاقا من تصور كل من القوتين العظميين لشكل أى صراع قد ينشب بينهما وأهمية عنصر " الجو" فى هذا

---

(١) عن نفس المرجع السابق ،نشره عام ١٩٧٧/١٩٧٨.

(٢) عن نفس المرجع السابق .

(٣) معدل النمو أو التناقص فى عدد الطرادات والمدمرات الصاروخية والنووية فى الأسطولين الأمريكى والسوفيتى فيما بين عامى ١٩٦٤ و ١٩٧٧ كالآتى :-

السنة	الطرادات	المدمرات والفرقاطات
١٩٦٤	٢٩ أمريكية	٢١٨ أمريكية
	٢٠ سوفيتيه	٢١٦ سوفيتيه
١٩٧٧	٢٧ أمريكية	١٢٩ أمريكية
	٣٧ سوفيتيه	١٩٥ سوفيتيه

الصراع، وجهت البحرية الأمريكية إهتماما أكثر بكثير من اهتمام الأتحاد السوفيتي " بحاملات الطائرات " ، فمقابل ١٩ حاملة أمريكية، أثنتين منها نوويتين، لم يتعدى مايملكه الأتحاد السوفيتي أربع حاملات للطائرات العمودية . والجدير بالملاحظة أن جانبا كبيرا من طائرات الحاملات الأمريكية مخصص للعمليات المضادة للغواصات، وهذا مؤشر آخر للدلالة على السمات الرئيسية للحرب البحرية الحديثة . وحاملة الطائرات النووية من الطرازات العاملة حاليا تبلغ حمولتها نحو ٩٠ ألف طن وتصل سرعتها الى حوالى ٣٥ عقدة وتحمل أكثر من ٩٠ طائرة ويتكلف بنائها قرابة ٢٠٠٠ مليون دولار بالاضافة الى ١٢٠٠ مليون دولار أخرى للطائرات (١). وتتميز الحاملة النووية بطول مدى عملها الذى يقدر بحوالى ١٣ سنة أو مليون ميل بحرى دون الحاجة الى إعادة شحن محطة توليد الطاقة النووية بها (٢). ورغم كل ماقدمته حاملة الطائرات من إمكانات وقدرات فعالة للأساطيل والعمليات البحرية ورغم كل تدابير الوقاية والحماية التى تحاط بها، إلا أن اضطراد نمو حجمها (من ٧٠ ألف طن فى عام ١٩٦١ الى ٩١ ألف طن فى عام ١٩٧٧ (٣) ، جعلها أكثر تعرضا للخطر من أى وقت مضى ، أضف الى ذلك أن ارتفاع تكلفة بنائها وعدد طاقمها الكبير الذى يصل الى حوالى ٦٣٠٠ فردا يجعل من فقدها خسارة فادحة على ميزانية الدولة وللأمة، فما بالنا بأستعواضها ؟ . ولعل ذلك كان أحد الأسباب القوية وراء معارضة الكونجرس الأميركى لمشروع التوسع فى بناء الحاملات النووية الذى تقدمت به البحرية الأمريكية فى مستهل عام ١٩٧٨ .

ومن ناحية أخرى فقد أنتجت ترسانات الدول البحرية عشرات الأنواع من الوحدات البحرية الخفيفة من حاملات الصواريخ متعددة الأغراض ، منها مايجرى على " وسادة هوائية " ومنهاماينزلق على زحافات (هيد روفيل) لتخفيف احتكاك البدن بسطح الماء فيكتسب الزورق سرعات أعلى ، والملاحظ أن غالبية هذه الزوارق مصممة خصيصا للعمل ضد الغواصات .

---

(١) من نشرة " Jane's Fighting Ships " 1977-1978

(٢) عن نفس المرجع .

(٣) الأولى هى حاملة الطائرات " انتربرايز " والثانيه هى حاملة الطائرات " ايزنهاور " التى دخلت الخدمة فى أواخر عام ١٩٧٧ .

كما تضم أساطيل دول العالم البحرية أعدادا كبيرة من سفن التصنت والاستطلاع الالكتروني وسفن العمليات البرمائية ذات التصميمات المتطورة . هذا فضلا عن العديد من السفن المساعدة وسفن الخدمات الأدارية والفنية .

نخلص من ذلك الى أن الاساطيل اكتسبت ـ بصفة عامة ـ مزيدا من المرونة التاكتيكية والتعبوية بالاضافة الى مرونتها الأستراتيجية المعهودة ، هذا فضلا عما هيأته لها المحركات النووية و " القاعدة الادارية العائمة " التى تسير فى ركاب الأسطول من شبه اكتفاء ذاتى للأساطيل . وليس ثمة شك فى أن الغواصة الحديثة أصبحت هى " القوة الضاربة الرئيسية " للأسطول بعد أن حلت محل البارجة والطراد الثقيل وبعد أن ارتفعت مكانتها بفضل قدرتها على اطلاق المقذوفات الصاروخية حاملة الرؤوس النووية وهى غاطسة على أعماق بعيدة تحت سطح الماء تحميها من خطر الأكتشاف قبل لحظة الإطلاق .

ومع كل ما أحرزته أدوات وأسلحة الحرب من تقدم ورغم هذا التحول الكبير فى تشكيل القوة الضاربة البحرية الرئيسية ، فيمكن القول بأن الوظائف الأساسية للأساطيل ظلت كما هى بدون تغيير يذكر . وأكبر دليل على ذلك ، أن الولايات المتحدة الأمريكية والأتحاد السوفيتى ـ بأعتبارهما أقوى القوى النووية فى العالم ـ تستخدمان أساطيلها ، كما تعكسه مناوراتهما البحرية ومناورات أحلافهما ، لأداء نفس المهام التقليدية ولكن بأدوات العصر وأسلحته .

فبعد أن كانت المهمة هى مجرد " تدمير " الهدف أصبح " إبادة " الهدف هى المهمة ، ولم يعد الهدف قاصرا على وحدات بحرية ومواقع ساحلية فحسب ، وانما امتد إلى المراكز الصناعية والتجمعات السكانية داخل عمق أراضى الخصم . وبعد أن كانت " مكافحة الغواصات " هى احدى مهام الأسطول ، أضحت ـ بطبيعة التهديد الذى تشكله الغواصة وأسلحتها الحديثة ـ هى مهمته الأولى .

بمعنى أن ماحدث ـ نتيجة للتقدم العلمي والتكنلوجي في أدوات وأسلحة الحرب البحرية ـ ماهو إلا زيادة إمكانات وقدرات الأسطول الحديث بما يتيح له أداء وظائفه في وقت أقصر وبقوة تدميرية أشد . وبتعبير آخر ،أصبح بالامكان " إبادة " أهداف الخصم البحرية والأرضية والجوية في دقائق معدودات بدلا من ساعات أو أيام طوال ،.. وأصبح بالامكان أيضا الاشتباك مع الخصم على آلاف الأميال أو في أعماق مئات الأمتار تحت سطح البحر ،دون أن تلتقي قوات الجانبين .

وسواء كانت الأسلحة المستخدمة في الحرب البحرية أسلحة نووية أو غير نوويه ، فإن هذه المنجزات والتحولات قد رفعت قيمة عنصري " المفاجأة " و " التركيز " وذلك تفاديا لضربة الخصم المضادة أو على الأقل التخفيف من آثارها مما يعطي ،من جانب آخر ،أهمية خاصة لعنصر " الأمن " .

ومما لا شك فيه أنه صار بالامكان القضاء على أسطول بأكمله " بضربه نوويه " واحدة في حالات خاصة مثل : تجمعه داخل القواعد والموانى ،أو تجمعه على مقربه من شواطئ الخصم في المراحل الأولى لعمليات الأبرار البحرى ،كما يمكن أيضا ابادة قافلة من البواخر التجارية وحراساتها الحربية بضربة نووية واحدة ،.. أى في حالتي " التجمع " و " الثبات " أو " شبه ثبات " ، أما بأعالي البحار وفي أعماقها حيث تتهيأ أمكانية " الانتشار " و " الحركة " فالأمر يختلف . . لذلك تعتبر مياه البحار ملاذا أوفر أمنا للوحدات البحرية ضد التهديد بحرب نووية أو غير نووية . بمعنى أن الحالات التي كانت تهدد الأساطيل الحربية والبواخر التجارية في عصر ماقبل الذرة ظلت هي بدون تغيير في عصر ما بعد الذرة .

معنى هذا أن الوحدات البحرية الحديثة صممت ـ في المقام الأول ـ لأجل حمل ونقل أسلحة الدمار الشامل أقرب مايمكن لأرض الخصم لكي تصل الى أقصى عمق فيها حيث المراكز الصناعية والتجمعات السكانية الكبيره ،أما العمليات البحرية التي تستهدف تدمير حاملات مثل هذه الأسلحة وبالتالي التخلص من تهديدها أو التي تستهدف قطع خطوط المواصلات البحرية أو حمايتها فليست بحاجه لوحدات نووية المحركات ورؤوس نووية باهظة الثمن كي تحقق أغراضها .

وهناك مؤشر آخر له دلالته لما يمكن أن تكون عليه صورة الحرب البحرية الحديثة . فمن الملاحظ أن نسبة كبيرة من الوحدات العاملة بأساطيل الدول المتقدمة والتي تحت البناء مازالت تعمل بمحركات الديزل وليست بالطاقة النووية وأن قذائفها الصاروخية لاتحمل رؤوس نووية : فمن ٢٩ حاملة طائرات - هي كل مايملكه العالم من الحاملات - أثنتين فقط نوويتين ،ومن ٨٩ طرادا لا يتعدى النووى منها خمسة عشر طرادا - كما يوجد أيضا مايربو على ٨٠٠ غواصة غير نووية مقابل نحو ١٥٠ غواصة نووية . أى أن متوسط نسبة الوحدات غير النووية فى الأساطيل التى تملكها هذه الدول تمثل أكثر من ٨٥٪ من اجمالى عدد وحدات هذه الأساطيل . (١)

وهذا يعنى أن الوحدات البحرية غير النووية - طالما أنها أصبحت على قدر كبير من السرعة وقوة النيران وطول المدى - سوف تلعب دورا فعالا فى الحرب الحديثة إما قبل الضربات النووية الأولى أو بعدها . كما أنه يعنى أيضا أن الأساطيل غير النووية ستظل هى الأداة الرئيسية فى الحروب والصراعات المحدودة مثل حرب كوريا وحرب فيتنام والصراع العربى الأسرائيلى سواء تدخلت القوى الكبرى بطريق مباشر أو غير مباشر .

مبادئ الحرب بين النظرية والتطبيق

غنى عن الذكر ،أن المبادئ السابق بحثها ،تنطبق على الحرب البحرية طالما ان استخدامها يستهدف احاطة العمليات البحرية بأكبر قدر من ضمانات النجاح . وهذه المجموعه من المبادئ يجب ألا تعامل على أنها قوانين صماء أو أن حاصل جمعها يعطى النصر،فمفتاح النصر يكمن فى تكتيك الجمع بينها أو بعضها فى توازن خال من كل قيد الا مايقضى به " الالتزام بتحقيق الهدف " وهو أمر يختلف بأختلاف المواقف والأهداف المراد تحقيقها ،بل أنه يختلف من أمة لأخرى بحسب العقائد المتوارثه وخبرات الحروب التى خاضتها . لذلك نجد أن الكاتب البحرى البريطانى

---

(١) هذه الدول هى الولايات المتحدة الأمريكية ،والاتحاد السوفيتى ،والمملكة المتحدة ،وفرنسا ،وايطاليا ،واليابان .
عن نشرة " Jane's Fighting Ships " 1977/ 1978

" راسل جرينفل " (Russel Grenfell) يختصر هذه المبادئ الى خمسة فقط : إختيار الهدف ، التفوق عند النقطة الفاصلة ، السرعة ، المفاجأة ، والحيطه ، وهو يطلق عليها أسم " سنن الحرب " (Precepts of War) ويقول أن استخدام هذه السنن بتوازن هو " سر النصر فى الحروب " . (١)

ولكن ـ وبغض النظر عن عدد المبادئ ومسمياتها ـ فهناك بعض العوامل يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند التعامل مع هذه المبادئ والتى يأتى فى مقدمتها عامل " الوقت والمسافة " . وقد يرى البعض أن هذا العامل فى طريقة الى الزوال نتيجة مباشرة للسرعة الفائقة التى أصبحت عليها و سائط وأسلحة الحرب الحديثة ـ كالصاروخ والطائرة ـ ومع ذلك فما زال الوقت والمسافة يحملان نفس الأهمية نظرا لأن هدف الخصوم تطور أيضا ، وأصبح : تدمير قواعد هذه الوسائط وحاملاتها (الغواصات مثلا) وهى فى مرابضها أو فى مناطق " الاطلاق " إما قبل إطلاقها أو بعدها مباشرة . وعادة ما يفصل بين قواعد ومناطق الخصوم آلاف الأميال من اليابسة والمياه ،. ورغم أن الوسائط الحديثة بمقدورها قطع هذه المسافات فى دقائق معدودات إلا أن هذه الدقائق تحمل نفس الأهمية التى كانت للساعات الطوال فيما مضى نظرا لأن الخصم يمتلك وسائط مماثلة بوسعها الرد بنفس السرعة ان لم يكن أسرع وبذلك أصبح حساب عامل الوقت والمسافة أكثر تعقيدا مع احتفاظه بقيمته واعتباراته . وحتى لو أننا سلمنا جدلا بعكس ذلك ، فسيظل عامل الوقت والمسافة يلعب دوره بعد مضى الدقائق القليلة التى ستستغرقها الضربة الأولى والضربة المضادة وتعود المسارح البحرية لطبيعتها حيث يبدأ كل طرف من الأطراف المتحاربة فى البحث عن سفن وغواصات الطرف الآخر بغرض تدميرها . ومن الطبيعى أن التاكتيك الحديث للبحث والتدمير و التاكتيكات المضاده ستكسب عامل الوقت والمسافة أهمية خاصة نظرا لما تحمله كل دقيقه من احتمالات الخطر وما قد يترتب عليها من عواقب مدمرة .

---

(١) كتاب " The Art of the Admiral ", pp. 164 - 201

واذن فلا يمكن إغفال قيمة عامل الوقت والمسافة فى التخطيط لأى عملية . فقد يؤدى اتساع المسافة الى حرمان قواتنا من عنصر " المفاجأة " مما نضطر معه للتغاضى عنه فى سبيل الاستفادة بمبدأ " التركيز " إذا كان تحقيق الهدف يتطلب توجيه ضربه مركزه قوية قد تشترك فيها السفن والطائرات ، . أو قد نضطر ـ بسبب طول المسافة ـ الى تغليب " الأمن " على " العمليات الهجومية " طالما أن هذا يهيىء لنا ـ فى النهاية ـ أنسب الظروف والأوضاع لتحقيق الهدف . . وهكذا .

واذا كان عامل الوقت والمسافة ـ قديما وحديثا ـ يحمل بين طياته كل مشاعر الترقب والخوف والرهبة ،فإن " الروح المعنوية " و " الانضباط " هما الأعنة التى تكبح جماح هذه المشاعر وتمهد الطريق الى النصر. والسبيل الى اكتساب هاتين الصفتين ينبع أساسا من حسن التدريب والثقة فى القيادة وفى السلاح والايمان بعدالة القضية التى نحارب من أجلها . ومن ناحية أخرى ـ أثناء سير الحرب ـ فان سيطرة القائد على مشاعر الخوف والرهبة بين قواته،وقيادتهم الى نصر تلو نصر ،يؤدى الى تلاشى مثل هذه المشاعر أو ذوبانها فى روعة النصر وبذلك ترتفع روحهم المعنوية ويغدون أكثر استعدادا للبذل وأكثر استجابة للأمر ،وهى عوامل لاغنى لمبادىء الحرب عنها . ولعل أقرب مثل لذلك هو الحالة التى آلت إليها قواتنا المسلحة ـ بل الأمة كلها ـ عقب نجيعة " يونيه ١٩٦٧ " من انحلال وانحطاط لمعنوياتها وفقدانها للثقة فى قيادتها والتى امتدت الى فقدان الثقة فى نفسها وفى سلاحها وخيل للعالم بأسره أن هذه هى نهاية مصر . ولكن الذى حدث فيما بين سنة الفجيعة وسنة النصر لم يكن معجزة ولا هو المستحيل ،وانما ببساطة كان استثمارا جيدا لثروة مكنوزة فى الانسان المصرى .. فالروح المعنوية العالية تجعل القوات أكثر جرأة واقداما وأقل تعرضا لآثار الحرب النفسية والدعايات المعادية ،على حين يضع " اضباط " القوات تحت يد القائد قوة متماسكة صلدة تكفل له القدرة على سرعة التصدى لكافة احتمالات الموقف،وتحت كل ظروف المعركة .

وهناك عوامل طبيعية لا دخل لارادة الانسان فيها ،مثل ظروف الأحوال الجوية والبحرية والفلكية ،ذات تأثير قوى على اختيار مايلائمها من مبادىء الحرب وعلى سير

العمليات ككل . فساعات الليل وشروق وغروب القمر وتوقيتات المد والجزر ومقداره وتضاريس الساحل وطبيعة الشواطئ، كلها من العوامل التي تدخل في حساب العمليات البرمائية والتي قد تقتضي التنازل عن أحد المبادئ الهامة مثل " الأمن " في سبيل تحقيق " المفاجأة " أو العكس . أو قد تستغل أحوال الطقس الردئ في التستر " ومباغتة العدو " بما لم يتوقعه، فعلى سبيل المثال، تكرر خروج مجموعات سفن ألمانيا الكبرى (البوارج، بوارج الجيب، الطرادات الثقيلة) الى المحيط الأطلسي عبر منافذ بحر الشمال - خلال الحرب العالمية الثانية - في أسوأ حالات الطقس والعواصف وأردأ حالات الرؤيا - وظلت القيادة البريطانية تعتقد أن هذا مجرد مصادفة الى أن وقعت بين أيديها - والحرب تشرف على نهايتها - بعض الوثائق الألمانية عن التنبؤات فأكتشفت أن خروج هذه المجموعات كان متعمدا ومخططا له أن يتم تحت ستار مثل هذه الظروف الجوية البحرية الرديئة لتعمية قوات البحرية البريطانية القائمة بحراسة هذه المنافذ . وقد نجحت خمس محاولات من ستة في استغلال العوامل الجو بحرية في " تأمين " خروجها الى المحيط الأطلسي وتحقيق " هدفها " وهو مهاجمة خطوط النقل والمواصلات البحرية البريطانية .

ولكي تؤتي هذه المبادئ والعوامل ثمارها، فلابد أن يتوافر للقوات عنصري " الاتصال " و " الانذار "، فما من خطة عمليات إلا وتتضمن خطة منفصلة للمواصلات والانذار . فالمواصلات هي أفضل سبيل للسيطره على العمليات البحرية وادارتها وتبادل المعلومات والتعرف على تطورات الموقف . وقد يما كانت وسائل الاتصال تنحصر في الوسائل المنظورة قريبة المدى أو عن طريق العائمات الصغيرة التي تحمل الرسائل بين القيادات والقواعد، أما الآن فقد تعددت وسائل وأنواع وسائل الاتصال وأمتد مداها ليغطي آلاف الأميال في لحظات قصار وأصبحت شاشات الرادار تعكس صورا واضحه لمسارح الحرب مما سهل أمر السيطرة على العمليات والتنسيق بين المسارح المختلفه بل وسرعة اتخاذ القرارات وسرعة نقلها . أما الانذار - وهو آخر مراحل الأستطلاع - فلا ترجع أهميته لكونه يدرأ عن القوات خطر المفاجأة فحسب، بل لأنه أيضا يعطي للقيادات والوحدات صورة واضحة للموقف بكل ما يحيط به من ظروف وأوضاع تتيح فرصا أفضل لاعادة تقدير الموقف والتنبوء بما يمكن أن يؤول اليه وبالتالي اتخاذ القرار السديد في الوقت المناسب .

واذا نحن خرجنا من دائرة مسارح الحرب ومبادىء الحرب ـ مؤقتا ـ الى الآفاق الخارجية ، فسنواجه عاملين من أهم العوامل المؤثرة فى الحرب منذ بداية التخطيط لها هما : " التدخلات السياسية " و " القوانين الدولية " ، وهما عاملين لا يمكن اغفالهما . فمادامت الحرب هى فى النهاية امتداد لسياسة الدولة بأستخدام القوة المسلحه ، فلا يمكن عزل الحرب ـ حتى ولو كانت إقليمية أو محدودة ـ عن التحركات السياسية والقوانين الدولية . فحرب " فيتنام" و " كوريا" و " فلسطين " و " اريتريا" و " الصومال " وغيرها أثارت ردود فعل عالمية ترتب عليها تدخلات سياسية وتهديدات عسكرية من جانب دول ليست طرفا مباشرا فى هذه الحروب . بل إن حركات التحرير الوطنيه تلقى من الاهتمام العالمى ما قد يدعو للتدخل العسكرى ، فمع أن تأميم شركة قناة السويس ـ فى يوليو سنة ١٩٥٦ ـ هو من أعمال السيادة المشروعة ، الا أن هذا لم يحل دون اتخاذ بريطانيا وفرنسا من التأميم ذريعة للاشتراك مع اسرائيل فى العدوان على مصر بغرض إسقاط جمال عبد الناصر والتخلص من نظام الحكم الوطنى وتخريب سياسة عدم الانحياز التى انتهجها » . ومثال آخر مازال قريبا للأذهان ، عندما قامت الثورة بالعراق صبيحة يوم ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ تقدم " كميل شمعون" رئيس جمهورية لبنان حينئذ ـ فى ظهر نفس اليوم ـ بطلب المعونة العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية بحجة " تأمين سلامة لبنان وضمان استقلالها " ، فسارعت أمريكا ـ حفاظا على مصالحها ـ بتلبيه الطلب ، ونزلت قوات مشاة الأسطول السادس على سواحل جنوب لبنان بعد أقل من ثمان وأربعين ساعة من طلب المعونة . وهذا ـ من جانب آخر ـ دليل على خفة حركة ومرونة القوة البحرية ودبلوماسية استخدامها فى النزاعات السياسية ، حيث تمت العملية دون أن تثير أى أزمة عن انتهاك " المجال الجوى " أو " المياه الأقليمية " أو أراضى مملوكة " لأى دولة بالمنطقة أو حتى قريبة منها . ومن ناحية أخرى ، أمكن للقوة البحرية ـ وهى فى هذه الحالة الأسطول السادس الأمريكى بالبحر المتوسط ـ تكييف شكلها وحجمها بالقدر والوضع المناسبين لأبعاد الموقف دون إثارة الجيران أو الدخول فى جدل دبلوماسى واحتجاجات بروتوكولية .

ونعود لأصل الموضوع والتدخلات السياسية ، لنجد أنه بجانب ضمانات مبادىء الحرب فأن الدولة بحاجة ـ عادة ـ لتأييد أو ضمان سياسى خارجى أو على الأقل

عدم تدخل طرف ثالث فيما اعتزمته من تحول عن استخدام السياسة الى استخدام القوة المسلحة . والتحرك الدبلوماسي والسياسي المصاحب للحرب هو من ألزم الخدمات التي تقدمها القيادة السياسية للقيادة العسكرية لاسيما للأسطول الحربي لما يمكن أن يحصل عليه من قواعد أو تسهيلات في الموانى الأجنبية القريبة من مسارح العمليات المرتقبة ، ولعل التسهيلات التي تلقاها الأسطول المصرى في موانىء بورسودان وعدن وبربرة أثناء حصاره لاسرائيل عند باب المندب في حرب أكتوبر ١٩٧٣ هو أقرب مثال لما يمكن أن تلعبه السياسة على مسرح الحرب ، . لذا يلزم أن يكون بين القيادتين السياسية والعسكرية لغة مشتركة وحوار هادف جلي مبني على الثقة المتبادلة بحيث يتجانس حجم العمل السياسي مع حجم العمل العسكرى ،فلا نغالى في المناورات السياسية والدعايات الاعلامية بالقدر الذى قد يسبب حرجا للقوات المسلحة فتصبح مطالبة ـ أمام الأمة وأمام العدو ـ بالقيام بعمل يفوق طاقتها وامكاناتها . . فاذا فشلت ،وهي غالبا ماتفشل ،تضاعفت حجم الهزيمة ،وهو ماحدث بالفعل قبل حرب " يونية ١٩٦٧ " وفي بدايتها عندما فشلت القيادتين السياسية والعسكرية في الالتقاء عند الحد الفاصل بين " المناورة السياسية " و " حافة الحرب " فانتهى الأمر الى هزيمة عسكرية وسياسية مخزية .

ومن ناحية أخرى ،نجد أن المجتمع الدولي ـ بعد ماعاناه من حروب ـ قد أستن الكثير من القوانين والتشريعات ووضع العديد من الضوابط للحد من الآثار اللاأنسانية التي تخلفها الحروب . فهناك القوانين المنظمة لحرب الغواصات ضد السفن الغير حربية ،والضوابط المقننة للحصار البحرى وحرب الألغام ،ونص في معاهداته واتفاقياته على تحريم استخدام أنواعا معينه من الأسلحة والقذائف والغازات وعلى طريقة معاملة أسرى الحرب ،.. بل إن جميع التشريعات والمعاهدات الدولية تطالب الوحدات البحرية المتحاربة أن تبذل قصارى جهدها لانتشال الناجين من أطقم سفن العدو المغرقة وأن يعاملوا معاملة أسرى الحرب . وقد تتناسى الأطراف المتحاربة هذه القوانين والتعهدات الدولية أو يضربوا بها عرض الحائط في حمى أتون الحرب ، ولكن مما لا شك فيه أنهم يتمسكون بها في البداية حتى لا يثيروا الرأى العام العالمي أو يؤلبوا ضدهم أعداء جدد .

والآن ،هل يمكن القول بأن الطريق الى " النصر" أصبح مفتوحا أمام القوات؟ مما لا شك فيه أن الطريق صار ممهدا ولكنه لم ينفتح بعد ،فما زال واحدا من أهم وأخطر العناصر غائبا ألا وهو " القائد " . إن شخصية القائد - على جميع المستويات السياسية والعسكرية - هى فى الحقيقه حجر الزاوية فى نجاح أى عمل لا سيما الأعمال العسكرية وعلى وجه الخصوص العمليات البحرية . فالقادة البحريون ،وفى مقدمتهم قادة المسارح والتشكيلات القتالية ،هم أصحاب الكلمة الأخيرة فى الموقف ويتحملون كامل مسئولية ما يترتب على ذلك من نتائج وردود فعل . وخطورة هذه المسئولية تنبع أصلا من نفس الأسباب السابق تكرارها ،أعنى طبيعه البحر كمسرح عمليات وخصائص أدوات الحرب البحرية ،ولنعطى بعض الأمثلة عليها لتوضيح المقصود من أهمية شخصية القائد . ففى الشهور الأولى للحرب العالمية الثانية لجأت بارجة الجيب الألمانية " جراف سبى " بقيادة الكابتن " لانجسدورف " الى ميناء" مونتفيديو" المحايد لاصلاح عطبا أصاب البارجة بعد معركة قصيرة مع مجموعة قتال انجليزية ، وهو عطب يستغرق إصلاحه وقتا أطول من " الأربع وعشرين ساعه " فترة السماح "التى يبيحها القانون الدولى لبقاء سفن الأطراف المتحاربة بميناء محايد والتى بأنقضائها يتحتم على السفينه إما مغادرة الميناء أو تسلم نفسها لسلطات الميناء . ووجد " لانجسدروف " نفسه فى موقف صعب : فلو أنه غامر بمغادرة الميناء قبل اتمام اصلاح العطب فسيواجه قوات الأسطول البريطانى التى تحوم خارج الميناء ،واذا تجاوز فترة السماح فعلية أن يسلم سفينته بكل ماتحمله من أسرار التسليح الى سلطات أوروجواى. إلا أن الاتصالات الدبلوماسية المكثفة نجحت فى الحصول على موافقة الحكومة الأوروجوية على مد فترة السماح الى ٧٢ ساعة وهى مدة لاتكفى لاتمام اصلاح العطب . وبعد تفكير طويل اهتدى القائد الألمانى الى حل ثالث للموقف ألا وهو اغراق البارجة . ولم يتوانى " لانجسدروف " فى إرسال الإشارات الى القيادة العليا الألمانية موضحا لها كل جوانب واحتمالات الموقف ومايراه من حلول . . فماذا كان الرد النهائى للقيادة على اشارات قائد البارجه ؟ رفض مبدأ تسليم البارجة ،وتركت له حرية الاختيار بين مغادرة الميناء وملاقاة الأسطول البريطانى وبين إغراق سفينته.(١)

---

(١) عن كتاب " Hitler and his Admirals " Martiensen , pp.39-43

إختيار صعب ، أليس كذلك ؟ وقرر " لانجسد روف " أن يختار أقل الضررين وأقساه على نفس القائد : إغراق البارجه .. فما من فرد من أفراد طاقم سفينه الا وتربطه علاقة من نوع خاص بسفينته فما بالنا بالقائد . ونحن جميعا ـ رجال البحر ـ نحس بنفس شعور الكابتن " لانجسد روف " وهو يدمر بيديه قطعه من نفسه وقطعه من وطنه ورمز فخار لأمته ،فلا عجب أن ينتحر " لانجسد روف " بعد إغراق "جراف سبى" بثلاثة أيام تاركا وراءه رسالة يعبر فيها عن أحاسيسه ويشرح فيها كل ملابسات الموقف . (١)

ومواقف أخرى عديدة واجهت قادة حراسات قوافل الحلفاء عبر المحيط الأطلسى إبان الحرب العالمية الثانية عند ما تنبئهم وسائل الانذار عن وجود قوات ألمانية على مقربة من مسار القافلة . فالمعروف أن هدف مجموعه الحراسة هو " تأمين وصول القافلة سالمة الى مقصدها " ،فماذا يكون قراره عند ما تعترض قافلته قوة معاديه ؟ هل يظل ملتصقا بالقافله ويناور بعيدا عن قوة العدو ،أو يأخذ مجموعه الحراسة لملاقاة العدو والأشتباك معه فاذا نجح فى تدميره أو جانبا منه فكأنه بذلك يكون قد حقق الشطر الأول من الهدف هذا فضلا عن تكبيد العدو ـ عموما ـ خسائر إضافية . . ولكن ماذا لو أنه فشل ؟ والقرار عسير وأكثر عسرا أن نوصى بأتخاذ أيهما على صفحات كتاب ،فالأمر يتوقف على حكم القائد على الموقف وحسن تقديره للظروف والملابسات المحيطه به . ألا يجوز أن تكون قوةالعدو ما هى الا خدعة لجذبه بعيدا عن " جسم القافلة " فتصبح فريسه سهلة لهجوم آخر مدبر (الغواصات أو الطائرات مثلا) بينما سفنه متورطة فى قتال ثانوى ؟ ومن ناحية أخرى لو أنه اتخذ جانب الحيطة ،والتزم بحرفية الهدف ،وظلت سفن مجموعة الحراسة برفقة جسمالقافلة ، ألا يعرض ـ بتصرفه هذا ـ سفنه للتدمير نتيجة لهجوم قوة العدو عليها يشجعها على ذلك مايمكن أن يفسر على أنه تقاعسا منه . . إختيار صعب آخر ،أليس كذلك ؟ ومما يزيد فى صعوبته ضيق الوقت المتاح لكى يقدر مثل هذا القائد الموقف ويقيم كافة الاحتمالات والنتائج ثم يتخذ قراره تحت كل ظروف وضغوط المعركة والتى غالبا ماتصاحبها أحوال جوية وبحرية سيئة .

---

(١) نفس المصدر السابق ـ ص ٤١

اذن فشخصية القائد هى ـ فى النهاية ـ البوتقة التى تنصهر فيها المبادى والعوامل والعناصر التى تملأ مئات المؤلفات والكتب عن الحرب وعن السياسة وعـــن القيادة ، وما اكتسبته هذه الشخصية من صقل نتيجة للخبرة العملية والثقافـــــة العسكرية تتوجها اللمسة السحريه التى نسميها " ملكة القيادة " أو " الموهبه " .

وهذا الانصهار الذى أنضجه أتون الحروب على مر التاريخ هو الذى أخـــرج للعالم مناهج وعقائد الأستراتيجية البحرية (Maritime Strategy) .

***** *********

الباب الثالث

الاستراتيجية البحرية (Maritime Strategy)

الباب الثالث

الاستراتيجية البحرية (MARITIMS STRATEGY)

إذا كان " كلوسويتز " و" جوميني " هما من العسكريين الأوائل الذين درسوا الأستراتيجية وكتبوا فيها، فإن الأدميرال الأمريكي " الفريد تير ماهان " (١) هو صاحب الفضل في إشراقة فجر جديد عن استراتيجية استخدام " القوة البحريه " لأجل تحقيق الأهداف الوطنية بما قدمه من مؤلفات وكتابات - في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - والتي أستحق عليها " ماهان " لقب " أبو الاستراتيجية البحرية " اعترافا من دول العالم البحرية بقيمة دراساته . فقد عكف ماهان، منذ فجر شبابه وعمله بالبحرية الأمريكية ،على دراسة أعمال " نابليون " و" جوميني " وحروب نلسون ليخرج للعالم (خلال عامي ١٨٩٠،١٨٩٢) أبدع كتاباته " أثر القوة البحرية على التاريخ " و "تأثير القوة البحرية في الثورة الفرنسية " ،والتي كان يرمي من ورائها الى تطوير الفكر البحري الأستراتيجي ليساير العصر ومستحدثاته العلميه والتكنولوجيه للاسهام في حل تعقيدات وتشابك الحروب الحديثةوالمعاصرة وما ستكون عليه في الأجيال المقبلة . ولعل أهم ما أبرزته نظريات ماهان ،هو الدور الذي تلعبه التجارة الخارجية المنقولة بحرا في الحروب ومدى الخطر الناجم عن الحرب الموجهة ضد اقتصاد الأطراف المتنازعة (Economic Warfare). وكتابات " ماهان " هي التي أكدت للعالم أن " الأمة أو مجموعه الأمم التي بعقد ورها السيطرة على البحار ,بوسعها جذب تجارة العالم اليها وبالتالي قادرة على كسب الحروب " ، وأن " السيطرة على خطوط المواصلات البحرية ومشارف الثغور هما البديل العصري لعمليات الاغارة على التجارة البحرية وحصار الموانى بالمفهوم

(١) الفريد تيرماهان : ولد في الولايات المتحدة الأمريكية في سبتمبر سنة ١٨٤٠ وعمل بالبحرية الأمريكية أربعون عاما وعين رئيسا لكلية الحرب البحرية سنة ١٨٨٦، وقد كرمته جامعتي " اكسفورد " و" كمبريدج " لدراساته وبحوثه في الأستراتيجية البحرية والتي أعتنقت نظرياته فيها الأمم البحرية وفي مقدمتها بريطانيا . توفي ماهان - الذي لقب بأبي الأستراتيجية البحرية - في ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد أن كان قد تنبأ بهزيمة ألمانيا وروسيا وباستسلام البحرية الألمانية في الحرب العالمية الأولى .

التقليدى القديم "، وظلت نظريات ومفاهيم " ماهان " عن استخدام القوة البحرية ، هى نسيج استراتيجيات الدول البحرية الكبرى حتى عصرنا . . عصر الذره وغــزو الفضـاء .

ولعلنا لا نكون مغالين إذا قلنا أن الأستراتيجية البحرية هى أكثر الأستراتجيات العسكرية التصاقا بأستراتيجية الدولة العليا ، نظرا لأن أدوات الحرب البحريـــة ومسرح أنشطتها وثيق الصلة بالحياه اليومية للأمقوبرخائها ولعلاقات الدولة الخارجيه فكما سبق أن قلنا أن السبب الحقيقى وراء نشأة الأساطيل الحربية هو حاجة الأمم ـ منذ أقدم العصور ـ الى أداة فعالة قادره على حماية تجارتها عبر البحار وحرصهـا على أن تتمتع سفنها التجارية بحرية التنقل بين الموانى . لذا فأن النقل البحـرى التجارى ـ بطبيعة أنشطته ـ أكثر انتماء للأستراتيجية البحرية دون غيرهـــا مـن الأستراتيجيات الوطنيه ، وجميعا نعلم الدور الذى تلعبه صناعه النقل البحـــرى التجارى فى تنمية اقتصاد الدولة وفى الحياة اليومية لأفراد الأمة .

وعلى هذا فأن الاستراتيجية البحرية ـ بأوسع معانيها ـ تستهدف : حريـــه استخدام البحار فى مواجهة تحديات الخصوم . وهو هدف ثابت ومتصل فى السلم والحرب على السواء ، يلعب الدور الأول فيه ـ فى زمن السلم ـ الأسطول التجـارى على حين يلعب الأسطول الحربى الدور الرئيسى فى حالة الحرب .

أهداف الأستراتيجية البحريه

إن الهدف الرئيسى للأستراتيجية البحرية ، من وجهة النظر الحربية البحته ، هو : حرمان العدو من حرية استخدام البحار كوسيلة نقل ومواصلات ، وفى نفـــس الوقت نتمتع نحن بهذه الحرية ، وهو ما لا يتأتى إلا باحراز " السيطرة البحريـــه " والتى تعتبر " الهدف المباشر " لاستخدام الأساطيل الحربية . ومن ناحية أخـرى فالسيطرة تهىء لقواتنا فرصا أفضل لفرض المعركة على العدو وحينما وأينما نريـــد ، إلا أن هذا لا يعنى أن مانبغيه هو إحراز " سيطرة مطلقة " على جميع أرجاء البحار

والمحيطات التى تغطى مياهها نحو ثلاثة أخماس سطح الكرة الأرضية ،فان المنطق والطبيعه ينفيان امكانية ذلك .

وإذن " فالسيطرة البحرية " تعنى القدرة على الهيمنه على أجزاء ومناطق معينه من مياه البحار والمحيطات بالقدر الذى يتيح لنا :

١- حماية أرض الوطن ضد العدوان .

٢- الحفاظ على مصالحنا عبر البحار وحرية الأتصال بها وتماسكها .

ومن هنا يجب أن يكون مفهومنا للسيطره على أنها ليست غاية فى حد ذاتها وانما هى وسيلة لخلق ظروف وأوضاع مواتية لتأمين مصالح الوطن فى الداخل والخارج .

وانطلاقا من هذا المفهوم ،فقد تقتضى مصالحنا أو الملابسات السياسية أو أى عوامل داخلية أخرى أن نكتفى بفرض سيطرة محدودة سواء كانت زمنيا أو موقعيا . ففى عمليات الاخلاء تجاه البحر، مثلا ، ليس المطلوب فرض سيطرة بحرية وجوية الا بالقدر الذى يسمح بأتمام العملية بأقل خسائر ممكنه ثم التخلى عن هذه السيطرة وتحويلها الى الاتجاه الرئيسى ، ويحضرنا فى هذا المقام السيطرة البحرية والجوية القوية التى فرضتها بريطانيا - أثناء الحرب العالمية الثانية - على قطاع " دنكرك" اثناء سحب قوات الحامية البريطانية عقب سقوط فرنسا ،وهى سيطرة لم تدم أكثر من تسع أيام (٢٦ مايو - ٤ يونيه سنه ١٩٤٠) ولم تتجاوز حدود مناطق الاخلاء بالمياه الواقعه بين ساحلى فرنسا وانجلترا الى أن تم تحميل ونقل نحو ٤٣٠ ألف من قوات الحامية (١). وتكرر نفس الأجراء عند إخلاء قوات الحلفاء من اليونان إثر تدخل الجيوش الألمانية الى جانب ايطاليا وأصبحت قوات المحور متفوقة تفوقا ساحقا (٢) ،

---

(١) استخدم فى هذا الاخلاء قرابة ٨٥٠ سفينه حربية ومدنية ونقل وسفن نزهة ويخوت ،وقامت مقاتلات السلاح الجوى البريطانى بأكثر من ٤٨٠٠ ساعه طيران فوق منطقة دنكرك. (عن كتاب "The War at Sea" , Roskill, Vol.,pp.216-218

(٢) استغرقت العملية خمسة أيام(٢٤ - ٢٩ أبريل سنة ١٩٤١) وتم اخلاء نحو ٥١ ألف من قوات الحلفاء(نفس المصدر، ص ٤٣٦) .

وأيضا عند سحب نفس هذه القوات من جزيرة كريت عقب احتلالها بقوات المظلات الألمانية(١) (ابريل ـ مايو سنة ١٩٤١) . ومثل هذا القدر من السيطرة يتطلب " تركيزا " شديدا فى القوى البحرية والجوية ،ولكنه ـ فى نفس الوقت ـ يتيح لنا " الاقتصاد فى المجهود " لأن الحاجة الى السيطره ،فى مثل هذه الحالات، مرهونه بأبعاد الغرض المراد تحقيقه وبالتالى يمكن أن تعود القوات التى استخدمت فى إحرازها إلى الأوضاع التى كانت عليها من قبل أو توجيهها الى حيث الحاجة اليها .

وهناك أكثر من سبيل لاحراز السيطرة البحرية ،إلا أنها جميعها تلتقى عند نهاية واحدة هى " التفوق " (Superiority) فى المكان المناسب والوقت الحاسم . وأشكال التفوق أيضا متعددة فقد يؤدى النشاط الجوى المكثف للحصول على تفوق بحرى كالذى حققته الحاملات الأمريكية فى غرب المحيط الهادى أثناء استرداد " ماك آرثر " للجزر التى احتلتها القوات اليابانية فنجحت الأساطيل الأمريكية فى هزيمة الأساطيل اليابانية وفى تمكين القوات البرية من طرد اليابانيين من مواقعهم . وغالبا مايؤدى " الحشد الاستراتيجيى " ،أى تجميع قوات بحرية متوازنه العناصر فى مسرح ما ،الى احراز تفوق تاكتيكى على العدو فى أقل وقت ممكن . وخير دليل على ذلك ، " التركيز " السريع للسفن والطائرات الذى حققته الأدميرالية البريطانية ضد البارجة " بسمارك " عندما حاولت الافلات من الحصار المضروب على المنافذ المؤدية الى المحيط الأطلسى والذى أتاحه وجود قوات بحرية كبيرة فى " جبل طارق " وفى " سكابافلو " وقوات تغطية القوافل بشمال الأطلسى فضلا عن طائرات القيادة الساحلية بجنوب الجزيرة البريطانية . " والحصار المباشر " أيضا ـ باستخدام الغواصات أو الألغام ـ يقلل من فرص مغادرة سفن العدو لقواعدها مما يؤدى إلى إضعاف نشاطه البحرى وبالتالى تغيير ميزان القوى فى هذا المسرح أو ذاك لصالحنا . ويمكن القول أيضا أن الانتصارات المتتالية تجعل العدو يرتاب

---

(١) استغرقت العملية أربعه أيام(٢٨ مايو ـ ١ يونيه سنة ١٩٤١) وتم اخلاء قرابة ١٩ ألف من قوات الحلفاء (نفس المصدر السابق ،ص ٤٤٦) .

فى قدرته على مواجهة قواتنا ومن ثم يحجم عن ملاقتنا ويتهرب من الدخول فى معارك معنا وبذلك يخلو المسرح لقواتنا .

وتنعدم الفائدة من " التفوق " - الذى نحن بصدده - مالم يستمثر فى احراز " السيطرة " والا كان تفوقا " سلبيا " لا يؤدى الى نتائج حاسمة . فقد يعمد الأسطول الأضعف الى أسلوب " الأسطول المرابط " (Fleet in being) والذى يتلخص فى أن تقبع قوة ذات شأن من الأسطول فى قاعدتها لمدد طويلة نسبيا مما يدفع العدو إلى تشكيل قوة بحرية وجوية كبيرة خصيصا لمراقبتها والتصدى لها فى حالة مغادرة الميناء - وهو ما لن تقدم عليه إلا خلسة - وبذلك يكون الأسطول الأضعف قد " ربط " اليه جانبا لا يستهان به من قوة العدو البحرية قد يكون فى مسيس الحاجة اليها فى مسارح العمليات . وهو أسلوب غالبا ماينقلب على صاحبه عند ما تنحصر القوة " المرابطة " فى مصيدة الميناء تحت رحمة هجمات جوية مكثفة من أعدائها تنتهى عادة باغراقها أو إصابتها بأعطاب شديدة تعدمها فائدتها .

تبلورت كل هذه الاتجاهات فى مهام ووظائف محددة " للسلاح البحرى " نجملها فيما يلى :-

١- تدمير قوات العدو البحرية .
٢- تصديع خطوط مواصلات العدو وحماية خطوط مواصلاتنا .
٣- معاونة ودعم عمليات قواتنا البرية والتدخل ضد عمليات العدو البرية .
٤- الابرار على شواطئ العدو ومنعه من إبرار قواته على شواطئنا .

ولعلنا نكون قد لاحظنا أن النجاح فى انجاز المهمة الأولى ، أى تدمير قوات العدو البحرية ، يخفف كثيرا من أعباء سائر المهام ويحيطها بأكبر قدر من ضمانات النصر . وقد يرى البعض أن تدمير قوات العدو البحرية ، بل وسائر المهام ، غدت عتيقة بالية لا مكان لها فى الحرب الحديثة التى تجاوزت بأسلحتها وأجهزتها الحدود الفاصلة بين المسرح البحرى و " قلب العدو " ، أعنى مراكزه الصناعية والمناطق الآهلة

بالسكان . ولكن الحقيقة عكس ذلك ، بما تفرضه أدوات وأسلحة الحرب النووية من حتمية تدمير قوات العدو البحرية التي تحول غالبيتها الى " حاملات " أو " مركبات " أسلحة التدمير الشامل .

فجميع الشواهد تؤكد هذه الحقيقه ، والا فما هي الدوافع التي تحدو بقوى العالم البحرية الكبرى الى بناء هذه الأعداد الضخمة من الغواصات التي تعمل بالطاقة النووية وتحمل صواريخ باليستيكية ذات رؤوس نووية ، ومسلحة بطوربيدات فتاكة مضادة للغواصات ؟ (١) وما المعنى وراء الحد من حجم سفن القتال مع زيادة امكاناتها القتالية ، والتدميرية إن لم يكن التقليل من فرص تعرضها لهجوم العدو عليها ؟ وبماذا نفسر نمو حجم السفينه التجارية لتصل ناقلة البترول ـ مثلا ـ الى حمولة ٣٠٠و٤٠٠ ألف طن ، وسفينه الصب الجاف الى ٤٠٠و٥ ألف طن ؟ وبماذا نفسر نمو عدد سفن الأسطول التجارى العالمي الى ٦٦ ألف سفينه تعادل حمولة قدرها ٦٠٨ر٣ مليون طن (٣) بعد أن كان ١٧ ألف سفينه تمثل ٢١٧ر٨ مليون طن منذ عشر سنوات فقط . (٤) ألا يعني هذا ـ ببساطة ـ زيادة اعتماد العالم على التجارة البحرية وبالتالى زيادة حرص الدول واهتمامها بحماية تجارتها الخارجية عبر البحار والدفاع عن خطوط مواصلاتها البحرية التي تربطها بالعالم الخارجي ؟ وما رأيكم في السباق بين الولايات المتحدة الأمريكية والأتحاد السوفيتي ـ القوتين العظميين في عالم اليوم ـ من أجل الحصول على قواعد بحرية وخدمات وتسهيلات بالموانى في جميع انحاء المحيطات والبحار؟ مع ملاحظة أن سباق التسليح والقواعد

---

(١) يمتلك الاتحاد السوفيتي ١١٨ غواصة من هذه الطرازات على حين تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية ١١٦ من طرازات مماثلة .

(٢) يمتلك الاتحاد السوفيتي ٣١ طرادا وتمتلك الولايات المتحدة الأمريكية ٢٥ طرادا من الطرازات النووية .

(٣) الملاحظة الجديرة بالاهتمام ان مجموع قيمة حمولات ناقلات البترول الخام وحدها بلغت قرابة ٣٢٠ مليون طن أى أكثر من نصف اجمالى حمولة الأسطول التجارى العالمي وان مجموع قيمة حمولات ناقلات الصب (المواد الاولية الصناعية والغذائية الرئيسية) بلغت ١٥٨ مليون طن ، أى ما يمثل أكثر من ٧٨ر٥٪ من حجم الأسطول التجارى .

(٤) من هذا الحجم : ٩٤ مليون طن ناقلات بترول خام ونحو ٣ مليون طن ناقلات صب جاف ، أى مايعادل ٩٥٪ تقريبا من قيمة حمولات الاسطول التجارى العالمي في عام ١٩٦٧ (المرجع: نشرة مؤسسة فيرنلى وايجر النرويجية لاستئجار السفن عام ١٩٧٤ ، والنشرة الاحصائية لهيئة لويدز للتامين البحرى الصادرة في عام ١٩٧٨) .

البحرية بين القوتين العظميين لم يشتد عنفوانه الا فى ستينات القرن الحالى أى فى ذروة التقدم العلمى والتكنولوجى الذى كان - لو أننا على خطأ - يجب أن يخفف من حدة هذا التسابق .

فالتركيب البنيانى والتشكيل القتالى لأساطيل كل من الولايات المتحدة الأمريكية والأتحاد السوفيتى والمناورات البحرية التى يجريها كل منهما ،تعكس بوضوح طبيعة استراتيجية كل من القوتين ومهام أساطيلهما . ويمكن القول بأن الأستراتيجية البحرية للأتحاد السوفيتى - فى وقت الحرب - تهدف الى تصديع خطوط النقل والمواصلات البحرية بين أمريكا والعالم الخارجى إنطلاقا من أن الأقتصاد الأمريكى يعتمد ، إلى حد كبير ، على التجارة المنقولة بحرا وبنوع خاص على المواد الأولية وفى مقدمتها البترول . ومن ناحية أخرى فإن إقبال الاتحاد السوفيتى المتزايد على تنمية قوة أسطول الغواصات النووية حاملة المقذوفات الصاروخية بعيدة المدى ذات الرؤوس النووية وارسالها فى مجموعات متتالية الى المحيطين الأطلسى والهادى لتحوم على مقربة من السواحل الأمريكية ،لا يدع مجالا للشك فى أن مهمة هذه الغواصات ستكون اسقاط الرؤوس النووية على المراكز الصناعية والتجمعات السكانية الكبرى فى عمق الأراضى الأمريكية . واعتمادا على إمكانات تخفيها وقدرتها على النجاة من الضربة النووية الأولى ،فقد تكون مهمة الغواصات السوفيتية - فى حالة تلقى الأتحاد السوفيتى للضربة النووية الأولى - توجيه ضربات نووية متتالية إلى الأهداف الأمريكية الحيوية . ولأن الأتحاد السوفيتى يتمتع بنوع من الأكتفاء الذاتى نتيجة لموارده الأوروبية ، فإنه لن يكون بحاجة للنقل عبر البحار بقدر حاجته الى الحفاظ على سلامة وأمن هذه الموارد وطرق المواصلات الأرضية التى تربط بينها ،لذلك فهو يرسم استراتيجيته على هذا الأساس والتى تعكسها خلو أساطيله من حاملات الطائرات واحاطة أراضية بشبكة متينة من وسائل الأنذار وبحزام قوى من قواعد الصواريخ بعيدة المدى ذات الرؤوس النووية والصواريخ المضادة للطائرات والمضادة للصواريخ .

وعلى الجانب الآخر، ستكون مهمة البحرية الأمريكية - فى المقام الأول - هى الحفاظ على سلامة وأمن طرق المواصلات والتجارة البحرية لا سيما خطوط المواصلات مع

البلاد الأوربية أعضاء " منظمة حلف شمال الأطلسى " (NATO) ، باعتبارهــا أول من سيتعرض للغزو السوفيتى ،وما يقتضيه ذلك من نقل الامدادات والتعزيزات الأمريكية - عبر المحيط الأطلسى والبحر المتوسط - لدعم قوات الحلف . ولعل هــذا هو الدافع القوى وراء اهتمام البحرية الأمريكية بتنمية عدد حاملات الطائرات الهجومية (ATTACK CARRIERS) (١) وسفن العمليات البرمائيــة (Amphibious Attack Ships) (٢) . وتنم مناورات البحريــة الأمريكية عن مهمة رئيسية أخرى للأسطول الأمريكى هى " مطاردة واقتناص الغواصات" وهى مهمة ستضطلع بها تشكيلات قتالية خاصة تضم السفن والزوارق وطائرات الحاملات والغواصات المضادة للغواصات. (٣) والواضح أن مهمة هذه التشكيلات سوف تحــد كثيرا من خطر الغواصات السوفيتية على الأراضى الأمريكية وعلى خطوط المواصــلات والتجارة عبر المحيطات .

ويجدر الاشارة هنا إلى أن استراتيجية كل من القوتين البحريتين تركز اهتمامــا شديدا على المصادر البترولية بمنطقة الخليج العربى وخطوط نقله الى أوروبــا وأمريكا عبر المحيط الهندى إما خلال البحر الأحمر وقناة السويس والبحر المتوســط ومن ثم الى ثغور أوروبا ، واما حول رأس الرجاء الصالح عبر المحيط الأطلسى الى ثغور أمريكا . وهى حقيقة يعكسها تزايد حجم القوات البحرية السوفيتيه والأمريكية فــى المحيط الهندى بشكل ملحوظ والتطاحن السياسى فى منطقة المدخل الجنوبى للبحــر الأحمر(عدن ،جيبوتى ،الصومال ،أريتريا) مما أثار مخاوف الدول المطلة على المحيط الهندى - وفى مقدمتها الهند - دفعها لطلب تدخل هيئة الأمم المتحدة للحد من صراع القوى فى هذا المحيط الذى أصبح يهدد كل الدول الآسيوية . وتعزيزالدعائم استراتيجية القوتين العظميين فى هذه المناطق ،فقد حصل الاتحاد السوفيتى علــى قواعد وتسهيلات بحرية وجوية فى أكثر من ١٥ موقعا يحيط بهذه المناطق فى مقابــل حوالى ٣٠ موقعا للولايات المتحدة الأمريكية .

(١) بامكان الحاملة من هذا الطراز اطلاق حوالى ٥٠ طائرة قاذفة مقاتلة وابرار نحــو ٩٠٠ مقاتل بكامل معداتهم هذا فضلا عما تحمله من طائرات مضادة للغواصات وطائرات التصنت والتشويش الألكترونى .
عن نشرة : "Jane's Fighting Ships" 1977/1978
(٢) تمتلك البحرية الأمريكية حوالى ٦٥ سفينه من هذا الطراز وحده (المرجع السابق)
(٣) تمتلك البحرية الأمريكية من هذا الطراز وحده ،نحو ٩٠ غواصة جميعها مــزودة بمقذوفات وطوربيدات صاروخية مضادة للغواصات. (عن نفس المرجع) .

لا يسعنا إذن إلا أن نؤكد أن استراتيجية استخدام القوة البحرية مازالت محتفظة بمفاهيمها ومقوماتها التى اكتسبتها من خبرات مئات الحروب عبر التاريخ ، وأن كل ماتغير - أو على الأصح تطور - هو تكنيك استخدام أدوات الحرب البحرية ليساير متغيرات العصر السياسية والأقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية . وكما سبق أن أشرنا ،فقد تختفى - مستقبلا - المعارك التصادمية المباشرة بين الأساطيل لتحل محلها عمليات تراشق بالصواريخ على مسافات بعيدة جدا ،وقد يحل التعبير" إبادة " (Annihilation) محل التعبير التقليدى" تدمير" (Destruction) نتيجة لاستخدام الرؤوس النووية التكتيكية ،ومع ذلك ستظل المهمة الأساسية للأساطيل هى " التخلص من قوة الخصم البحرية " بهدف " تأمين حرية حركة النقل والتجارة عبر البحار " . وبرغم كل التقدم الذى أحرزته أدوات وأسلحة الحرب ،فمازالت القوى البحرية الكبرى تستخدم التعبير" تصديع" (Disruption) وليس" قطع" (Cutting) خطوط المواصلات والتجارة البحرية" مما يؤكد استحالة " قطع" هذه الخطوط نظرا للخصائص الطبيعية التى يتمتع بها المسرح البحرى .

وقد ترتب على هذه المنجزات والتطورات،أن الفواصل الرقيقه التى كانت بين الأستراتيجية والتكتيك تكاد أن تتلاشى لاسيما فى الحرب البحرية حيث الفواصل أكثر رقة .

التاكتيكات البحرية (NAVAL TACTICS)

إن كل قطعة بحرية من قطع الأسطول الرئيسية تعتبر وحدة متكاملة العناصر القتالية وذلك مايعطيها مرونة استراتيجية وتاكتيكية عالية . فالقطعة البحريةالواحدة تضم أسلحة مختلفة الأغراض كالقذائف سطح / سطح ، سطح / جو وقذائف الاعماق وقذائف الطوربيد وأجهزة ادارة نيرانها ،وأجهزة الاستطلاع والانذار والاتصال ،هذا فضلا عن القوى المحركة ومستودعات الوقود والذخيرة والمؤن وغرف للعمليات . ولكل نوع وطراز من هذه الوحدات وظيفة رئيسية داخل الاطار العام لوظيفة الأسطول ،ولكل

منها أيضا تاكتيك خاص بها يجمع تاكتيكات كل سلاح من الأسلحة التى تحملهـــا . فهناك تاكتيكات المدمرات وتاكتيكات زوارق الطوربيد وتاكتيكات الغواصات وهكذا ... وهناك أيضا تاكتيكات استخدام كل نوع من أنواع القذائف التى تحملها هذه الوحدة أو تلك كالمدفعية والطوربيد وقذائف الأعماق . والى جانب ذلك فهناك وحـــدات بحرية ذات مواصفات وخصائص تحدد لها نوعا خاصا من الوظائف مثل حامـــــلات الطائرات وسفن الألغام (سواء البث أو الكسح) ،وسفن النقل والابرار ومثل الغواصات وزوارق الطوربيد ، على النحو السابق ذكره .

وقد تولد عن هذا التباين والتعدد ،أشكال خاصة للعمليات البحريـــة مثـــل " مطاردة واقتناص الغواصات " و " حراسة القوافل" و " العمليات البرمائيـــــه " و " عمليات الألغام " و " عمليات مهاجمة خطوط النقل والمواصلات البحرية والدفاع عنها و " قصف الأغراض الأرضية " . وباستثناء " عمليات الألغام " فان أى شكل من هــــذه الأشكال لابد وأن يسبقه أو يتخلله أو ينتهى بما يمكن وصفه " بمعركة تصادمية " بين طرفى النزاع يكون النصر فيها للطرف الذى يتفوق على خصمه ،والتفوق هنا ليـــس بالضرورة تفوقا عدديا فقد يكون تفوقا فى مدى القذائف وقوة نيرانها ،وقد يكون فـــى سرعة الوحدات وخفة مناورتها أو فى حسن استغلالها للظروف وتحين الفرص أو فـــى الروح القتالية للقوات ومعنوياتهم أو ـ وهو الأهم ـ فى فطنة وحنكة القائد .

العقائد التاكتيكية

إن مبادئ الحرب السابق استعراضها تصلح تماما للاستخدام فى المعـــارك البحرية ،الا أنها ـ على المستوى التاكتيكى ـ تأخذ طريقها الى التنفيذ بشكل مباشر وفورى الأمر الذى أدى الى أن يتجمع بعض هذه المبادئ تحت مسميات قد تبـــدو مختلفه عن مسمياتها الاستراتيجية إلا أنها لاتختلف فى المعنى والمقصد .

ومع احتفاظنا بمبدأ " اختيار الهدف والتمسك بتحقيقه " ، فان القواعد الأساسية للتاكتيك البحرى تنحصر فى الآتى :ـ

١- مهاجمة العدو :

بغرض تدميره،وهذا يعني محاصرته بالنيران ومطاردته إذا حاول الإفلات واللحاق به الى أن يتم القضاء عليه .

٢- المبادأة :

أى حسن التصرف واتخاذ القرار السديد وفقا لتطور الموقف ووضعه موضع التنفيذ قبل أن يتخذ العدو قراره ويشرع فى تنفيذه ،وهى تعتمد كثيرا على فطنة القائد وسرعة بديهته .

٣- العمل كفريق :

وهو ما لا يتأتى الا باعتناق عقائد موحدة وبحسن التدريب وتعاون الوحدات والأسلحة فيما بينها ،فضلا عن توافر وسائل اتصال على درجة عالية من الكفاءة.

٤- المخاطرة المحسوبة :

وهى خليط من الاقدام والشجاعه مع حسن تقدير الموقف والقدرة على التنبؤ بأحتمالات المستقبل وفى نفس الوقت قبول قدر معين من الخسائر فى الوحدات والقوات مقابل إحراز نصر حاسم فى المعركة .

٥ - التماسك :

بمعنى عدم تجزئة التشكيل الى جزئيات قد تفقده تفوقه الأصلى أو تضعف من قوة تأثير نيرانه فيصبح - كجزئيات ضعيفه - لقمة سائغة للعدو . الا أن هذا لا يعنى أن يعمل التشكيل " ككتلة " صلبة ،وهو أمر مرفوض تماما فى المعركة ،وانما المقصود أن توزع وحدات التشكيل لاتخاذ أنسب الأوضاع لتركيز النيران على العدو وبالطريقة التى تسمح باعادة تجميعها فى أقل وقت ممكن وبأقل خسائر ممكنة . ومن ناحية أخرى فان التماسك المرن يتيح للقائد القدرة على سرعة معاودة الهجوم وتنويع أسلوبه .

٦- المعلومـــات :

الحصول على معلومات متوالية ومتصلة - على المستوى التاكتيكى - لاغنى عنه قبل دخول المعركة وأثناءها ،بل وعقب انتهائها . والمعلومات التاكتيكية تشمل : معلومات عن العدو مسبقة للتعرف على منهجة التاكتيكى فى القتال،ومعلومات فورية للوقوف على قوته والأوضاع التى ستدخل بها المعركة وتحركاتها وأى اصابات قد تلحق بها أثناء المعركة . وفى المقابل يجب أن يكون لدى القائد صورة واضحة تماما عن قواته وعن القوات الصديقة المجاورة - لاسيما الغواصات - وعن أى قوات بحرية أو جوية معاونة وطرق التعارف بينه وبينها . ونظرا لأن المعركة البحرية غالبا ماتستغرق وقتا طويلا قد يمتد لعدة أيام بلياليها مما يزيد من فرص تعرض القوات لظروف التقلبات الجوية والبحرية بما يؤثر على سير المعركة ،فان الأمر يقتضى حصول القائد على معلومات عن الأحوال الجوية والبحرية والتغيرات المنتظرة خصوصا إذا كانت تحمل تغيرا الــى الأســوأ حتى يتمكن القائد من انتهاج التصرف السليم فى الوقت السليم بما يكفل له الحفاظ على أكبر قدر من عناصر الانتصار فى المعركة . وغنى عن الذكر أن وفــرة المعلومات ،وصدق بياناتها هى خير سبيل لتأمين القوات والوحدات ضد المفاجأة أو انقلاب الموقف لغير صالحنا وأيضا الاقلال من احتمالات الاصابة الناجمة عن حوادث الاصطدام (نتيجة للضباب الكثيف أو العواصف الرملية مثلا) .

٧- المرونــة :

وهى ألزم ماتكون على المستوى التاكتيكى ،والسبب فى ذلك واضح . فالمعركــة البحرية سريعة التطور وتحيط بها عوامل متعددة تزيد من معدل سرعة تطور الموقف إما فى صالحنا أو فى صالح العدو ،وفى الحالتين فالقائد مطالب بتعديل خططــه وأوضاع قواته بنفس السرعة التى يتطور معها الموقف ،وهو ما لا يتأتى الا اذا كـــان القائد يتحلى بمرونة فى التفكير وبحضور البديهة وما لم تكن المرونة هى الطابع الــذى تتسم به تشكيلات وأوضاع قواته مع توازن وتكامل عناصرها . ولذلك فان القيادات البحرية فى جميع أنحاء العالم تعترف بحق القائد ومسئوليته فى " حرية التصرف فى ساحـــة المعركة " ،وهو حق نبع من الخبرات والدروس المكتسبة من المعارك البحريــة عــبر

التاريخ ،تدعمه العقائد المشتركة والثقة المتبادلة بين القيادات الأعلى والقيادات الأدنـــى .

٨ ـ الروح المعنويـة :

مهما بلغ التقدم بأدوات وأسلحة الحرب فان قيمتها تنعدم مالم يكن وراءهـــا رجال عقدوا العزم على الأنتصار . فهناك شعوب اشتهرت بطبيعتها الجريئـــة المقدامة وغيرها عرفت بطبيعتها الصبورة المثابرة ،الا أن الروح المعنوية العاليـــة لا ترتبط ـ بالضرورة ـ بطبائع البشر وانما يمكن اكتسابها وتنميتها بأكثر من وسيلة . . ولعل أهم هذه الوسائل وأنجحها هو التدريب الجيد تحت ظروف شبيهة بظـــروف المعركة مما يكسب القوات الثقة فى أنفسهم وفى سلاحهم والتى هى أولى مقومـــات النصر فى المعركة . . والايمان بعدالة القضية التى يحاربون من أجلها ينمـى فـى القوات روح القتال والرغبة الصادقة فى هزيمة العدو ،ومن ناحية أخرى فان رباطـــة جأش القائد وسرعة خاطره وجرأته الحكيمة خير ضمانات للاستثمار الناجح لروح قواتـه المعنوية فيمضى بهم من نصر الى نصر ويخرج بهم من المآزق فتزداد ثقتهـــم بـــه ويرتبطون به وبوحداتهم بذلك الرباط الفريد الذى عرف عن رجال البحر . وتعالـوا بنا نتذكر لحظات ،بل ساعات ،الترقب والعيون مشدودة الى شاشات الرادار والاسماع مرهفه لأجهزة الآزدك ،والرجال يحتلون مواقعهم فى مراكز القتال والجميع فى حالـة تأهب لرؤية " ومضـة " هدف على شاشة الرادار أو " رنة " صدى غواصة على جهـــاز الآزدك والتى بمجرد التقاطها ينقلب السكون الى عاصفة مدمرة . . هذه اللحظـــات من الترقب والانتظار هى فى الحقيقة أقسى مراحل المعركة . فقد تطول اللحظة الـى ساعات وقد تمتد الى أيام فى تتبع العدو ومطاردته الى أن نجبره على دخول المعركة ، وسواء قصرت مدة الترقب أو طالت فهى دائما مفعمة بالتوتر والتحفز لا يحد عواقبهـــا الا ما تتحلى به القوات من روح معنوية عاليه . . وتعالوا بنا نتذكر أيضا ارتجاج بدن السفينه وهى تطلق قذائفها وانتفاضتها تحت صدمات قذائف العدو . . انـــدلاع النيران . . تدفق مياه البحر الى داخل السفينه من جراء الثغرات التى أصابتهـــا بها قذائف العدو وطوربيداته أو الأرتطام بلغم . . القتلى والجرحى . . أعطـــاب سفينه شقيقه فى التشكيل أو غرقها . . أنقاذ أخوة ناجين ، وغيرها وغيرها من جحيم

المعركة . كيف يمكن السيطرة على مثل هذه المواقف وما يصاحبها من مشاعر انسانية أو من هرج وفوضى مالم يكن هناك قائد رابط الجأش وقوات منضبطة ، وكيف يمكن تحفيز القوات لمزيد من البذل والعطاء مالم يسمعوا ويروا ماأنزلوا بعدوهم من عقاب أقسى وأفدح مما أصابهم ومالم يتوج بذلهم وعطائهم بالنصر؟ هنا ننسى المعاناة ونرتفع على الأحزان وتشتعل فينا نار الرغبة فى القتال من أجل مزيد من الانتصارات .

ولعلنا نكون قد لاحظنا أن هذه القواعد تعتمد أكثر ماتعتمد على " الفرد " ، وعلى شخصية القائد ، وفى اعتقادى أنها حجر الزاوية فى تحقيق النجاح فى المعركة البحرية . فالوحدة البحرية ـ سفينه كانت أو غواصة ، كبيرة كانت أم صغيرة ـ هى أشبه بصندوق مغلق فى خضم المياه لا نجاة لها ، بعد رعاية الله ، الا بكفاءة أداء طاقمها وحسن تصرف قائدها تحت كل الظروف وفى مواجهة كل الضغوط .

القوة البحرية

على الرغم من أن التعبير " القوة البحرية " قد تناوله التغير من بعد الحرب العالمية الثانيه والحرب الكورية ، إلا أنه كان دائما يعنى " القدرة على فرض تأثير فعال على النقل عبر البحار" . وهذا التفسير يعنى بالتالى أن " القوة البحرية" لا تقتصر ـ فى معناها ـ على حيازة سفن القتال وأسلحته فحسب وانما تعنى أيضا السفن المعاونة والسفن التجارية والقواعد والرجال المدربين ، تساندها وتدعمها قاعدة صناعية متينة . ويقول الأدميرال الراحل " ماهان " ان نفس هذا التعبير ينطبق أيضا على الأمة التى بمقدورها استخدام البحار ـ فى حربه كافية ـ فى مواجهة تحديات الخصوم والطامعين فتوصف مثل هذة الأمة بأنها " قوة بحرية " . إلا أن هناك عوامل أخرى ـ جغرافية وطبيعية ـ على جانب كبير من الأهمية تتدخل فى صنع القوة البحرية ، فى مقدمتها : الموقع الجغرافى لأرض الوطن وطول سواحلها ، وعدد ونوعية الموانى ، ومناطق مصالح هذه الأمة فيما وراء البحار ، ومكانها بالنسبة لخطوط المواصلات البحرية ثم عدد السكان وطبيعة ميولهم وأيضا نظام الحكم . فمفهوم

" القوة البحرية " يرتبط بطراز من الدول توافرت لها هذه العوامل أو بعضها ونجحت فى استثمارها ،وهو طراز تمثله " أثينا " و " قرطاج " فى التاريخ القديم وتمثله بريطانيا فى العصر الحديث . فمثل هذه القوى كانت أساطيلها الحربية هى الركيزة فى شئونها الدفاعية بينما كانت التجارة عبر البحار هى حجر زاوية اقتصادها ورفاهية شعوبها . ونجحت مثل هذه الدول فى استقطاب موارد العالم وأصبح من العسير ـ إن لم يكن مستحيلا ـ قهرها طالما بقيت أساطيلها متماسكة الأمر الذى يتيح لمثل هذه الدول القدرة على الصمود فى وجه النكسات التى قد تلحق بهم أو بحلفائهم فى الوقت الذى يكون فيه خصومهم قد انهكتهم الحروب البرية أو حلت بهم المجاعه لافتقارهم لقدر كاف من الأمدادات .

ومن ناحية أخرى ،نجد أن بعض الدول كثيرا ماتحجم عن استغلال الظروف والعوامل المتاحة لها فى ممارسة القوة البحرية . فعلى سبيل المثال ،كانت فرنسا منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر تملك أسطولا قويا يتفوق على الأسطول البريطانى من حيث تاكتيكات القتال والأسلحة والمعدات بجانب مايتمتع به من سواحل طويله تضم عددا من الترسانات البحريه الهائلة ويتحلى شعبها بحب ارتياد البحار بالأضافة لقواعدها المنتشرة فى أنحاء العالم . ورغم كل هذا اعتنق قادة فرنسا ـ أكثر من مرة ـ عقيدة التوسع أرضا ،الأمر الذى جعلهم يحشدون طاقات البلاد للزحف شرقا عبر أراضى أوروبا لتصبح فرنسا بالكاد تقف فى مصاف القوى العالمية الكبرى .

فالفارق كبير بين مفهوم القوات البحرية (السلاح البحرى) كأداة حرب تتخذ من البحار والمحيطات مسرحا لعملياتها وبين أن تشكل هذه الأداة " قوة " ذات ثقل مؤثر فالفرق شاسع بين امتلاك الدولة لأساطيل حربية وتجارية مهما كان حجمها وبين أن تكون نفس هذه الدوله قوة بحرية . ويؤكد التاريخ الحديث ـ مرة أخرى ـ هذه الحقيقه ،فبرغم ما كان لألمانيا من أسطول قوى سنة ١٩١٤ إلا أنها لم ترقى الى مرتبة " القوة البحرية " نظرا لأن موقعها الجغرافى وافتقارها الى قدر كاف من القواعد حرمها من فعالية استخدام " سلاحها البحرى " ضد خطوط النقل البحرى التى أكتظ بها المحيط الأطلسى إبان الحرب العالمية الاولى ،فانتصر عليها

خصومها فى النهاية . ولعل عدم تفهم الساسة والقادة الألمان لمغزى القوة البحرية وأبعاد امكانياتها كان من أهم أسباب توريط ألمانيا فى حربين كبرتين فى أقل من ربع قرن مع ماكان واضحا - منذ البداية - من أن " القوى البحرية " ستلعب دورا حاسما فى تقرير مصير كلا الحربين .

وعلى العكس ، نجد أن بريطانيا استغلت موقعها الجغرافى الفريد فى أن تجعل من أمتها " قوة بحرية " مرهوبة الجانب . فهى كجزيرة على مقربة من الساحل الغربى للقارة الأوروبية لم تجد صعوبة فى الدفاع عن نفسها ضد الطامعين من ساكنى أراضى أوروبا . وبالتالى أمكنها الحفاظ على كيانها بواسطة جيش كفء صغير بينما وجهت معظم ميزانياتها لبناء قوة بحرية ضخمة . والأهم من ذلك ، أن موقع الجزيرة البريطانية على حافة خطوط مواصلات شمال المحيط الأطلسى أتاح لها امكانية التحكم فى حركة النقل بين غرب أوروبا من جانب ومواقع مواردها فى امريكا وأفريقيا وآسيا والتى فتح ابوابها المستكشفون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ولذلك كان بوسع بريطانيا دائما ، فى زمن الحرب ، أن تقطع التجارة عن اعدائها وفى نفس الوقت تحصل لنفسها على قواعد جديدة وتجنى أسواق تجارية أو تعيد بناء قوتها . وليس أدل على ذلك من قول الفيلد مارشال مونتجمرى فى كتابه " الحرب عبر التاريخ (١) " : " فى القرن الثامن عشر كان من المستحيل غزو بريطانيا لوجود قوة بحرية كبيره لديها ، وقد مكنتها هذه القوة من هزيمة الأسطولين الفرنسى والأسبانى فى معركة ترافلجار (الطرف الأغر) " ... " واستطاعت بريطانيا أيضا فى سنة ١٨٠٨ انزال قوتها على الساحل البرتغالى وبعدها بسنوات هزمت نابليون الذى كان يملك اكبر قوة عسكرية آنئذ ، ولكنه كان مقيدا باستراتيجية القوة البرية ومسيطرة على تفكيره " ... " ولم تقتصر أهمية القوة البحرية على العصور الماضية بل ظهرت قيمتها بوضوح فى العصر الحديث ، ويمكن ملاحظة ذلك فى معركة العلمين

---

(١) الحرب عبر التاريخ للفيلد مارشال مونتجمرى - تعريب وتعليق العميد / فتحى عبد الله النمر - ص ٥ ، ١٦ من الفصل الأول .

التى كانت بمثابة نقطة تحول فى حرب طويلة الأمد ضد عدو قوى ينتمى الى القارة الاوروبية . فلولا سيطرة الحلفاء البحرية لما استطاعوا الحصول على النصر فى العلمين لانهم تمكنوا بذلك من بناء قواتهم البرية ونقل الامدادات بسرعة اكبر من روميل ،ولولا ذلك لتغيرت النتيجة تماما ولسيطر العدو على ميدان القتال فى العلمين وربما امتد وسيطر على مصر وقناة السويس بها وربما الشرق الأوسط كله" ، . إلى أن يقول : " والدرس المستفاد الذى يمكن الخروج به من دراسة تاريخ الدول هو أن السيادة الحربية تكون دائما فى يد الدولة صاحبة السيادة البحرية " .

ونضيف الى ماقاله مونتجمرى ،أن قوة الحلفاء البحرية وموقع الجزيرة البريطانية الجغرافى بالنسبة لخطوط المواصلات البحرية ومسارح الحرب على الأرض الاوروبية تضافرت ـ ابان الحرب العالمية الثانية ـ فى نجاح الحلفاء فى نقل قوات ضخمة وكميات عتاد ومؤن هائلة من كندا والولايات المتحدة عبر شمال الأطلسى فى وجه الحصار العنيف الذى فرضته الغواصات الألمانية على هذا الجزء من مياه المحيط ، ثم بناء قوة غزو بحرية / برية/ جوية ضخمة بالجزيرة البريطانية وهى القوة التى اجتاحت سواحل " نورماندى " الفرنسية (٦ يونية ١٩٤٤) فى أكبر عملية غزو شهدها تاريخ الحروب (١) ،والتى باتضمامها الى سائر قوات الحلفاء فى أوروبا وبالتعاون مع القوات الروسية اكرهت المانيا على التسليم دون قيد أو شرط .

ويصف الأدميرال الامريكى " نيمتز " (NIMITZ) فى كتابه (Seapower) معنى القوة البحرية فيقول : أنها " لاتقتصر على السفن المقاتلة والأسلحة فحسب وانما هى تضم أيضا السفن المساعدة والسفن التجارية

---

(١) العملية التى أطلق عليها الحلفاء الاسم الكودى (Overlord) والتى بلغ حجم القوات التى اضطلعت بها نحو نصف مليون مقاتل واكثر من ١٢٠٠ سفينه حربية وما يربو على ٤٠٠٠ سفينه نقل وزوارق وسفن ابرار ،وتولى القيادة العامة الجنرال الامريكى " ايزنهاور " على حين تولى " مونتجمرى " قيادة القوات البرية ،اما القوات البحرية فتولى قيادتها الأدميرال الانجليزى " برترام راسل " .

والقواعد والأيدى العاملة المدربة " ... و " أنها تقاس بمعيار القدرة على استخدام البحار فى مواجهة الخصوم والطامعين" .

أما الكابتن " روسكل " المؤرخ البحرى البريطانى الشهير فيعطى وصفا أكثر تفصيلا لمعنى القوة البحرية بقوله (١) : إن الدارس لتاريخ الحروب البحرية قد يمـا وحديثا يخلص الى أن القوة البحرية تعتمد على ثلاث عناصر أساسية : أولها يضم كل أدوات وأسلحة الحرب بحرا والتى تعمل فوق سطح البحر وتحته وفى الجو فوقه والتى يمكن ان نطلق عليه " عنصر القوة " .. أما العنصر الثانى فهو القواعد المؤمنة والتى منها تعمل كل أدوات القوة البحرية ويمكن أن نطلق على هذه القواعد " عنصر الأمن " .. وثالث هذه العناصر هو " البحرية التجارية " التى يجب أن تكون بالحجم الذى يفى بامداد أفراد الأمة بحاجتهم المعيشية ويجلب المواد الخام اللازمة للصناعة ولنقل الصادرات ونقل القوات المحاربة وامداداتها الى مسارح عملياتها ، وهو العنصر الذى ينطبق عليه اسم " عنصر النقل " .

ولقد أسهب المفكر الامريكى " برنارد برودى " فى وصف معنى القوة البحرية والسلاح البحرى،ولكنه فى مواقع محدودة من كتابة " مدخل للاستراتيجية البحرية (٢) يقول : " لم يكن المقصود فى أى وقت من الأوقات أن تعرف أو تقاس أى قوة بحرية لأمة ما بعدد البوارج التى تمتلكها ،ولكنها كانت ولاتزال تترجم وتعرف بمجموع أسلحتها ومنشئاتها وظروفها الجغرافية المختلفه التى تتمكن بها من فرض سيادتها البحرية على خطوط مواصلاتها وممراتها عبر البحار أثناء الحرب . فاذا لعبت الطائرة دورا هاما فى الحصول على هذه السيادة - وهى بلا شك قادرة - فانها فى هذه الحالة تحتسب ضمن أسلحة وأجهزة القوات البحرية ... واذا كان الغرض الرئيسى من القوات البحرية هو السيطرة على النقل البحرى عبر البحار،فان وسائل النقل يجب اعتبارها

---

(١) من كتاب " The War at Sea " Vol. 1, p. 6

(٢) من كتاب " الاستراتيجية البحرية " وضع برنارد برودى وترجمة اللواء اركان حرب سعد الدين صبور - ص ٥ ، ٢٢ ، ٢٣ .

جزء أساسيا من القوة البحرية لا جزء ثانويا أو فرعيا لها . فمن الخطأ قياس القوة البحرية بمعيار السفن الحربية وحدها والا كنا كمن يقيس قيمة نفع السكك الحديدية بمعيار قوة قاطرتها دون حساب لما تسحبه خلفها من عربات تحمل ركابا وبضائع".

هذا وقد تعرضت " الموسوعة العربية الميسرة " لنفس الموضوع (ص ١٤٠٥) حيث جاء فى نهاية وصفها لمعنى القوة البحرية ما يلى " أدركت الولايات المتحدة الأمريكية فى أعقاب الحرب الأهلية أهمية القوة البحرية فشيدت أسطولا تجاريا وحربيا أخذ ينمو حتى بلغ درجة فائقة في القرن العشرين " .

نخلص من ذلك الى أن التسمية " قوة بحرية " هي أكثر شمولا وأدق تعبيرا عما تعارفنا على تسميته " بالسلاح البحرى " أو القوات البحريه" (Naval Forces) وخصوصا فى العصر الحديث بعد أن أصبحت الطائرة والصواريخ الموجهة أدوات أساسية فى الحرب البحرية . بل إن الحرب البحرية كانت مسارحها -حتى الحرب العالمية الأولى - لاتتعدى مسطحات البحار والمحيطات والشريط الساحلي الضيق الذى يحيط بها ،امتدت رقعتها الى أبعاد جديدة تجاوزت سطح البحر والشريط الساحلى الى أعماق البحار والأجواء فوقها والى مسافات بعيدة داخل الأرض حيث الكثافات السكانية والصناعية . وقد أدى هذا التحول والتقدم العلمى والتكنولوجى فى أدوات الحرب البحرية الى تغيير التسمية " القوات البحرية " - فى اللغات غير العربية - الى (١) " Maritime Forces " لتعبر عن المفهوم الحديث للدور الذى تلعبه أدوات الحرب فى المسرح البحرى .

(١) من المتعذر ايجاد مرادف باللغة العربية ينطبق تماما على هذه التسمية لأنها تعني كل ماله صله بالبحر كمسرح حرب لا فرق فى ذلك بين السفينه والطائرة والغواصة وماتحمله كل منها من أسلحه ومعدات أو بين الترسانات ومعاهد التعليم والتدريب والقواعد والثغور،بل والأيدى العاملة بكل هذه القطاعات والمرافق. لذلك فأن التسمية العربية " قوة بحرية " هي الأنسب .

الا أنه برغم كل التطورات والتقدم العلمي والتكنولوجي الذى أحرزته تصميمات السفن والأسلحة والمعدات ،ظلت " الوظيفة " الأساسية للقوات البحرية منذ فجر ظهورها هي : " تمكين الدولة من استخدام السفن أينما وحينما تريد وحرمان العدو من استخدام سفنه أينما وحينما يريد " . وهذا الوصف البسيط لوظيفة القوات البحرية يقتضى منها إحراز " سيادة " على قطاعات ومناطق من مياه البحار والمحيطات المتصلة بمصالح الدولة الخارجية وبشئون أمن أراضيها ،اذ يستحيل على دولة ـ مهما بلغت من قوة ـ أن تحرز " سيادة مطلقة " على كل أرجاء البحار في جميع الأوقات . ومن الطبيعي أيضا أن أبعاد هذه السيادة تعتمد ـ الى حد كبير ـ على مدى تباعد مواقع مصالح الدولة فيما وراء البحار وعلى طول خطوط المواصلات التى تربطها ،عبر البحار ،بهذه المواقع .

وبصفة عامة ،" فالسيادة البحرية " ليست غاية فى حد ذاتها وانما هى وسيلة لخلق ظروف وأوضاع مواتية تتيح للدولة الحفاظ على مصالحها وأهدافها القومية والحيلولة دون اضرار الغير بها . أما فى زمن الحرب ـ على وجه الخصوص ـ فعلى الدولة ان تستثمر هذه السيادة بشقيها ،أى حرمان العدو من استخدام البحار كوسيلة نقل وفى نفس الوقت تتمتع هى بما حرمت أعدائها منه ،والا فقدت " السيادة البحرية " معناها .

السيادة البحرية

وعليه ، . فالسيادة البحرية (SOVEREIGNITY) أو مرادفها مثل" السيطرة البحرية " (CONTROL) وغيرها ، انما قصد بها التعبير عن امكانية تحكم القوات البحرية لدولة ما أو مجموعة من الدول المتحالفة فى قطاعات من البحار وقتما تريد الى أن يحقق لها هذا التحكم ما استهدفته من غايات . وقد يطول الأمد قبل أن تؤتى السيادة البحرية بثمارها المرجوة وبالأبعاد المستهدفه ،ولذلك فهى تختلف ـ فى المغزى ـ عن " التفوق البحرى " (SUPERiority) . فالتفوق هو " موقف " لقوى متضادة ينتهى بانتفاء بواعثه وأدواته ،كالتفوق فى بقعه ما فى وقت ما ثم

إما يزول أو ينتقل الى بقعة أخرى ووقت آخر . أما " السيادة " فهى " حالة " مستقرة تمتد لمدى زمنى طويل ولمدى جغرافى بعيد . وقد يؤدى تكرار مواقف تفوق فى مواقع متفرقه ـ فى النهاية ـ إلى إحراز نوع من السيادة البحرية ،ولكنها لن تكون لها صفة الاستمرار إلا إذا أحسن تطوير هذه التفوقات الموضعية الى "سيطرة" ثم استثمار هذه السيطرة فى اقرار " السيادة " .

ويمكن القول بأن السيطرة التى تفرضها القوة البحرية فى الحرب هى المدخل الطبيعى للسيادة البحرية وهى سيادة يجب أن تمتد الى زمن السلم أيضا ،لأنها خير ضمان لابعاد شبح الحرب واكراه الخصوم على تجنب تحدى القوة البحرية صاحبة السيادة . وهنا تبرز الطبيعة المميزة للقوة البحرية التى تنفرد بها دون سائر القوات المسلحة ،اذ أن الدور الذى يلعبه الأسطول الحربى ـ فى زمن السلم ـ على المسرح السياسى والدبلوماسى العالمى لا يقل أهمية عن دوره فى وقت الحرب . فالأسطول خير مبعوث يمثل الدولة التى يرفع علمها : حضاريا وصناعيا وثقافيا ، بجانب ما يمثله من قوة حربية ،ويأتى هذا التمثيل عن طريق الزيارات التى يقوم بها الأسطول إلى موانى وثغور البلاد الأجنبية على اختلاف مشاربها وجنسياتها ، وبقدر ما تتركه هذه الزيارات من انطباعات تكون ردود فعل حكومات البلاد المضيفه . وهذه الزيارات تعتبرها الدولة الواعية جزءا من تحركها فى الميدان الدبلوماسى وأحد اتجاهات مناوراتها السياسية .وتتم زيارات الأساطيل إما تلبية لدعوة واما بناء على موافقة الدولة على طلب الزيارة . وفى كلتا الحالتين فان الدولة المضيفة ترحب بمقدم الأسطول الزائر لغرض سياسى تضمره فى نفسها أو بقصد اعطاء إنطباع معين تصبو أن ينقله الأسطول الى حكومته ، هذا فضلا عن التعرف ـ عن قرب ـ على مدى التقدم الذى أحرزته الدوله الزائره ، ممثلا فى أسطولها ، مما قد يكون خافيا عليها .

ومهما أطلقت الدول على زيارات الأساطيل من مسميات مخففة مثل " زيارة ودية " أو " زيارة صداقة " أو " زيارة روتينية " فان الزيارة تحمل بين طياتها معنى " القوة" :

قوة الى جانب الصديق ... قوة جذب لمزيد من الاصدقاء ... قوة تهديد للخصوم، ولعل التسمية "استعراض العضلات" هى أصدق تعبير "فنى" لحقيقة الغرض من هذه الزيارات .

ومن ناحية أخرى، فان رفض أو قبول دولة لزيارة أسطول دولة أخرى يعتبر أحد "المؤشرات الدبلوماسية" الدالة على الميول السياسية لهذة الدولة . والعكس أيضا صحيح فقبول أو رفض الدولة لدعوة وجهت لأسطولها يعتبر مؤشرا دبلوماسيا له نفس الدلالة .

ولذلك تحظى زيارات الأساطيل من الجانبين ـ الزائر والمضيف ـ بعناية كبيرة من قبل القيادات السياسية وتعتبرها وزارات الخارجية واحدة من أصعب المهام وأكثرها تعقيدا نظرا لما يسبقها من استطلاعات وتدابير بروتوكولية ومايعقبها من تقارير سياسية وما يحدث أثناءها من مناظرات عقائدية .

خلاصة القول، أن من المتفق عليه أن الحرب هى امتداد للسياسة، فاذا اتفقنا على أن للأسطول دورة الفعال فى السياسة والحرب، فلابد اننا متفقون على ان "القوة البحرية" ـ ممثلة فى الأسطول الحربى والتجارى ـ هى أوثق صلة بالاستراتيجية العليا للدولة من غيرها من القوات المسلحة .

ونود أن نوجه عنايه القارىء الى أن الاستراتيجية ليست حكرا على القوى العظمى وحدها أو أنها لاتتعامل الا مع الامكانات والانجازات الكبرى، واذا كنا ضربنا أمثلة ببعض القوى الكبرى مثل بريطانيا أو المانيا أو الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة الأمريكية فان هذا لايعنى أن الفكر أو المنهج الاستراتيجى وقف على حجم مثل هذه الأمم . . فلكل أمة استراتيجيتها بغض النظر عن حجم هذه الأمة وسواء كانت الدولة متقدمة، أو نامية فقيرة كانت أم غنيه . أعنى أننا ما ضربنا الأمثلة متخذين من هذه الدول الكبرى نماذجا إلا لأن استراتيجيتها غطت آفاقا واسعة وفترات زمنية طويلة

أتاحت للكتاب العسكريين مجالات فسيحة لدراسة وتفهم كافة المناهج والاتجاهات الاستراتيجية . فالصراع الفارسي اليوناني ،والروماني القرطاجي والاسلامي البيزنطي وحرب نابليون والحروب الأهلية الامريكية والحربين العالميتين الأولى والثانية ، كانت ـ جميعا ـ متعددة الأبعاد والاتجاهات تمخضت عنها ردود فعل ملموسة على الصعيد السياسي والعسكري والعلمي والتكنولوجي .

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانيه ،هبت على العالم رياح استراتيجيات لحروب ذات طابع فريد ،مثل : " حرب التحرير " و " حرب العصابات " و " الحرب الباردة " ، وكلها مرتبطه بحجم القوى المشتبكة فيها . ومن نماذج هذه الحروب نذكر : حرب فيتنام وحرب الشعب الجزائرى ضد فرنسا وحرب الأريتريين ضد أثيوبيا ومؤازريها . والمعروف ان هذه الحروب نشبت بين طرف ضعيف عدة وعتادا وطرف يملك كل أسباب القوة أو مدعم بها ،ومع ذلك كان للطرف الأضعف استراتيجية وضعها وانتهجها فى حربه ضد الطرف الأقوى ... وغالبا ما انتصر عليه .

وليس ثمة شك أن أقرب الأمثلة لنا والصقها بنا هو الصراع الذى تعيشه الأمة العربية منذ نحو ثلاثين عاما ضد اسرائيل والقوى المساندة لها ،وهو صراع تخللته عديد من الصدامات المسلحة المباشرة والمعارك غير المباشرة سواء ما كان منها على الصعيد العسكرى أو الصعيدين السياسى والاقتصادى ،والذى توجته حرب اكتوبر ١٩٧٣ بما أحرزته من انتصارات عسكرية وسياسية واقتصادية ونفسية .

الباب الرابع

الصراع البحرى العربى الإسرائيلى

الباب الرابع

الصراع البحرى العربى الأسرائيلى

الصهيونيه العالمية وفلسطين ، لمحة تاريخية

فى يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧ انعقد أول مؤتمر صهيونى عالمى فى مدينة " بازل " بسويسرا ـ بناء على دعوة " تيود ور هرتزل " (١) ـ حضرته وفود تمثل ١٥ دولة (٢) لا يربط بينهم إلا الدين اليهودى ،وأنهم أعضاء جمعيات " حب صهيون " التى تأسست عام ١٨٨٢ بهدف تهجيير اليهود الى فلسطين ، ولعلنا نذكر أن العالم العربى ـ وقتئذ ـ كان ممزقا تحت الاحتلال العثمانى ،والانجليزى ، والفرنسى .

انتهى مؤتمر " بازل " (فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٧) الى عدة توصيات أهمها :-

١ـ انشاء منظمة تسمى " المنظمة الصهيونية العالمية " تعمل على جمع كلمة اليهود على المطالبة بفلسطين وطنا لهم ،وتعيين " هرتزل " رئيسا للمنظمة .

٢ـ السعى لدى حكومات الدول الكبرى للحصول على موافقتها على الحركة الصهيونية ، وتوطين اليهود فى فلسطين(٢).

٣ـ انشاء شركة يهودية للأراضى تكون بمثابة الأداة الاقتصادية ،لتحقيق فكرة اقامة " الدولة اليهودية " .

وشرع " هرتزل " فى الاتصال بالدول الكبرى ،للحصول على تأييدها ، وتبنى احداها لمشروع " الدول اليهودية " ، وكانت ألمانيا هى أولى تلك الدول ، ولكن

(١) يهودى ولد عام ١٨٦٠ بمدينة " بود ابست " عاصمة المجر ،واشتغل بالصحافة وعمل فى باريس مراسلا لصحيفة تصدر فى " فيينا " ،وعينه مؤتمر " بازل " أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية ،وتوفى سنة ١٩٠٤ .

(٢) هذه الدول هى : روسيا ،انجلترا ،فرنسا ،الولايات المتحدة الامريكية ، ألمانيا ، النمسا ،المجر، رومانيا ،بلغاريا ،هولندا ،بلجيكا ،سويسرا ،السويد ،الجزائر(تحت الاحتلال الفرنسى) ،فلسطين (تابعة للخلافة العثمانية) .

القيصر الألمانى لم يقتنع بالمشروع فاتجه " هرتزل " الى السلطان العثمانى ـ الذى تخضع له كل أراضى الشام بما فيها فلسطين ـ وعرض عليه شراء فلسطين ، لمساعدته على حل مشكلة الديون التركية ، ولكن السلطان رفض عرض " هرتزل " . (١)

وفى سنة ١٩٠٢ أتصل " هرتزل " بالحكومة البريطانية التى كان يرأسها " أرثر جيمس بلفور " وعرض عليها مشروعه ، فتبدأ فى نفس السنة مباحثات جديدة بين بريطانيا و " المنظمة الصهيونية العالمية " على أساس توطين اليهود فى " قبرص " أو فى " سيناء " أو فى منطقة " العريش " وفى ذهن المنظمة أن أيا من هذه المناطق تعتبر نصف الطريق الى فلسطين ، لأن كلا منها يصلح مركزا لتجمع اليهود توطئة للقفزة المباشرة على أرض فلسطين . ولكن " هرتزل " لم ينجح فى اقناع المستر " تشمبرلين " ـ وزير المستعمرات البريطانى وقتئذ ـ بأى من هذه المشروعات ، فرأت المنظمة الصهيونية الانتظار بعض الوقت ، واتخذت من " لندن " قاعدة رئيسية لنشاطها ، واختير " حايين وايزمان " (٢) رئيسا " للأتحاد الصهيونى " فى بريطانيا على حين ظلت " برلين " هى المقر الرئيسى للمنظمة .

استغلت المنظمة الصهيونية ظروف الحرب العالمية الاولى ، فشرع " وايزمان " فى تحريك مشروع إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، الى أن دخل (عام ١٩١٧) فى مفاوضات جديدة مع الحكومة البريطانية التى كان يرأسها " لويد جورج " بينما كان " أرثر جيمس بلفور " وزيرا للخارجية ، وهى المفاوضات التى انتهت الى اصدار " وعد بلفور " المشئوم .

فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ صدر بيان " بوعد بلفور " بعد أن أقرته الحكومة البريطانية ، وقد تضمن : " أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف

---

(١) سبق أن رفض السلطان التركى عرضا مماثلا سنة ١٨٩٦ .

(٢) كيمائى من مواليد روسيا عمل فى خدمة المجهود الحربى البريطانى أثناء الحرب العالمية الأولى فى مجال صناعة ، وانتاج المتفجرات .

الى تأسيس وطن قومى للجنس اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية " ... الى آخر البيان . وهو وعد باطل ، لأنه ـ كما وصفه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بعد نصف قرن ـ ... " أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاع الاثنان ، من لا يملك ، ومن لا يستحق ، بالقوة ، وبالخديعة أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه ، وفيما يستحقه " . والجدير بالذكر ، أنه حتى الحرب العالمية لم يتجاوز عدد أعضاء المنظمة الصهيونية ١٣٠ الف يهودى صهيونى ، ولم يتعد عدد يهود سكان فلسطين ٤٥ ألف نسمة (يمثلون نحو ٨٪ من عدد سكان فلسطين) وذلك من ١٣ مليونا هم كل يهود العالم فى ذلك الوقت .

وسارت الأمور بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وفقا للمخطط الصهيونى . ففى عام ١٩٢٠ وضعت العراق ، وشرق الأردن (المملكة الأردنية الهاشمية) ، وفلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وسوريا ، ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، وقد تضمن صك الانتداب البريطانى " وعد بلفور " وبذلك أصبح هذا الوعد وثيقة دولية ، وأصبحت بريطانيا مسئولة ـ أمام عصبة الأمم ـ عن تنفيذه . وفى نفس السنة عينت الحكومة البريطانية " هربرت صمويل " اليهودى ذا الميول الصهيونية أول مندوب سامى لها فى فلسطين ، فانفتحت أبوابها للهجرة اليهودية ، وأنشئت " الوكالة اليهودية " التى أخذت تنتزع الأراضى العربية من أيدى أصحابها ، مما أدى الى قيام الفلسطينيين بأضرابات عنيفة تمكنت بريطانيا من اخمادها . وفى عام ١٩٢٩ تجددت الاضطرابات ، فأضطرت الحكومة الى تشكيل لجنه للتحقيق انتهت الى التوصية بتقييد الهجرة اليهودية ، والحد من انتقال الأراضى الى اليهود ، والعمل على وضع دستور للحكم الذاتى للبلاد . ولما لم تتحقق هذه التوصيات ، قامت حركة عربية وطنيه فى عام ١٩٣٦ صدر على أثرها تقرير للجنه " بيل " التى شكلتها الحكومة البريطانية بتقسيم فلسطين الى دولة يهودية ، وأخرى عربية ، ومنطقة انتداب بريطانى تضم الأماكن المقدسة ، وهو مشروع رفضه العرب فتجددت (عام ١٩٣٩) أعمال العنف ، ودعت الحكومة البريطانية الدول العربية الى مؤتمر مائدة مستديرة بلندن كان مصيره الفشل . وفى نفس السنة أصدرت الحكومة البريطانية " كتابا أبيض " جاء فيه أن بريطانيا

تعمل على تكوين حكومة مستقلة لفلسطين من الجنسين العربى واليهودى ، وتنشأ هذه الحكومة فى مدى عشر سنوات بمقتضى معاهدة تعقد مع بريطانيا ، ونص أيضا فى هذا الكتاب على تقييد الهجرة ، وتحديد بيع الأراضى .

وباندلاع نيران الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، توارت القضية الفلسطينية مؤقتا ، لتعود للظهور مرة أخرى بمجرد انتهاء الحرب فى عام ١٩٤٥ . ففى هذه السنة طلب الرئيس الامريكى " ترومان " الترخيص لمائة ألف يهودى بالهجرة الى فلسطين ، وفى سنة ١٩٤٧ عرضت القضية الفلسطينية على " هيئة الامم المتحدة " ، وفاز قرار التقسيم بأغلبية الأصوات ، وهو يدعو الى قيام دولة عربية ، وأخرى يهودية ، ومنطقة دولية فى الأماكن المقدسة ، وعقب ذلك أعلن وزير خارجية بريطانيا أن حكومته قررت انهاء انتدابها على فلسطين فى يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ . والجدير بالذكر أنه خلال هذه المدة تضافر الانتداب البريطانى مع الهجرة المستترة على زيادة عدد اليهود بفلسطين الى نحو ٦٠٠ ألف يهودى (جاء غالبيتهم من أوروبا الشرقية ، وآسيا ، وأفريقيا) وأن ينظموا عصابات ارهابية مسلحة (١) شنت إغارات وحشية ضد سكان القرى العرب ، والتى كانت أبشعها مذبحة " دير ياسين " (١٠ ابريل سنة ١٩٤٨) ، وأخذت تنتزع القرى من أيدى أهلها الواحدة تلو الأخرى . ولعل أصدق تعبير للموقف فى فلسطين ماقاله " وايزمان " فى مذكراته : " لقد أتفقت مع حكومة بريطانيا على أن تسلمنا فلسطين فارغه وخالية من سكانها العرب" . (٢)

---

(١) تأسس بفلسطين ثلاث منظمات صهيونية ارهابية مسلحة هى : (الهجاناه) ، والتى تعد أكبر هذه المنظمات وقد انضم اليها " بن جوريون " و " موشى ديان " و " ايجال آلون " وغيرهم من قادة اسرائيل العسكريين ، والسياسيين .... و " ارجون زفاى ليومى " ، و " سترن جانج " المنبثقة عن أرجون ، والتى اشتهرت بأعمال العنف والوحشية ضد العرب والانجليز على السواء . والجدير بالذكر أن " مناحم بيجن " كان يرأس منظمة " ارجون زفاى ليومى "

(٢) كتاب " التطورات السياسية ، والاقتصادية فى العالم العربى " للدكتور عبد السلام بدوى ـ ص ١٧٦ .

فى الدقائق الأولى من يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ أعلن يهود فلسطين على العالم قيام " دولة اسرائيل " ،وبعدها بساعات أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية ، والأتحاد السوفيتى اعترافهما باسرائيل ،ليبدأ ـ بعدها بساعات أخرى ـ أول صدام مسلح بين العرب واسرائيل الذى أعطته مصر إسم " حملة فلسطين " ،والتى ترتب على نتائجها " الصراع العربى الاسرائيلى " ثم اكتسب مؤخرا إسم " قضية الشرق الاوسط " .

حملة فلسطين (١٥ مايو ١٩٤٨ - ٢ يوليو ١٩٤٩)

كانت " حملة فلسطين " هى أول تجربة تخوضها البحرية المصرية الحديثة تحت قيادة مصرية خالصة ،ولم يمض على البدء فى اعادة بنائها أكثر من عشرة شهور . لم تكن هناك معلومات متوافرة عن قوة اسرائيل العسكرية سوى أنها قامت على أكتاف العصابات الارهابية المسلحة ،وأن لديها عددا محدودا من الطائرات، وبعض الوحدات البحرية الخفيفة . ولكن الذى لم يكن فيه شك هو مدى اعتماد اسرائيل فى بقائها على مايأتيها من خارجها من مساعدات بشرية ، واقتصادية ،وعسكرية ، لذلك صيغت استراتيجية مصر البحرية على أساس حصار اسرائيل .

بدأت عمليات القوات المصرية النظامية (فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨) فى فلسطين بمجموعتين فى اتجاهين : الأول داخلى يؤدى الى بيت المقدس ، والثانى ساحلى الى تل أبيب عاصمة اسرائيل . وعليه انحصرت خطة العمليات البحرية فى مهمتين رئيسيتين ،هما: حصار مباشر لموانئ الأرض المحتلة ، وحماية جانب القوات المصرية المتقدمة على الطريق الساحلى من ناحية البحر .

أعطت قيادة " السلاح البحرى الملكى " أهمية خاصة لمهمة حصار الموانئ الفلسطينية المحتلة ،ولا سيما ميناء حيفا باعتباره أكبر الموانئ ، وأشدها ازدحاما بالحركة الملاحية ،وأكثرها استعدادا لاعمال الشحن والتفريغ .

أما مهمة حماية جانب القوات المصرية ،فقد خصصت لها مجموعتان من السفن : المجموعة الأولى تضم الفرقاطات " فاروق " و " مصر " و " نصر " (١) للعمل كمجموعة نيران معاونة ، والمجموعة الثانية تضم ٤ كاسحات ألغام خشبية للعمل كمجموعة حراسة ودورية .. مع امكان استخدام هذه المجموعة في اعتراض ،وتحرى السفن المقتربة من الساحل الفلسطيني ،وبالتالي احداث مزيد من التصدع بحركة الملاحة الاسرائيلية .

وقد أدت سفن هاتين المجموعتين مهاما بالقدر الذى سمحت به امكاناتها الفنيه والقتالية المحدودة (٢) بفضل بسالة قادتها ،وأطقمها ،وايمانهم بعدالة القضية التي يحاربون من أجلها . فقد قامت احدى كاسحات الالغام بقصف مدينه " قيصرية " والتي سميت السفينه باسمها ،وقامت كاسحة ألغام اخرى ـ بعد أيام ـ بقصف مدينة " نهارية " وسميت السفينه أيضا بأسمها .

ومن ناحية أخرى أثمرت الداوريات البحرية في فرض شبه سيطرة على المياه المواجهة لساحل فلسطين ،فلم تظهر وحدات العدو البحرية الا نادرا وعلى مسافات بعيدة من السفن المصرية ،وكانت تختفي سريعا وراء الأفق لتجنب الدخول في معركة معها . أما الطيران الاسرائيلي فكان أكثر نشاطا ، وجرأة ولكن يقظة أطقم السفن ردت هجماته المتكررة ،وأسقطت طائرتين .

وما كاد يمضى أسبوعان على بدء القتال ،حتى كانت القوات المصرية قد

---

(١) السفينه نصر دخلت الخدمة بالقوات البحرية المصرية ،لاستخدامها كفرقاطة على الرغم من أنها أصلا كاسحة ألغام كبيرة من طراز " بانجور " انجليزية البناء (عام ١٩٤١) وتبلغ حمولتها ٩٠٠ طن ،وتحمل مدفعين أحدهما عيار ٤ بوصات والثاني عيار ٣ بوصات أما السفينه " مصر " فهي أصلا سفينه حراسة قوافل بنيت عام ١٩٤١ وهى من طراز " فلاور " حمولتها ١٠٠٠ طن ،ومسلحة بمدفعين عيارى ٤ر٣ بوصات ضمت الى خدمة القوات البحرية لاستخدامها هى أيضا كفرقاطة.
(٢) كاسحات الالغام: مصنوعه من الخشب،تبلغ حمولة الواحدة ١٥٠ طنا ،وسرعتها ٧ ـ ٨ عقدة ،وتحمل مدفعا عيار ٣ بوصات و٣ مدافع عيار ٢٠ مم مضادة للطائرات.

اقتربت من مشارف " تل أبيب " ،وكاد النصر النهائي يتحقق لولا تدخل هيئة الأمم فى ٢٩ مايو ،وصدور قرار مجلس الأمن بايقاف القتال لمدة شهر . وفى ٢١ يونيه عقدت الهدنة الأولى ،وفى نفس اليوم تم جلاء آخر قوات بريطانية من ميناء " حيفا " ،واستولت عليه اسرائيل التى استغلت احترام العرب للاتفاقية ، وسارعت بتسليح قواتها بالعتاد الثقيل الذى كان يعوزها ،فتجدد القتال فى ٩ يوليو ،وفى هذه المرة اتخذت عمليات القوات الاسرائيلية طابعا هجوميا بينما ظهرت بوادر الشقاق ،والتصدع فى الصف العربى . وبعد أقل من عشرة أيام من تجدد القتال فرض مجلس الأمن - فى ١٨ يوليو - الهدنة الثانية ،والتى أثناءها لقى الوسيط الدولى الكونت " برنادوت " (١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨) مصرعه على أيدى الصهاينة الذين تدفق عليهم مزيد من شحنات العتاد ،والأسلحة الثقيلة . فلما استكملت استعدادها ،نقضت القوات الاسرائيلية - مرة أخرى - اتفاقية الهدنة ،وقامت بهجوم غادر على القوات المصرية ،وعزلت جانبا منها فى " الفالوجا " وتقدمت على طريق " بير سبع " صوب الحدود المصرية لكن القوات المصرية تصدت للقوات الاسرائيلية وردتها على أعقابها .

أمام نقض اسرائيل لأتفاقية الهدنة ،صدرت الأوامر فى ١٨ أكتوبر للسفينة المصرية " مصر " - التى كانت تقوم بأعمال الداورية ،والحراسة فى المياه المواجهة لقطاع غزة/ العريش - بالتحرك شمالا لتقديم المعونة للقوات المصرية البرية الموجودة بالمجدل حيث وصلتها بعد ظهر نفس اليوم . ولم تكد تمضى دقائق على وصولها حتى تعرضت لهجوم من طائرتين أسفر عن اسقاط أحدهما ،واصابة السفينه وقائدها ،وبعض أفراد طاقمها باصابات متفاوته أدت الى عدم اتمام المهمة ، وأرتدت السفينه الى مرساها بمياه " غزة " لعلاج المصابين ،واجراء بعض الترميمات . وفى صباح اليوم التالى - ١٩ أكتوبر - أبحرت " مصر " مرة أخرى الى المجدل حيث التقت فى حوالى ٩٤٥ بثلاث سفن حربية اسرائيلية اشتبكت معها بالمدفعية فى معركة قصيرة انتهت باصابة إحدى السفن الاسرائيلية واحجام الأخرين عن مواصلة القتال ،وعندما حاولت الطائرات الاسرائيلية التدخل

فى المعركة تصدت لها الطائرات المصرية ، وطاردتها ثم أخذت تهاجم السفن الاسرائيلية مما أتاح الفرصة أمام السفينه " مصر " للارتداد الى قاعدة " بورسعيد " لعلاج الجرحى ، واصلاح أعطاب السفينه .

لم تقتنع القيادة البحرية بالاشتباكات الخاطفة التى تمت بين سفن الأسطول المصرى ، والسفن الأسرائيلية ، ولم تقنع بقصف مدينتى " قيصرية " و " نهاريه " ومن ثم وضعت خطة لتوجيه ضربة موجعة لاسرائيل ... لم تكن الا " تل أبيب " هدفا لها . وفى مساء يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ أبحرت السفينتان " مصر " ، و " نصر " حيث وصلتا مياه " تل أبيب " بعد منتصف ليل ٣١ ديسمبر ١٩٤٩ بقليل ، وشوهدت العاصمة الاسرائيلية متلألئة تحت الأضواء بينما السماء ـ جنوب المدينه بأميال قليلة ـ تتوهج بلهيب طلقات مدافع المعركة البرية . وفى بضع دقائق كانت قذائف السفينتين تنهال على الأهداف الساحلية الحيوية وبخاصة صهاريج البترول ، وشلت المفاجأة الدفاعات الاسرائيلية ، فأخذت المدافع المضادة للطائرات تضرب عشوائيا تجاه السماء ، وتطفأ أنوار المدينه جزء تلو الآخر ظنا منهم أن عاصمتهم تتعرض لغارة جوية . وبعد ٣٠ دقيقة من القصف المركز العنيف كان الجزء الجنوبى الغربى من " تل أبيب " يلتهب بالحرائق ويعكس صورة المدينة التى باتت فى ظلام تام . وفى الساعة الثامنة من صباح نفس اليوم وفى طريق عودتهما الى قاعدتهما ، التقت السفينتان " مصر " و " نصر " بأربع سفن اسرائيلية ، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة بالمدافع اشتركت فيها طائرات العدو . وعلى الرغم من تفوق العدو ، فان دقة نيران الجانب المصرى أصابت احدى السفن الاسرائيلية اصابة مباشرة ، وأحدثت اضطرابا فى صفوف التشكيل الاسرائيلى ألجأه لفك الاشتباك والانسحاب بسرعه نحو الشمال للاحتماء بقواعده الجوية ، ومدفعياته الساحلية ، فتوقفت " مصر و " نصر " عن مطاردته ، وقفلتا عائدتين الى قاعدتهما دون اصابة أو خسارة تذكر .

ما بعد الحملة

توالت الأحداث على الصعيد الاقليمي ،والمحلي بسرعة كبيرة : ففي ديسمبر سنة ١٩٤٨ أصدرت الأمم المتحدة قرارا بتدويل القدس ،والسماح للاجئين العرب بالعودة الى ديارهم ،أو تعويضهم ،وفى ٢٤ فبراير سنه ١٩٤٩ وقعت اتفاقية الهدنة بين مصر واسرائيل ،وتقرر نزع سلاح منطقة " العوجة " واسناد الحكم فى " قطاع غزة " للادارة المصرية .

وفى مارس قامت القوات الاسرائيلية بهجوم فى اتجاه خليج العقبة ،حيث شرعت فى اقامة ميناء " ايلات " ،وفى ٢٣ من نفس الشهر وقعت اتفاقية الهدنة بين لبنان واسرائيل ،وفى ٣ ابريل عقدت اتفاقية الهدنة الدائمة بين الأردن واسرائيل ،وفى ٢ يوليو وقعت سوريا اتفاقية الهدنة مع اسرائيل .

وبموجب هذه الاتفاقيات - التى عقدت فى جزيرة " رودس " - تكون اسرائيل قد وضعت يدها على كل فلسطين عدا : قطاع غزة ،ومنطقة غرب نهر الأردن (الضفة الغربية) التى ضمت الى المملكة الاردنية الهاشمية ... على حين اقتسمت "القدس" بين الأردن واسرائيل . وبعد أن كانت فلسطين تضم - عند بداية الحملة - نحو ١٣٢٠٠٠٠ عربى مسلم ،وقرابة ٦٤٠٠٠٠ يهودى ، انتهت الحملة بتشريد مليون فلسطينى عربى (١) ، بينما انفتحت أبواب فلسطين على مصراعيها للهجرة الاسرائيلية حتى بلغ عددهم فى الأرض المحتلة - بنهاية عام ١٩٤٩ - مايربو على ٩٠٠٠٠٠ يهودى .

والجدير بالذكر أنه على الرغم من كل ما أقدمت عليه اسرائيل من تحدى لقرارات الأمم المتحدة ،واغتيال وسيطها كونت " برنادوت " ،وخرقها لاتفاقيات

---

(١) وزعوا كالآتى : ١٢٨ ألفا فى لبنان ٧٨٥ ألفا فى سوريا ، ٩٤ ألفا فى الأردن ، ٢٤٥ فى قطاع غزة ، ٣٥٧٠٠٠ فى مخيمات بالقطاعات العربية فى فلسطين ، ٣٧٦٠٠٠ فى أراضى فلسطين المحتلة بدون مأوى .

الهدنة، قبلها المجتمع الدولى عضوا بهيئة الأمم المتحدة فى ١١ مايو سنه ١٩٤٩ . وبعدها بعام واحد، فى ٢٥ مايو سنة ١٩٥٠، أصدرت فرنسا وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية بيانها المشهور الذى أعلنت فيه عزمها على اقرار السلام فى المنطقة، ومعارضتها لاستخدام أى من دول المنطقة القوة، أو التهديد باستخدامها، لحل النزاع بينها، ومع ذلك فقد تضمن البيان اباحة بيع السلاح لدول المنطقة بدعوى استخدامه فى الاغراض الدفاعية فقط (١) وهذا يعنى ضمان القوى الكبرى لأمن اسرائيل .

الخبرات المكتسبة من العمليات البحرية

تأسس السلاح البحرى الاسرائيلى بنفس الأسلوب الذى تأسست به عصابة " الهاجاناه " أى كمنظمة سرية تدعى " باليم " قامت على أكتاف بعض يهود البحرية البريطانية الذين شاركوافى الحرب العالمية الثانية . وقد باشرت " باليم " أول نشاط لها فى عمليات تهريب المهاجرين اليهود والأسلحة من سواحل جنوب أوروبا الى فلسطين أثناء الفترة بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٧ . وبفضل تمويل المنظمات اليهودية فى أوروبا، والولايات المتحدة أمكن امداد " باليم " ببعض الفرقاطات البريطانية والأمريكية من مخلفات الحرب العالمية الثانية، بالاضافة الى عدد من الزوارق السريعه ذات الرؤوس المتفجرة، وبعض السفن الصغيرة التى استخدمت فى تهريب المهاجرين . وفى بداية عام ١٩٤٨ شرع الاسرائيليون فى تسليح هذه السفن بمدافع ميدان من عيار ٣ بوصات، وعندما اشتعلت الحرب ـ فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ـ كان لدى اسرائيل ثلاث فرقاطات جاهزة للعمليات هى : " ايلات " و " حنا سينا " و " وبد جوود "

(١) عن كتاب : " التطورات السياسية، والاقتصادية فى العالم العربى " للدكتور عبد السلام بدوى ـ ص ١٧٥ .

فضلا عن عدد من الزوارق المتفجرة ومجموعة من الضفادع البشرية ،ترتكز في عملياتها على ميناء " تل أبيب " نظرا لأن القوات البريطانية لم تكن قد انتهت من الجلاء عن ميناء " حيفا " .

هذا ويمكن القول أن حملة فلسطين - من وجهة النظر البحرية - لم تسفر عن نتائج حاسمة سوى انذار اسرائيل بأن سواحلها ،وثغورها في متناول يد البحرية المصرية ،وأن خطوط المواصلات ،والتجارة البحرية مع العالم الخارجي ، والتي تعتمد عليها حياة شعب اسرائيل هي الأخرى معرضة للانتهاك .

ومع ذلك فقد خرجنا من هذه التجربة بعدة حقائق عن العدو الاسرائيلي أهمها :

١- أن عملياته الحربية ،أرضية ،وبحرية ،تعتمد اعتمادا كبيرا على القوات الجوية في احراز انتصارات مبكرة .

٢- أن الطيران الأسرائيلي على درجة عالية من الكفاءة سواء في القتال أو في تقديم المعاونة لسائر القوات .

٣- أنه يستخدم أسطوله الحربي بتحفظ شديد ،ويركز على الدفاع عن سواحله وثغوره ، ضد أي عدوان عليها متجنبا الدخول في معركة الا اذا فرضت عليه فرضا .

٤- أنه يفضل ،على عكس عقائدها البرية ،اجتذاب المعركة البحرية الى المياه الاسرائيلية حيث الأمان في ظل الحماية الجوية ،والساحلية .

ومن ناحية أخرى ،أثبتت التجربة أن أسطولنا الحربي - حجما ونوعا - لا يصلح لتحقيق استراتيجية مصر البحرية ولا سيما بعد أن شيدت اسرائيل ميناء " ايلات " في أقصى شمال خليج العقبة المؤدى الى البحر الأحمر ،فأصبح لزاما على البحرية المصرية أن تمد عملياتها الى هذا البحر ،لتشديد حصارها . الا أن القيود التي فرضتها دول التصريح الثلاثي على بيع الأسلحة لدول المنطقة وقفت عقبة في حصولنا على وحدات بحرية من طرازات حديثة بحجة أن

فى هذا اثارة لسباق تسليح بين دول المواجهة العربية والاسرائيلية .

الوجه الآخر لنتائج الحملة

وبينما العصابات الصهيونية توحد صفوفها داخل الأرض المحتلة تحت زعامة واعية تساندها قوى عالمية ،وتدعم وجودها هجرة يهودية منظمة ، نجد أن الصف العربى تجتاحه الخيانة ،وتمزقة الأطماع ،والفتن فتتصدع جبهات المواجهة العربية أمام ما سميناه " اسرائيل المزعومة " ، فقد ارتفعت معدلات هجرة اليهود الى فلسطين لنحو ٢٠٠ ألف مهاجر سنويا ،حتى بلغ تعدادهم فى سنة ١٩٥٢ نحو ١٤٣٠٠٠٠ يهودى مقابل ١٧٠٠٠٠ عربى ،وتدفقت على اسرائيل المعونات المالية ،فقد بلغ مجموع ما أسهم به يهود الولايات المتحدة الأمريكية وحدهم ـ فى السنوات الثلاثة التى أعقبت قيام اسرائيل ـ نحو ٥٠٠ مليون دولار على هيئة تبرعات (١)

ثورة ٢٣ يوليو ،واعادة بناء قوة مصر البحرية

لقد كان " لحملة فلسطين " ردود فعل عنيفة فى العالم العربى ،ولا سيما فى مصر التى ازدادت معاناتها من فساد الحكم الذى امتد الى تجارة السلاح أثناء الحملة ،مما أدى الى إثارة " قضية الأسلحة الفاسدة " أمام القضاء ،والتدخل فى انتخابات مجلس ادارة نادى ضباط القوات المسلحة ،وهو التدخل الذى كان بمثابة " القشة التى قصمت ظهر البعير"،ودفع " الضباط الأحرار " للقيام بثورتهم فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ،وخلع الملك " فاروق " ،ومغادرته للبلاد فى ٢٦ يوليو، ثم انهاء الحكم الملكى فى مصر ،واعلان الحكم الجمهورى فى ١٨ يونيه سنة١٩٥٢ وتعيين اللواء/ محمد نجيب أول رئيس " للجمهورية المصرية " ،ورئيسا للوزارة، واختيار جمال عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء .

(١) عن كتاب " The Middle East in World Affairs " pp. 342 & 343.

وجهت حكومة الثورة اهتماما نحو اعادة بناء وتنظيم قوة مصر العسكرية على أساس مواصلة الحصول على السلاح من مصادره التقليدية بالدول الغربية ، إلا أن تسويف بعض هذه الدول ، وتعنت البعض الآخر جعل رجال الثورة يبحثون عن مصدر جديد للسلاح ، لا يماطل ، ولا يفرض شروطا تنال من استقلال مصر ، أو تضع قواتها المسلحة تحت سيطرة أجنبية . ووجدت الحكومة المصرية بغيتها في دول " الكتلة الشرقية " التى عرضت أن تقوم بتسليح القوات المصرية وبشروط مالية مغرية ، ودون أى شروط سياسية أو عسكرية. فتم - في سبتمبر سنة ١٩٥٥ (١) - عقد اتفاقية التسليح التى عرفت وقتئذ بأسم " صفقة الأسلحة التشيكية " .

كان نصيب البحرية المصرية في هذه الصفقة مدمرتين من طراز " سكورى " و ٦ غواصات ، و١٢ زورق طوربيد ، و ٦ كاسحات ألغام ، و ٦ قناصات مطاردة للغواصات ، وعددا كبيرا من الألغام البحرية ، بالاضافة الى احتياطى واف من الذخيرة ، وقطع الغيار . كما تضمنت الاتفاقية تدريب الأطقم على العمل في هذه الوحدات ، واستخدام الاسلحة ، والأجهزة ، والمعدات الحديثة ، هذا فضلا عن الاتفاق على مشروع بأنشاء ورش بمصر ، لاصلاح وصيانة السفن ، والأسلحة ، والمعدات بمساعدة خبراء متخصصين . وتعتبر هذه الصفقة أكبر ، وأقوى دعم ظفرت به البحرية المصرية في تاريخها الحديث ، وتطويرا هاما لامكاناتها وقدراتها يكسبها تفوقا ملموسا على العدو الاسرائيلى .

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة . فحتى ذلك الوقت - عام ١٩٥٥ - كان التعليم ، والتدريب يتبع الأساليب ، والمناهج الغربية ، والأنجليزية على وجه

---

(١) في عام ١٩٥٥ قامت القوات الاسرائيلية باعتداءات وحشية على مدن " خان يونس " و " غزة " ، و " العوجة " ، و " الصبحة " ذهب ضحيتها أعدادا كبيرة من المدنيين ، والعسكريين دون أن تلقى القوات المعتدية مقاومة تذكر ، ودون أن يكون بوسع مصر الرد عليها بسبب ضعف تسليح القوات المصرية وتخلفها ، مما أحرج مركز حكومة الثورة حرجا شديدا . ولعل هذا كان أحد الأسباب القوية التى عجلت بالاتجاه الى دول الكتلة الشرقية ، للحصول منها على سلاح حديث .

الخصوص تمشيا مع نوعية السفن ،والأسلحة التى كانت فى حوزة " القوات البحرية" (١) ،والتى كانت تضم ثلاث فرقاطات(رشيد ،د مياط ،طارق) ومد مرتين صغيرتين (محمد على ، ابراهيم) بريطانية الصنع، بالاضافة الى توقع الحصول على مد مرتين أخرين من الأد ميرالية البريطانية خلال عام ١٩٥٦ هذا علاوة على الوحدات البحرية القديمة التى د خلنا بها " حملة فلسطين" سنة ١٩٤٨ .

وباتمام الصفقة التشيكية أصبح الوضع يقتضى التحول الى أساليب ،ومناهج عمل ،وتد ريب ،وصيانة جديدة تختلف كثيرا عما أعتادت عليه القوات ،والأهم من ذلك هو أن يتم التحول فى أقصر وقت ممكن ،وأن تواصل القوات البحرية استخدام السفن " الغربية الصنع" أثناء فترة التحول ،والتى بانتهائها يتم تنظيم النوعين فى تشكيل جديد للأسطول المصرى .

ولعلنا نكون قد لاحظنا أن المدمرات ،والفرقاطات الغربية الصنع ـ والتى لا زالت صالحة للعمليات ـ تمثل أكثر من نصف حجم الأسطول المصرى المرتقب ، وهذا يعنى ـ وهنا مكمن الصعوبة ـ أن على القوات البحرية أن تصهر العقائد الغربية ،والعقائد الشرقية فى عقيدة مصرية موحدة .

ومن ناحية أخرى كانت الغواصات ،وزوارق الطوربيد ،وقانصات الغواصات، والالغام،والطوربيدات أدوات ،وأسلحة حرب جديدة على القوات البحرية المصرية تستخدمها ،وتقوم على صيانتها ،واصلاحها لأول مرة ،وهى أمور تحتاج ـ هى الأخرى ـ لوقت غير قصير،لتفهمها ،واتقانها ،فضلا عما يثيرة تباين مصادر الأسلحة والذخائر، وقطع الغيار من مشاكل إدارية،ومخزنية لا حصر لها .

---

(١) تعدلت تسمية " السلاح البحرى " الى " القوات البحرية فى أبريل ١٩٥٣ وتعين الأميرالاى (عميد) سليمان عزت ، فريق أول فيما بعد، قائدا لها الى أن قدم استقالته فى ٩ يونية سنة ١٩٦٧ .

وقد يبدو أن الجرعة كانت أكبر من أن تستوعبها القوات البحرية وقتئذ أو أن استيعابها يحتاج لوقت أطول مما تسمح به الأوضاع مع اسرائيل . ومع اعترافنا بأن كلتا النظرتين صحيحة ،إلا أن الركود الحربى الذى ساد المنطقة وما كانت عليه قواتنا من استعداد نفسى وعلمى شجعنا على الاصرار على قبول التحدى . وعلى هذا سارت سياسة القوات البحرية فى ثلاث اتجاهات متوازيه فى وقت واحد : " غربى " بدراسات عليا فى كلية الدفاع المشتركة فى الهند ، والدراسات التاكتيكية والفنية المؤهلة لاستخدام المدمرتين " القاهر " و"الفاتح" بأنجلترا و" شرقى " بدراسات تاكتيكية ،وفنية فى تشيكوسلوفاكيا ،ثم بالاتحاد السوفيتى (بجانب ايفاد عدد من الضباط البحريين لحضور دورات كلية أركان الحرب بالقاهرة مع زملائهم من ضباط الجيش والطيران) ، واجراء العمرات الرئيسية للمدمرة " ابراهيم " ،والفرقاطة " طارق " وادخال تعديلات على معداتها فى ترسانات مالطة ،وجبل طارق ،فى الوقت الذى كانت فية ترسانات انجلترا قائمة على تجهيز المدمرتين " القاهر " ، و" الفاتح " .

واستنادا الى تجربة حملة فلسطين ، وما أظهره الطيران الاسرائيلى من كفاءة فى القتال ،وفى تقديم المعاونة للعمليات البحرية ،والبرية ،شرعت قيادة القوات المسلحة المصرية فى وضع قواعد للتعاون الجوى ،وتركت لقيادتى القوات البحرية ،والقوات الجوية تحديد صيغة ،وأسلوب هذا التعاون .

وللأسف الشديد اصطدمت اللجان التى شكلت لهذا الغرض بصعاب كثيرة منها ـ على سبيل المثال ـ اختلاف طريقة استخدام الخرائط ،والعمل عليها فى القوتين ،افتقار أطقم الطائرات والسفن لامكانات تمييز الأهداف الجوية ، والاهداف البحرية ،وعدم وجود وسيلة تعارف بين الطائرات والسفن ،وأن أطقم الطائرات بحاجة الى مران كثير على أعمال القتال فوق البحر .

وعلى الرغم من تفهم كل جانب لطبيعه عمليات الجانب الآخر، وتقديره لمشاكله والصعاب التى يمر بها، فلم تسفر اجتماعات اللجان المتكررة الا عن مجرد توصيات بعد أن فشلت فى التوصل الى أسلوب للتعاون يرضى الجانبين .

ومع ذلك اشتركت الطائرات المصرية فى التدريبات، والمناورات البحرية ، مما أدى الى التغلب - جزئيا - على بعض المشاكل، والاختلافات ، وتركت البقية دون حل .

وبكل الثقة، والأمل فى المستقبل أخذنا نرمق الأفق متعجلين غروب عام ١٩٥٦ عندما يصبح لمصر قوة بحرية على قدر من التوازن يمكنها من فرض سيطرتها على مياه مسرحى البحر المتوسط، والبحر الأحمر . ولكن ما كاد عام ٥٦ يشرف على نهايته الا وانقضت قوى العدوان الباغية على مصر تريد الاطاحة بثورتها ، وتحطيم آمالها وأمنها .

العدوان الثلاثى على مصر (٢٩ أكتوبر/ ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦)

إن ماحدث فى النصف الثانى من عام ١٩٥٦ هو مصداق للقول بأن " التاريخ يعيد نفسه " . ومهما كانت ذريعة بريطانيا، وفرنسا فى تدبير عدوانها على مصر فى أكتوبر من ذلك العام واشراك اسرائيل معهما، فالحقيقة أن هذا العدوان هو تجسيد للسياسة التى دأبت على انتهاجها دول الاستعمار القديم كلما أحست بأن مصر بصدد بناء قوتها العسكرية التى قد تهدد نفوذهم فى المنطقة وخصوصا أن غالبية الدول العربية لم تكن قد تخلصت من براثن النفوذ الاجنبى .

والعدوان الثلاثى " الأنجلو فرنسى الاسرائيلى " الذى وقع على مصر فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ له خلفية سياسية، واقتصادية يرجع تاريخها الى الشهور الأولى من تلك السنة .

ففى ذلك الوقت كان جمال عبد الناصر أحد زعماء ثلاثة يقودون سياسة " الحياد " فى العالم بعد اشتراكه فى المؤتمر الأفرو آسيوى " فى " باندونج " فى ابريل عام ١٩٥٥ حيث التقى بزعماء آسيا : نهرو (الهند) ، وشوان لاى (الصين) ، وسوكارنو (أندونسيا) .

انطلق عبد الناصر مع " نهرو " ، و " تيتو " ينادون بالحياد الايجابى الذى تحول ـ فيما بعد ـ الى سياسة " عدم الانحياز " ، ويدعون دول العالم الثالث الى انتهاج هذه السياسة بين الشرق والغرب . وانطلاقا من هذه السياسة ، عارضت مصر بشدة " حلف بغداد "(الحلف المركزى فيما بعد) الذى زرعت بذوره بريطانيا فى منطقة الشرق الأوسط ، وهاجمة عبد الناصر هجوما عنيفا ، فلم تجد أى دولة عربية الشجاعه على الانضمام للحلف فتجمد على أعضائه الأربعة : العراق ، وايران ، وباكستان ، وتركيا . (١) وتحت ضغط سياسة " القومية العربية " التى تزعمها جمال عبد الناصر ، قام الأردن ـ فى مارس سنة ١٩٥٦م ـ بطرد الجنرال الانجليزى " جلوب " الذى كان يعمل رئيسا لأركان الجيش الأردنى .

أثارت حركات التحرر السياسى فى المشرق العربى ، وعلى الصعيد العالمى حفيظة بريطانيا ضد جمال عبد الناصر والنظام الحاكم فى مصر ، ولا سيما أن القوات البريطانية المتمركزة بمنطقة قناة السويس كانت على وشك الجلاء نهائيا عن مصر(٢) ، الأمر الذى يحرم بريطانيا من وسيلة تضغط بها على مصر ، أو تهدد

---

(١) بدأ باتفاقية تعاون عسكرى بين تركيا ، وباكستان فى أبريل سنة ١٩٥٤ ثم بأتفاقيات مماثلة بين تركيا ، والعراق ، وايران ، وفى ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٥ تم توقيع الحلف بين تركيا ، والعراق وتبعتهما باكستان فى يونية ، ثم ايران فى اكتوبر من نفس النسنة . والحلف يستهدف إقامة حزام عازل للاتحاد السوفيتى يحول دون مد نفوذه الى دول الشرق الأوسط التى تدور فى فلك الغرب .

(٢) بموجب الاتفاقية الانجلو مصرية التى أبرمت فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ كان على القوات البريطانية مغادرة قواعدها بمنطقة قناة السويس فى خلال ٢٠ شهر من تاريخ توقيع الاتفاقية الذى ينتهى فى ١٨ يونية سنة ١٩٥٦ .

النظام الحاكم . وعلى الجانب الآخر كان تأييد مصر لثورة الجزائر، ودعمهـا لها بالمال، والعتاد سببا في كراهية فرنسا، هي الأخرى، لعصر وحكوماتهـا، فلم تتوان عن الاغداق على اسرائيل بشحنات الطائرات، والدبابات بدعـوى التحوط ضد " الفراغ " الذى سيخلفه رحيل القوات البريطانية عن منطقة قنـاة السويس . وكان تأييد حكومة " بكين " لسياسة مصر، وما أبدته من استعـداد لتقديم معونات اقتصادية، وعسكرية للحكومة المصرية بالاضافة الى الصداقة التى كانت تربط عبد الناصر، وشواين لاى ، وتأكيدا لسياسة عدم الانحياز ، مـن الأسباب القوية التى حدت بمصر للاعتراف " بالصين الشعبية " التى حرمهـا المجتمع الدولى من عضوية هيئة الأمم المتحدة ... فانضمت الولايات المتحـدة الأمريكية الى المعسكر الانجلو فرنسى اسرائيلى الكاره لمصر .

فاذا اعتبرنا أن سياسة مصر، وصفقة الأسلحة التشيكية أسباب لاثارة حفيظة الثلاثة الكبار ـ انجلترا، وفرنسا ، والولايات المتحدة ـ فان الدور الاستفـزازى الذى لعبوه فى موضوع " السد العالى " بجانب دعمهم السياسى ، والاقتصادى ، والعسكرى لاسرائيل ، كان السبب المباشر لغضبة الشعب المصرى ضد الكبـار الثلاثة .

كان " السد العالى " أحد المشروعات الطموحة التى تبنتها حكومة الثورة فى سعيها نحو بناء رفاهية الانسان المصرى ، ورفع مستوى الدخل القومـى عـن طريق زيادة الرقعة الزراعية، وتوليد الطاقة الكهربائية ، للاستفادة بها فى حركة التصنيع، ومشروعات كهربة الريف المصرى ، والاحتفاظ بمخزون مائى لا يتأثر بتذبذب كمية مياه فيضان نهر النيل يكفى لتحويل الرى الموسمى الى رى دائم حـتى لا يتعرض الانتاج الزراعى لأزمات القحط، أو الجفاف . وبعد سلسلة من الاتصالات وفى محاولة لابعاد النفوذ الشيوعى عن منطقة الشرق الأوسط ، تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية ـ فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ ـ باقراض مصر ٥٤ مليـون دولار ، وقدمت بريطانيا قرضا قيمته ١١ مليون دولار أخرى ، وذلك لتمويل المراحـل الأولى لبناء السد العالى . وفى ١١ فبراير سنة ١٩٥٦ أبرمت مصر مع البنـك

الدولي - بتشجيع من أمريكا - اتفاقية " مبادئ " تحصل بمقتضاها الحكومة المصرية على قرض قيمته ٢٠٠ مليون دولار بفائدة ٣٪ يسدد على ٢٠ سنه . وفي نفس الوقت تقريبا أبدى الاتحاد السوفيتي استعداده لتمويل المشروع بقرض لا يزيد فائدته عن ٢٪ ويسدد على ٣٠ سنة ، وامكانية سداد جزء من القرض بالقطن المصرى ، كما أبدى استعداده أيضا للقيام ببناء السد كأحد المشروعات الصناعية الكبرى التى ترحب " موسكو " بالمعاونة فى إقامتها بمصر .

وجاءت اللطمة المهينه التي وجهها الغرب الى مصر يوم ١٨ يوليو سنة ٥٦ عند ما نشرت الصحافة الامريكية تصريحا لوزير الخارجية الأمريكي (فوستر دالاس) يعلن فيه عن سحب القرض الأمريكي لتمويل مشروع السد العالى (١) ، وتبعتها بريطانيا ، ثم البنك الدولي ، وقد أذيع هذا التصريح فى الوقت الذى كان فيه الرئيس المصرى جمال عبد الناصر يحضر مؤتمر عدم الانحياز مع نهرو ، وتيتو فى بريونى بيوجسلافيا ، ومصر كلها تستعد لاستقباله عند عودته فى اليوم التالى الى أرض الوطن كزعيم للقومية العربية ، وأحد أبطال " عدم الانحياز " ، على حين كانت الأمة الاسلامية تحتفل بمقدم عيد الأضحى المبارك (١٠ من ذى الحجة سنة ١٣٧٥ هـ) ، وبعد أيام معدودات يحتفل الشعب المصرى ، وقواته المسلحة بالذكرى الرابعه لثورة ٢٣ يوليو . أى أن الغرب اختار توقيتا يحقق له الحاق أكبر قسط من الاهانة لشعب مصر ، ولثورته ، والحط من كرامة قيادته ... لا لشيء الا لارهاب حكومة الثورة فى مصر ، وأن تكون عبرة لأى دولة عربية تحاول أن تحذو حذوها . هذا وقد تكشف - فيما بعد - الدور الذى لعبته فرنسا ، والمنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الضغط على الحكومة الامريكية لأتخاذ قرار سحب تمويل مشروع السد العالى بالصورة التى تمت عليه ولا سيما أن اسرائيل كانت تدبر عدوانا على الأردن ، وتريد ابعاد مصر عن التدخل فيه .

---

(١) من هنا جاءت الاهانة ، إذ أخفت الحكومة الامريكية نواياها ، ولم تخطر سفير مصر بواشنطون الدكتور/ أحمد حسين عن قرار سحب التمويل الا فى اليوم التالى على اذاعته على الرغم من أن السفير المصرى التقى أكثر من مرة بوزير الخارجية الامريكي خلال شهر يوليو ١٩٥٦م.

جاء دور مصر لترد اللطمة بأعنف منها . ففى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ بميدان الجمهورية بالأسكندرية ،وعلى مسمع من مئات الملايين فى مصر والعالم أجمع أعلن الرئيس جمال عبد الناصر قرار تأميم شركة قناة السويس ،وأنها منذ اللحظة التى أعلن فيها قرار حكومة الثورة تكون قد آلت هي والقناه الى أهلها الشرعيين ... شعب مصر . ومن عائدات القناة سوف تبنى مصر السد العالى . (١)

وهلل الشعب المصرى فرحا ... وهللت شعوب العالم الحر لهذا القرار الثورى الجرئ ... وطاش صواب فرنسا ،وانجلترا ،وجمدتا الأرصدة المصرية الموجودة ببنوك البلدين ... وأنحت اسرائيل باللوم على الدول الكبرى التى تركت لقادة مصر الحبل على الغارب .. ثم أخذت الأحداث تتلاحق بسرعة عجيبة فى الشهور الثلاث التالية .

تحولت شركة قناة السويس الى "هيئة قناة السويس" ،وجل اهتمامها موجة الى انتظام حركة الملاحة بالقناة ،والاستعداد لاحباط أى محاولة لتعطيلها . لذلك عند ما أخذ المرشدون الأجانب فى مغادرة البلاد بايعاز من حكوماتهم ،سارعت القوات البحرية بامداد هيئة القناة بعدد من الضباط البحريين حلوا ـ تدريجيا ـ محل المرشدين الأجانب . وبانتهاء هذه الجولة بسلام ،شرعت فرنسا ،وانجلترا فى تأليب الرأى العام ضد هيئة قناة السويس ، ومطالبة الدول البحرية بمقاطعه القناة ،أو سداد رسوم المرور بها الى " هيئة المنتفعين " التى أبتدعتها الدولتان ،واتخذتا من لندن مركزا لها . ولما فشلت هذه المحاوله ،طالبت فرنسا ،وانجلترا بوضع القناة تحت اشراف دولى فى الوقت الذى أعلن فيه"جي موليه" رئيس وزراء فرنسا ،و "ايدن" رئيس وزراء بريطانيا عن عزم حكومتيهما على اتخاذ "اجراءات وقائيه" ضد التأميم واستدعاء قوات الاحتياط بالبلدين ،وعن اعتزام الحكومة الفرنسية سحب رعاياها من مصر . وقد بدأت

---

(١) بلغت ايرادات قناة السويس فى ذلك الوقت نحو ٩٠٠ مليون دولار سنويا على حين قدر صافى الأرباح بحوالى ٢٣٠ مليون دولار ،لم تكن تحصل مصر الا على ٣٪ فقط منها .

الحكومتان فى حشد الطيران البريطانى فى مالطه ،والأسطول الفرنسى فى طولون ، فى الوقت الذى وجهتا الدعوة فيه لحضور مؤتمر يعقد فى لندن فى ١٦ أغسطس تحضره الدول البحرية المعنية ومصر لايجاد " تسوية سليمة" للأزمة ،ورفضت مصر ـ بطبيعة الحال ـ حضور هذا المؤتمر ،وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر، فى ١٢ أغسطس ،عن استعداد الحكومة المصرية لتوقيع اتفاقية دولية لضمان حرية الملاحة فى القناة تحفظ كوثيقة تعهدية فى الأمم المتحدة . وأجتمع مؤتمر لندن فى موعده ،وحضره مسئول مصرى كمراقب من قبل الحكومة المصرية ،وقرر المؤتمر ـ تحت الضغط الأنجلو فرنسى ـ انشاء هيئة دولية لادارة قناة السويس ،قابلته مصر بالرفض .

وفى ١٢ أكتوبر أجتمع مجلس الأمن بناء على طلب انجلترا ،وفرنسا فى الوقت الذى كانت فيه الدولتان تحشدان قوات برية ،وبحرية ،وجوية ضخمة فى جزيرة قبرص ، ووافق المجلس على مشروع اتفاق من ست مبادئ تتضمن الاعتراف بتأميم شركة قناة السويس ،وسحب الطلب الأنجلو فرنسى بادارة دولية للقناة ، وألا تخضع عملية تشغيل القناة لسياسة دولة بذاتها مراعاة للصالح العالمى . وكاد المشروع يحصل على موافقة المجلس لولا " الملحق التفسيرى " الذى تقدمت به بريطانيا ،وفرنسا الذى يطالب بأن تظل القناة مفتوحة لجميع السفن على مختلف جنسياتها (المقصود طبعا اسرائيل) ،فأستخدم الاتحاد السوفيتى " الفيتو " ضد القرار ،وعارضته مصر .

وفى ١٦ أكتوبر أجتمع " أنطونى ايدن " رئيس وزراء بريطانيا و " جى موليه " رئيس وزراء فرنسا ،وعدد محدود من المستشارين فى باريس ، واتخذوا قرارا سريا بغزو مصر .

وعلى هذا فيمكن القول بأن الزوبعة التى أثارتها فرنسا ،وانجلترا بخصوص حرية الملاحة بقناة السويس ،وكفاءة تشغيل القناة ،وغيرها من الادعاءات ،لم تكن الا ستارا لاخفاء حقيقة نواياهما العدوانية ضد حكومة الثورة ،وقائدها على

وجه الخصوص . ولكن كيف يتأتى للدولتين تبرير استخدامهما للقوة المسلحة ضد مصر أمام الرأى العام العالمى الذى شهد بكفاءة أداء الادارة المصرية فى تشغيل قناة السويس ، وأمام الولايات المتحدة الأمريكية ، والأتحاد السوفيتى ـ بنوع خاص ـ اللذين عارضا فكرة " الحل العسكرى " للأزمة ؟

على الجانب الآخر كانت اسرائيل ، على مايبدو وقتئذ ، مازالت تهدد بالهجوم على الأردن ، لوقف اغارات الفدائيين العرب التى كانت تنطلق عبر الحدود الأردنية . وحتى منتصف شهر أكتوبر لم تكن الحكومة الاسرائيلية قد دعت قوات الاحتياط بعد ، ولم تعلن التعبئة العامة مما أوحى ـ لنا على الأقل ـ بأن كل شيء هادئ على الجبهة المصرية . وكل ما كان معروفا ، فى ذلك الوقت ، أن فرنسا بصدد تزويد اسرائيل بأعداد كبيرة من الطائرات والدبابات عقب الزيارة التى قام بها " بن جوريون " رئيس الحكومة ، ووزير الدفاع الاسرائيلى لفرنسا فى شهر سبتمبر. (١) أما الحقيقة ـ التى لم تكتشف الا بعد ذلك بوقت طويل ـ فكانت أن " بن جوريون " ذهب الى فرنسا ليطلع المسئولين بها عن عزم اسرائيل على تحويل هجومها عن الأردن الى سيناء ، وشن حرب خاطفة للقضاء على القوات المسلحة المصرية قبل أن يكتمل تدريبها على الأسلحة الجديدة ، وبذا يكون أمام فرنسا ، وانجلترا فرصة مواتية للاطاحة " بحكم " عبد الناصر " ، واستعادة قناة السويس من قبضة المصريين . وقد تكشف أيضا ، أن " بن جوريون " طلب ـ أثناء زيارته السرية الثانية لفرنسا ـ أن تضمن له فرنسا ، وانجلترا حماية جوية ، وبحرية للمدن ، والثغور الاسرائيلية حتى يتفرغ الطيران الاسرائيلى لعمليات تدمير القوات المصرية فى سيناء . وهنا تولدت لدى المسئولين الفرنسيين فكرة اتخاذ الحرب بين مصر ، واسرائيل ذريعه للتدخل بالقوة لحماية قناة السويس من أخطار الحرب خدمة للمصالح الدولية ، وهى فكرة لم يكن من الصعب اقناع " ايدن " بها ، وتم بذلك نسج أول خيوط المؤامرة الأنجلو فرنسية اسرائيلية .

(١) الجدير بالذكر فى هذا المقام أن " مناحم بيجين " ـ زعيم حزب المعارضة " هيروت " وداعية الحرب الوقائية ضد مصر ـ قام أيضا بزيارة لفرنسا فى نفس الشهر مما أثار الكثير من التكهنات على صفحات الصحف الفرنسية .

ولعل طلب " بن جوريون " الحماية الجوية ،والبحرية كان السر وراء ضخامة حجم القوات التى حشدتها فرنسا ،وانجلترا فى جزيرة قبرص ،وهى ضخامة أثارت دهشتنا وقتئذ ،لأنها تفوق كثيرا حجم ،وأبعاد عمليات مقصود بها " استخلاص قناة السويس من قبضة مصر واسقاط عبد الناصر " . كما تكشف أيضا أن الاتفاق الثلاثى قام على أساس ألا يبدأ تدخل القوات الأنجلو فرنسية إلا بعد مضى ثلاثة إلى أربعة أيام على بدء الهجوم الاسرائيلى ،وأن يكون أول عمل تقوم به هو تدمير الطيران المصرى .

أما فى مصر فكانت الملاحة بقناة السويس ،وادارتها تمضى بدقة ،ونظام رائعين أعترف بهما العالم أجمع . ولم تأل الحكومة المصرية جهدا فى تهدئة روع فرنسا ،وانجلترا ،وطمأنة الدول البحرية على مستقبل القناة بما أعلنته عن عزمها على السير فى مشروعات تطوير ،وتوسيع القناة ،وتعهدها بتعويض حملة الأسهم . ومن ناحية أخرى أخذت القوات المسلحة المصرية تعد نفسها لمواجهة تطورات الموقف ،واحتمال تحول النزاع السياسى الى نزاع مسلح ،وهو احتمال زادته قوة حجم الحشود البرية ،والبحرية ،والجوية التى أخذت تتجمع فى قبرص ، والنشاط البحرى البريطانى المتزايد فى شرقى البحر المتوسط الذى قابله نشاط بحرى أمريكى وسوفيتى بالاضافة الى ظهور نشاط بحرى بريطانى آخر فى مياه البحر الأحمر .

ونحن نعترف لاسرائيل بحسن اختيارها لتوقيت هجومها ـ أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٥٦ ـ وهدف الهجوم ،تدمير القوات المسلحة المصرية شرقى القناة ، نظرا لأن القوات المسلحة المصرية ـ ولا سيما القوات الجوية ـ لم تكن قد استكملت استلام كل تسليحها الجديد ،ولم يكتمل تدريبها على ما أستملته منه ،فضلا عن وجود أعداد كبيرة من الضباط والقادة فى دورات تدريبيه خارج البلاد ،الأمر الذى يجعل القوات الأسرائيلية فى الوضع الأفضل ،فما بالنا بجحافل القوات الأنجلو فرنسية ؟

لم تكن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية بغافلة عن الظروف والملابسات السياسية ، والعسكرية المحلية ، والعالمية التى كانت تحيط بالموقف خلال شهور سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٥٦ . فقد كانت كل الدلائل تشير الى أن بريطانيا وفرنسا ستدفعان بأسرائيل للعدوان على مصر لتتخذه ذريعة لغزو الأراضى المصرية ، واذا كان بوسع قواتنا - بحالتها التى كانت عليها وقتئذ - التصدى لهجوم الاسرائيليين ، وهزيمة قواتهم ... فالواقع يؤكد ألا قبل لقواتنا على صد الغزو الأنجلو فرنسى ، وأن كل مايمكن أن تفعله هو أن تلاقى مصيرها بشجاعه واستبسال زودا عن كرامة الوطن وسيادته ، وأن تظهر للعالم كيف تقف إرادة أمة صغيرة فى وجه طغيان قوى كبرى مهما كان الثمن . وقد عبر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أبلغ تعبير عن هذا الموقف بقوله : " بحريتنا قامت بعمليات حربية حاربت فيها البحرية الفرنسية ، والبريطانية ... عمليات انتحاريه .. كان الضباط والعساكر بيخرجوا وهم عرفين أنهم مش راجعين ... وكانت دى هى الروح اللى حارب بها سلاحكم البحرى " . (١)

نعود إلى يوم ٢٦ يوليو ، اليوم الذى أممت فيه شركة قناة السويس وكانت القوات البحرية هى أول من تأثر مباشرة بردود الفعل ، فقد وافق هذا اليوم موعد الاستلام النهائى للمدمرتين " القاهر " ، " والفاتح " من الترسانات الانجليزية فى " سوثهامبتون " ، فلما أذيع نبأ التأميم سارعت السلطات البريطانية المختصة بسحب كل ذخيرة ، وطوربيدات المدمرتين - ليلا - من مخازن الترسانة ، ورفض مندوبو الأدميرالية المحاولات التى بذلتها لجان الاستلام المصرية ، واحتجاج السفارة المصرية على هذا الفعل الذى يعتبر خرقا صريحا لشروط العقد . وغادرت المدمرتان الميناء الانجليزى عائدتين الى مصر لا حول لهما ولا قوة ، فى الوقت الذى كانت فيه المدمرتان الاسرائيليتان " يافو " ، و " ايلات " تعبان - من مخازن الأدميرالية البريطانية - كامل حمولتيهما من الذخائر

---

(١) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر الذى ألقاه على الشعب المصرى من جامع الأزهر فى ٩ نوفمبر ١٩٥٦ .

والطوربيدات . وفشلت جميع محاولات الحكومة المصرية فى الحصول على أى قدر من الذخيرة " للقاهر " و " الفاتح " من البلاد الصديقة إما لأنها لم تكن تملك أسلحة بنفس الطراز ، واما لأن الذخيرة التى فى حوزتها لاتكفى الا لاستهلاك سفنها ، واما لأنها خشيت أغضاب بريطانيا . . ومن ناحية أخرى ، كان مايربو على ٩٠ ضابطا بحريا من مختلف الرتب ، والتخصصات خارج البلاد فى دورات تأهيلية توطئة لاستلام الوحدات الجديدة ، والعودة بها الى مصر .

أما المدمرة " ابراهيم " والفرقاطة " طارق " - الأولى فى مالطة ، والثانية فى جبل طارق - فكانتا أحسن حالا لأنهما لم يحملا معهما عند مغادرتهما مصر الا قدرا قليلا من الذخيرة يسمح لمجرد اجراء التجارب بعد اتمام عمراتهما .

وقد دلت المعلومات التى أمكن الحصول عليها فى الفترة من منتصف سبتمبر الى منتصف أكتوبر ١٩٥٦ ، على أن فرنسا ، وبريطانيا أقامتا قيادة عسكرية مشتركة فى قبرص تضم مجموعه من كبار القادة العسكريين ، وأن بريطانيا بدأت تستولى على بعض السفن التجارية التى ترفع العلم البريطانى ، وتحملها بالجند ، والعتاد وتبعث بها الى قبرص ، وبات واضحا أن الدولتين تعدان لتدخل عسكرى قريب ضد مصر . لذلك أعلن الرئيس جمال عبد الناصر أن أى عدوان على منطقة قناة السويس سوف يؤدى الى اغلاق القناه فى وجه الملاحة العالمية ، وعلى الدولتين تحمل تبعات ذلك .

لم نكن نعلم - وقتئذ - مدى التواطؤ الفرنسى الاسرائيلى وأبعاده . . . . لذلك صيغت خططنا الحربية على أساس سرعة التخلص من الهجوم الاسرائيلى فى سيناء ، والحيلولة دون وصوله الى قناة السويس - وهو أمر ميسور - حتى تحرم فرنسا ، وانجلترا من ذريعه تدخلهما بالقوة المسلحة فى القتال الناشب . أما اذا أصرت الدولتان على التدخل العسكرى ، فستكون الأوضاع العسكرية فى المنطقة والرأى العام العالمى فى صالحنا مما يتيح أمامنا الفرصة للتصدى للغزو

الأنجلو فرنسي ،والتخفيف من وطأته ، أو أن تعدل الدولتان عن نواياهما تحت ضغط الرأى العام العالمى الذى أخذ بالفعل يندد بأى تدخل عسكرى لحل الأزمة ويعارضه . وحتى يكون لدى القارئ صورة لحجم العدوان الذى كان على مصر ملاقاته فى حالة دخول فرنسا ،وانجلترا الحرب الى جانب اسرائيل ، نورد فيما يلى حجم قوات الغزو وحدها التى أعدتها الدولتان فى قبرص لهذا الغرض :

- البحرية : حاملتى طائرات ،بارجة ، ٨ طرادات ثقيلة ، ١٨ مدمرة ، ١٥ فرقاطة ٩ غواصات ، ٤٨ سفينه عمليات برمائية ، ٦٠ سفينه نقل مساعدة .
- البرية : ١٧ لواء مشاه ومدرع ، ٥٠٠ دبابة ، ١٥٢٠ قطعه مدفعية وهاون .
- الجوية : ١٨٠ طائرة مقاتلة وقاذفة قنابل .
- مجموع القوات المقاتلة نحو ٧٥ ألف ضابط وجندى (٣٠٠٠٠ فرنسى و ٤٠٠٠٠ انجليزى) .

هذا فضلا عن مجموعات بحرية ،وجوية ومظليين ، ودبابات متناثرة فى مالطة والجزائر وفى مقدمتها الفرقة المدرعة الانجليزية التى كانت فى ليبيا ،والتى أثارت تحركاتها إبان هذة الفترة الحرجة اهتماما خاصا لدى القيادة المصرية ،بالاضافة الى بعض السفن الحربية التى كانت تجوب مياه البحر الأحمر .

أما ماكان خافيا علينا،فى ذلك الوقت وحتى يومين من بدء الهجوم الاسرائيلى ، فهو أن اسرائيل كان بها أسراب من الطائرات الحربية الفرنسية بأطقمها الفرنسية لحماية المدن والثغور الاسرائيلية ،وأنه كان بأحد مطارات قبرص أسراب نقل جوى خصصت لنقل الأمدادات للقوات الاسرائيلية فى سيناء من مياه ،وأطعمة وذخيرة وعربات جيب ،(١) وكان خافيا علينا أيضا فى ذلك الوقت أن فرنسا خصصت ثلاثة

(١) كشف الكاتبان الفرنسيان الأخوان " ميرى وسيرج برومبرجير" فى كتابهما " أسرار الحملة على مصر" أنه منذ ٢٩ أكتوبر وضعت فرنسا ٦٠ مقاتلة وقاذفه فى مطار اللد بأسرائيل ،و ٤٠ طائرة نقل من طراز " نورد أطلس" بمطار " تيمبو" بقبرص خصصت لحماية أجواء اسرائيل ،وخدمة عملياتها فى سيناء .

من سفنها الحربية الحديثة (١) لحراسة ساحل اسرائيل ،والدفاع عن ثغورها ، وتقديم المعاونة بالنيران للقوات الاسرائيلية فى سيناء .

وبقدر ماكان متاحا لنا من معلومات عن الموقف، جاء تصورنا لأشكال ، واتجاهات الغزو الأنجلو فرنسى المرتقب ،وهو تصور لم يختلف كثيرا عما خططت له القيادة المشتركة فى قبرص .

الاحتمال الأول :

أن تقوم القوات الأنجلو فرنسية بغزو شامل الأراضى المصرية بعمليات اسقاط جوى وابرار بحرى مستهدفه " القاهرة " لاسقاط الحكم الثورى فى مصر ، ويعزز هذا الاحتمال ضخامة الحشود ،وتحركات الفرقة المدرعة الأنجليزية الموجودة فى ليبيا . ولكن تجاوز الهدف لأبعاد المشكلة الأصلية " قناة السويس" التى هى ذريعة التدخل يقلل من رجاحة هذا الاحتمال .

الاحتمال الثانى :

غزو منطقة قناة السويس من الشمال (بورسعيد) والجنوب (السويس) واحتلال المنطقة ،وبذلك تنحصر القوات المصرية فى سيناء بين الأسرائيليين شرقا ،والقوات الأنجلو فرنسية غربا ،فيسهل ابادتها ،مع احتمال توجيه قوة الى القاهرة لاسقاط عبد الناصر.ويعزز هذا الاحتمال أنه يؤيد حجة الفرنسيين والأنجليز فى حماية قناة السويس من أخطار الحرب،والحفاظ على حرية الملاحة بها . ولكن ضخامة حجم قوات الغزو وعدم ظهور قوات فى البحر الأحمر بالقدر

---

(١) جاء بنفس الكتاب أن هذه السفن هى المدمرات : " بوفيه " ،و " سيركوف" ، و " كيرسان " وأن الأخيرة هى التى اكتشفت المدمرة المصرية " ابراهيم ليلة ٣٠ اكتوبر ،واشتبكت معها وأصابتها . وأن الطراد الفرنسى الثقيل " جورج ليجوس" هو الذى قام بقصف المواقع المصرية فى رفح لفتح الطريق أمام الأسرائيليين لفشلهم فى التقدم تجاه هذا القطاع .

الذى يسمح بالأضطلاع بعمليات غزو من الجنوب ، يقلل من رجاجه هذا الاحتمال ولكنه يرجحه على الاحتمال الأول .

الاحتمال الثالث :

عملية غزو محدودة على منطقة قناة السويس من الشمال (بورسعيد) والاندفاع جنوبا للاستيلاء على المراكز الحاكمة على طول القناة بما يحقق حصر القوات المصرية فى سيناء بين الاسرائيليين ، وقوات الغزو ، والتهديد بتدمير مدن القناة الثلاث ، بورسعيد ، والاسماعيلية ، والسويس ، مما يؤدى الى اكراه عبد الناصر على التنازل عن الحكم . وكانت جميع الشواهد ، والظروف ترجح هذا الاحتمال على ماعداه ، ولأنه أكثرها اقتصادا فى المجهود ، وأقصر طريق لتحقيق الهدف .

وعلى أساس الاحتمال الثالث وضعت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية الخطوط العريضه لخطط عمليات أفرع القوات المسلحة آخذه فى الاعتبار احتمال تدخل بحرى بريطانى فى البحر الأحمر ، وضد مدينة السويس . وفى جميع الأحوال فلن تبدأ عمليات الغزو الا بعد القضاء التام على الطيران المصرى ، والدفاعات الساحلية ، وأن قوات الغزو سوف تعمد الى عزل قواتنا فى سيناء عن الارض الأم ، فتتحطم تحت ضغط العمليات الأسرائيلية فى الشرق ، وقوات الغزو فى الغرب .

الموقف البحرى قبيل اندلاع الحرب

كان لمصر ، فى ذلك الوقت ، قوات فى منطقة شرم الشيخ ، وقوات صغيرة من حرس الحدود فى جزيرتى " تيران " و " صنافر " المواجهتين لشرم الشيخ عند مدخل خليج العقبة ، وفى منطقة طابا ، وفرعون فى الطرف الشمالى للخليج عىى مقربة من الحدود الاسرائيلية جنوبى إيلات . يقوم على خدمة هذه القوات وحراستها ثلاث فرقاطات (رشيد ، ودمياط ، وأبو قير) بالتناوب كل ثلاثة أسابيع بجانب سفينه النقل " القصير " التى كانت تنقل المؤن ، والعتاد الى قوات المنطقة

مرة كل شهر بالتناوب مع احدى السفن المساعدة الأخرى . لذلك تم تجهيز " جون شرم الشيخ " بالعوامات لرباط السفن ،وبرصيف ،وبعض المخازن ، هذا فضلا عن التجهيزات العسكرية ،والدفاعات الساحلية ،والمضادة للطائرات التى أقامتها القوات البرية على هضبة شرم الشيخ .

صارت القوات المصرية ،منذ عام ١٩٥١ تتحكم فى مضيق خليج العقبة ، وتفرض نوعا من السيطرة على الملاحة من والى الميناء الاسرائيلى " ايلات " الذى اتخذته اسرائيل منفذا لها الى البحر الأحمر يعوضها عن اغلاق قناة السويس فى وجهها . وقد مارست مصر - بواسطة قوات شرم الشيخ - حقها فى منع السفن التى ترفع العلم الاسرائيلى من ارتياد خليج العقبة ،وفى اعتراض ،وتحرى السفن التجارية المشتبه فيها قبل السماح لها بدخول الخليج . وجاءت هذه الاجراءات - بالاضافة للمقاطعة العربية ،وحظر مرور السفن الاسرائيلية ،أو التى تحمل بضائع لاسرائيل - تشد يدا لقبضة الحصار العربى على اقتصاد اسرائيل ، ومجهودها الحربى .

فلما تطور الموقف - خلال النصف الثانى من أكتوبر ١٩٥٦ - مهددا باندلاع الحرب ،رأينا الأكتفاء بالاجراءات الوقائية التى تقوم بها الوحدات البحرية سالفة الذكر بمنطقة شرم الشيخ اعتمادا على تعذر ارتياد مياه مضيق خليج العقبة - وقتئذ - ليلا . وتأمينا للمدخل الجنوبى لقناة السويس ضد تدخل " طرف ثالث " فى الحرب الوشيكة مع اسرائيل ،بادرنا الى دعم الانذار والدفاع الساحلى على امتداد خليج السويس وساعدنا على ذلك القيود الملاحية التى تفرضها الشعاب المرجانية ،والعوائق الطبيعية المتناثرة فى مياه الجزء الجنوبى للخليج .

ومن ناحية أخرى ،أجريت بعض التعديلات والتعزيزات للقيادات البحرية فى كل من : السويس التى كانت تستخدم " الأدبية " قاعدة لعملياتها "والغردقة" قاعدة متقدمة لبعض الوحدات الخفيفة ،وبورسعيد التى كانت تقوم على خدمة

العمليات فى مسرحى البحر المتوسط، والبحر الأحمر، وقناة السويس، والاسماعيلية بمجموعة عمليات من الضباط البحريين للعمل ضمن جهاز " القيادة الشرقية " المسئولة عن العمليات البرية، والجوية فى شبة جزيرة سيناء ... بالاضافة الى ضابط اتصال بحرى فى العريش يتبع لقيادة قطاع غزة .

بهذا أمكن تركيز قوة بحرية للعمل فى البحر المتوسط باعتباره المسرح الرئيسى للعمليات المرتقبة، سواء أقامت بها القوات الأسرائيلية تجاه جبهة سيناء أو قامت بها القوات الأنجلو فرنسية تجاه سواحل مصر الشماليه . ولسنا بحاجة لتكرار القول بأنه مهما بلغ حجم القوة البحرية المصرية التى يمكن تجميعها فى هذا المسرح فستظل دون حجم وامكانات القوات الأنجلو فرنسية، وأضعف من أن تحبط عمليات إبرارها على أى جزء من الساحل المصرى . . . ولكن كان هذا هو قدر مصر، وكان على قواتها البحرية حمل الأمانة بشرف، وقبول التحدى بشجاعة وايمان .

الحرب، المرحلة الأولى (٢٩ - ٣١ أكتوبر)

فى السادسة من بعد ظهر يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦، أسقطت الطائرات الأسرائيلية قوات جوء قوامها نحو ٤٠٠ مقاتل (١) على مقربة من مواقع القوات المصرية عند " ممر متلا " مفتتحة بذلك المرحلة الأولى للحرب .

---

(١) حدد " موشى ديان " (رئيس هيئة أركان القوات الأسرائيلية وقتئذ) فى كتابه " يوميات معركة سيناء " حجم هذه القوات بكتيبة من ٣٩٥ من المظليين حملتهم وأسقطتهم ١٦ طائرة نقل من طراز " داكوتا " اقتربت من منطقة الهدف على ارتفاع ٥٠٠ قدم أرتفعت الى ١٥٠٠ قدم عند بدء عملية الاسقاط . (ص ١١٢، ١١٣ من النسخة المعربة) .

حرصت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية على ألا تلقى بكل ثقل القوات فى الساعات الأولى للقتال إلى أن يتكشف موقف القوات الأنجلو فرنسية . لذلك لم تتعد عملياتها البحرية - فى الأربع والعشرين ساعة التالية - مجرد الأعمال الوقائية فى المياه المواجهة لمنطقتى " بورسعيد " ، و " الاسكندرية " ، والمياه المواجهة لمنطقة " أبو الدرك " ، و " شرم الشيخ " ، و " مضيق خليج العقبة " فى البحر الأحمر . ولكن عندما لوحظ أن النشاط الجوى المعادى فوق سيناء يفوق إمكانات الطيران الأسرائيلى وحده ، لاحت لنا بوادر اشتراك " طرف ثالث " فى المعركة . . . فتحولت عملياتنا البحرية الى سواحل سيناء ، واسرائيل .

ففى مساء يوم ٣٠ أكتوبر ، أرسل سرب زوارق طوربيد تدعمه الفرقاطة " طارق " لحراسة ساحل " قطاع غزة " ومنع اقتراب أى سفن منه ، وأبحرت المدمرة " ابراهيم " - تحت جنح الظلام - لقصف قاعدة " حيفا " بحيث تنتهى من مهمتها وتكون بمنأى من مدى مدفعية اسرائيل الساحلية قبل فجر اليوم التالى . أما فى البحر الأحمر فقد تحرك سرب زوارق طوربيد الى مرسى " أبو الدرك " تدعمه الفرقاطة " أبو قير " وذلك لمنع اقتراب أى سفن من السويس ، كما صدرت الأوامر للفرقاطة " دمياط " (سفينه تدريب الطلبه) بالاستعداد للانضمام للفرقاطة " رشيد " بشرم الشيخ لتعزيز قوات المنطقة . هذا فضلا عن تشديد داوريات الحراسة البحرية تجاه منطقتى الاسكندرية ، وبورسعيد ، وتجهيز بعض العوائق ، والألغام البحرية لاستخدامها عند الحاجة . وكان الموقف مع اسرائيل - بصفة عامة - وحتى مساء ذلك اليوم ، يبعث على الاطمئنان لا سيما وأن نشاط قواتنا الجوية أحرز لها سيطرة مأمونة فوق مسارح العمليات .

ولكن ماكاد يمضى أربع وعشرون ساعة على معركتنا مع اسرائيل إلا وكانت انجلترا وفرنسا قد وجهتا انذارهما المريب لمصر واسرائيل . ففى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة - بتوقيت القاهرة - من بعد ظهر يوم ٣٠ أكتوبر تلقت الحكومة المصرية إنذارا من الحكومة البريطانية من ثلاث نقاط :

١ـ وقف العمليات الحربية فى البر والبحر والجو .
٢ـ ابتعاد قوات الطرفين المتحاربين لمسافة عشرة أميال عن كل من ضفتى قناة السويس .
٣ـ السماح للقوات الأنجلو فرنسية بالنزول الى منطقة قناة السويس واحتلال كل من بورسعيد ، والأسماعيلية ، والسويس بصفة مؤقتة لضمان الفصل بين قوات الطرفين المتحاربين ، وتأمين حركة الملاحة بقناة السويس . وحدد الانذار مدة أثنتى عشرة ساعة للرد عليه ، والتى بأنقضائها دون تنفيذ المطالب فستحتل هذه المواقع بالقوة المسلحة لدولتى فرنسا وبريطانيا . (١) أى أن الانذار ينتهى مدته فى الساعه السادسة والربع صباح يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

ماذا يعنى هذا الانذار من وجهة نظر اسرائيل ، ووجهة نظر مصر؟ بالنسبة لاسرائيل فلانذار يعنى :

١ـ أنها لن تخسر شيئا ، فليس لها قوات على مقربة من المسافة التى يطالب الانذار بالانسحاب خلفها ، وحتى لو كان لها قوات داخل هذه المسافة فانها لن تنسحب من أراضى اسرائيلية ، وانما من أراضى مصرية مغتصبة .
٢ـ ان وجود قوات أنجلو فرنسية على امتداد قناة السويس يتيح للقوات الاسرائيلية فرصة تعديل أوضاعها فى سيناء دون تدخل يذكر من جانب القوات المصرية .
٣ـ فى حالة رفض مصر للانذار ـ وهو المتوقع ـ فستبادر القوات الأنجلو فرنسية الى تحطيم قوة مصر الجوية ، وبذلك تتهيأ للأسرائيليين ظروف مواتية لهزيمة القوات المصرية فى سيناء ، وفى نفس الوقت تتخلص ـ لأمد طويل ـ من خطر الطيران المصرى .

---

(١) سلمت وزارة الخارجية البريطانية فى لندن صورة من هذا الانذار الى كل من القائم بالأعمال المصرى ، والسفير الاسرائيلى ، وذلك فى الساعة الرابعة وخمس عشر دقيقة ـ بتوقيت جرينتش ـ من بعد ظهر يوم ٣٠ أكتوبر ، ونقله القائم بالأعمال المصرى الى القاهرة فور استلامه له .

بمعنى أن الانذار الأنجلو فرنسي هو بمثابة دعوة للقوات الأسرائيلية لكى تتقدم غربا لمسافة عشرة أميال من قناة السويس . . لذلك قبلت الحكومة الاسرائيلية الانذار . (١)

أما بالنسبة لمصر فالانذار يعنى :

١ـ انسحاب القوات المصرية من أراضى مصريه لتحتلها قوات اسرائيلية معتدية

٢ـ السماح لقوات أجنبية باحتلال مدن قناة السويس يعتبر تنازلا من مصر عن سيادتها على أراضيها .

٣ـ المفروض أن تنسحب القوات الاسرائيلية ـ بصفتها المعتدية ـ الى خطوط ماقبل نشوب القتال باعتبار أن وجودها ، وليس الوجود المصرى ، هو الذى يهدد القناة . بمعنى أن الانذار هو بمثابة تنازل مصر عن سيناء للأسرائيليين وعن منطقة قناة السويس لفرنسا وبريطانيا. ورفضت مصر الانذار .

المرحلة الثانية العمليات الأنجلو فرنسية (٣١ أكتوبر ـ ٣ نوفمبر) :

برفض مصر للانذار ، وانقضاء مهلته ، افتتحت القوات الأنجلو فرنسية ـ مساء يوم ٣١ اكتوبر ـ المرحلة الثانية من الحرب بقصف جوى عنيف لقواعد مصر الجوية والبحرية . ولم يكن هذا القصف هو البداية الحقيقيه لتدخل " الطرف الثالث " فى القتال المصرى الاسرائيلى ، فقد سبقه قصف بحرى فرنسى للمدمرة المصرية " ابراهيم " .

فلعلنا نذكر أن المدمرة " ابراهيم " كانت ـ فى ليلة ٣٠ / ٣١ أكتوبر ـ مكلفة بقصف ميناء " حيفا " ، وانهاء المهمة ، واتخاذ طريق العودة قبل فجر

---

(١) يقول موشى ديان فى كتابه " يوميات معركة سيناء " (النسخة المصرية) : " فى ساعة متأخرة من الليل (٣٠ / ١٠) علمنا أن القوات الانجلو فرنسية لن يبدأوا القصف كما خططوا يوم ٣١ / ١٠ مع الفجر ، وجزع بن جوريون جدا لموقف قواتنا فبى متلا ، وأراد أن نعيدها الى اسرائيل (ص ١٣٦) . وفى صفحة (١٣٧) يقول ديان : " أن الانذار الانجلو فرنسى لا يقلق اسرائيل ، فأننا لم نصل الى حدود ١٠ أميال من القناة "

يوم ٣١ أكتوبر ليمكن توفير الحماية الجوية لها . وبالفعل وصلت " ابراهيم " - فى الساعة ٣٢٥. صباح يوم ٣١ أكتوبر - إلى مسافة أربعة أميال تجاه " حيفا " وفتحت نيرانها على الأهداف الحيوية بالميناء (صهاريج البترول ، الأرصفة ، مواقع المدفعية الساحلية) وبعد ٢٥ دقيقه من الضرب المتواصل ، شرعت " ابراهيم " فى الابتعاد - بأقصى سرعة - عن الساحل الاسرائيلى . وبعد أقل من نصف ساعه بدأ ينهال على المدمرة المصرية وابلا من القنابل الثقيلة صادرة من ناحية الساحل الاسرائيلى الذى كانت " ابراهيم " تبعد عنه بمسافة تفوق بكثير مدى مدفعية سفن اسرائيل ، ودفاعاتها الساحلية ، وتفوقها أيضا فى دقة التصويب ، الأمر الذى يوحى بأنها مدفعيةغير اسرائيليه . وقد ثبت بالفعل أن مصدر النيران الدقيقة التى انهالت فى ذلك الصباح المبكر على المدمرة " ابراهيم " لم يكن إلا المدمرة الفرنسية " كيرسان " التى كانت تجوب مع شقيقيها " سيركوف " ، و " بوفيه " مياه قطاع غزة ، والتى كانت مكلفه - دون الأخرتين - بحراسة ميناء حيفا ، (١) وقامت بمهمتها " السرية " على خير وجه ، فقد أصابت " ابراهيم " بأعطاب شديدة ، وأرشدت القوات الاسرائيلية الى موقع المدمرة " ابراهيم " ، وهى شبه مقعدة فأمطرتها بوابل من قذائفها ردت عليها " ابراهيم " الى أن نفذت ذخيرتها . وازداد الموقف سوءا بتعذر توفير الحماية الجوية " لابراهيم " فى الموقع ، والوقت السابق الاتفاق عليها ، (٢)

(١) أماط اللثام عن هذه الحقيقه الصحفيان الفرنسيان الأخوان " برومبر جير " فى كتابهما " أسرار الحملة على مصر " (الصفحات ١٧ - ٢٢ من النسخة المعربه التى قدمتها وعلقت عليها المجموعة ٧٦ ملحقين) وقد اعترف بها موشى ديان فى كتابه " يوميات معركة سيناء " اذ جاء فى الصفحة ١٥٧ من النسخة المعربة : " ولم تشعر بها كذلك سفن السلاح البحرى التى كانت تقوم بالاستطلاع على طول شواطىء اسرائيل . . وكانت المدمرة الفرنسية (كرسنت) التى كانت موجودة فى هذه الليلة على مقربة من ميناء حيفا هى أول من لاحظ ابراهيم وفتحت عليها النيران الساعه ٢٣٨ . وأطلقت عليها ٦٤ قذيفة .

(٢) يرجع ذلك الى أن مابدا من اشتراك طائرات " طرف ثالث " فى معارك سيناء يومى ٩ ، ٣٠ أكتوبر دفع القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية الى تركيز المجهود الجوى لمعاونة عمليات القوات البرية المصرية فى سيناء وللدفاع الجوى غربى القناة .

وفشل محاولة طاقم السفينه فى اغراقها . . فأستسلمت – فى السابعه والد قيقه الخمسين صباح يوم ٣١ أكتوبر – للقوات الاسرائيلية المتفوقة المحيطة بهـــا ، وتحت وابل من نيران رشاشات الطائرات الأسرائيلية (١). والحقيقة أن " ابراهيم" قامت بمهمتها – قصف ميناء حيفا – على الوجه الأكمل ، وأبدى قائدها ، وطاقمهـا شجاعة فائقة فى مواجهة الموقف الذى ترتب على تدخل المدمرة الفرنســية ، فرغم اصاباتها ، اشتبكت فى قتال مرير مع قوات اسرائيلية متفوقة تضم : المدمرتين " يافو " و " ايلات " ، وثلاث فرقاطات ، وسربا من طائرات مستير ، هو الذى نجـح فى اصابة " ابراهيم " بالصواريخ اصابات مباشرة أقعدتها عن الحركة بعد ساعتين من بدء الاشتباك .

فى فجر يوم ٣١ أكتوبر – قبل انقضاء مهلة الانذار الذى رفضته مصـــر ، وقبلته اسرائيل – صدرت الأوامر لجميع الوحدات ، والتشكيلات المصرية بأن قوات فرنسا ، وانجلترا هى أيضا " قوات معادية " ، ويتم التعامل معها على أســاس هذه الصفة . وحتى مساء ذلك اليوم لم يكن لدينا ماينبئ عن أى نشاط بحرى معادى فى مسرح البحر الأحمر الا عندما التقت فرقاطة التدريب المصريـــة " دمياط " بوحدات من الأسطول البريطانى فى مياه خليج السويس .

فى الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ٣١ أكتوبر أبحرت الفرقاطة " دميـــاط " من ميناء السويس فى طريقها الى شرم الشيخ للانضمام للفرقاطة " رشـــيد " لدعم قوات المنطقة . وفى الواحدة صباح يوم أول نوفمبر ، وفى المياه المواجهـــة لمنطقة "رأس غارب" التقت " دمياط " بثلاث وحدات بحرية – احداها كبيـــرة ، واثنتان أصغر – وهى فى حالة اظلام تام ، تعترض طريق تقدم الفرقاطة المصرية التى

---

(١) شاهد طاقم المدمرة ابراهيم أثناء دخول السفينه – مقطورة – ميناء حيفـــا الطراد " كيرسان " راسيا بالميناء ، وهو فى حالة " الاستعداد القتالى التام" ، كما شاهد أيضا أعمدة من الدخان الكثيف تغطى سماء الجزء الجنوبى من الميناء ، وبعض الأرصفة المتهدمة .

بعثت باشارة ضوئية للوحدة الكبيرة تسألها عن اسمها ، وجنسيتها فى الوقت الذى تحركت فيه الوحدتان الصغيرتان واتخذتا موقعهما على مسافة حوالى ٥٠٠ ياردة يسار مقدم ومؤخرة " دمياط " بينما حافظت الوحدة الكبيرة على موقعها يمين مقدم " دمياط " بمسافة ٤٠٠ ياردة تقريبا . وجاء الرد بأن الوحدة الكبيرة هى الطراد البريطانى " نيوفوندلاند " (١) ترافقه المدمرة " ديانا " ... وقبل أن يكمل الطراد رسالته الضوئية كانت " دمياط " قد بادأته بنيران مدفعها الوحيد (عيار ٤ بوصة) من مسافة ٣٠٠ ياردة تقريبا فأطاحت بصاريته التى تحمل هوائيات اللاسلكى والرادار . ورد الطراد البريطانى ـ على هذه المسافة القصيرة ، وتحت أنواره الكشافة المصلطة على دمياط ـ بثلاث دفعات مدفعية متتالية : أصابت الأولى مقدم دمياط عند خط الماء ، وأعطبت مدفعها ، فاستدارت دمياط ، واتجهت بمقدمها نحو الطراد بغية صدمه ، فعاجلها بالمجموعة الثانية التى اخترقت منتصفها فمالت " دمياط " على جانبها الأيمن بشدة لدرجة أتاحت الفرصة لطاقم مدفع جانب أيسر المضاد للطائرات (٤٠ مم بوفرز) ليفتح النيران على الطراد فيصيب " قاعة السينما " إصابات مباشرة وذهب ضحيتها ثلاثة أفراد وجرح نحو ١٢ من أفراد طاقمها ، وأنهى الطراد " نيوفوندلاند " المعركة بالدفعة الثالثة والأخيرة التى أطاحت برفاصات الفرقاطة ، وتدفقت المياه بغزارة داخل " دمياط " الباسلة لتغوص ـ فى ثوان ـ الى القاع ومعها قائدها البطل محمد شاكر حسين (٢).

---

(١) الطراد " نيوفوندلاند " : الحمولة ٨٨٠٠ طن ، التسليح ٩ مدافع عيار ٦ بوصات فى ثلاث طوابى ، ٨ مدافع عيار ٤ بوصات فى أربع طوابى ، ٦ أنابيب طوربيد عيار ٢١ بوصة وسطك تدريع الأجناب ٤ بوصات . أما المدمرة " ديانا " وشقيقتها فكل منها ٢٦١٠ طن ، تحمل ٦ مدافع عيار ٤,٥ بوصه فى ثلاث طوابى و ٦ أنابيب طوربيد عيار ٢١ بوصة .

(٢) أضاءت كشافات السفن الثلاثة صفحة الماء ، وشرعت فى انتشال الناجين من أفراد طاقم " دمياط " ، وبعد ترحيلهم ـ كأسرى حرب ـ الى " جيبوتى " تلقينا رسالة من قائد الطراد " نيوفوندلاند " عن طريق الصليب الأحمر مرفقة بكشف بأسماء الأسرى نقتطف منها هذه الفقرات : " حسبنا أن دمياط تحمل ألغاما فتصديت لها ، ولكن اتضح ـ بعد فوات الأوان ـ خطأنا ... لقد أجبرتنا بسالة قائدها المنقطعة النظير أن نرد عليه بعنف ... حاولنا عبثا العثور =

وكانت ليلة ٣١ أكتوبر / أول نوفمبر مليئة بالأحداث : ففي الوقت الذى كانت فيه بعض وحدات من المدرعات ، والجيش تعبر القناة فى طريقها الى سيناء ، لدعم القوات المصرية ، ازداد عنف الهجوم الأنجلو فرنسى على المطارات المصرية رغم وجود قرابة ١١ ألفا من الرعايا البريطانيين فى مصر لم تنذرهم حكومتهم بمغادرة البلاد على نحو مافعلته الحكومة الفرنسية مع رعاياها منذ شهر يوليو عقب التأميم . أصدرت الأدميرالية البريطانيه نشرة تحذيرية تبين فيها منطقة عملياتها فى الشرق الأوسط ، والتى تضم كل شرقى البحر المتوسط من مرسى مطروح غربا حتى خط الطول المار بحيفا ، وجنوبا الى ميناء العقبة الى أن يلتقى بخط العرض ٢٥° عند نقطة ساحل مصر المطل على البحر إسمها " رأس صمادية " تواجه مدينه " إدفو " تقريبا ... بمعنى أن الأنجليز والفرنسيين ضربوا حصارا حول مصر ، وأن غزوهم للأراضى المصرية بات وشيكا . وقبل فجر أول نوفمبر بقليل قام الطراد الفرنسى " جورج ليجوس " (٩ مدافع عيار ٦ بوصات) بقصف مواقع المصريين فى رفح تلبية لطلب القوات الاسرائيلية التى فشلت فى التقدم فى هذا الأتجاه .

وبدأ الرأى العام العالمى يثور ضد حكومتى فرنسا وبريطانيا ، وقررت الولايات المتحدة الأمريكية ـ التى كانت مشغولة بأنتخابات الرئاسة ـ حظر إرسال البترول إلى أوروبا ، وعلى الرغم من انهماك الاتحاد السوفيتى فى القضاء على

= عليه بين الناجين أو جثته فى الماء ولكن يبدو أنه ذهب مع سفينته .. وأسمحوا لى أن أرفع يدى بالتحية لقائد أبت عليه كرامته وشرف المهنة أن يتهرب من الدخول فى معركة هو يعلم انها غير متكافئة فبدأ بافتتاح المعركة بجرأة مذهلة . له كل تقديرنا واحترامنا " وقد شهد طاقم " دمياط " عقب عودته من الأسر ـ بأن قائد الطراد البريطانى كان يتلقاهم واحدا واحدا بمجرد صعوده لسطح السفينه سائلا فى لهفة عن قائد دمياط وهو يتمتم " هذه جرأة تبعث على الجنون . أين القائد المصرى ؟

" أحداث المجر" فانه وقف بجانب مصر فى اجتماع الجمعية العومية لهيئة الأمم الذى انعقد فى مساء أول نوفمبر واتخذ قرارا يطالب فيه بايقاف اطلاق النيران والامتناع عن نقل الأسلحة الى المنطقة، وباعادة جميع القوات الى ماوراء خطوط الهدنة المتفق عليها .

لم يذعن المعتدون الثلاث لقرار الجمعية العامة، فقد واصلت القوات الجوية الأنجلو فرنسية قصفها العنيف للمطارات المصرية، وبدأت تركز هجماتها على مدينة بورسعيد ، والمناطق المحيطة بها ، وارتفعت خسائرنا فى الطائرات والأرواح، على حين شرعت وحدات من الأسطول السادس الأمريكى تتجمع عند بورسعيد ، والاسكندرية استعدادا لاخلاء الرعايا الأمريكيين المقيمين بمصر. . . وأصبح لزاما على القيادة المصرية أن تعيد النظر فى الموقف برمته .

بطبيعه الحال لم يكن أحد فى مصر - بل فى العالم بأسره - يتوقع أن تكسب القوات المصرية الحرب فى مواجهة قوات بريطانيا ، وفرنسا ، واسرائيل .
فالموقف الآن - أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ - تجاوز أبعاد المعارك الحربية ، وأصبحت كرامة مصر فى الميزان ، وكان على أفراد الشعب المصرى أن يلتحموا برجال قواتهم المسلحة ، وأن يخوضوا معا معركة الكرامة ، وأن ينتصروا فيها . ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك ، ووجود القوات الأنجلو فرنسية فى منطقة قناة السويس سوف يؤدى الى قطع طريق عودة قواتنا من سيناء ويعجل بتدميرها ، الأمر الذى قد يؤدى الى سقوط القاهرة ذاتها .

ولم يكن من حل إلا الإسراع بسحب قواتنا إلى غربى القناة قبل أن تحتلها القوات الأنجلو فرنسية . وصدر قرار الانسحاب فى الساعات الأولى من يوم أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ . وعليه صدرت تعليمات القيادة العامة للقوات المسلحة متضمنة :

١ـ توقف عمليات القوات بالمناطق البعيدة المنعزلة ، (مثل غزة ، ورفح ، والعريش) وتسلم نفسها بعد تدمير أسلحتها ومعداتها ، واعدام وثائقها ،
٢ـ تنسحب باقى القوات تجاه قناة السويس وتعود إلى قواعدها الأساسية .
٣ـ تتوقف القوات الجوية عن القيام بأى عمليات .
٤ـ تستمر القوات البحرية والدفاعات الساحلية فى أداء مهامها .
٥ـ يتحول الدفاع فى كل من " بورسعيد " ، و " السويس " وعلى طول القناة وأراضى شرقى الدلتا الى حرب عصابات .

و قد عبر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عن موقف مصر فى كلمته للأمة بقوله " اننا سنقاتل ولن نسلم ، سنقاتل من قرية لقرية ، ومن بيت لبيت ، ان كل فرد منكم جندى فى جيش التحرير الوطنى " . (١)

وعلى الفور بادرت قيادة القوات البحرية الى تشديد التدابير الوقائية : تحركت وحدات ، ومعدات الإعاقة المائية الى مدخلى قناة السويس عند بورسعيد ، والسويس ، والى بحيرة التمساح ، وتحركت وحدات اعاقة بحرية أخرى على جانبى الممرات الملاحية المؤدية الى ميناء الاسكندرية ، ودعمت مدفعيات الدفاع عن هذه الممرات ، وبثت الألغام البحرية فى المياه جنوبى فنار " زنوبيا " بخليج السويس (١) تحميها نيران المدفعية الساحلية أما الفرقاطة " رشيد "

---

(١) قال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر هذه الكلمات ضمن خطابه الذى القاه عند توجهه لاداء صلاة الجمعة يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

(٢) أصدرنا بيانا ـ عن طريق وزارة الخارجية المصرية ـ نحذر فيه بأن مياه الخليج السويس الواقعة شمال خط عرض ٢٠َ ٢٩ْ شمالا منطقة خطرة على الملاحة ومحظور ارتياد ها ، أو الاقتراب منها ، وعلى السفن التجارية الاخطار قبل موعد وصولها بأربع وعشرين ساعه . والجدير بالذكر أن التيارات البحرية جرفت أحد هذه الالغام وحملته جنوبا فى الخليج إلى أن طفا على السطح بمقربة من احدى سفن الأسطول البريطانى التى كانت تجوب المياه المواجهة لميناء الطور فأطلقت عليه النيران وفجرته ولم تظهر السفن البريطانية بعدها فى خليج السويس .

التى كانت بمرسى شرم الشيخ وأعفاها قائد المنطقة من واجباتها حيال المنطقة ، والتى كان من المستحيل سحبها الى " السويس " ،والأسطول البريطانى يجوب مياه مدخلى خليج العقبة ،وخليج السويس ،فقد صدرت الأوامر لقائدها بتحين فرصة والابحار ليلا الى مرسى " وجه " على الساحل السعودى (حوالى ١٠٠ ميل جنوبى شرم الشيخ) وأن يضع نفسه وسفينته تحت تصرف السلطات السعودية .

ومن ناحية أخرى أطفئت أنوار جميع الفنارات المصرية ، وأنوار علامات الارشاد الملاحى داخل وخارج الموانئ ،ووزعت الوحدات البحرية على المراسى فى مينائى الاسكندرية الغربى والشرقى لاعطاء أقصى قدر من الدعم للدفاع المضاد للطائرات عن المدينة بالاضافة الى أن الانتشار يقلل من فرص اصابة هذه الوحدات من جراء الاغارات الجوية التى أخذت تشتد على ميناء الاسكندرية ،ومنطقة العجمى حيث مواقع المدفعية الساحلية الثقيلة .

ومما يدعو للأسف الشديد ،أنه لم يكن بيدنا مايمكن أن نقدمه" لبورسعيد " سوى داوريات خاطفة بزوارق الطوربيد . فبورسعيد هى هدف قوات الغزو المرتقب ،والمتوقع أن تتعرض شواطئها ،وشواطئ المناطق المجاورة لها لأكبر قدر من القصف البحرى فى الأيام القليلة القادمة تمهيدا لإبرار قوات الغزو ، والذى المرتقب ،والمتوقع أن تتعرض شواطئها ،وشواطئ المناطق المجاورة لها لأكبر قدر من القصف البحرى فى الأيام القليلة القادمة تمهيدا لابرار قوات الغزو ،والذى كنا نعلم سلفا أنه أكبر بكثير من أن نتصدى له . فمجموعة التمهيد بالنيران ، والدعم وحدها ـ بحساب القوات الموجودة فى قبرص ،والتى تجوب مياه شرقى البحر المتوسط ـ كانت تقدر بنحو : ٨ طرادات ثقيلة وخفيفة ،وبارجة تحميها طائرات الحاملتين فضلا عن مجموعة حراستها التى لن يقل عدد وحداتها عن ٢٠ مدمرة وفرقاطة . وكل ما أمكن عمله هو إصدار الأمر الى قائد قاعدة بورسعيد البحرية أنه بانتهاء مهمته فى وجه قوات الغزو ،عليه أن يدمر معدات القاعدة وأن يعدم وثائقها ثم ينضم برجاله الى أفراد المقاومة الشعبية ببورسعيد .

وفى مساء يوم أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ أغلقت قناة السويس فى وجة الملاحة العالمية وتهاوت دعاوى " ايدن " ، و" جى موليه " ، وانقطع الشريان الذى كان يمد أوروبا بأكثر من نصف حاجتها من البترول .

وأخذت قوات سيناء فى الانسحاب تحت وابل من قذف العدو الجوى وتمكن بعض من قوات رفح ، والعريش ، وغزة من الانسحاب الى البحر - تحت ستار باقى القوات التى أعدت نفسها للتسليم - والاتجاه غربا حيث انضمت الى تنظيمات المقاومة الشعبية شمال الدلتا .

وما كاد يوم ٢ نوفمبر يشرف على المغيب حتى كانت مقدمة القوات الاسرائيلية فى سيناء قد وصلت الى مسافة عشرة أميال شرقى قناة السويس ... تلبيه للدعوة التى وجهتها فرنسا ، وبريطانيا فى انذارهما المشبوه منذ خمسة أيام .

المرحلة الثالثة ، الغزو (٣-٦ نوفمبر) :

اشتد تركيز القصف الجوى على بورسعيد ، واستمر ضرب المطارات المصرية ، وهاجمت الطائرات الأنجلو فرنسية السفن المصرية التى تقوم بدوريات الحراسة خارج قاعدة الاسكندرية ، وأصابت صواريخها الفرقاطة " طارق "، فى الوقت الذى كانت بعض وحدات الأسطول السادس الأمريكى تقترب من الميناء لاخلاء الرعايا الأمريكيين الذين تجمعوا (نساء وأطفال) بالمدينة فى انتظار تعليمات صعودهم للسفن .

كما تعرضت أيضا مواقع المدفعية الساحلية بمنطقة العجمى - ليلة ٢ / ٣ نوفمبر - لقصف جوى شديد لم يسفر عن إصابات مؤثرة إلا أنه كان يحمل بين طياتة احتمال قيام العدو بعمليات إبرار بحرى محدودة على الاسكندرية ، وتطويقها ، ثم دفع الفرقة المدرعة الانجليزية عبر حدودنا مع ليبيا الى القاهرة .

واجتمع مجلس الأمن ـ في ٤ نوفمبر ـ وأصدر قرارا بايقاف اطلاق النـــار، وارسال قوة طوارئ دولية الى المنطقة ،لتنفيذ قرارات الجمعية العامة لهيئة الأمم ،ومرة أخرى جاء رد مندوبى الدول المعتدية الثلاثة مائعا ، لاتاحـــة الفرصة للقوات الاسرائيلية لاستكمال احتلال منطقة شرم الشيخ ،واعطاء انطبــاع عام بأن ثمة قتال مازال دائرا مما يبرر استمرار تدخل القوات الأنجلو فرنســية لحماية قناة السويس .

وفى فجر يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ،أسقطت أول موجه من جنود المظـلات على بورسعيد ،ومطار الجميل ،وبعدها بساعات أسقط جنود المظلات الفرنسيون على " بورفؤاد " (١). وفى مساء نفس اليوم بعثت حكومة الاتحاد السوفيتى برسائل شديدة اللهجة الى حكومات كل من اسرائيل ،وفرنسا ،وبريطانيا تحذرها فيهـا من مغبة عداونهم ،وتهدد فيها باستخدام الصواريخ السوفيتية ضد " باريس" ، و " لندن " .

لم تكن عملية اسقاط قوات المظلات بالأمر الهين ،فقد قوبلوا ـ منذ اللحظة الأولى ـ بنيران كثيفة كبدتهم خسائر كبيرة فى الأرواح ،والعتاد ،ولا سيما فـــى بورسعيد ومطار الجميل ،حيث نشطت عمليات المقاومة الشعبية ضدهم بشكل أثار قلق حكومتى فرنسا ،وبريطانيا ،وأعلن مندوباهما فى هيئة الأمم استعـــــداد حكومتيهما لقبول قرار وقف اطلاق النار بشرط قبول مصر القرار . . . فى الوقـت الذى وصلت فيه " الأرمادا " الأنجلو فرنسية الى مشارف بورسعيد . وفى فجـر يوم ٦ نوفمبر بدأ القصف البحرى لشواطئ منطقة بورسعيد / مطار الجميل .

---

(١) تقدر القوة التى أسقطت على بورسعيد بنحو ٦٠٠ ؛ من المظليين الانجليز على حين قدرت قوات الاسقاط على بورفؤاد بحوالى ٥٠٠ مظلى فرنسى .

وحتى ذلك الوقت كان الاتصال جيدا ومتواصلا بين قيادة القوات البحرية بالاسكندرية، وقاعدة بورسعيد البحرية، ونقط المراقبة المنتشرة على الساحل من مدينه بورسعيد حتى رشيد غربا، وهى النقط التى أبلغت عن وجود قطعة بحرية كبيرة فى مياه المنطقة بين دمياط والبرلس على مسافة قريبة من الساحل ولكن من المتعذر تمييز جنسيتها. ولما لم يكن لنا أى وحدات بحرية فى تلك المنطقة، فقد صدرت الأوامر بتجهيز سرب من زوارق الطوربيد للقيام باستطلاع رادارى، ومهاجمة أى أهداف تكتشف بالمنطقة، على ألا يتجاوز إبحاره شرقا خط الطول المار بفنار دمياط، وأن تنتهى العملية قبل شروق شمس اليوم التالى.

أبحر سرب زوارق الطوربيد من الميناء الشرقى فى مساء يوم ٤ نوفمبر(١) متجها الى منطقة عملياته. ويبدو أن الاغراء كان أقوى من التحذير، فقد تجاوز السرب حدود منطقة عملياته شرقا فى محاولة للعثور على مايمكن مهاجمته، فلما لم تعكس شاشات الرادار أية أهداف، استدار السرب متخذا طريق العودة الى قاعدته. بعد أن مضى معظم ساعات الليل وأوشكت شمس يوم ٥ نوفمبر على الشروق. وبينما السرب يقطع المسافة بين فنارى دمياط والبرلس تغطية ستائر خفيفه من ضباب فجر ذلك اليوم، اذ شاشات الرادار ـ فى حوالى الساعة الثامنة صباحا ـ تلمع بوميض الأهداف، واذا بالضباب ينقشع لتظهر قطعة بحرية كبيرة ليست بعيدة عن سرب زوارق الطوربيد. أسرعت زوارق الطوربيد بمهاجمة هذا الهدف تحت وابل من نيران مدفعيته التى أسكتتها الاصابات المباشرة لطوربيدات الزوارق المصرية، والتى سمع دويها فى فنار البرلس، وشاهد انفجاراتها العاملون بالفنار. وبعد انتهاء الهجوم انسحبت الزوارق الثلاث ـ تحت ستار من دخان ـ تجاه الساحل، ولكن لم تكد تمضى دقائق إلا وكانت طائرات العدو تمطر الزوارق بالصواريخ، وطلقات المدافع الرشاشة، فأغرقت

---

(١) كان الشهيد السورى جول جمال يقضى فترة تدريبه على أحد زوارق هذا السرب وفشلت محاولة إقناعه بمغادرة الزورق إذ خارا لحياته مستقبلا فى بناء البحرية السورية، إلا أنه رفض، وأصر على رفضة بقوله " هذه معركة كل العرب فلا تحرمونى من شرف المشاركة فيها" . وكان له ما أراد، وذهب شهيدا .

الزوارق الثلاث التى لم ينج من طاقمها الا عدد قليل من الجنود المصابين بجراح بالغة ، وفى حالة اعياء شديد .

ومع الساعات الأولى لصباح يوم ٦ نوفمبر - ونحن مازلنا نجمع أشلاء معركة زوارق الطوربيد من شواطئ البرلس (التى سميت المعركة باسمها) - بدأ انزال الموجات الأولى لقوات الغزو البحرى الأنجلو فرنسى على شواطئ بورسعيد .

المرحلة الرابعه ، المقاومة الشعبية فى بورسعيد (٧ - ١٥ نوفمبر) :

وجدت القوات الغازية نفسها فى جحيم نيران المقاومة الشعبية طوال اليوم السادس من نوفمبر ، وشقت طريقها جنوبا وشرقا وغربا بمشقة كبيرة ، وسقط منها ضحايا كثيرون بجانب مئات الشهداء من المصريين . وقد وصف المراسلون الحربيون مدينه بورسعيد فى ذلك اليوم ومابعده " بالأتون الذى لا تخمد نيرانه " ووصفوا قتال المصريين بأنه " وحشى ودموى ينتقل من بيت الى بيت ، ومن شارع الى شارع ، بل من خلف الأشجار ، ومن فتحات نوافذ السفن المصرية المشرفة على الغرق فى الميناء ، والتى كانت أعنفها النيران التى كانت تصدر عن معسكر القوات البحرية المطلة على الميناء" . (١)

وفى منتصف ليلة ٦ / ٧ نوفمبر أعلنت حكومتا فرنسا وبريطانيا قبولهما لايقاف إطلاق النيران . . . لتبدأ المرحلة الرابعة للعدوان الثلاثى ، وهى المرحلة التى اشتهرت عالميا باسم " معركة بورسعيد " .

إن وقفة الشعب ، وقواته المسلحة ، وبسالته فى التصدى لقوى العدوان فى بورسعيد ، هى ملحمة من أقوى ملاحم الكرامة التى عرفتها شعوب العالم

---

(١) " أسرار الحملة على مصر " للأخوين " برومبرجير " اللذين رافقا الحملة من قبرص الى أن تم جلاؤها عن بورسعيد ، ص ١٦٦ - ١٦٩ من النسخة المعربة التى أصدرتها المجموعة ٧٦ ملحقين .

الحرأطنبت الاقلام فى وصفها بما لا يترك لنا مجالا ـ فى هذه المساحة المحدودة ـ لمزيد من الشرح . ويكفى القول أن الموقف العصيب الذى وجدت قوات العدوان نفسها فيه دفعها للضغط على اسرائيل وسحب قواتها من سيناء (٩ نوفمبر) وبدء وصول قوات الطوارئ الدولية لمنطقة القناة (١٥ نوفمبر) .

انتهاء الحملة الأنجلو فرنسية ، الهزيمة والنصر :

بدأت القوات الأنجلو فرنسية ، يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، انسحابها من بورسعيد ، وتم جلاؤها تماما عن منطقة قناة السويس فى ٢٣ ديسمبر ، والجدير بالذكر أن هذا هو الجلاء الثانى للقوات البريطانية عن الأراضى المصرية فى أقل من ستة شهور ، فقد سبقه الجلاء الأول فى ١٨ يونيه من نفس السنه الذى تم بمقتضى الاتفاقية التى أبرمتها حكومة الثورة فى مصر مع الحكومة البريطانية فى أكتوبر عام ١٩٥٤ .

انتهت الحملة بعودة القوات الاسرائيلية الى ماوراء خطوط الهدنة ، وغادرت قوات العدوان الأراضى المصرية ، واتخذت قوات الطوارئ الدولية مواقعها فى منطقتى غزة ، وشرم الشيخ ، وبدأت أعمال تطهير مياه قناة السويس من العوائق ، وأزال المصريون تمثال " دلسبس " من مدخل القناة ، وشرعت مصر فى إعادة بناء ماخربه العدو ، وفى مقدمتها القوات المسلحة .

ولكن ماذا عن الحساب الختامى لأرباح ، وخسائر هذه الحملة ؟

من المتفق عليه أن الحرب هى امتداد للسياسة باستخدام القوة المسلحة ، ولا بد ـ والأمر كذلك ـ أن تحقق الحرب الهدف السياسى الذى نشبت من أجله ، وبما أن مصر لم تكن هى التى أشعلت فتيل " حرب ٥٦ " وانما أشعلته اسرائيل بالتواطؤ مع فرنسا ، وانجلترا لكى تدخل قوات الدولتين الأراضى المصرية ، فماذا كان هدف الشركاء الثلاثة ؟

لا خلاف على أن الثلاثة جمعهم هدف مشترك هو إسقاط جمال عبد الناصر، وانهاء الحكم الثورى فى مصر . . . فماذا حدث ؟

خرج جمال عبد الناصر من المعركة عملاقا ، وارتفعت قامته فوق قامه "ايدن" ، و " جى موليه " اللذين سقطا صرعى " مغامرة السويس " ، واجتاح المد الثورى كل العالم العربى ، وأفريقيا ، ووصل الى كل الشعوب الصغيرة المغلوبة على أمرها ، فهبت تستخلص حريتها ، وكرامتها من قبضة قوى كبرى ، وقامت الوحدة بين سوريا ومصر، (١) ومات مشروع " الهلال الخصيب " الجنين البريطانى الذى لم يولد بعد ، وقامت ثورة العراق ، (٢) وتحطم حلف بغداد ، وانتصرت ثورة الجزائر ، وانفتحت أبواب ـ كانت مغلقة ـ أمام الاتحاد السوفيتى .

واذن فالحملة انتهت الى هزيمة سياسية مخجلة لبريطانيا ، وفرنسا ، ومن يدور فى فلكهما ، والى نصر سياسى خارق لمصر ، وكل الشعوب المتطلعة للحرية والسلام .

أما من وجهة النظر العسكرية البحتة ، فيمكن القول بأن الحملة الأنجلوفرنسية حققت انتصارا تاكتيكيا وتعبويا ولا سيما فى مرحلتى الاسقاط الجوى ، والابرار البحرى ولكنها فشلت فى إحراز أى نتائج استراتيجية حاسمة . فقد عادت قوات الحملة من حيث أتت دون أن تتمكن من فرض سيطرتها على مدن القناة الرئيسية التى أنذرت باحتلالها ، ودون أن تبسط حمايتها على قناة السويس ، أو تؤمن من حرية الملاحة بها ، بل على العكس كانت هى بحاجة الى الحماية والى من يؤمن حياة قواتها ، فضلا عن توقف حركة الملاحة بالقناة ، ولم يمنع حصارها لمصر

---

(١) فى أول فبراير سنة ١٩٥٨ .

(٢) فى ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ .

من وصول وارداتنا من المواد البترولية . . . وعلى العكس انقطعت واردات أوروبا من بترول الشرق الأوسط، بالاضافة الى امتناع الولايات المتحدة عن ارسال البترول الى أوروبا حتى يتم جلاء قوات الحملة .

واذا نظرنا من زاوية أخرى للأمر ،فسنجد أن الحملة ـ عندما وضعت نفسها فى خدمة القوات الاسرائيلية ـ قد أحرزت نصرا استراتيجيا محدودا بتحطيمها جانبا من العتاد الحربى ،وجانبا من قوات مصر الجوية ،وأنها قطعت على القوات المسلحة المصرية اتصال تدريبها على الأسلحة ،والمعدات الجديدة . ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ أتاحت للقوات المسلحة المصرية فرصة الاختبار الميدانى لهذة الأسلحة ،والمعدات ،والتدريب العملى على استخدامها فى قتال فعلى .

فقد أبرزت العمليات البحرية ـ رغم عدم تكافؤ قوات الجانبين المتضادين ـ عدة نقاط على جانب كبير من الأهمية على الصعيدين الأستراتيجى ،والتعبوى ، نجملها فيما يلى :-

١ـ اتساع رقعة المسرح البحرى ولا سيما فى البحر الأحمر ،وضرورة تجهيز هذا المسرح .
٢ـ مدى الأهمية التى تعطيها اسرائيل لمنطقة شرم الشيخ التى تتحكم فى مدخل خليج العقبة المؤدى إلى ميناء ايلات فى أقصى شمال الخليج .
٣ـ الجدوى الأستراتيجية ،والتعبوية لسلاح الألغام البحرية ،وأنه ـ من ناحية أخرى ـ سلاح ذو حدين قد يلحق بنا الضرر اذا لم نحسب بدقة حساب إزالة الالغام من مياهنا بعد انتهاء العمليات .
٤ـ مقدار التقدم الذى أحرزه تكنيك استخدام طائرات الهليكوبتر فى عمليات إبرار القوات .
٥ـ مدى تعرض شواطئنا الشمالية للاعتداء من البحر ،والجو ،ولعمليات الابرار ، الأمر الذى يقتضى العمل على استكمال امكانيات الانذار ،والدفاع الجوى والساحلى .

٦- لم تختبر قدرات، وامكانات القوات الاسرائيلية بالقدر الذى يمكن معه تقييم فعاليتها . وأخيرا - وهو الأهم - كانت الضربة الجوية المركزة التى وجهتها قوات الحملة الأنجلو فرنسية للطيران المصرى، درسا قاسيا وناقوس خطر لما يمكن أن تعانيه قواتنا الجوية من جراء " ضربة جوية مفاجئة " وبالتالى مقدار الشلل الذى تصاب به عمليات سائر قواتنا المسلحة .

الحرب التى لم تتم، يونيو ٦٧ من النصر الى الهزيمة

يجب أن نعترف بادى ذى بدء أن ما أقدمت عليه اسرائيل صبيحة يوم ٥ يونية سنة ١٩٦٧ لم يكن مفاجأة للقيادة المصرية، ولا للقوات المصرية المسلحة، فمن المعروف أن اسرائيل ، منذ أواخر عام ١٩٦٦ ، وهى تثير جوا من التوتر، والاستفزاز الشديدين فى المنطقة العربية بتكرار اعتداءاتها الاقليمية على الأردن وسوريا . وتصاعدت حرارة هذا الجو بعد عدوانها على قرية السموع الأردنية فى مارس سنة ١٩٦٧ ، ثم ضرب سوريا بالطائرات فى ٧ أبريل من نفس السنة، والذى أعقبته بسلسلة من التهديدات العلنية، بتوجيه ضربة قاتلة الى سوريا مؤكدة نواياها بتحركات لقواتها على الحدود بين البلدين . كما أفصحت أيضا تصريحات قادة اسرائيل، ومناقشات الكنيست الاسرائيلى خلال شهرى أبريل ومايو ، عن عزم اسرائيل على القيام بعمل قاس ضد سوريا يختلف تماما عن أعمال الانتقام السابقة، وذلك لردع " البلاد التى تشجع التخريب ضد اسرائيل" - على حد قول ليفى أشكول - الذى أضاف اليه قوله " لقد قررنا مبدأ أن نختار الوقت، والمكان، والوسائل لمواجهة المعتدى". (١) وفى ١٤ مايو من نفس السنة، أثناء احتفالات ذكرى قيام اسرائيل صرح " اسحق رابين " بأنه مالم يطح بثوار دمشق ، فلن يتاح لأى حكومة فى الشرق الأوسط أن تشعر بالأطمئنان . (٢)

---

(١) عن تقرير مقدم من وفد جمهورية مصر العربية (الجمهورية العربية المتحدة وقتئذ) عن حرب يونيه فى المؤتمر الدولى للبرلمانيين حول قضية الشرق الأوسط الذى عقد بالقاهرة فى المدة من ٢ - ٥ فبراير سنة ١٩٧٠ .

(٢) عن نفس المصدر السابق .

ومن ناحية أخرى ، لم تحظ القضية العربية بقدر كاف من تعاطف الرأى العام العالمى خلال السنوات الثلاثة السابقة للحرب ، وذلك لردود الفعل العالمية المعاكسة التى كانت تثيرها تصريحات ، وأحاديث بعض القادة ، والزعماء العرب ، وفى مقدمتهم مصر ، والتى صاحبها قصور فى الدعاية الواعية للقضية على الصعيد الدولى فى مواجهة الدعاية المنظمة الذكية - رغم تضليلاتها - التى باشرتها اسرائيل . فقد تضافرت التصريحات العربية مع الدعاية الاسرائيلية على تصوير اسرائيل بأنها أمة صغيرة ضعيفة يهددها مائة مليون عربى بافنائها ، وبالقاء شعبها فى البحر .

مما لا شك فيه أن القوات المسلحة المصرية - أعنى تشكيلاتها المقاتلة - كانت من حيث التدريب ، أحسن حالا بكثير مما كانت عليه منذ أحد عشر عاما مضت . فقد توسعت الأفرع الثلاث - خلال هذه المدة - فى ايفاد البعثات الدراسية والتدريبيه فى المجالات التعبوية ، والتاكتيكيه ، والفنيه ، وتوسعت أيضا فى جلب الخبراء السوفيت . هذا فضلا عن إنشاء " أكاديمية ناصر العسكرية " بغرض إعداد ضباط قيادات القوات المسلحة ، وتدريبهم على العمل المشترك . كما أسهم الخبراء السوفييت فى إقامة معاهد محلية ، وعقد دورات دراسية ، وتدريبية بكل فرع من أفرع القوات المسلحة استكمالا لخطة اعداد القوات علميا ، وثقافيا ، وعمليا بما يلائم التنظيمات ، والعقائد التى أدخلت على القوات المسلحة المصرية ، وبما يحقق حسن استخدام الأسلحة ، والمعدات السوفيتية .

ونحن لا ننكر ما أسهم به السوفييت من جهد فى إعادة تنظيم القوات البحرية ، وفى تأهيل ، وتدريب الضباط ، والصف ، والجنود البحريين ، والتشكيلات البحرية ، وأيضا فى إقامة ، وتجهيز ورش حديثة للاصلاح ، والصيانة ، ولعل أفضل ما قدمه الاتحاد السوفيتى للقوات البحرية المصرية كان تحقيق أمنيتها فى أن يكون لها قوة بحرية جوية لمكافحة الغواصات وأن توضع المدفعية الساحلية تحت القيادة المباشرة للقوات البحرية أثناء الحرب . ومن ناحية أخرى كان لدى القوات البحرية ، شأنها فى ذلك شأن سائر القوات المسلحة ، مخزون استراتيجى

كاف من الذخائر، وقطع الغيار والأدوات الاحتياطية يفي بحاجة العمليات واستعواض الاستهلاك، واصلاح الأعطاب .

خطوات على طريق الخطأ

يمكن القول بأن أفرع القوات المسلحة، وتشكيلاتها القتالية، وأجهزتها القيادية، والادارية كانت مهيأة لدخول المعركة ضد القوات الاسرائيلية وهزيمتها، فكيف انقلبت الأوضاع - عند ما نشبت المعركة المرتقبة - وحدث ما حدث في ٥ يونيه ١٩٦٧ .

إن كل مواطن في مصر - وليس العسكريون وحدهم - يعلم أن اسرائيل تعتمد في نجاحها المبكر في المعركة على عنصر المفاجأة الذي تحرزه لها قواتها الجوية بتوجيه الضربة الأولى لقوتنا الجوية، ومن ثم تملك زمام " السيادة الجوية " التي لاغنى عنها في الحرب الحديثة . ورغم انقضاء أكثر من عشرة أعوام على العدوان الثلاثي، إلا أن القيادة العليا أغفلت " تأمين " طائرات ومطارات مصر بالقدر الذي يقي قوتنا الجوية مغبة المفاجأة .

وكل مواطن في مصر يعلم أيضا أن قوات اسرائيل تتميز " بخفة الحركة " وتتقن فنون " العمليات الخاطفة السريعة " لارباك تفكير العدو، وشل حركة قواته، فتسهل هزيمتها . ورغم ذلك فرطت القيادة العليا في حقها في استخدام " المبادأة "، السلاح الفعال الذي يحرم القوات الاسرائيلية من أهم وأخطر خصائصها .

وكل مواطن في مصر يعلم أن اسرائيل تتقن مناورات " تهيئة الرأى العام العالمي " لعدوانها، وتجيد فنون " الحيلة "، و" الخداع" على الصعيدين السياسي، والاستراتيجي، ومع ذلك تقم القيادة العليا المصريه بمناورات مضادة، الأمر الذي مكن الاسرائيليين من احراز مزيد من المكاسب السياسيه والاستراتيجيه المبكرة .

ولكن ماقد لايعلمه الا قلة من المواطنين فى مصر هو أن اسرائيل تحارب بعقيدة النصر أو الفناء ،وأنها تبادئ بالهجوم حتى لاتنتقل الحرب الى أراضيها ،وأنها متفوقه تكنولوجيا ،وأن قواتها الجوية على أهبة الاستعداد دائما لتقديم المعاونة المباشرة لعلمليات قواتها البحرية ،والبرية ،وأن خلاصة كل هذه العقائد هى " حرب قصيرة لاتستنفذ مواردها المحدودة " ... وهى حقيقة يعيها كل فرد من قواتنا المسلحة .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : ألم يكن بالامكان ، رغم هذا القصور ، إحراز نتائج أفضل فى " حرب يونيه ٦٧ " ؟ والرد الصريح المباشر هو نعم ... . لو أن الأمر اقتصر على هذا القصور .

السياسة ،واستراتيجية الحرب

ما من شك أن " الأعمال القتالية " التى تنشب بين القوات المتحاربة هى الفصل الأخير فى سلسلة " الصراع " بغض النظر عن حجم وأمد هذا الصراع . ومما لا شك فيه أيضا أن الصراع العربى الاسرائيلى لم يولد فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وانما هذا كان تاريخ ميلاد " الأعمال القتالية " بين اسرائيل والعرب وفى مقدمتهم مصر .

ومن ناحية أخرى ،إذا نحن اعتبرنا أن ماحدث بيننا وبين اسرائيل منذ ١٥ مايو ١٩٤٨ وحتى الآن هو " جولات " تتوالى فى نطاق " حرب " تمتد على مدى ثلاثين عاما ،فان التفسير المنطقى لهذة الجولات هو أنها " سلسلة أعمال قتالية " فى إطار " حرب طويلة " ،وهو تفسير لابد وأن يهدم نظرية " الحرب القصيرة " التى تعتنقها اسرائيل . وتأسيسا على ذلك ،فالمفروض أن تتبع خططنا من سياسة واستراتيجية " الحرب الطويلة " ،وهو مالم يحدث إلا فى السنوات القليلة السابقة على " أكتوبر ٧٣ " .

ومن جانب آخر ،فطالما أن اسرائيل تدين بأستراتيجية ، " الحرب القصيرة" فجدير بنا أن نستغل هذه الأستراتيجية لصالح عملياتنا القتالية . فالمعروف أن اسرائيل لا تقف وحدها ،وعلى ذلك كلما سارعنا بأنهاء الحرب كلما قلت فرص دعم الغير لها ،وبالتالى إحراز النصر على قواتها المسلحة دون عناء كبير .

وعموما ،سواء أكانت " الحروب " تدور فى اطار " صراع" أم سلسلة " أعمال قتالية " فى حرب متصلة ،فيتحتم أن يكون لدى قيادة مصر العليا ـ بأى المقياسين ـ استراتيجية واضحة المعالم للتعامل مع الموقف على الصعيد السياسى ، والاقتصادى ،والعسكرى .

ولكن ،للأسف الشديد أن القيادة المصرية العليا لم يكن لديها منهجا سياسيا واستراتيجيا واضح المعالم فى معالجتها " للصراع" مع اسرائيل ، فوقعت فى سلسلة من الأخطاء جرت معها القوات المسلحة الى مأساة يونية ١٩٦٧ .

والآن ،وبدون خجل ،أو حساسيات ،لنستعرض معا نماذج لبعض الأخطاء التى أقترفتها القيادة المصرية فى حق قواتها المسلحة ،وفى حق الأمة . ونود أن نشير الى أن هذه الأخطاء لم تتكشف بعد حرب ٦٧ ،وانما هى أخطاء التصقت بتفكير ، وتصرفات الزعامة السياسية ،والقيادة العسكرية منذ أن التقطت مصر أنفاسها عقب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .

١ـ امتد الارهاب، والقمع اللذان اتسم بهما الحكم فى مصر، عقب انضمام الوحدة مع سوريا ، الى القوات المسلحة فأنقسمت صفوفها الى ثلاث فئات : فئة الممالئين أصحاب الحظوة ، وفئة المعتزين بشرف مهنتهم المضطهدين ، وفئة الخائفين المحايدين . وأخذت كل فئة ترقب تحركات الفئة الاخرى ، وتتربص بها فانهارت الرابطة الأسرية ، وانحل الضبط والربط، وهى الدعائم الأساسية التى يقوم عليها بنيان القوات المسلحة .

٢ـ عدم وضوح الغاية التى تنشدها الزعامة السياسية من أى حرب مقبلة مع اسرائيل ، وهو أمر لا مندوحة منه لأننا اذا اعتبرنا أن حملة ٤٨ ، وعدوان ٥٦ حربان فرضتا على المصر فمن المؤكد أن أى لقاء مقبل مع اسرائيل سيكون أمره بأيدينا ، وبالتالى فلابد أن يكون لدى القيادة السياسية غاية واضحة لهذا اللقاء ، أو لتجنبه . بمعنى، هل الهدف من الحرب سيكون " القضاء على اسرائيل " أو مجرد ردعها بتدمير" قواتها المسلحة ، أو مجرد تهديدها " بالتلويح بالحرب " ؟ فوضوح الهدف يحدد أبعاد استراتيجية استخدام القوات المسلحة ، ويلزم القيادة السياسيه بتمهيد الطريق ، وتعبيده لتنفيذ هذه الأستراتيجية ، ولكن ماحدث ـ خلال الفترة التى نحن بصددها ـ يعكس غموض الهدف . فتصرفات الزعامة السياسية باعدت بين مصر، وغالبية شقيقاتها العربية ، وجعلت معظم العالم الخارجى يأخذ جانب اسرائيل ، أما القلة من الدول الآسيوية ، والأفريقية فقد فضلت اتخاذ موقف المتفرج ... بينما ساور الاتحاد السوفيتى ـ الصديق الوحيد ـ الشك فى نوايا مصر تجاهه فاتخذ جانب الحيطة ، والحذر فى دعمه لنا سياسيا ، وعسكريا .

٣ـ الصراع الذى تأجج بين القيادة السياسية ، والقيادة العسكرية انتقل الى صفوف القوات المسلحة كل يحاول اكتساب ولائها اليه ، فاهتزت لدى الكثيرين معانى الولاء ، للوطن ، فتقوضت دعامة أخرى من دعامات بنيان القوات المسلحة . ومع أن هذا الصراع ظل محصورا بين القيادات العليا ، وهى فئة أصحاب الحظوة مما خفف كثيرا من آثاره ، الا أن القوات المسلحة

سادها مناخ تفوح منه رائحة الفشن والدسائس .

٤- عدم تمييز حدود " التلويح بالحرب " ،و" حافة الحرب " ،و" اشعال الحرب " وعدم تفهم مقومات ،وأبعاد ،وأسلحة كل حالة ،وتوقيتاتها ،وما يمكن أن ينجم عن كل منها من ردود فعل لدى العدو الاسرائيلى ، جعل القيادة السياسية تتخبط فى تصريحاتها ،وفى قراراتها ،وفى علاقاتها الخارجية الى أن وجدت نفسها - ومعها القيادة العسكرية - وجها لوجه مع" الحرب " ،واكتشفت أن البون شاسع بين " المقامرة " ،و" المخاطرة المحسوبة " وهو الفارق بين منهج القيادة المصرية ،ومنهج القيادة الاسرائيلية . وعلى هذا تنازلت مصر - بمحض إرادة قيادتها السياسية - عن أخطر مبادىء الحرب ،أعنى " المبادأة " ، و" المفاجأة " ،و " العمليات الهجومية " ، و" الأمن " ... وماذا بقى ؟

٥- فاذا اقتربنا من " ٥ يونيه ٦٧ " ،وعلى وجه التحديد منتصف شهر مايو ، نجد أن القيادة السياسية قد اقترفت سلسلة من الأخطاء كانت - فى ذلك الوقت بالذات - أخطاء قاتلة ،بدأت بابتلاع أكذوبة الحشود الاسرائيلية على الحدود السورية (حوالى خمسة عشر لواء من المشاة والمظليين) ،وهى اكذوبة بكل ما فى الكلمة من معان . فاسرائيل تعلم أن تهديدها لسوريا ستقابلة مصر بمنتهى العنف ، واذن فعليها أولا تأمين الجبهة المصرية قبل ان تشرع فى حشد قوات بهذا الحجم على الجبهة السورية ،وهو مالم يحدث . ومن ناحية أخرى فنحن نعلم أن امكانات اسرائيل لاتسمح لها بحشدين مؤثرين على الجبهتين فى وقت واحد ،وأنها لن تقدم على وضع مثل هذا الثقل على الحدود السورية وتترك الجبهة المصريه شبه عاريه . وتوالت بعد ذلك الأخطاء بسرعة يتعذر معها كبح جماحها ،أو تصحيحها ،أو الرجوع فيها : ففى يوم ١٥ مايو صدرت تعليمات بتحريك قوات كبيرة من عمق الأراضى المصرية الى سيناء ،وصدرت حركة تعيينات جديدة فى قيادة الجبهة الشرقية ،وسافر رئيس أركان القوات المسلحة المصرية الى سوريا لتأكيد التزامات مصر بمعاهدة الدفاع المشترك ،وفى اليوم التالى صرح القائد العام للقوات المسلحة المصرية بضرورة سحب قوات الطوارىء الدولية حتى لاتتعرض لأى

ضرر من جراء تحركات القوات المصرية . . وللأسف أن كلا الاجرائين يضر بأمن قواتنا فى جميع مسارح الحرب، ويكشف سرية تحركاتها . ويتصاعد الموقف يوم ٢٢ مايو باعلان قرار مصر باغلاق مضيق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية اعتبارا من اليوم التالى .

والجدير بالذكر، ولاستكمال الصورة العامة ،أن القوات المسلحة المصرية كانت حتى ذلك الوقت ملتزمة بالخطة الدفاعية ،وأن الجانب الأكبر والأفضل من القوات البرية المصرية مازال باليمن ،وأن إغلاق مضيق خليج العقبة هو بمثابة إعلان الحرب على اسرائيل ،وهى حقيقة أكدتها التصريحات الجادة لزعماء اسرائيل ،بالاضافة الى أن إغلاق المضيق يستلزم احتلال القوات البرية لشرم الشيخ ،وأن ترتكز عمليات القوات البحرية على قاعدة قريبة لم تكن الا " الغردقة " وما يستتبع ذلك من استيفاء تحصيناتها ، ووسائل الدفاع عنها . هذا فضلا عما يتطلبه تأمين القوات المصرية فى كل هذه المنطقة (شرم الشيخ / الغردقة) من عمليات بحرية برية جوية تستهدف - فى المقام الأول - عزل " ايلات " ،وربما احتلالها . ومما لا شك فيه أن قرارات القيادة السياسية هذه وما يقتضيه تنفيذها من اجراءات ،وتحركات على المستوى التعبوى ،يخل بتوازن الخطة الدفاعية وبالمهام الموكلة للقوات المسلحة المصرية ككل .

ومع العلم بأن الحرب وشيكة ،وأن اسرائيل ستبدأها بضربة جوية ضد قواتنا الجوية ،فقد أصرت القيادة السياسية على قبول هذه الضربة رغم اعتراض القيادات العسكرية . واحقاقا للحق ،فقد ألحت هذه القيادات - وفى مقدمتها القيادة الجوية - بأن تكون مصر البادئه بتوجيه الضربة الأولى ،لانتزاع السيطرة الجوية من الاسرائيليين والحفاظ فى الوقت نفسه ،على سلامة أكبر قدر من جهدنا الجوى ، وبالتالى تمكين طيارينا من أداء مهامهم بما يكفل انجاح عملياتنا البرية والبحرية .

وبذلك تكون القيادة السياسية - بما أقترفته من أخطاء - قد أهدت اسرائيل المبرر لمحاربه مصر، ومفتاح المبادأة ،وأصبحت أعمالنا ،وتحركاتنا - على

الصعد يد ين السياسى ،والعسكرى - مجرد ردود فعل لأعمال اسرائيل بعد أن كنا ،منذ أقل من ثلاثة أسابيع، مصدر التهديد ،ومكمن الخطر .

ولا مفر من أن نعترف بأننا - نتيجة لكل ذلك - خسرنا حربا لم تبدأ بعد .

الصعيد العسكرى ... استراتيجيا ،وتعبويا

لا شك أن القيادة العسكرية شاركت القيادة السياسية أخطاءها بحكم أن القائد العام للقوات المسلحة المصرية - بعد ثورة ٢٣ يوليو - هو أحد أعضاء القيادة السياسية . وبدلا من أن يخلق هذا الوضع جوا من الانسجام ،والتناسق بين القيادتين نجد أنه فجر صراعا بينهما ترتب عليه توظيف عناصر من القوات المسلحة فى خدمة هذا الصراع مما أدى الى تصدع صفوف القوات المسلحة .

وعلى الرغم من أن مثل هذا التصدع يعتبر كافيا لكى تفقد القوات المسلحة " روح الفريق " التى تشدها الى بعضها فى رباط متين ،فان القيادة العسكرية - من جانبها - انزلقت الى أخطاء جسام كان أبرزها :

١- عدم استفادة القيادة العامة بدروس وخبرات " حرب ٥٦ " فيما يتعلق بالقوات الجوية المصرية ،والدفاع الجوى عنها ،وعن الجمهورية ،واهمالها متطلبات وقاية الطائرات ،والمطارات (الانتشار ،التمويه ،الملاجئ) والتى لم تكف قيادة القوات الجوية عن التذكير بها ،والتحذير من مغبة اغفالها ... فوقعت القوات الجويه المصرية - بل مصر بأسرها - فريسة سهلة لطائرات اسرائيل فى صبيحة يوم " ٥ يونيه " الأسود .

٢- الانسياق للقيادة السياسية فى تسليم سلاح المبادأة الاستراتيجية لاسرائيل بالخضوع لنظرية " تلقى الضربة الأولى " ،وكان الأجدر بالقيادة العامة للقوات المسلحة المصرية التمسك بمبادأة العدو بالضربة الجوية ولا سيما أن تقاعصها كان هو السبب فى ترك طائراتنا ،ومطاراتنا عارية ،وفى افتقار الجمهورية لقدر مأمون من الانذار ،والدفاع الجوى . ومن ناحية

أخرى ، ومهما كان تحوطنا فان القوى الأجنبية لن تعدم ذريعة للتدخل الى جانب اسرائيل فى الوقت المناسب سواء أكنا نحن البادين أم اسرائيل هى البادئة .

٣- اهتمام اجهزة الأمن ، والمعلومات ، بتحريض من مراكز القوى ، بأمر الصراع بين القيادتين السياسية ، والعسكرية ، فأخذت تختلق قضايا التآمر ، والأنقلابات بين صفوف القوات المسلحة ، ومن ثم قلت عنايتها بجمع معلومات وافية عن العدو ، وتمحيصها ، ومتابعتها ، فجاءت تحليلاتها مجافية للواقع ، وبالتالى عدم صواب تنبوءاتها . ومن جانب آخر ، لم تعن القيادة العامة للقوات المسلحة بمراجعة هذه الأجهزة ، وتشديد الرقابة على أعمالها خشية فقد تأييدها فى الصراع الداخلى على حساب صراعها مع العدو الاسرائيلى ، وأمن قواتنا ، فدخلت مصر ، الحرب ، وأعين قيادتها شبه مغمضة ، فلا غرو أن تصدق أكذوبة الحشود الأسرائيلية الهائلة على حدود سوريا ، وأن الأفضل أن نتلقى ضربة العدو الأولى ، وأن غلق مضيق خليج العقبة ، وحشد القوات فى سيناء سيكره اسرائيل على التراجع عن نواياها ، وأن المحور الجنوبى هو الإتجاه الرئيسى لهجوم القوات الاسرائيلية ..... وغيرها وغيرها . والنتيجة الطبيعية لكل ذلك : تخبط القرارات ، واهتزاز الخطط ، وفقدان الثقة .

٤- استفحال أمر تدخل القيادة السياسية فى دقائق خطط عمليات القوات المسلحة ، ولا سيما القوات البرية ، وتجاوزه المستوى الاستراتيجى المقبول الى مستوى عمليات القيادات الميدانية ، الذى أدى الى الحد من حرية تصرف القيادة العامة ، وأجهزتها فيما بين أيديها من خطط ، وحرم القيادات الدنيا من اتخاذ قرارات تتفق والموقف الذى تجابهه . . وعلى هذا دخلت قواتنا الحرب وهى مكبلة - دون مبرر - بتحفظات سياسة غير منطقية فى مواجهة قوات خفيفة الحركة ، وعدو يدين بالحرب الخاطفة السريعة . وقد يكون أحد الأسباب القوية وراء تدخل القيادة السياسية هو مناخ عدم الثقة الذى كان يخيم على العلاقات بينها ، وبين القيادة العسكرية .

٥- التصريحات الهوجاء ، والافصاح مقدما عن نوايانا ، وما صاحبها من انتقال قوات كبيرة من عمق أراضي الجمهورية الى سيناء مما أطاح بسرية حجم القوات ونوعيتها ، وتشكيلاتها وأتاح للعدو فرصة الاعداد المبكر لمواجهة كافة الاحتمالات ، والتعرف على نواحي القوة والضعف في أوضاع قواتنا ، وفي أنظمة الاتصال والانذار مما ترتب عليه كبر حجم هزيمتنا ، وفداحة الخسائر في الأرواح والعتاد . ومن ناحية أخرى، إستغلت اسرائيل الفترة التي انطلقت فيها حملة التصريحات المصرية ، منذ ١٤ مايو ، في موازنة حجم قواتها على الجبهتين السورية ، والمصرية ، وتمكنت - خلال هذه الفترة - من زيادة حجم قواتها البرية أضعاف ماكانت عليه عند بداية الأزمة التي احتشدت غالبيتها على جبهة سيناء .

٦- ولعل أفدح أخطاء القيادة العسكرية ، وأبرزها هو عدم التبصر بعواقب الاعلان عن نية مصر في اغلاق مضيق خليج العقبة في وجه الملاحة الاسرائيلية ، ومايمكن أن يثيره من ردود فعل لدى اسرائيل ، وبين أصدقائها ، فما بالنا لو صدقت النية ، وعادت قواتنا الى منطقة شرم الشيخ ، وأغلق المضيق . فجميعنا يعلم مدى اعتماد الاقتصاد الاسرائيلي على حرية حركة التجارة الخارجية مع بلاد شرقي أفريقيا ، والبلاد الآسيويه ، وأن البحر الأحمر هو أقرب طريق الى تلك البلاد ، فاذا سلمت اسرائيل بفشلها في فتح قناة السويس أمام تجارتها بين موانيها المطلة على البحر المتوسط ، وموانى أفريقيا وآسيا ، فانها ترفض رفضا باتا أن يغلق في وجهها خليج العقبة والا حرمت من منفذها الثاني . وهي لذلك لاتعتبر موضوع منعها من استخدام المضيق مجرد مسألة سياسية فحسب بل وأيضا خطرا يهدد أمنها ، ونموها الاقتصادي . ولم تأل اسرائيل جهدا في الأفصاح عن هذه الحقيقه في كل مناسبة ، وأثارتها أكثر من مرة في هيئة الأمم ، بل وحتى بعد احتلال قوات الطوارئ الدولية لمنطقة شرم الشيخ في أعقاب العدوان الثلاثي عام ٥٦ . فلا غرو اذن أن تعلن اسرائيل - منذ بداية تصعيد الأزمة في منتصف مايو ٦٧ - أن التدخل المصري في حرية الملاحة بمضيق خليج العقبة هو بمثابة اعلان الحرب عليها ، وأنها ستكون مضطرة ازاء ذلك ، لاستخدام القوة لفتح المضيق ، والسيطرة عليه . ولا غرو أيضا

أن تقترح الولايات المتحدة الأمريكية تشكيل قوة بحرية شبه دولية لضمان حرية الملاحة فى مضيق خليج العقبة، والتى أيدتها فى ذلك كل من بريطانيا وكندا، وفرنسا، وبطبيعه الحال اسرائيل . ولا بأس من أن تتخذ القيادة السياسية قرارا باعتزامها اغلاق المضيق طالما أعدت القيادة العسكرية للأمر عدته، بشرط عدم استخدام هذا القرار بالذات ـ للأسباب التى أسلفناها ـ سلاحا للتهديد ، أو الابتزاز وبشرط ألا نعلن عنه، أو عن استعدادنا إلا فى الوقت المناسب . ولكن ما لا يمكن التجاوز عنه، هو تقاعس القيادة العسكرية عن تبصير القيادة السياسية بما سيترتب على إعلان القرار، وتنفيذه ـ وهى لم تعد للأمر عدته بعد ـ من نتائج تضر بمصر، وبقواتها المسلحة . فوجود القوات المصرية بمنطقة شرم الشيخ سيترتب عليه أحد أمرين : إما أن تتمسك هذه القوات بتنفيذ القرار، وبالتالى فلا مفر من الحرب وبذلك تجد القيادة السياسية نفسها فى موقف " اللاعودة " إن هى أرادت التراجع فى قرارها، وإما أن تتساهل فى تنفيذ القرار ويفقد وجود القوات بالمنطقة معناه وبذلك تقف مصر وقواتها المسلحة أمام العالم ـ والعالم العربى على وجه الخصوص ـ موقف الضعف والهوان، الأمر الذى يحفز اسرائيل على الهجوم، وطرد القوات المصرية من منطقة شرم الشيخ، واحتلالها فتغدو هى المسيطره على المضيق .

واذن فمن الفطنة ـ وليس عن جبن أو تخاذل ـ أن نتجنب احتلال شرم الشيخ، خصوصا وأن الموقف برمته لا يهيء لقواتنا تفوقا استراتيجيا، أو تعبويا ملموسا على العدو، وهو أمر أجمع عليه قرار قادة القوات المسلحة الثلاثة، فى اجتماعهم يوم ١٧ مايو .
ومع ذلك وبعد أقل من ثمان وأربعين ساعة كانت القوات المصرية فى طريقها الى منطقة شرم الشيخ .

والسؤال الذى يطرح نفسه مباشرة : ماهو البديل لكى تمارس مصر حقها فى إغلاق مضيق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية ؟ والرد على ذلك

يدفعنا لنتساءل هل اغلاق المضيق هو فى حد ذاته الهدف . . . أو أن الهدف كان مجرد ممارسة حق مصر الشرعى ،أو أن الهدف هو احكام حلقات حصار اسرائيل وخنق اقتصادها ؟ ليس ثمة شك أن اقتصاد اسرائيل هو الهدف ،وعلى ذلك فالبديل ـ ردا على السؤال المطروح ـ هو ما أقدمت عليه القيادتان السياسية ،والعسكرية بفطنة وشجاعة فى حرب " أكتوبر ٧٣ " عند مضيق " باب المندب " ،وهو ما سنتناوله بالتفصيل فى حينه .

٧ـ الجنوح الى الاستقلالية المفرطة بين أفرع القوات المسلحة الثلاثة ،وعجز القيادة العامة عن كبح جماحها مما أدى الى اختلاف لغة كل قوة عن لغة شقيقتيها ،واختلفت أيضا عن لغة القيادة العامة ،فانتهى الأمر الى انحلال الرابطة بين عمليات القوات الثلاثة ،وتمزقت أواصر التعاون بينها ،وتصدعت سيطرة القيادة العليا عليها .

ومرة أخرى نقول " أننا خسرنا حربا لم تبدأ بعد " .

القوات البحريـــة

كانت القوات البحرية ترقب - عن كثب - الصراع بين القيادتين السياســية والعسكرية وتخشى مغبته، فابتعدت عن حلبته، وركزت جهودها فى بناء قـــوة مصر البحرية، ووضعها فى خدمة مصالح الأمة، وتحاشت أن تشدها مراكز القوى الى اللعبة المدمره . ولعل هذا كان السبب الرئيسى فى أن قيادة القــوات البحرية لم تغفل أبدا الهدف الذى عليها إحرازه فى أى حرب تخوضها مصــر .

ولكن باعتبارها جزءا من القوات المسلحة، وأحد قطاعات المجتمع المصرى، فقد انعكس على القوات البحريه بعض من المناخ الذى كان سائدا وقتئذ، ولكن بصورة مختلفه . فقد انتاب القيادة البحرية الخوف من جرها الى مالا ناقة لها فيه ولا جمل مما حدا بها الى تصعيد " استقلالها " والذى برغم كل مساوئه حافظ على تماسك القوات، ووقاها شر الفتن، والدسائس، والتكالب علـــى المناصب، فظلت على ولائها الشديد للأهداف الوطنيه مع وضوح رؤيتها لأبعاد التزاماتها . ونحن لا نقصد من هذا أن القوات المسلحة الأخرى كانت أقــل ولاء من القوات البحرية للأهداف الوطنيه، أو أنها فرطت فيها، أبدا فكلنا قطعـــة من مصر، وكلنا رهن ارادتها . انما القصد أن التصاق قيادتى القوات البرية، والقوات الجويه بالقيادة العامة للقوات المسلحة ومعايشتهما اليومية لأحــداث صراع القمة جعل منهما شريكين - من الباطن - فى هذا الصراع فانشغلت كــل منهما بأكثر مما ينبغى، بكيفية موازنة موقفها بين القمتين، لاسيما وأن القيـــادة السياسية كانت كثيرة التدخل فى دقائق شئون القوتين البريه والجوية . ولـو أن الأمر اقتصر على تورط الرؤوس لأمكن التخفيف من آثاره، ولكن انزلاق القيـــادات الأدنى وبعض الضباط - بطريقة أو بأخرى - الى الحلبه، فتح بين صفوف القــوات ميدانا لصراع داخلى انحرف بمفهوم الولاء عن مساره الطبيعى الى فلك أشخاص أطراف الصراع .

اكتسبت القوات البحريه ـ بموقفها هذا ـ احترام شقيقاتها ـ وتهيأ للقادة البحريين المناخ المواتى لاستيعاب العلوم الحربية، وفنون القتال البحرى الحديثه، والتدريب الجاد عليها . ولكن على الرغم من تكرار التدريبات، والمناورات المشتركة، وما أدت اليه من تقارب فكرى بين القوات المسلحة فانها ـ للأسف الشديد ـ لم تسفر عما كان منتظرا منها ألا وهو خلق لغة واحدة تتكلم بها القوات الثلاثة . ومع أن افتتاح " أكاديمية ناصر العسكرية العليا " قد مهد الأرض لانبات وحدة اللغه، الا أن الوقت لم يتسع لجنى ثمارها، فقد دهمتنا الحرب بعد أقل من عام من تخرج أولى دفاعاتها، وعدم اتمام دورة الدفعة الثانية . وعلى كل، فيمكن القول بأن عام ١٩٦٦ شهد مولد جيل من القادة على قدر من الوعى، والفهم لاستراتيجية الاستخدام المشترك للقوات المسلحة، ولطبيعة، وخصائص عمل كل قوة، فازداد التقارب الفكرى بين القادة، وبدأت تظهر بوادر العقائد المشتركة، إلا أن الوقت لم يكن كافيا للمارسه العمليه، وظلت لكل قوة لكنتها التى تختلف عن لكنه شقيقاتها .

الاستعداد للحرب

أخذت قيادة القوات البحرية تتابع تصاعد الموقف، وتعمل لكل خطوة حسابها وحرصت منذ اليوم الأول لاعلان حالة الطوارىء على أن يكون لها السبق على اسرائيل فى الفتح التعبوى، وذلك فى الاطار العام للخطة الدفاعيه . ورغم اقتناعها بعدم فاعلية حصار اسرائيل عن طريق غلق مضيق خليج العقبة، الا أن قيادة القوات البحرية ـ فهما منها للمنحى الفكرى للقيادة العليا ـ عكفت على دراسة كافة الوسائل المباشرة لغلق المضيق، ووضعت لكل دراسة خطتها : بث الألغام فى مياه المضيق، اعتراض حركة الملاحة بواسطة الغواصات والوحدات الخفيفه، والقيام بعمليات التخريب لميناء إيلات .

فلما أثيرت فكرة غلق المضيق ـ قبل إعلانها، وقبل رحيل قوات الطوارىء الدوليه ـ عرضت قيادة القوات البحرية ما أعدته من خطط، ووسائل لوضع الفكرة

موضع التنفيذ مستبعده ، لأسباب فنيه ،استخدام الألغام . هذا وقد أكدت القيادة البحرية على أن التعرض لحركة الملاحة خارج وداخل مضيق خليج العقبة ،وتخريب ميناء ايلات يغيان بالغرض ،وعلى ذلك فلا داع لوضع قوات مصرية بمنطقة شرم الشيخ . وأكدت القيادة البحرية أيضا على أنه فى جميع الأحوال،يجب تخصيص مجهود جوى للقيام بالاستطلاع،والحماية للوحدات البحرية التى ستضطلع بهذه المهام فضلا عن تأمين قاعدة " الغردقة " البحرية التى سترتكز عليها هذه الوحدات . وبدا أن القيادة العليا اقتنعت بوجهه نظر القوات البحرية (١) ، ووعدت القيادة العامة للقوات المسلحة باجابة مطالب القوات البحرية فى حالة ما إذا تقرر عكس ذلك وهو أمر مستبعد .

ولم نفاجأ بقرار غلق المضيق بقدر ما فاجأتنا الطريقة التى أعلن بها القرار ولم تكن هذه هى المفاجأة الوحيده . فقد سبق أن أوضحت القيادة البحرية أن عمليات وحداتها فى مياه المضيق ستكون ليليه اتقاء لخطر هجوم الطيران الاسرائيلى عليها ،ولأن السفن الداخله الى خليج العقبة والخارجه منه تعبر المضيق نهارا لتعذر ملاحتها ليلا ،وهذا معناه أن السفن تقترب منه أثناء الليل ،وعليه فان هجوم الوحدات البحريه المصرية ـ غواصات وزوارق الطوربيد ـ على السفن التى ترتاد المضيق سيتم ،فى الغالب ،دون تمييز لجنسيتها. وتأسيسا على ذلك فالأمر يقتضى أن يكون لدى الوحدات البحرية المكلفه بهذه المهمة أمر مسبق ـ لا لبس فيه ،ولا ابهام ـ باغراق السفن التجارية التى تحاول دخول خليج العقبه أو الخروج منه بغض النظر عن جنسياتها ،وسواء كانت محملة أم فارغه ،أما بالنسبة للسفن الحربية فلن تتعرض وحداتنا إلا للاسرائيلية ، أو رد عدوان سفن الجنسيات الأخرى . وهنا كانت المفاجأة الكبرى : لا هجوم ولا اغراق حتى ولو كانت سفنا تجاريه اسرائيلية ،وما على الوحدات البحرية المصرية الا الابلاغ عن كل حاله ،وستتخذ القيادة العليا ماتراه فى كل موقف على حده !

---

(١) أجمعت سائر قيادات القوات المسلحة على تأييد وجهة النظر البحرية ، واتخذت ـ فى ١٧ مايو ١٩٦٧ ـ قرارا مبكرا بتجنب احتلال القوات المصرية لمنطقة شرم الشيخ .

أى أن المطلوب - ببساطه - هو القيام بمظاهرة بحرية ساذجة فى أشد المناطق حساسيه والتهابا . وتمالكت القيادة البحرية أعصابها ،وتمسكت بأهداب الصبر، وتقدمت باقتراحين آخرين : إما أن يكون هجوم الوحدات البحرية المصرية نهارا بشرط توافر الحمايه الجويه لها ، أو أن تقوم الطائرات المصريه - فى آخر ضوء كل يوم - باستطلاع مياه خليج العقبه ،ومياه وسط البحر الاحمر،لتتخذ القيادة العليا ماتراه فيما يبلغها من معلومات . وبذلك نقتصد فى مجهودات الوحدات البحريه ،ونقيها خطر الهجوم الجوى الاسرائيلى ونتجنب - بقدر الإمكان - إثارة أى مشاكل دوليه . فلما أعلن قرار مصر باغلاق مضيق خليج العقبة ،ولما احتلت القوات المصريه منطقة شرم الشيخ ،ولما لم تصدر القياده العليا قرارا بشأن الموقف البحرى ،وضح للقيادة البحريه أن الأمر برمته متروك لاجتهادات القيادات . وللحق والتاريخ نؤكد أن القيادات الميدانيه الثلاثة - بالرغم من عدم اقتناعها ، وبرغم ما أحست به من مرارة - بادرت الى تخطيط التعاون فيما بينها ،لتدرأ عن قوتها مفاجآت قيادتها العليا التى لاتقل خطرا عن مفاجآت العدو الاسرائيلى .

وبحكم خصائص الوحدات البحرية ،وطبيعة عملياتها ،فقد أخذت القوات البحرية - منذ اليوم الاول لرفع درجات الاستعداد الى الاستعداد القتالى الكامل - التدابير الوقائية اللازمة فى مسرح البحر المتوسط من " السلوم " غربا الى " غزة " شرقا ،وفى مسرح البحر الاحمر من " السويس " ،و " العقبة " شمالا الى فنار " ابوالكيزان " جنوبا بالقدر الذى سمحت به امكانياتها القتالية والفنية وقتئذ . هذا وقد روعى فى توزيع الوحدات البحرية على القواعد والمراسى بالمسرحين قدرة هذه الوحدات على تعزيز الانذار الجوى ، والدفاع المضاد للطائرات فى مناطق عملياتها . كما روعى أيضا اعطاء كل من مسرحى البحر المتوسط،والبحر الاحمر نوعا من الاكتفاء الذاتى تجنبا لاعادة نقل وحدات من مسرح الى آخر عقب نشوب العمليات الحربية التى ستؤدى - بالضرورة - الى اغلاق قناه السويس ... الطريق المائى الوحيد الذى يصل المسرحين .

أما ماكان يقلقنا حقا ،ولا نجد له حلا،فكان افتقار عملياتنا البحرية ـ رغم تفوقنا البحرى على اسرائيل ـ الى التغطيه والحماية الجوية ،وهو أمر نعرف أن البحرية الاسرائيلية لاتعانى منه ،مما جعلنا ننحو ـ أكثر مما يجب ـ للعمليات الليليه مسلمين بما تفرضه من قيود تاكتيكيه على عمل التشكيلات البحرية وازداد تخوفنا على مستقبل عملياتنا البحرية من مغبة قرار الضربة الجوية الأولى .

الجانب الاسرائيلي

استغل الاسرائيليون أخطاء القياده المصريه ،فتحركوا وناوروا ،بذكاء، فى الميدانين السياسى ،والعسكرى ،ووجهوا كل همهم لاكتساب المزيد من عطف ،وتأييد الرأى العام العالمى ،وتهيئته لتقبل أى عمل عسكرى قد تقوم به اسرائيل على انه " دفاع مشروع" عن أمنها ،وقد ساعدها فى ذلك التصريحات والتهديدات الاستفزازية التى روجت لها كل وسائل الاعلام المصرى .

واستفادت العسكرية الاسرائيلية من تردد القيادة العسكرية المصرية ، وافصاحها عن نواياها ،وبالتالى انكشاف تحركات القوات، استفادت به فى حساب كل خطوة ،وكل حركة ،وفى كسب الوقت لاتمام تعبئة قواتها . وقد استثمرت هذا الوقت ـ قرابة ثلاثة أسابيع ـ فى محاصرة إرادة مصر،ووضع القوات المسلحةالمصرية فى صفوف المتفرجين الذين ينفعلون بما يبدو لهم على المسرح دون ان يدروا بحقيقة مايدور بين الكواليس .

استهدفت الخطة الاسرائيلية ـ بشكل عام ـ إشاعة جو من الهدوء على الجبهة المصرية يبعث على الاسترخاء المشبع بالقلق ،والبلبله ، ويتيح لها فسحة من الوقت تنتهى فيها من التعبئة الشاملة ، والاعداد لتوجيه ضربة قاصمة الى قواتنا . وفى الوقت نفسه،تحت تأثير البلبلة تدفع القيادة المصرية الى توزيع قواتها على مواجهة واسعة بطريقة غير متوازنة تفقدها تماسكها ،فيسهل على القوات الاسرائيلية اختيار مناطق الاختراق التى تلائمها.ومع أننا ـ فى القوات المسلحة على الأقل ـ نعلم تماما أن اسرائيل تعلن خلاف ماتبطن ، إلا أن الخدعة

الاسرائيلية خدعت القيادة العليا المصريه بتأييد من تقارير المخابرات المصرية التى ظلت تردد أن هذا الهدوء دلالة واضحه على تراجع اسرائيل عن تهديداتها لسوريا بعد أن حشدت مصر قواتها على جبهة سيناء ، وأن الظروف أصبحت فى غير صالح اسرائيل بعد أن فقدت " المبادأة " .

نجحت اسرائيل ، على الصعيد السياسى ، فى كسب الدول الكبرى الى جانبها ، ولا أدل على ذلك مما قامت به الدولتان العظمتان من تحركات على امتداد الأسابيع الثلاثه السابقه على الحرب ، تحت شعار " ضبط النفس " والذى صاحبه تجريم من " يطلق الرصاصة الأولى " وهو الانذار الذى لوحت به الدول الكبرى .

فقد بعث الرئيس الأمريكى جونسون برساله الى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يناشده " ضبط النفس " ، وعدم البدء بالعدوان حفاظا على السلام العالمى ، ثم يرسل اليه مبعوثا خاصا يقترح لقاء قمة بين البلدين فى محاولة للخروج من الأزمة . ويتصل الرئيس الأمريكى فى الوقت نفسه بالاتحاد السوفيتى يحثه على التدخل لدى العرب لمنعهم من " توجيه الضربه الأولى " ، ويعلن بأن الولايات المتحدة الأمريكية تضغط على اسرائيل للكف من " أعمال الاثاره " ، كما عرض الرئيس الأمريكى - ضمن ماعرض - مشروعا يدعو الى الاعتراف بسيادة مصر على خليج العقبه ، ولكنه يقضى بالسماح لجميع السفن ، فيما عدا التى ترفع علم اسرائيل ، بارتياد الخليج والمضيق المؤدى اليه .

أما الاتحاد السوفيتى فقد استخدم كافه السبل لاقناع قيادة مصر بعدم البدء بالعدوان وأن الأفضل لها أن تحاول كسب الموقف بالطرق السياسية ، والدبلوماسية حتى لا تتعرض القوات المصرية المسلحة لأخطار حرب من المتوقع أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية طرفا فيها . ومما يدعو للعجب أن السفير السوفيتى فى القاهره التقى - مساء يوم ٢٦ مايو - بالرئيس جمال عبد الناصر فى مقابلة عاجلة ، وقدم اليه رسالة من " كوسيجيين " يلح فيها على ضبط النفس

والتريث ، وهو نفس اليوم الذى حمل فيه السفير الأمريكى بالقاهره رسالة من الرئيس الأمريكى الى الرئيس المصرى يطلب منه ألا تكون مصر هى البادئة بالعدوان . ووجه العجب هو أنه كان معروفا لقادة القوات المسلحة المصرية أن الطائرات المصرية ستوجه ضربة جوية الى اسرائيل يوم ٢٧ مايو (١) وهو اليوم التالى على هاتين المقابلتين إلا أنها لم تنفذ فى موعدها ، ولا بعدها ، ومن الطبيعى والمنطقى أن يكون هذا الإحجام نتيجة للتدخل المريب للدولتين العظمتين .

ورغم تعاطف سائر الدول الغربية الكبرى مع اسرائيل ، الا أن غالبيتها تأرجح بين الموافقه على الاقتراح الأمريكى بتشكيل قوة بحرية مشتركة للسيطرة على مضيق خليج العقبه وبين رفض الاقتراح ، ومع ذلك أجمع الكل على التحذير " بعقاب " من يبادئ بالعدوان .

ومع أن اسرائيل لم تكف عن الصراخ والتهديد منذ بدأت مصر فى حشد قواتها فى سيناء ، واعلانها عزمها على اغلاق مضيق خليج العقبة ، فانها كانت تعود وتعلن أن الموقف مازال فيه متسع للحل السلمى ، والذى كان آخره ما أذاعه " موشى ديان " وزير الدفاع الاسرائيلى يوم ٣ يونية سنة ١٩٦٧ من أن الوقت مازال مبكرا لقيام اسرائيل بعمل عسكرى لحل الأزمة .

فاذا انتقلنا الى الصعيد العسكرى نجد أن اسرائيل حاكت خطة خداع تعبوى بارعة هى فى الحقيقة امتداد لخطة الخداع السياسى مستغلة فى ذلك وفرة مالديها من بيانات ، وما أهديناها من معلومات عن نوايانا ، وعن حجم ، وأوضاع ، وتحركات قواتنا . والطريف أن ما أظهرته اسرائيل من تحركات قواتها

---

(١) وذلك بناء على الأمر الانذارى الصادر من نائب القائد الاعلى للقوات المسلحة يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٦٧ الى قائد القوات الجوية بالاستعداد للتنفيذ الضربة الجوية " أسد " إعتبارا من أول ضوء يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٦٧ .

على الجبهة المصرية قصدت به اعطاء انطباع لدى قواتنا بأن عملياتنا المقبلة ستتخذ نمط العمليات التى قامت بها فى عدوان ١٩٥٦ . لذلك عمدت الى تنشيط حركة وحداتها البحرية الخفيفة فى منطقة خليج العقبة، وبميناء إيلات،.. صاحبتها تحركات بحرية وجوية جعلها تبدو أكبر بكثير من حقيقتها، وذلك بغرض الايحاء بأن القوات الاسرائيلية تنتوى أمرين : مهاجمة ميناء " الغردقة " باعتبارها القاعدة التى يرتكز عليها الأسطول المصرى فى عملياته التعرضيه فى خليج العقبه والمياه خارج وداخل الخليج، وثانيهما أن المحور الجنوبى هو الاتجاه الرئيسى لعمليات القوات الاسرائيلية فى سيناء لاستعادة منطقة شرم الشيخ من المصريين، وفرض السيطره الاسرائيليه على مضيق خليج العقبة .

وساعدت المخابرات الحربية المصرية فى إنجاح خطة إسرائيل الخداعية، فقد ظلت تقارير المعلومات - حتى ليله ٣/٤ يونيه - تؤكد أن القطاع الجنوبى (منطقة شرم الشيخ) لسيناء هو هدف هجوم العدو الرئيسى . وازدادت بلبلة القيادات الميدانية بين مايبلغها من معلومات من قواتها الأمامية عن تزايد نشاط العدو الاسرائيلى تجاه المحورين الشمالى، والأوسط، وبين تأكيدات المخابرات المصرية، وهى التأكيدات التى قوت من تمسك القيادة العليا بفكرة أن القطاع الجنوبى هو هدف الضربة الرئيسية .

وخدعتنا الحيلة ولا سيما فى القوات البحرية، ولعل ذلك مرجعه أننا كنا مهيئين ذهنيا لتقبل وجهة نظر المخابرات الحربية التى تتفق وتصورنا الاستراتيجية حصار اسرائيل عن طريق تصديع خطوط مواصلاتها البحرية مع العالم الخارجى، وعلى ذلك تركز جل اهتمامنا بالقطاع الجنوبى، ودعم قواتنا البحرية بالبحر الأحمر دون أن نخل - كثيرا - بدورنا فى الخطة الدفاعيه .

الحرب(٥ - ٧ يونيه ١٩٦٧)

يخطىء من يظن أن مصر هى التى اختارت يوم ٥ يونيه لبدء عملياتها الحربية ضد اسرائيل ،فلعل القارىء يكون قد لاحظ ـ من استعراضنا للموقف ـ أن القيادة العليا أهدرت فرص الاختيار بعد تنازلها عن "المبادأة" بقبولها فكرة تلقى ضربة العدو الأولى وتحول الفكرة إلى " قرار سياسى " لا رجوع فيه .

ولما لم يكن هناك طرف ثالث مباشر ـ على نحو العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ـ فالأمر أصبح بيد اسرائيل لتختار أنسب الأيام لدخولها الحرب، وتحديد وقت بدء الهجوم ،أى ـ بلغة العسكريين ـ يوم " ى " وساعة " الصفر " . وكان يوم الأثنين ٥ يونيه ١٩٦٧ ،بعد ثلاثة أسابيع من تفجر الأزمة ،هو أنسب الأيام لتبدأ القوات الاسرائيلية هجومها على مصر .

ونحن نعتقد أنه ماكان بوسع اسرائيل أن تنتظر طويلا بين مرحلة التعبئه العامة ومرحلة الحرب الفعليه ـ بل والانتهاء منها ـ لأن فى ذلك أضرار كبير للاقتصاد الأسرائيلى وانتظام المعيشة اليومية بها ،وفى رأينا أن ستة أيام الى سبعة أيام هى أقصى مدة لتغطية المرحلتين . فاذا كانت اسرائيل قد أعلنت التعبئة العامة فى اليوم الأول من شهر يونيه إثر تشكيل وزاره حرب،وتخلى رئيسها " ليفى أشكول " عن وزارة الدفاع لموشى ديان ،فإن الخامس من نفس الشهر يعتبر أقصى موعد لكى تبدأ القوات الاسرائيلية عملياتها . ولعل هذه التقديرات كانت وراء تنبؤ جمال عبد الناصر ـ يوم ٢ يونيه ـ بالهجوم الاسرائيلى ، يوم ٥ يونيه ،وهو التنبؤ الذى لم تأخذه القياده العسكرية بجديه كافيه مع أن المفروض أن تكون هى مصدر مثل هذه التنبؤات . ومن ناحيه أخرى فان أى تأخير بين مرحلة التعبئه ، ومرحلة الحرب قد يؤدى الى كشف نوايا اسرائيل الحقيقيه وعن أوضاع

قواتها ،وبالتالى الى حرمانها من سلاح المفاجأة الذى تعتمد عليه فى احراز نتائج حاسمة فى وقت مبكر، واذن فان الأيام الخمسة التى انقضت منذ بدء التعبئة العامة ،وماصاحبها من مناورات وتحركات سياسية ،وعسكرية خداعية تعتبر - من وجهة نظر اسرائيل - كافية للحفاظ على سرية حقيقة نواياها ، وأوضاع قواتها . والمؤسف أننا - العرب، وفى مصر بالذات - أمضينا أكثر من عشر سنوات لم ننجح خلالها فى الكشف مسبقا ،عما تنتويه اسرائيل على الصعيدين السياسى ،والعسكرى ،أو استنباط حقيقه مقاصدها ،فهل تكفى - من جانبنا - خمسة أيام لنحقق ما فشلنا فى تحقيقه فى عشر سنوات ؟

أما عن ساعه الصفر التى قررت اسرائيل أن توجه فيها ضربتها الجوية ، وحددت لها بضع دقائق قبل التاسعه من صباح يوم ى ،فمهما قيل عن أسباب اختيارها لهذا التوقيت بالذات فالأهم من ذلك هو أنه كان بيدها حرية الاختيار ،وأنه صادف توفيقا منقطع النظير، ولكن هذا لا يعنى أن القيادة الاسرائيلية حددت الساعة الثامنه والخمس والأربعين دقيقه من صباح ذلك اليوم بطريقة عشوائية، فمن المؤكد أن حساباتها أخذت فى الاعتبار الأحوال الجوية السائدة فوق أراضى مصر الشمالية ،ومنطقة القناة فى مثل هذا الوقت من السنة ، فضلا عن أنه الوقت الذى يتاح فيه للطيارين المصريين فترة راحة قصيرة بعد مجهود طلعات الاستطلاع الصباحية، وما يصاحبها عادة من استرخاء -لا مبرر له - فى أجهزة الانذار ،والدفاع الجوى، ولحسن حظ اسرائيل ، اتفق هذا التوقيت مع موعد وصول الطائرتين اللتين تقلان نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وهيئة قيادته الى سيناء .

فى الساعه الثامنة والخمس والأربعين دقيقه - بتوقيت مصر الصيفى - من صباح يوم الأثنين الموافق الخامس من شهر يونيه عام ١٩٦٧ ،إنقضت الطائرات الاسرائيليه على المطارات المصرية، وحطمت قوة مصر الجوية . وفى الساعة السادسة من مساء يوم الثلاثاء الموافق السادس من شهر يونيه عام ١٩٦٧ بدأ

انسحاب القوات المصرية من منطقة شرم الشيخ ،وخليج العقبة ،بناء على أوامر الانسحاب العام الصادره عن نائب القائد الاعلى للقوات المسلحة المصرية في ذلك اليوم .

وعاد ماعاد من قوات مصر الى وادى النيل ،وأغلقت قناة السويس وبها ١٥ باخره تجارية من مختلف الجنسيات ،وانفصلت القوة البحرية بالبحر الأحمر عن قاعدتها الرئيسية بالاسكندرية ،وخيمت سحابة سوداء حزينه على سماء مصر .

وجاءت ليله ٩ / ١٠ يونيه المشئومة التى باتتها مصر فى " فراغ" بعد أن تنحت القيادة السياسية ،واستقالت القيادة العسكرية ،بينما فلول الجيش المصرى - المغلوب على أمره - تتدفق عبر قناة السويس إلى أرض وادى النيل فى الوقت الذى أرتفعت فيه أعلام العدو الاسرائيلى ترفرف فوق رؤوس جنده الرابضين - فى تحفز وصلف - على الضفة الشرقية للقناة بعد أن دانت له كل سيناء ،وامتلك السيادة على سماء مصر .

ومرت الأيام ،وبنى العدو الاسرائيلى ،" خط بارليف " ،وارتفعت أعلامه ، وهامات جنده أكثر وأكثر ،وأصبح أمام الجندى المصرى - كى يطأ أرض سيناء- أن يخترق المستحيلين : قناة السويس ،وخط بارليف .

الجزء الثالث

حرب رمضان أكتوبر ٧٣

البـــاب الأول

التحـــول ... الكبيـــر

مابعد الهزيمه

منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ ،والحكم فى مصر بيد رجال عسكريين اكتسبوا الصفه السياسيه بحكم توليهم مقاليد الحكم ،الأمر الذى يهيئ للقيادة المصريه بأكبر قدر من الضمانات لاتخاذ قرارات حرب سديده فى إطار مفاهيم و خطط سياسيه واعيه ،أو العكس .

فاذا نحن قبلنا الأوضاع التى فرضتها الظروف الخارجية على قواتنا المسلحة فى " حملة فلسطين عام ١٩٤٨ " ،وفى " العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦" ،والتى أمكن - بجهد سياسى كبير - إزالة آثارهما ،فان ماترتب على " حرب يونيه ١٩٦٧" من هزيمة سياسية ،وعسكرية اكبر بكثير من أن يزيل آثارها أى جهد تبذلـــه القياده المصريه مالم تتوج هذا الجهد بحسن استثمار الانسان المصرى ... وهو ماحدث بالفعل يوم بدأ السادات " ثورة التصحيح " فى ١٥ مايو ١٩٧١ ،والتى تعتبر البدايه الحقيقيه للسادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ ،وهو اليوم الذى اختارته مصر بارادتها الحره - لأول مرة فى تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى - موعـــدا يقتحم فيها الانسان المصرى المستحيلين : قناة السويس ،وخط بارليف ،ويسقط أعلام اسرائيل ومعها يسقط صلفها .

ومن المتفق عليه أن الحرب - فى حد ذاتها - ليست غايه وانما هى وسيله لاقامة وضع معين ،أو لاستعادة وضع ما ،وهى فى النهايه تستهدف إقرار ســلام عادل .. أما هدفها المباشر فهو فرض الاراده على الخصم .

وفى حالتنا - بعد كل ماحدث فى" يونيه ١٩٦٧ " - كان لزاما علينـــا أن نحارب اسرائيل لنحقق كل أهداف الحرب : الهدف السياسى ،والهـــدف العسكرى ،والهدف الاقتصادى والهدف النفسى ،والمعنوى ... وجميعهـــا مطلوب أن تؤتى ثمارها على الصعيد الوطنى ،والاقليمى ،وعلى الصعيد العالمى .

لذلك ، نوجه عنايه القارئ الى أن الوقت لم يحن بعد لتأريخ " حرب اكتوبر ٧٣ " لاننا مازلنا نعيشها ، ومازلنا بصدد جنى ثمارها .

بعودة الزعيم جمال عبد الناصر الى موقعه بعد أن خرجت جماهير مصر تطالبه بالعودة ، كان على القيادة المصريه ان تقوم بمهمتين شاقتين فى وقت واحد : إعادة البناء السياسى ، واعادة البناء العسكرى ، وقد بذلت جهدها فى الميدانين ولكن ثمرات هذا الجهد لم تفلح كثيرا فى إزالة آثار هزيمة "يونيه ١٩٦٧" . فقد ظلت مصر تعيش فى اضطراب سياسى ، ومرت قواتنا المسلحه – فى مواجهة العدو الاسرائيلى ، وخط بارليف على الضفة الشرقيه لقناة السويس – بمراحل عرفت باسم : "مرحلة الصمود" (يونيو ٦٧ – اغسطس ١٩٦٨) ، ومرحلة " الدفاع النشط" (سبتمبر ٦٨ – فبراير ١٩٦٩) ، ثم " مرحلة الإستنزاف " (مارس ٦٩ – أغسطس ١٩٧٠) .

كان لكل مرحله من هذه المراحل سماتها ، وأهدافها ، فقد اتسمت المرحلة الأولى بجو من الهدوء العسكرى اليقظ ، لأجل اتاحه الفرصه لتضميد الجراح ، وتجهيز الدفاع عن جبهة قناة السويس ، أما المرحلة الثانيه فقد اتسمت بالتراشق بالنيران بهدف تقييد حرية حركة العدو الاسرائيلى بينما استهدفت المرحلة الثالثة – كما يدل عليه إسمها – استنزاف جانب من مجهود العدو وتكبيده خسائر كبيره فى الأرواح والعتاد ، ولاختبار قدرات ، وامكانات قوات الدفاع الجوى المصرى – كقوه رابعه منشأة حديثا (١) – فى مواجهة الطيران الاسرائيلى . وقد انتهت المرحلة الثالثه فى ٨ أغسطس سنة ١٩٧٠ بقبول اسرائيل لمبادرة " روجرز " بايقاف اطلاق النار ، بعد أن تكبدت من الخسائر فى الطائرات – ولا سيما فى شهر يوليو ١٩٧٠ – مالا قبل لها بتحمله .

---

(١) أنشئت قوات الدفاع الجوى المصريه فى يونيه عام ١٩٦٩ ، وأسندت قيادتها للواء (فريق حاليا) محمد على فهمى .

وعلى مدى هذه المراحل الثلاث، لم تكف القوات البحرية المصرية عن التربص بالعدو الاسرائيلى، والبحث عن فرصه توجه له فيها ضربه موجعه . وواتتها الفرصة الأولى ، فى اكتوبر سنة ١٩٦٧ ، عندما لاحت المدمرة " ايلات " (١) وهى تتجول فى خيلاء بمياه مصر الاقليمية تجاه شواطئ بورسعيد ، فتصدى لها زورقى صواريخ قضيا عليها بصواريخهما فى ثوان ، وعادا الى قاعدتهما دون أن يصدر عن " ايلات " سوى اشارات مقتضبه سريعة تطلب النجدة من قيادتها فى حيفا . وبعودة الزورقين والتقاط اشارات المدمرة المشرفة على الغرق ، تأهبت قوات قاعدة بورسعيد لتوجيه ضربات أخرى اكثر ايلاما اذا أقدمت القوات الاسرائيلية على احدى حماقاتها . ولكن يبدو أن اسرائيل وعت الدرس ، فلم تجرؤ وحداتها البحريه على الاقتراب من مياه مصر الاقليمية طوال ست سنوات .

يعتبر إغراق " ايلات " بصواريخ الزوارق المصريه عمليه فريده من نوعها ، لا لأنها الأولى فى تاريخ الحروب البحريه فحسب، ولكن لأنها أيضا أثبتت ـ بطريقه عمليه ـ كفاءة ، وفعالية استخدام المقذوفات الصاروخية غير النوويه فى المعارك البحرية الحديثه . ورغم أن المدى المؤثر لمثل هذا المقذوف (طراز " كومار ") لا يتعدى ٢٠ ميلا إلا أن سرعه طيرانه ، ودقة اصابته للهدف تحققان له قسطا كبيرا من المفاجأة . هذا فضلا عن قوته التدميريه الكبيرة التى تتيحها له رأس الحرب الخارقه للدروع، وماينجم عنها من انفجارات، وحرائق شديده . ولعل العامل الذى يرجع اليه الفضل الأكبر فى تحقيق المفاجأة هو صغر حجم الزورق نفسه ، وخفة حركته اذ يجعلانه هدفا ليس من السهل اكتشافه وبالتالى يصعب اصابته .

---

(١) من طراز (Z) الانجليزى ، تسلمتها اسرائيل من الأدميراليه البريطانيه مع شقيقتها (يافو) فى يوليو سنة ١٩٥٦ تبلغ حمولتها ٢٥٠٠ طن تسليحها الأساسى ٤ مدافع عيار ٥ر٤ بوصه ، و ٨ أنابيب طوربيد عيار ٢١ بوصه ، وتصل سرعتها الى حوالى ٣١ عقده .

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه لم تكن المرة الأولى التى تستخدم فيهـا القوات البحريه المقذوفات الصاروخيه ،ولكنها كانت المرة الأولى التى تستخدمها ضد " هدف بحرى متحرك " . فقد سبق أن أطلقت زوارق الصواريخ المصريـــه مقذوفاتها ـ مساء يوم ٧ يونيه ١٩٦٧ ـ على تجمعات العدو والمدرعه ،والميكانيكية فى منطقة " رمانه " بشمال شبه جزيره سيناء فى محاولة من القوات البحرية لمعاونة قوات الجيش لعرقله تقدم العدو الاسرائيلى على الطريق الساحلى .

ومرة أخرى ،تعرضت منطقة " رمانة " لعملية قصف بحرى عنيف . ففى ليلـة ٩/٨ نوفمبر ١٩٦٩ ،قامت مجموعه من المدمرات تغطيها مجموعه مـــن زوارق الصواريخ ،وزوارق الطوربيد بتوجيه قصفات بالمدفعيه الى تلك المنطقة حيث محطة سكة حديد رمانه ،وحشود ضخمة لقوات العدو ،ومدفعياته ،ومراكز شئونه الادارية فى " بالوظه " ،ودمرت جانبا كبيرا منها .

لم تقتصر عمليات القوات البحريه ـ إبان المراحل الثلاث ـ على هذه العمليات الرئيسيه ، وانما صاحبتها عمليات إغاره على القواعد البحرية الاسرائيليـــة والوحدات الراسيه بها باستخدام قوات من الضفادع ،والصاعقة البحريه أســـفرت عن اغراق عدد من سفن النقل البحرى ،والسفن المساعده وتصدع بعض أرصفـــة ومنشآت الميناء . كما اشتركت أيضا جماعات من القوات الخاصه البحرية فى عبـــور القناه ،والقيام بعمليات استطلاع ،وتخريب خلف خطوط العدو .

ومن ناحية أخرى قام الاسرائيليون بعمليات مماثله على مواقعنا نجحت بعضها فى تكبيدها خسائر لا يستهان بها فى الأرواح والعتاد . والملاحظ أن العمليات البحرية التى قام بها العدو الاسرائيلى ـ مهما صغر حجمها ـ لم تخل من عنصـــر " الجو " حيث لعبت طائراته دورا حيويا وفعالا قبل واثناء وبعد كل عمليه قامـــت بها قواته البحريه ،أو البريه . ولعل أنجح عملياته ـ فى تلك الفترة ـ كانت الهجمه الجوية العنيفه على الوحدات البحرية المصرية الراسيه بميناء برنيس بالبحر الأحمر بعد ظهر ١٦ مايو عام ١٩٧٠ والتى استمرت نحو ٤٥ دقيقه ، وذهب ضحيتهـــا إحدى الوحدات الخفيفه ،وأصيبت إحدى المدمرات مقابل إسقاط طائرة واحـــده

اسرائيلية . ورغم اننا نعتبر هذه العمليه أنجح عمليات العدو الاسرائيلى الا أنها لم تكن الأولى التى يستخدم فيها طائراته بتركيز شديد ،فقد سبق أن قامت قوة جوية اسرائيلية بمهاجمة زورقى طوربيد مصريين كانا يستطلعان مياه جزيره " شاكر حسين " بالبحر الأحمر يوم ٢٢ يناير عام ١٩٧٠ واعقبها ،بعد ظهر يوم ٦ فبراير ،بهجوم جوى آخر على قاعدة " الغردقة " نجم عنه اغراق وحده بحريه أخرى خفيفه ،واستشهاد بعض افراد طاقمها . كما اشتركت قواته الجويه بعمليات اسقاط جوى مع عمليات الاغاره البحريه على مواقعنا فى مناطق " الجزيره الخضراء " و " زعفرانه " بخليج السويس .

اذن فالعدو الاسرائيلى مازال يعتمد كثيرا على قوته الجويه ،وانه يستخدمها بتناسق مثمر فى عملياته البحريه ،والبريه ،بل وفى اغاراته الخاطفه ، وأنه لن يفرط فى السياده الجويه التى أحرزها فى حرب يونيه ١٩٦٧ . وبات مؤكدا أيضا ـ من تكرار مهاجمة الطائرات الاسرائيلية لمواقع الصواريخ المصرية المضادة للطائرات ـ ان هدف اسرائيل الأول ،فى اللقاء المقبل ،سيكون قوات مصر الجويه ، وقوات الدفاع الجوى . ولم تكن هذه الحقائق جديده علينا أما الجديد فكان : التدابير الوقائية التى اتخذتها مصر ـ لأول مرة ـ لحماية طائراتها ، ومطاراتها بعد مولد " قوات الدفاع الجوى " ،وتفوق اسرائيل التكنولوجى الواضح ولا سيما فى الالكترونيات .

وقد صاحبت هذه الفترة ،يونيو ٦٧ / اغسطس ١٩٧٠ ،مرحلة اعادة تنظيم القوات المسلحة على أسس متطوره حديثه ،وتصحيح أوضاعها الداخليه توطئه لاعادة تسليحها واعدادها نفسيا لملاقاة العدو الاسرائيلى . أما التجهيز للمعركة التى لا مندوحه من خوضها ،فلم يبدأ ـ فعليا ـ إلا بعد قبول " مبادره روجرز " بايقاف اطلاق النار ... أى فى اغسطس عام ١٩٧٠ .

وعلى الجانب الآخر ،أخذت القوات البحرية الاسرائيلية فى تطوير قوتها الضاربه باحلال زوارق الصواريخ الموجهه محل سفن المدفعية التقليديه التى

لم يعد لديها منها إلا واحده . فعمدت الى بناء عدد من الزوارق الخفيفه (٢٥٠ طن) أطلقت عليه إسم " سعر " (SAAR) لتزويدها بقواعد صواريخ من طراز " جبرييل " متوسطه المدى ، وهى زوارق كانت اسرائيل قد شرعت فى التعاقد على بنائها باحدى ترسانات المانيا الغربيه الا أن الضغط العربى اضطر اسرائيل للالتجاء - فى ربيع عام ١٩٦٥ - الى الترسانات الفرنسية حيث بدئ فى بناء ١٢ زورقا من هذا الطراز باحدى ترسانات " شيربورج " ولكن نشوب الحرب فى يونيه ١٩٦٧ جعل الحكومة الفرنسيه تمتنع من تسليم اسرائيل سبعه زوارق كانت الترسانه قد انتهت من بنائها بعد قليل من انتهاء الحرب . الا أن اسرائيل نجحت فى تهريب هذه الزوارق من ميناء " شيربورج " الفرنسى ،ومن ثم وصلت الى الموانى الاسرائيلية فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٩٦٩ (١) ،ثم بالحيله حصلت - بعدها بقليل - على باقى الصفقه (٢) .

وتعتبر هذه الزوارق هى اللبنه الأولى فى بناء قوة اسرائيل البحريه الحديثه والتى من أجلها أقامت اسرائيل قطاعا بترساناتها خصيصا لبناء طرازات متطوره من الزوارق ،والصواريخ انتهت إلى إنتاج الزورق " ريشيه " (RESHEF) والمقذوف الصاروخى " جابرييل " المعدل (٣) .

---

(١) كانت هذه الزوارق هدفا لاحدى عمليات قواتنا البحرية فى البحر المتوسط عندما تلقينا معلومات بعبورها مضيق جبل طارق فى طريقها الى اسرائيل ، فارسلنا مجموعه بحريه ضاربه الى مياه جزيرة كريت الا أن عدم توافر مزيد من المعلومات عن تحركات هذه الزوارق عقب عبورها المضيق اضطرنا لاعادة القوة الضاربه الى قاعدتها .

(٢) كانت الحكومة الفرنسية قد باعت خمسة زوارق أخرى إلى " جهه " اسكندنافيه اتضح انها " واجهة " انتهت أيضا الى البحريه الاسرائيليه .

(٣) الزورق " ريشيف " حمولة ٤١٥ طن يحمل ٨ صواريخ جابرييل جاهزة للاطلاق ،ومدفعيم/ط سريعه الطلقات من عيار ٧٦ مم ،ورشاشين م/ط عيار ٢٠ مم ،وتبلغ سرعه الزورق نحو ٤٠ عقده على حين يبلغ المدى المؤثر للصاروخ حوالى ٤٠ كيلو متر .

هذا وقد ترتب على احتلال اسرائيل لسواحل " سيناء " على البحر المتوسط والبحر الأحمر (من غزه الى بورفؤاد ، بطول الضفة الشرقيه لقناة السويس ، وبامتداد الساحل الشرقى لخليج السويس وحول رأس محمد ومن ثم إلى شرم الشيخ إلى إيلات بطول الساحل الغربى لخليج العقبه) ، أن أصبح عليها حماية رقعة ساحلية يربو طولها على ثمانية أمثال ماكان عليه طول ساحلها الأصلى قبل " حرب يونيه ٦٧ " . ومن الطبيعى أن هذا التغير الحاد اقتضى تعديل استراتيجية اسرائيل البحرية تعديلا جذريا ، وهو ماسنتناوله بالتفصيل فيما بعد .

وجاء يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ يحمل معه تغييرا حادا ، ولكن فى اتجاه آخر ، بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر الزعيم والقائد ، وقبل أن ينفسح له الوقت ليحقق لأمته ، والأمة العربية أمانيها وتولى محمد أنور السادات ـ نائب الرئيس الراحل ـ رئاسة " الجمهورية العربية المتحده " ، . والذى بتوليه بدأت مرحلة ثورية جديدة فى حكم مصر .

اللاحرب واللاسلم

كان العبء ثقيلا على القيادة الجديدة فى مصر . ففى الداخل كانت المشكلات ، والصعاب ماتزال تكتنف كل قطاعات الدولة السياسية والاقتصادية ، والاجتماعيه ، والعسكريه ، بينما علاقتنا الخارجيه تعانى من أزمات " عدم الود " مع العرب ، ومع الشرق ، ومع الغرب على حد سواء ، لاسيما بعد ظهور بوادر الوفاق الأمريكى السوفيتى ، وما تمخض عنه من انتهاج سياسه " الاسترخاء العسكرى بمنطقة الشرق الاوسط " التى لم تكن تعنى الا تجميد الموقف العربى الاسرائيلى ، واستمرار حالة " اللاحرب واللاسلم " بالنسبة لمصر .

ومن جانب آخر ، واصل الاتحاد السوفيتى تسويفه فى إمداد مصر بحاجتها من العتاد الحربى ، بل حتى الوفاء بالتزاماته بمقتضى اتفاقياتنا معه . ومضى كل عام ١٩٧١ ، وبعضا من العام التالى ، ورغم المعاهده المصرية السوفيتيه ،

ووجود اكثر من عشرة آلاف خبير سوفيتى بمصر، ورغم تكرار زيارات الرئيس السادات، وكبار المسئولين المصريين والسوريين للاتحاد السوفيتى ، لم نحظ من موسكو الا برسائل مفعمه بمعسول القول ،أما مطالبنا من أجل المعركة فهى دائما " موضع دراسه " . واقرارا بالحق ،فان الاتحاد السوفيتى لم يبخل على قواتنا المسلحه ـ عقب هزيمه يونيه مباشرة ـ بكميات من العتاد الحربى لاستعواض خسائرنا وأنه أمدنا بالصواريخ المضادة للطائرات، وأجهزة الانذار الجوى التى يرجع الفضل لها فى اقامة " حائط الصواريخ " على مقربة من الضفه الغربية لقناة السويس ،وهو " الحائط " الذى لعب دورا فعالا فى " مرحلة الاستنزاف" ، وقام بأروع مهامه فى "حرب اكتوبر ١٩٧٣ " . إلا أن إقاله على صبرى ـ المعروف بميوله اليساريه ،ورجل موسكو الأول بمصر ـ فى مايو سنة ١٩٧١ ،أثار موجه من " عدم التفاهم " فى علاقات موسكو بالقاهره تحولت الى " تسويف " سوفيتى حيال امداد مصر بأسلحة أو معدات هجومية ،فنشب موقف عصيب آخر فى وجه القيادة المصريه فيه مساس مباشر بقوات مصر المسلحه ،وبمصير الحرب التى لا مناص منها مع اسرائيل .

وكان الموقف المتعنت الذى اتخذته الدول الغربيه الكبرى ـ باستثناء فرنسا ـ من قضية تسليح مصر، انعكاسا لسياسه الاسترخاء العسكرى و " الحد من سباق التسليح " بالمنطقة ، وهى سياسة عانت منها مصر اكثر مما عانت اسرائيل . فمصر هى المعتدى عليها ،وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ،يقتضى من القوات الاسرائيلية الانسحاب الى خطوط ماقبل حرب يونيه ،واسرائيل هى التى ضربت بهذا القرار عرض الحائط، بل وتمادت فى اقامة المستعمرات السكنيه ،والمنشآت العسكريه فى سيناء ،والجولان ،والضفة الغربية لنهر الأردن ،واسرائيل هى التى انتهكت قرارات المجتمع الدولى ، وهاجمت السكان المدنيين فى " زعفرانه " والأطفال فى قرية " بحر البقر " . ولم يكن أمام مصر إلا أن تحرر الأرض المحتله ، وأن تسترد منابع بترولها فى سيناء، واجبار اسرائيل على احترام قرارات الأمم المتحده ،ولكن كيف يتاح للقيادة المصرية تحقيق ذلك فى مواجهة تعنت " الغرب " ومماطلة " الشرق " .

ان الرئيس السادات بماضيه العسكرى ، وتاريخه السياسى لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذى يسهل استفزازه ، أو اثارته ، فعرفناه رجلا صامدا صبورا ولكن مالم يكن معروفا عن السادات ـ حتى يوم ١٤ مايو سنه ١٩٧١ ـ أنه أيضا رجل دولة من الطراز الأول . ففى ذلك اليوم انكشفت مؤامرة " مراكز القوى " التى خيل اليها ان المرحلة التى تمر بها البلاد عقب وفاه الرئيس جمال عبد الناصر ، وفى ظل ماتوهمت من فراغ سياسى ، ومؤازره سوفييتيه ، هى فرصه مواتيه لازاحة أنور السادات ، وبسط سلطانهم على الحكم فى مصر . ولكن بالحنكة والفطنه السياسيه أمسك السادات برؤوس المؤامرة ، وقدمها للمحاكمة وأصدر القضاء حكمه فيها ، لتنطلق ـ فى ١٥ مايو ٧١ ـ شرارة " ثورة التصحيح " التى نعتبرها البدايه الحقيقيه لحرب " اكتوبر ١٩٧٣ " .

<u>التحرك السياسى</u>

تقدم الرئيس السادات خطوه على طريق كسر الجمود السياسى ، باعلانه ـ فى فبراير ١٩٧١ ـ عن مبادرته للسلام ، والتى تضمنت : انسحاب جزئى للقوات الاسرائيلية عن الأراضى العربية المحتله تبدأ فيها مصر تطهير قناه السويس ، وفتحها للملاحه العالميه ، وتمديد وقف اطلاق النار لمده محدده تنتقل خلالها القوات المسلحه المصرية الى الضفه الشرقيه لقناه السويس ، وتقبل مصر ترتيبات عمليه فصل القوات المتحاربه ، والتى اذا لم تحقق تقدما ملموسا يكون لمصر الحق فى استخدام القوة فى تحرير الأراضى المحتله ، وأن مصر على استعداد لقبول مناطق منزوعة السلاح على جانبى الحدود ، ولكنها ترفض رفضا باتا أى شكل من أشكال الوجود الاسرائيلى فى منطقة شرم الشيخ ، أو نزع سلاح سيناء . وجاء رد اسرائيل معبرا عن نواياها الحقيقيه عندما أعلن وزير دفاعها رفض الانسحاب من " أفضل خط " استولت عليه القوات الاسرائيليه . وهكذا كشفت مبادرة السادات للمجتمع الدولى تصميم اسرائيل على اغتصاب الأرض ، وتجاهل حقوق الغير المشروعه ، وعدم احترامها للرأى العام العالمى ، وهو موقف استغلته القيادة المصريه فى تكثيف جهودها السياسيه ، ومناورتها الدبلوماسيه لاقناع المجتمع الدولى بخطورة سياسة اسرائيل التوسعيه ، وأن لابديل لمصر عن العمل

العسكرى لاسترداد الحق المغتصب .

وقد أثمر التحرك المصرى فى مؤتمر القمة الأفريقيه الذى انعقد فى شهر يونيه عام ١٩٧١ فى تحول سياسة الدول الأفريقيه الى تأييد فعال لعدالة الموقف العربى فى مواجهة تعنت اسرائيل ونواياها العدوانيه ،فتشكلت لجنه من عشرة رؤساء أفارقه للسعى لايجاد صيغه عادله وعملية لتنفيذ القرار ٢٤٢ ، إلا أن امتناع اسرائيل عن اعلان نيتها فى عدم ضم الأراضى العربية أدى الى توقف عمل اللجنه ،وقدمت تقريرا الى السكرتير العام للأمم المتحده ـ فى ديسمبر من نفس السنه ـ متضمنا رأيها فيما انتهت الية اتصالاتها ،وأخذت الدول الأفريقيه تنصرف عن اسرائيل ،وتزداد اقتناعا بحق العرب فى استخدام القوة المسلحه لتحرير الأرض ،واقرار سلام عادل بالمنطقة ... فكانت أفريقيا أرضا أخرى كسبتها القياده المصريه فى ميدان السياسة الدوليه .

أما فى محيط دول عدم الانحياز فقد ظفرت القضيه العربية بتأييد جماعى فى جميع الاجتماعات التى عقدتها مجموعه هذه الدول ،والتى تضم غالبية دول العالم الثالث ،سواء كانت هذه الاجتماعات على مستوى القمة (سبتمبر ١٩٧٠ بتونس) أم على مستوى وزراء الخارجيه (أغسطس ١٩٧٢ بمدينه جورج تاون بالملايو) . وقد دمغت قرارات مجموعة دول عدم الانحياز اسرائيل بالعدوان والتوسع،وحملت بين طياتها كسبا جديدا لوجهة النظر العربيه ،ومزيدا من العزلة لاسرائيل .

وفى فرنسا ، التزمت الحكومة الفرنسية بقرار الرئيس " شارل ديجول " بحظر بيع السلاح لاسرائيل باعتبارها البادئه بالعدوان على العرب بعد أن كانت أكبر مموّلى القوات الاسرائيليه بالطائرات،والعتاد الحربى . ونتيجة للاتصالات الواعيه بالحكومة الفرنسية تحسنت العلاقات مع مصر ،قابله فتور فى العلاقات الاسرائيليه الفرنسيه . كما طرأ تحسن ملحوظ على موقف بريطانيا عقب اعلان

وزير خارجيتها - في أواخر شهر اكتوبر عام ١٩٧٠ - عن ضرورة انسحاب القوات الاسرائيليه من الأراضي المصريه ، والأردنيه ، والجولان المحتله ، والعودة الى الخطوط التي كانت عليها قبل ٥ يونيه ١٩٦٧ .

ولعل الطريق الى الميدان العربي كان أكثر الطرق وعوره ، وامتلاء بالمتناقضات ولكن القيادة المصريه استنت لنفسها سياسه حكيمه قوامها الاحترام ، والصداقه في تعاملها مع جميع الدول العربيه الشقيقه ، وان لكل - بحسب طاقته وامكاناته - أن يقدم مايراه مناسبا لدعم المعركة المقبله مع العدو الاسرائيلي . وقد نجحت هذه السياسه في إزاله الكثير من أسباب الخلافات ، وأصبح الطريق ممهدا لمزيد من التقارب والتعاون بين مصر وسائر الشقيقات العرب ، ومع ذلك ظل الشك يساور غالبية الدول العربيه في قدره مصر على دخول معركة ضد اسرائيل .

وكان لهذه الدول العربية بعض العذر في شكوكها ، فمصر كانت - حتى نهاية عام ١٩٧٢ - محصوره بين قوتين بيدهما الحل العسكري أو الحل السلمي : الاتحاد السوفيتي القوه التي تمد قواتنا بالسلاح ، والولايات المتحده الأمريكية التي بمقدورها فرض الحل السلمي على اسرائيل . ومن ناحيه أخرى ، مضى عام ١٩٧١ الذي أعلنت فيه قيادة مصر انه سيكون " عام الحسم " دون حسم ، وهاقد أوشك عام ١٩٧٢ على الانتهاء ومازال الموقف العسكري المصري لا يبشر بأي حسم ولاسيما أن الرئيس السادات اتخذ قرارا في ٨ يوليو سنة ١٩٧٢ بانهاء مهمة الخبراء السوفييت بمصر ، والذي تم تنفيذه في خلال عشرة أيام وغادر البلاد اكثر من عشرة آلاف خبير سوفيتي . وفي نفس الوقت كانت شحنات السلاح ، والعتاد الأمريكي تتدفق على اسرائيل مع اقتراب موعد انتخابات الرئاسة الأمريكية . وبمعنى آخر : فلاحرب بدون الاتحاد السوفيتي ، ولا سلم بدون الولايات المتحده الامريكيه ، أي العوده الى حاله " اللاحرب واللاسلم " .

الاعداد العسكرى

مما لا شك فيه أن القياده السياسيه كانت مقتنعه تماما بحتميه الدخول فى معركة تنتصر فيها القوات المصريه على القوات الاسرائيليه . ومما لا شك فيه أيضا أنه كان على القيادتين السياسيه والعسكريه أن تضعا حسابا دقيقا لحجم العمل العسكرى المعتزم القيام به على ضوء : الامكانات المتاحه ،وامكانيه دعمها ،وخبرات مرحلة الاستنزاف ،وما اطلق عليه " الفجوة التكنولوجيه " بين مصر واسرائيل ،وموقف دولتى المواجهه سوريا والأردن . كما كان على القيادتين أيضا أن تضعا حسابا دقيقا لما يمكن أن يثيره العمل العسكرى من ردود فعل لدى القوتين العظمتين ،وأن يختارا أنسب التوقيتات لبدء المعركة .

ودار حوار بين القيادتين ،انتهى فى ٢٦ اكتوبر سنه ١٩٧٢ ،بتغييرات شامله فى القياده العسكريه ،وتبعها تغير آخر فى منهج القيادة السياسية عندما اتخذ الرئيس السادات – فى ٦ مارس سنة ١٩٧٣ – قرارا بتوليه رئاسه الوزاره .

لم تكن المهمه سهله وماكان الطريق خاليا من العقبات . فقدكان أهم أسباب تغيير القياده العسكريه هو ماتكشف – فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحه برئاسة السادات مساء يوم ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٧٢ – من تخوف بعض كبار القاده من " مغبة قرار الحرب " الذى طرحه عليهم الرئيس السادات فى ذلك الاجتماع وبدا منهم مايدل على انهم يفضلون مواصله " حرب الاستنزاف" على " الحرب الشاملة " ،على حين أعلنت غالبية القاده أعضاء المجلس تأييدهم لقرار الحرب واقتناعهم بحتميه المعركه ،بل واصرارهم عليها . من هنا نبعت ضرورة اجراء تعديل شامل فى القياده العسكريه .

ومرة أخرى ،نعتذر للقارئ من أن الوقت لم يحن بعد لعرض كل ماتخذته القيادات العسكريه من اجراءات ،وتدابير للاعداد لمعركة تنتصر فيها القوات

المسلحة المصريه ،وأننا سنحاول بقدر الامكان اعطاء صوره واضحه تعكس حقيقه التجهيز العسكرى " لحرب اكتوبر ٧٣ " وفى مقدمتها اقتحام المستحيلين : قناة السويس ،وخط بارليف .

وقد يبدو للبعض أن قناة السويس ليست بالمانع الذى يتعذر اجتيازه ، أو أن الموانع المائيه - بشكل عام - قد تناقصت قيمتها نتيجة للتطور الذى احرزته اسلحة القتال ،وماحققته وسائل العبور البرمائيه من تقدم . ولكن الحقيقة عكس ذلك لأن قناة السويس ،كمانع مائى،لها خصائص تختلف كثيرا عن سائر الموانع التى اجتازتها الجيوش فى تاريخ الحروب . فمع أن عرض القناه يتراوح بين ١٨٠ و ٢٢٠ مترا فقط،الا أن حافة شاطئيها ترتفع حوالى مترين على مستوى سطح المياه بها ، بينما يبلغ عمقها حوالى ١٥ مترا ،وبذا يتعذر اجتياز القناه بمعدات العبور المختلفه ،او بالطرق المعروفه مثل الطفو أو الخوض،أو السير على القاع . وشاطىء القناه مغطى بستائر أسمنتيه ،وحد يديه بدرجه من الميل تحول دون نزول وصعود المركبات - حتى البرمائية منها - الا بعد اجراء تجهيزات هندسيه معينه وهو أمر لا يمكن القيام به مسبقا ،والعدو الاسرائيلى جاثم على ضفتها الشرقيه . هذا فضلا عن تغير سرعة ،واتجاه التيار المائى بالقناه اكثر من مره فى اليوم الواحد ،بالاضافه الى تفاوت مقدار ارتفاع وانخفاض منسوب المياه بيها بين قطاعيها الشمالى والجنوبى نتيجه لحركة المد والجزر التى تتكرر عدة مرات فى اليوم الواحد ،الأمر الذى يؤثر كثيرا فى تخطيط العبور ،وفى العمليات الفنيه المتعلقه باقامه المعديات والكبارى .

أما المستحيل الثانى - فى نظر المشككين - فهو خط " بارليف " مفخره الهندسه العسكرية الاسرائيلية التى ظلت تترنم بها حتى " ٦ اكتوبر ٧٣ " .ورغم مناعة هذا الخط فان خطورته تكمن فى ان " ساتره الترابى " المقام على حافة القناه مباشرة بزاويه ميل تزيد على ٤٥ درجه ويرتفع فى بعض قطاعاته الى ٢٥ مترا أى أنه - مع قناة السويس - يشكل سلسلة موانع متصله . وأقام العدو الاسرائيلى داخل هذا الساتر ،وفوقه ،وخلفه عدة خطوط حصينه تشكل منطقة دفاعيه متكامله

على امتداد قناة السويس من " بورفؤاد " شمالا حتى " رأس مسله " على خليج السويس جنوبا ،وبعمق ـ شرقا ـ يتراوح بين ٣٠ و ٣٥ كيلو مترا تنتهى عند منطقة المضايق فى سيناء ، بمعنى آخر أنه ابتداء من حافة الشاطئ الشرقى للقناه وعلى امتدادها أقام العدو الاسرائيلى منطقة دفاعية حصينه تربو مساحتها على ٥٠٠٠ كيلو متر مربع تعد من أقوى المناطق الدفاعيه التى عرفها تاريخ الحروب ، . . إذ يحدها شمالا البحر المتوسط ،وجنوبا " هضبة العجمة" الجبليه ،وخليج السويس بينما تحدها غربا قناة السويس وشرقا خط المضايق (متلا والجدى) الجبلى . ودون الدخول فى تفاصيل هندسيه معقده ـ ليس هذا مجالها ـ يمكن أن نشير الى أن خط بارليف وحده يتكون من ،أو على الأصح كان يتكون من ، ٢٢ موقعا حصينا يضم ٣١ نقطة قوية تحتل عدد من الطوابق تبدأ من باطن الأرض وتنتهى بمستوى قمة الساتر ،تحيط بكل نقطه سلسلة كثيفة من الأسلاك الشائكه ،وحقول الألغام المضادة للدبابات والأفراد هذا فضلا عن الشراك الخداعية التى يمتلئ بها الساتر الترابى وقمته . ولعل أخطر ماجهز به العدو بعض النقط القويه ، هى خزانات البترول التى تخرج منها مواسير تخترق الساتر الترابى الى صفحة مياه قناة السويس يمكن إشعالها ليتحول سطح القناه الى جحيم من النيران . كما يحتوى الساتر الترابى أيضا ،علاوة على القلاع والحصون ،على أماكن لمبيت الجند ،وعلى ملاجئ ومخابئ تتوافر لها كل أسباب الوقايه من نيران الأسلحة الثقيله ،وأسلحه الحرب الكيماوية ،وكل وسائل الراحة والترفيه . أما المنطقه الدفاعيه خلف خط بارليف فهى مجهزه لعمل قوات العدو المدرعه ،ومشاته الميكانيكيه ،ومدفعياته ، ووحدات دفاعه الجوى ،والمنطقه الدفاعيه هذه تخترقها طرق طوليه وعرضيه للمناوره بالقوات، كما تنتشر بها المستودعات والمخازن ،والورش . والى جانب اعتمادها على قواتها الجويه فى الدفاع عن خط " بارليف " ،ومنطقته الحصينه،فقد أنشأت اسرائيل ـ داخل المنطقه ـ شبكه قويه من الصواريخ طراز هوك محاطه بسلسلة من أجهزة الانذار الالكترونى الحديثه . ويحضرنا فى هذا المقام قول الجنرال " دافيد اليعازر" ـ رئيس أركان الجيش الاسرائيلى وقتئذ ـ عن خط بارليف بأنه " سيكون مقبرة الجيش المصرى " . و " اليعازر" معذور فى قوله هذا ،لأن المتبع فى مهاجمة

المواقع الحصينه هو الالتفاف حولها ،ولكن خط بارليف كان محاطا من جميع الجهات بعوائق طبيعيه مائية أو جبليه علاوه على خطوطه الدفاعيه العميقه مما يجعل " الالتفاف " أمرا مستبعدا ،ولا يبقى الا أن تقتحمه قواتنا"بالمواجهه" ، وهو أعقد أنواع الاقتحام . . . مضافا اليه اقتحام قناة السويس . ولكن مالم يكن يعرفه رئيس اركان الجيش الاسرائيلى أن قيادة مصر هذه المره ليست على غرار المرات السابقات،وأن الانسان المصرى أحسن استثماره على غير المرات السابقات .

ولأترك لمن هم أقدر منى على تناول امر " خط بارليف " لكى يصفوا مافعلوه : كيف طوروا معدات العبور والكبارى ،كيف ابتكروا مدافع الماء ،كيف سيسكتوا مواسير اللهب على صفحه القناه ،كيف سيرتقوا الساتر الترابى ،كيف سيقاتلون جحافل الدبابات،والمدرعات . . . ؟ لنعود مرة أخرى الى أصل الموضوع .

أقول أن مهمة القيادة العسكرية لم تكن سهله فقد كان عليها أولا وقبل كل شيء أن تغرس فى نفوس القوات قناعة تامة بحتميه الحرب ،وأن تعيد اليهم الثقه فى أنفسهم ،وفى أسلحتهم ،وفى قياداتهم ،وتدعمها . وكان هذا هو السبب الرئيسى لزيارات الرئيس المتكرره ولقاءات القائد العام المتعدده للقوات، والتى فيها أحيطوا علما بالأوضاع المجدده ،وضرورة انهاء حالة اللاحرب واللاسلم بمبادأة العدو بالقتال . وقد أثمرت هذه اللقاءات فى تحقيق أهدافها ، فأقبلت القوات على التدريب بحماس ،واصرار كبيرين واستعادت - فى وقت قصير- ثقتها فى أنفسها ،وفى أسلحتها .

ومن ناحيه أخرى لم يعد هناك مجال لتكرار أخطاء الماضى بعد أن قضى السادات على مراكز القوى ،وبدأ ثورته التصحيحيه لاعادة الطمأنينيه ،والأمان لكل المواطنين فى ظل سيادة القانون ،فانتفت أسباب الصراع على " من يحكم مصر " . وتأكيدا للفصل بين سلطات القياده السياسيه ،واختصاصات القياده

العسكريه ،أختير ضباط القياده العامه أو قيادات القوات،والتشكيلات المقاتلة الرئيسيه من العناصر المحترفه التى تنأى عن التدخل فى شئون الدولة السياسية ،فانتظمت قيادات القوات المسلحه فى خطط،وبرامج لتدريب قواتها ، ومراقبة تنفيذها ،ووضع خطط وبرامج لتطوير الأسلحه ،والمعدات،وابتكار جديد يعوض النقص . ويمكن القول أن هذه الخطط،والبرامج ،والجهد الذى بذل فى تنفيذها ،كان لها الفضل الأول فى تضييق" الفجوة التكنولوجيه " رغم أن المد السوفيتى كاد يتوقف فى الوقت الذى كان فيه " المد التكنولوجى " الأمريكى يتدفق على اسرائيل فى شكل أجهزه الكترونيه ،ومعدات حربيه من أحدث الطرازات .

هذا وقد سارت خطة عمل القياده العسكرية على أساس التعاون الوثيق بين أفرع وتشكيلات القوات المسلحه فى ظل التقارب الفكرى ،والنفسى الذى أتاحه مناخ الثقة المتبادله ،فتجانست خطط الحرب،وتوافر لها أكبر قدر من عناصر ومقومات الانتصار .

القرار والهدف

ان أى عمل عسكرى يراد له النجاح يبدأ بقرار سياسى يعطى هدفا واضح المعالم لما هو مطلوب من القياده العسكرية تحقيقه ،وعلى قدر هذا الهدف يكون حجم وأبعاد العمل العسكرى .

من هذه القاعده البسيطة - التى طالما أغفلت فى ماضى حروبنا مع العدو الاسرائيلى - انطلقت شراره " اكتوبر ٧٣ " .

جاء قرار الحرب - الذى اتخذه الرئيس السادات فى ابريل سنه ١٩٧٣ - بعد أن كانت قيادة مصر السياسيه قد استنفذت كل الوسائل السلمية ، وكل مايمكن أن تقدمه من مبادرات(١) لأجل كسر جمود القضيه العربيه فى محاوله للتوصل الى

(١) من أمثلة ذلك : قبولنا كل قرارات هيئة الأمم المتحده ،ومجلس الأمن ،ومساعى دول عدم الانحياز ،والدول الافريقيه ،ومبادرتى " روجرز " ،ومساعى " يارنج " ، والاقتراح الامريكى بالمحادثات عن قرب،بل ان الرئيس تقدم بمبادرة سلميه ، وعقد اتفاقية صداقه مع الاتحاد السوفيتى فى محاولة لفتح الطريق أمام الحل السلمى .

حل عادل ،وللخروج بمصر من حالة " اللاحرب واللاسلم " .

ولم يأت قرار الحرب نتيجة لانفعالات نفسيه ،أو نتيجه لأفكار عشوائيـــة ، أو لأكاذيب مضلله وانما جاء نتيجه وعى كامل بالواقع الذى تعيشه القضيـــه العربيه ،والمؤثرات الاقليميه ،والعالميه التى تحيط بها ،وحساب علمى دقيـــق ـ لادخل للنزعه الشخصيه فيه ـ لأبعاد هذا الواقع، وتلك المؤثرات .

وكان قرار الحرب وليد اقتناع القيادتين السياسية ،والعسكرية ،بأن الوقت قد أزف لاستخدام القوات المسلحه لتحقيق الهدف .

ومن الواضح ان الهدف السياسى المراد الوصول اليه ـ عن طريق الحرب ـ كان كسر الجمود السياسى للقضيه العربيه ،وتهيئة ظروف ،وأوضاع مناســبه ـ بالمنطقة ـ لاستخدام باقى جوانب القوة المتوافره للأمه العربيه .

تأسيسا على ذلك ،يكون المرمى البعيد الذى يستهدفه العمل العسكرى هو : " تغيير موازين القوى السياسيه ،والعسكرية بالمنطقه لصالح القضيـــة العربيـــه" .

وبهذا الهدف الشامل ،تحددت للقوات المسلحه العربية الهدف العسكرى الذى عليها تحقيقه : " هزيمة قوات العدو الاسرائيلى فى سيناء ،والهضبـــة السوريه ،والاستيلاء على مناطق استراتيجيه مؤثره لخلق ظروف أفضل لاستكمـــال تحرير الأراضى المحتله بالقوه ،وأن تشكل هذه المناطق أداة ضغط لفرض حـــل سياسى عادل للقضية الفلسطينيه والحق العربى " .

إن وضوح معالم الهدف العام للعمل العسكرى ،مكن القياده العامـــه للقوات المسلحه من توزيع الأدوار ـ بواقعيه وتكامل ـ التى ستلعبها القـــوات العربيه ،ككل ،فى مسارح وجبهات الحرب ،وتخصيص لكل فرع من أفرع القـــوات المسلحه المهام التى سيضطلع بها .

ويمكن القول ـ بحق ـ أن أهم ماتميز به قرار الحرب أنه التزم بأن يكون حجم العمل العسكرى بالقدر الذى يكفل تحقيق أهدافه ... لا يتجاوز مرماها أو يقصر دونها . وبذلك توافرت لدى القيادة العسكرية خيوط متينه متناسقه تعينها على صنع خطة حرب محكمه النسج .

التمهيد للحرب والتخطيط لعمل عسكرى

فى صمت وثقه شرعنا فى التخطيط للحرب بعد أن أصدر الرئيس السادات ـ فى تكتم، وحذر شديدين ـ إشارة البدء عقب اجتماعه بالمشير احمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحه فى استراحه " برج العرب " فى أحد أيام شهر أبريل سنة ١٩٧٣، دون أن يحدد موعدا لبدء المعركة سوى انها يجب ألا تتأخر عن نهاية ذلك العام . وقد أتخذ هذا القرار ـ غير المعلن ـ بعد أن كانت القيادة المصريه قد بدأت جولتها السياسيه الثانيه .

ففى شهر مارس سنة ١٩٧٣، بعث الرئيس السادات برسائل شخصيه الى كل من : السيده/ أنديرا غاندى رئيسه وزراء الهند، والرئيس موبوتو رئيس جمهوريه زائير، والمستر ادوارد هيث رئيس وزراء المملكة المتحده، وقداسة بابا روما . وفى شهر مارس أيضا ـ السادس من الشهر ـ قرر الرئيس أنور السادات تولى رئاسة الوزاره المصريه تأكيدا لعزمه على تهيئة الوضع الداخلى لخوض المعركة، وتصحيح صورة مصر فى نظر العالم الخارجى . هذا وقد تضمنت رسائل الرئيس السادات الى زعماء العالم تحذيرا بأن الموقف بين مصر واسرائيل على وشك الانفجار، وأن القضية لم تعد تحتمل اكثر مما تحملت ، وأن على كل ان يتحمل مسئوليته على المستوى العالمى .

وبينما القيادة العسكرية عاكفه على التخطيط للحرب، واصلت القيادة السياسية نشاطها المكثف : فأعيدت العلاقات الدبلوماسيه مع المانيا الغربية، وقام الرئيس السادات بجوله عربيه زار فيها السعوديه، وسوريا، وقطر، وأعلنت الوحدة الاندماجيه بين ليبيا ومصر، وبحثت امكانات استخدام البترول العربى

كأداة ضغط سياسى ،واقتصادى فى المعركه الوشيكه . وأخيرا استغل اجتماع قمة مجموعة دول عدم الانحياز عقد بالجزائر فى شهر سبتمبر عام ١٩٧٣ ـ أى قبل أسابيع من نشوب الحرب ـ فى اعاده عرض القضيه العربيه ،فأصدر المؤتمر بيانا أعربت فيه دول المجموعه عن تأييدها التام للقضيه العربيه ،وطالبت بانسحاب اسرائيل ـ الفورى غير المشروط ـ من جميع الأراضى المحتله كشرط أساسى لاعادة السلام للمنطقه .

وبذا تكون القياده السياسيه ـ قبل وبعد اتفاقها مع القيادة العسكرية على قرار الحرب ـ قد طرقت جميع الأبواب ،وسلكت كافه السبل لتهيئة الجبهة الداخليه ،والمجتمع الدولى والأمة العربية لتقبل أى عمل عسكرى قد تقوم به مصر ،فى وقت قريب ،ضد العدو الاسرائيلى . بدأت القيادة العسكريه التخطيط للحرب على أساس الهدف الذى يمكن تحقيقه بما هو متاح فعلا من سلاح ،أما اذا حصلنا على مزيد من السلاح فستضعه فى خدمة تطوير الهدف ، وتوسيعه . ولعل هذا كان الدافع الرئيسى لرحلة المشير احمد اسماعيل الى موسكو فى شهر مارس سنة ١٩٧٣ عقب اتخاذ قرار الحرب،والتى انتهت بعقد صفقه كبيره لامداد القوات المسلحة المصرية بكثير من حاجتها -لاسيما الصواريخ المضاده للطائرات،والصواريخ المضاده للدبابات .

ماكان ليكتب النجاح لأى عمل عسكرى بدون " سوريا " . ففى العاشر من يناير سنة ١٩٧٣ ،أصدر مجلس رئاسة اتحاد الجمهوريات العربية (١) قرارا بتعيين المشير(فريق وقتئذ) احمد اسماعيل قائدا عاما للقوات المسلحه الاتحادية فى دراسة الموقف العسكرى على الجبهتين السوريه ،والمصريه . وتوالت زيارات احمد اسماعيل السريه لسوريا ،وبصحبته بعض قاده الأفرع الرئيسية للقوات المسلحه وقام بزيارة الجبهة اكثر من مره ،والتقى بالرئيس السورى حافظ الأسد الذى أكد اقتناعه بحتميه المعركة . وفى خلال هذه الزيارات ،

(١) تأسس اتحاد الجمهوريات العربيه ـ يضم كلا من ليبيا ،وسوريا ،ومصر ـ فى ١٧ أبريل سنة ١٩٧١ ،وفى ٢٩ أغسطس نسة ١٩٧٣ قامت الوحدة الاندماجية بين ليبيا ومصر .

والاجتماعات تم تدارس الخطوط الرئيسية للعمل العسكرى المشترك فى إطار استراتيجية عربيه واضحة المعالم محددة الأهداف . وفى مستهل شهر مايو ، اتفقت القيادتان الاستراتيجيتان السوريه والمصريه ـ بصفة مبدئيه ـ على توقيتات العمليات خلال شهرى سبتمبر واكتوبر ، وترك تحديد يوم وساعه بدء العمليات لما تسفر عنه نتائج دراسة كل الظروف ، والعوامل السياسيه ، والعسكرية ، والأحوال الجومائيه والهيدروجرافية ، والفلكيه لاختيار : أنسب شهور السنه ، وأنسب أيام الشهر ، وأنسب ساعات اليوم لبدء الهجوم .

وقد انتهت دراسات القيادة العسكرية الى اقتراح توقيتين لبدء العمليات طرحا على القيادة السياسية المصرية والسورية فاختارت العاشر من رمضان الموافق ٦ اكتوبر يوم بدء العمليه الهجوميه . (١)

العملية الهجوميـه

قبل أن نعرض تفاصيل الخطة الهجوميه ، نود أن نؤكد مره أخرى على أنها رسمت بواقعيه على أساس القدرات الفعليه للعدو الاسرائيلى ، والقدرات الفعليه للقوات المسلحه المصريه ، السوريه ، مع الأخذ فى الاعتبار لبعض العوامل والمؤثرات التى تتحكم فى تحديد يوم ى وساعه الصفر .

أحيط التخطيط للعمليه ، وتحريك القوات بتكتم شديد صاحبه خداع عسكرى واعلامى مكثف لحجب نوايانا الهجوميه ، وايهام الاسرائيليين أننا مازلنا بصدد استكمال تدابيرنا الدفاعيه ، بل وأننا نلاقى مصاعب جمة تعرقل مسيرتنا . وقد بدأت الخطة الخداعية مع بدء التخطيط للعملية الهجوميـة ،

---

(١) أختير هذا الموعد فى الاجتماع السرى الذى عقدته القيادتان السوريه ، والمصريه فى أواخر شهر أغسطس ١٩٧٣ بمقر قيادة القوات البحريه بالاسكندريه .

وسارت معها جنبا الى جنب لدرجة أن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية أصدرت أمرا - قبل بدء العمليات بثمان وأربعين ساعه - بتسريح ٢٠ الف جندى في الوقت الذى كانت تجرى استدعاء افراد الاحتياط على فترات منتظمه . وكنا نهدف بذلك الى " مفاجأة " العدو الاسرائيلى بالهجوم وتوجيه ضربتنا الجويه الأولى على غره لشل تفكيره واضعاف قوته الجويه ،وان نفسد عليه استخدام شبكة الحرب الالكترونيه ،ولو فى بدايه المرحلة الافتتاحية للعملية الهجومية .

والمقصود - أساسا - بالمرحلة الافتتاحية للعملية الهجومية هو اقتحام قناة السويس وخط بارليف ،التى يجب ان يتوافر لها اكبر قدر من مقومات " المفاجأة " الاستراتيجيه ، ومايتطلبه ذلك من دقه فى اختيار أنسب التوقيتات التى تكفل توازن هذه المقومات .

وباختصار شديد ،كان علينا ان نختار أحد شهور عام ١٩٧٣ الذى تتوافر فيه : ١- إمكانية الاستفاده من الظروف السياسيه الخارجيه ،ومن المناسبات، والأعياد التى تكون ذات تأثير على الموقف العسكرى للعدو الاسرائيلى ، ٢- ظروف جويه ،وبحريه مناسبه لقواتنا على الجبهتين السوريه والمصريه ولا سيما أن موسم تساقط الثلوج فى سوريا يبدأ فى خلال شهرى نوفمبر ،ديسمبر ، ٣- أحوال هيدروجرافيه متزنه بقناة السويس حيث المعروف أن هذه الاحوال ينتابها شيء من الخلل فى نهايه فصل الخريف تقريبا ، ٤- أن تتميز أيام الشهر بطول ساعات الليل لاستغلالها فى اتمام عبور القوات البريه ،وأخيرا - وهو الأهم - أن تكون قواتنا قد استكملت رفع كفاءتها ،واستعدت بالكامل لتنفيذ المهام التى ستوكل اليها .

توافرت هذه الشروط فى شهر اكتوبر ،ففيه تستعد اسرائيل لاجراء انتخابات الكنيست يوم الثامن والعشرين منه ،فضلا عن ازدحامه بالاعياد الدينيه والعقائديه الاسرائيليه . أما من جانبنا ،فطقس اكتوبر يصلح للقيام بعمليات

حربيه واسعه على الجبهتين ،وفيه تعتدل الأحوال الجومائيه بما يناسب العمليات البحريه ،وثم عامل نفسى إضافى ،وهو أن شهر أكتوبر يوافق حلول شهر رمضان المبارك ،ومايبثه من معانى الجهاد فى قلوب المقاتلين ،هذا فضلا عن مباغته الاسرائيليين بهجومنا فى شهر الصيام وهو مالا يتوقعونه .

وماذا عن أنسب أيام شهر اكتوبر ... يوم (ى) ؟

أن يكون يوما يعطل فيه العمل فى اسرائيل كأن يكون عيدا من الأعياد ، أو عطلة نهاية الأسبوع وبحيث تتوافر فيه : ١- أقل فرق منسوب المياه بقناة السويس الناجم عن حركة المد والجزر، لتهيئة ظروف أفضل لاقامة الكبارى ، والمعابر، ٢- الليله القمريه فيه ستكون ساطعة ولا سيما فى نصفها الأول على ألا تقل الاضاءه القمريه عن قرابة خمس الى ست ساعات، وهى المدة التى تستغرقها إقامة الكبارى والمعديات ،ثم يبدأ بعدها مباشرة عبور القوات تحت جنح الظلام .

توافرت هذه الشروط فى اليوم السادس من شهر اكتوبر، فضلا عن أنه يوم سبت أى عطله نهاية الأسبوع، فهو يوافق عيد الغفران ،وتكاد الحياه تتوقف فى اسرائيل فى ذلك اليوم . ومن جانب آخر، فيوم ٦ اكتوبر يوافق العاشر من رمضان حيث القمر لم يكتمل بعد ويتناسب موعد شروقه وغروبه مع متطلبات العبور سواء أكان فى الوقت أو فى فرق منسوب مياه القناة .

ولم يبق الا اختيار ساعة الصفر ،أى لحظة بدء الهجوم

تحكمت عدة عوامل فى تحديد لحظة بدء الهجوم: أهمها القدرات الفعليه لقواتنا ،وعلى أن تكون قواتنا قد انتهت من انجاز بعض المهام الرئيسيه قبل حلول الظلام والتى فى مقدمتها : ١- توجيه ضربه جويه مركزه ، واتاحة الوقت لتكرارها - فى ضوء النهار - اذا تطلب الموقف ذلك بحيث لا يتسع

الوقت للعدو الاسرائيلى لاستخدام قواته الجويه فى توجيه ضربه جويه مضاده ، ٢ـ التمهيد النيرانى على طول خط المواجهه الذى سيستغرق حوالى ستين دقيقه ، ٣ـ تحريك الكبارى الى الضفه الغربيه للقناه وفتح ممرات فى الساتر الترابى لخط بارليف . أى أن قواتنا كانت بحاجه الى ثلاث ساعات ونصف كى تنجز هذه المهام وبأقل تدخل ممكن من جانب العدو الاسرائيلى ، لا سيما قواته الجويه .

وكانت الثانيه بعد الظهر هى أنسب ساعات يوم السبت السادس من اكتوبر لبدء تنفيذ العمليه الهجوميه .

القوات البحريه

ركزت القوات البحريه جل اهتمامها على تطوير الأسلحه ،والمعدات للتغلب على بعض أوجه النقص التى برزت خلال مرحلة الاستنزاف ، وعلى ضوء الشكل العام الذى ستتخذه عملياتنا المقبله ،وقد أثمر الجهد ،والعزم الصادق فى احراز نتائج مطمئنه ،اذكر منها على سبيل المثال :

١ـ زيادة حساسيه أجهزة توجيه الصواريخ سطح / سطح (السوفيتيه الصنع) الموجهه لرفع نسب احتمالات إصابه الأهداف الصغيره ،وفى مقدمتها زوارق اسرائيل" سعر " و " ريشيف " ،كما أدخلت تعديلات أخرى أدت إلى خفض ملموس لمدة تحضير الصاروخ عن المده التى كان مصمما عليها أصلا .

٢ـ إدخال بعض التعديلات على السفن البرمائية بحيث يمكن إنزال المعدات والمركبات بالبحر دون حاجه لرسوها ،أو شحطها على الشاطئ .

٣ـ تطوير أجهزة الانذار الجوى ،وأنظمة إدارة نيران المدفعية المضادة للطائرات ،وتركيبها على زوارق الصواريخ ،وزوارق الطوربيد لتكثيف دفاعاتها ضد طائرات العدو .

٤- تصميم استخدام دانات الاعاقه الراداريه بجميع السفن ،وباد خال بعض التعديلات على صواريخ الاضاءة،امكن استخدامها - هى الأخرى - كصواريخ إعاقه راداريه وعمم استخدامها بالوحدات الخفيفه .

٥- أد خال الصواريخ سطح / سطح غير الموجهه على تسليح زوارق الطوربيد ، وسفن نقل الجنود .

٦- تركيب أجهزة اكتشاف غواصات متطوره ذات مدى أطول لسفن قنص الغواصات وتسليحها أيضا بطوربيدات موجهه ضد الغواصات لم تكن مجهزة بها من قبل .

ولعلنا لا نكون قد نسينا أن قناة السويس كانت مغلقه ،وأنها الطريق المائى الوحيد الذى يتسع لحركة الوحدات البحريه بين مسرحى البحر المتوسط، والبحر الأحمر وعلى وجه الخصوص حركتها من البحر الأحمر الى قاعدتها الرئيسيه بالاسكندرية لاجراء الاصلاحات الدوريه ،أو ماتحتاج اليه هذه الوحدات من ترميمات تعجز قواعد البحر الأحمر عن الوفاء بها . وترجع أهمية تحريك وحدات بحريه بين المسرحين - قبل وأثناء العمليات المرتقبه - الى سببين أساسيين : أولا استطالة السواحل التى آلت لاسرائيل على البحرين المتوسط والأحمر بعد " حرب يونيه ٦٧ " ،وبالتالى اتسع خط الجبهه البحرية المعادية فى المسرحين ومايقتضيه ذلك من توافر حرية حركة وحداتنا بين المسرحين ، وثانيا أن اقتحام قواتنا لخط " بارليف " بالمواجهه ، وتقدمها داخل اراضى سيناء يتطلب معاونتها بقصف بحرى ،أو ابرار قوات على الأجناب ،أى بشمال سيناء ،وبخليج السويس ،الأمر الذى يتطلب دعم قواتنا بالبحر الأحمر،لزيادة قدراتها على الاضطلاع بمثل هذه العمليات .

وبفضل الاتصالات الدبلوماسيه أمكن الحصول على تسهيلات،وخدمات فى موانى بعض الدول الصديقه المطله على البحر الأحمر،والمحيط الهندى ساعدت كثيرا فى سرعة استعادة الوحدات البحريه لكفاءتها القتاليه . والجدير بالذكر أن هذه الدول سمحت - مشكورة - باستخدام مانراه صالحا من موانيها ،

لاتخاذها قواعد ارتكاز لوحداتنا البحريه التى ستعمل فى البحر الأحمـــر . ولدعم هذا المسرح فقد تم ارسال مجموعات ضاربه خفيفه اليه عن طريق النقـــل النهرى والنقل البحرى باستخدام وسائل ومعدات جهزت خصيصــــا بـــورش القوات البحريه وبالاستعانه ببعض معدات السد العالى .

****

الباب الثانـــى

قوى اكتوبر البحريــــه

أبعاد جديده للصــراع

بنفس الدقه ،وبنفس الحرص ،والتكتم ،وفى إطار الخطة الهجوميه العامــة صاغت قيادة القوات البحريه خطة عملياتها .

الاستراتيجيات المتضاده

لم يتغير قوام استراتيجيتنا البحريه عن سابق عهدنا بها : حصار اسرائيل عن طريق تصديع خطوط مواصلاتها البحريه ،ومعاونه عمليات قواتنا البريـــة بالنيران أو بابرارات بحريه محدوده خلف خطوط العدو ،أو على أجنابه .

لقد تزايد اعتماد اسرائيل - اقتصاديا وعسكريا - على حركة النقل عبـــر البحار ،فازدادت تبعا لذلك كثافه شبكة خطوط مواصلاتها البحرية ،ولا ســيما بعد أن سيطرت على مضايق خليج العقبه فى أعقاب حرب يونيه ٦٧ ،وأصبح الطريق مفتوحا لتجارتها مع الشرق الأقصى ،وبلدان شرقى أفرقيا عبر البحر الأحمر ولعل اهم وارداتها المنقولة عبر هذا البحر هو البترول الخام الذى تحمله الناقلات الى ميناء ايلات على خليج العقبه ،ومن ثم ينقله خط الأنابيب(١)- بعد حصـــول اسرائيل على حصتها منه - الى " عسقلون " على البحر المتوسط حيث يعاد شحنــه على الناقلات الى أوروبا . ومن ناحيه أخرى ،تمر خطوط تجاره ،ومواصلات اسرائيـــل البحريه - فى البحرين الأحمر والمتوسط - بمناطق حاكمه يمكن استغلالها ،بنجـــاح كبير ،فى عمليات التعرض لخطوط المواصلات الاسرائيليه كجزء من الهدف الاستراتيجى الأكبر : تشديد قبضه الحصار على اقتصاد اسرائيل ،وعلى مجهودها الحربى . (٢)

---

(١) أقصى طاقه خط انابيب ايلات/عسقلون هى ٤٠ مليون طن من البترول الخام سنويا والخط متوقف عن العمل حاليا .

(٢) تتضمن الوسائل الأخرى لحصار الاقتصاد الاسرائيلى : غلق قناة السويـس فى وجه السفن التى ترفع العلم الاسرائيلى ،ومصادرة الشحنات ذات الطابـــع الاستراتيجى المتجهه الى اسرائيل على السفن غير الاسرائيليه ،والمقاطعـــة العربية ،والقائمة السوداء ،وغيرها .

إلا أن اسرائيل اعتادت ـ منذ بدء حروبنا معها ـ أن يأخذ حصارنا البحرى لها الشكل المباشر القريب، أى غلق مضايق خليج العقبه فى وجه الملاحه الاسرائيليه، أو عرقله حركة البواخر التجاريه المترددة على موانيها المطله على البحر المتوسط بواسطة الوسائل التقليدية المعروفه، والتى تصاحبها عادة إعلان " مناطق عمليات حربيه " فى مساحات محدودة من مياه البحار التى تحيط بالأراضى الاسرائيليه . ولكن ارتباط هذا الاسلوب فى الحصار ـ رغم التهديد الذى ينطوى عليه ـ بشكل مباشر بنتائج العمليات الجويه والبريه التى تدور بالمنطقه، جعله لا يؤتى الثمار المرجوة منه، هذا فضلا عن تعرض الوحدات البحريه المصريه القائمة بالحصار لخطر الهجمات الجويه ـ الد أعداء هذه الوحدات ـ وذلك لوقوع مناطق عملياتها فى مدى عمل الطائرات الاسرائيليه . ومن هنا نبتت فكره تطوير أسلوب حصارنا البحرى لاسرائيل بحيث يحقق أهدافا استراتيجيه مؤثره بعيدة عن ردود فعل نتائج العمليات الجويه والبريه، بل وبعيده أيضا عن مضمار المعارك البحريه المباشرة بين قواتنا، وقوات العدو الاسرائيلى .

أسفرت الدراسات، والحسابات عن أن المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، والمياه المحدوده الاتساع عند المشارف الغربيه للبحر المتوسط هما أصلح المناطق التى تحقق اكبر قسط من النجاح لعمليات " التعرض لخطوط مواصلات اسرائيل البحريه " فى اطار استراتيجيه حصارنا لاسرائيل . وأود أن أشير هنا الى أن اختيار هاتين المنطقتين لم يكن لأننا بصدد التخلى عن العمل فى مضايق خليج العقبه، أو عند مداخل الموانى الاسرائيليه، على العكس لم يقل تمسكنا بهذه المناطق لما تهيئه لنا من اقامه " نطاق حصار بحرى داخلى " يزيد من صدع حركة اتصال اسرائيل بحرا بالعالم الخارجى .

ولأن هذا الأسلوب ـ الحصار البحرى البعيد ـ مغاير تماما لما ألفته اسرائيل، فقد أحطنا اجراءات، وتدابير تنفيذه بتكتم شديد ضمانا لمفاجأة الاسرائيليين به . لم يكن فيما اعتزمنا القيام به فى البحر المتوسط مايمكن أن يثير

أى مشاكل سياسيه ،أو أزمات دبلوماسيه لأن المنطقة المختاره هى مياه " أعالى البحار " ،أما استخدام مياه منطقة " باب المندب " التى تحكم المدخل الجنوبى للبحر الأحمر فهو أمر يتطلب تحرك دبلوماسى على أعلى مستوى نظرا لأن مياه المنطقة تحيط بها أراضى أكثر من دوله ،وتتخللها جزر تابعه لدول أخرى . وقناعه منها بفعالية الحصار البحرى البعيد واستراتيجيته ،قامت القياده السياسيه المصريه باتصالات مكثفه مع بلاد المنطقه أثمرت فى : الحيلوله دون احتلال اسرائيل لبعض جزر المنطقه (وهو أمر كانت تبيته اسرائيل منذ وقت طويل) ،واعطائنا حرية اختيار أصلح الموانى والمراسى ،لاستخدام وحداتنا التى ستضطلع بمهمة اعتراض حركة الملاحة الاسرائيليه الى البحر الأحمر .

ومع أن امتداد أرض الوطن العربى يشكل عمقا استراتيجيا فريدا ،الا أنه حتى ذلك الوقت ،لم يلعب دورا ايجابيا فى حروبنا البحريه مع اسرائيل . ولم يكن الا فى " حرب اكتوبر ٧٣ " عندما استغل هذا العمق ـ لاسيما فى البحر الأحمر ـ لتطوير استراتيجية حصار اسرائيل باضافة أبعاد جديده اليها يتعذر على الاسرائيليين التعامل معها . وغنى عن الذكر أن الفضل فى ذلك يرجع ـ أولا ـ للدور الذى لعبته القياده السياسيه المصريه فى إزالة الكثير من الخلافات التى كانت تشوب علاقاتنا ببعض الدول العربيه ،وثانيا للتحرك الدبلوماسى الواعى الذى أتاح لنا حرية استخدام تسهيلات كانت شبه محرمه علينا . وهنا تبرز فعالية التجانس بين القيادتين السياسيه والعسكرية ومايمكن ان يقدمه العمل السياسى من خدمات لانجاح العمل العسكرى ،وهو تجانس افتقدته مصر فى " حرب يونيه ٦٧ " .

أما على الجانب الاسرائيلى ،فان نتائج تحليلنا للموقف ـ لاسيما البحرى والجوى ـ بعد أن آلت لاسرائيل سواحل طويله على البحرين المتوسط،والأحمر، ودراستنا للتعديلات التى أدخلتها على تشكيل ،وتسليح أسطولها البحرى عقب اغراقنا للمدمره " ايلات " ، أقنعتنا بأن اسرائيل لابد أن تغير استراتيجيتها البحرية تغييرا جذريا . فبدلا من خوض حرب دفاعيه فى مياهها ،أو على مقربه

من قواعد ها الجويه ، ستعمد اسرائيل الى نقل الحرب الى مياهنا وسواحلنا ، وهى بذلك تأخذ باستراتيجية ضرب المنبع وتضعنا فى موقف الدفاع... فضلا عما ينجم عن هذه الاستراتيجيه من ردود فعل سيئه فى نفوس المواطنين ، والمقاتلين على السواء. وتشير كل الدلائل الى أن زوارق الصواريخ المدعمه بطائرات الصواريخ جو/ سطح ستكون هى الأداة الرئيسيه التى ستستخدمها البحريه الاسرائيليه فى وضع استراتيجيه " ضرب المنبع " موضع التنفيذ . ومن ناحيه أخرى ، فاتساع الرقعه الساحليه التى اصبحت تحيط بقوات اسرائيل البريه ، ومستعمراتها ، وثغورها يجعل البحريه الاسرائيليه أشد تمسكا بابعاد الحرب عن مياهها فى محاوله للتقليل من احتمالات قيامنا بعمليات ابرار بحرى على أجناب ، أو خلف القوات البريه فى سيناء ، أو قصف مدنها الساحليه الآهله بالسكان .

وتنبأنا ، نتيجه لدراستنا الجاده للعقليه الاسرائيليه ، بأن اسرائيل لن تغير استراتيجيتها حيال نظريه " الأمن " أو حيال استراتيجية حصارنا لها التى اعتادت عليها ، وأنها ـ لذلك ـ ستزداد تشبثا بالحفاظ على وجود قواتها بمنطقة شرم الشيخ لضمان ، وتأمين حريه الملاحه عبر مضايق خليج العقبه وهذا مادعانا لايهام اسرائيل بأن استراتيجيتنا مازالت تعتمد ـ أساسا ـ على هذه المضايق امعانا فى تكتم أمر " باب المندب " .

بمعنى أننا توقعنا أن اسرائيل سوف تعهد الى أسطولها الحربى بدور اكثر فعاليه من الأدوار التى لعبها فى الحروب السابقه .

ولكن ، ماذا عن تصورنا لشكل العمليات المتوقعه فى الحرب المرتقبه ؟
تدل كل الشواهد على أنه من المتوقع ان تتخذ العمليات البحريه الرئيسيه الشكل الآتى :

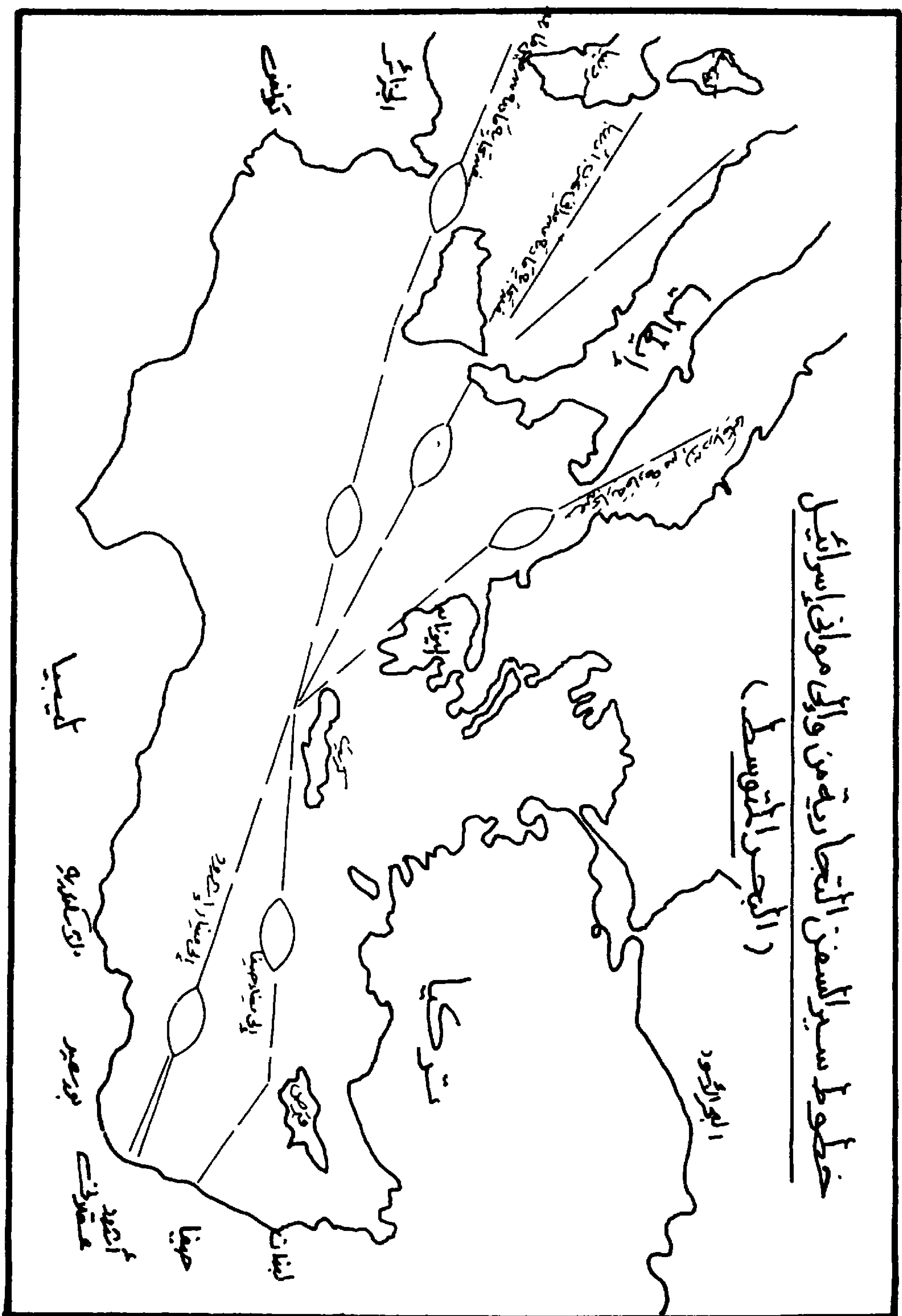
أولا : بصفه عامه ستتسم العمليات القتاليه بطابع السرعه بعد أن حلت الوحدات الخفيفه محل المدمرات، والفرقاطات، وماشابهها، وأن القذائف الصاروخيه - موجهه وغير موجهه - ستحل محل قذائف المدفعية التقليديه مع استمرار اشتراك الطيران فى المعارك كعنصر عضوى فى التشكيلات المقاتله، وعلى وجه الخصوص التشكيلات الاسرائيليه .

ثانيا : تركيز مجهودنا البحرى الرئيسى فى معاونة الأعمال القتاليه للجيوش أثناء مرحلة التمهيد النيرانى للاقتحام، وخلال المراحل التالية التى قد تتطلب أيضا حماية أجناب جيوشنا، أو القيام بعمليات ابرار بحرى محدوده خلف خطوط العدو، وهو ماستحاول اسرائيل منعه باستخدام قواتها الجويه بصفه أساسيه .

ثالثا : التوسع فى استخدام الألغام من جانبنا فى إعاقه الملاحه بالمضايق، وبمداخل الموانى الاسرائيليه، والتى سيتعذر على الاسرائيليين التخلص منها، لافتقارهم لكاسحات الالغام، وبذلك نكون قد أقمنا الخط الداخلى لحصار اسرائيل .

رابعا : تتزايد المعارك البحريه التصادميه فى مسرح البحر المتوسط نظرا لكثره القواعد والمراسى البحريه المصريه، والاسرائيليه على ساحله، على حين ستقل مثل هذه المعارك - نسبيا - فى القطاع الشمالى للبحر الأحمر بسبب نقل جانب كبير من نشاطنا الى باب المندب، وبذا يكون الأفضل لاسرائيل - بنوع خاص - استخدام الطائرات فى العمليات القتاليه المحدوده التى قد تنشب فى هذا القطاع .

خامسا : أسلوبنا المتطور فى حصار اسرائيل عند " باب المندب " يخلق نوعا جديدا من العمليات لم يألفه الاسرائيليون لايتيح لقواتهم الجويه، أو البحريه التدخل فيها بفعاليه، ولا سيما أن منطقة " باب المندب" تبعد حوالى ١٢٠٠ ميل عن أقرب قاعده اسرائيليه، الأمر الذى يتيح لنا


خطوط سير السفن التجارية من وإلى موانى إسرائيل
(البحر المتوسط)
البحر الأسود
تركيا
إيطاليا
اليونان
كريت
قبرص
لبنان
حيفا
أشدود
عسقلان
بورسعيد
الإسكندرية
ليبيا
تونس
الجزائر
سردينيا
إلى ميناء حيفا
إلى ميناء أشدود

سـرى للغايه ،التخطيط للعمليات

بجانب الاعتبارات والظروف العامه التى تحكمت فى الخطه الهجوميـــــــه كان هناك عوامل ومؤثرات تحكمت ـ بدورها ـ فى رسم الخطوط الرئيسية للعمــل البحـــرى .

ولكننا ،كنا متفقين ـ أعنى القياده العامة للقوات المسلحه ،وقيـــــادات أفرعها ـ على الالتزام بعدد من المبادئ الأساسيه : السريه ،الخـداع . . . المبادأة ، المفاجأه . . . التركيز الشديد ولا سيما فى المرحلة الافتتاحيـــــه للعمليات الهجوميه .

ويمكن ايجاز العوامل والمؤثرات التى تحكمت فى رسم الخطوط الرئيسيـــه لخطة العمل البحرى المرتقب فى النقاط التاليه :

١- الابـرار البحرى :

وهو أحد الأعمال المرجح أن تقوم بها القوات البحريه ، لذلك حرصنا علـى أن تكون دراسته غايه فى الدقه والتمحيص،فبرغم توافر اعداد مناسبه مـــن ناقلات الجند ، لا سيما فى مسرح البحر المتوسط، وماقد يفرضه تطويـــــر العمليات البحريه من الحاجه الى تنفيذ عمليه برمائيه ،لزيادة معدل تقدم تشكيلات الجيش الميدانى الثانى العامله على المحور الساحلى بشــــمال سيناء ،فقد أسفرت نتائج الدراسات والحسابات التاكتيكية مدى الصعوبات التى قد تحول دون تنفيذ مثل هذه العمليه وفى مقدمتها :
ـ أن ساحل منطقة " رمانة " ، باعتبارها المنطقة الوحيدة التى تـناســـب ابرار بحرى تاكتيكى شرقى بورسعيد ، لا يصلح لرسو ناقلات الجند الأمــــر الذى يستوجب ابرار القوات على مسافة ٦٠٠ الى ١٠٠٠ متر من الساحل وهذا بالتالى يقتضى استبدال معدات الابرار العاديه التى لدينا بمعدات برمائيـة اخـرى ،وادخال بعض التعديلات على أبواب الناقلات،لتســـمح بالتعامل مع المعدات الجديده .

- ان ناقلات الجند لاتحمل أى تسليح يؤمنها ضد خطر هجوم العـــدو الجوى أو السطحى .
- لم يكن لدينا وسيلة لنقل عناصر المشاه غير المحمله على مركبات برمائيـــه من مواقع الناقلات الى الساحل .

ولكن ،أهميه العمليه دفعتنا الى : تعديل أبواب الناقلات، للتعامل مـع المركبات البرمائيه وتسليح الناقلات بمواقع مدفعيه قريبه المدى مضـــاده للطائرات،وقواعد صواريخ سطح / سطح غير موجهه ،وتجهيز زوارق مطــاط لنقل المشاه من الناقلات الى الساحل .

٢- <u>المعاونه بالنيران من ناحيه البحر:</u>

رغم أن المدمرات تعتبر المصدر الرئيسى لهذه النيران ،الا أن تسـليح مدمراتنا لم يكن يسمح بدرء خطر هجوم العدو الجوى ،أو خطـر قذائفـــه الصاروخيه سطح / سطح . لذلك أسندنا هذه المهمه - وغيرها من المهـام المشابهه - الى الوحدات الخفيفه المجهزه بالصواريخ غير الموجهـه نظــرا لانها تمثل هدفا صغيرا ،ولأن تسليحها يتيح لها فرصا أفضل للتعامـــل مع العدو الاسرائيلى .

٣- <u>التعرض لخطوط مواصلات اسرائيل البحريه :</u>

طورنا الأسلوب الذى الفته اسرائيل ،لنجنى ثمار المفهوم الحقيقى لمعنى " الحصار " وذلك عن طريق احكام السيطره على حركه النقل البحرى بمنطقتى " باب المندب " فى أقصى جنوب البحر الأحمر ووسط البحر المتوسط، دون التخلى - كلية - عن عرقلة حركة النقل البحرى الاسرائيلى وأى نشاط آخر فى القطاع الشمالى للبحر الأحمر . إلا أن المهام الجسام التى كان متوقعـــا أن تسند الى قواتنا الجويه ،وقوات الدفاع الجوى قد لاتسمح بتدبير حمايـه لوحداتنا - خصوصا فى المراحل الأولى للحرب - دفعتنا الى تخفيف كثافـه

البحر المتوسط
بورسعيد
السويس
فلسطين
الأردن
سيناء
العقبة
رأس محمد
جمهورية مصر
البحر الأحمر
المملكة العربية السعودية
منطقة عمليات محظور دخول السفن فيها
جمهورية السودان
مناطق عمل الغواصات
الجمهورية العربية اليمنية
جمهورية اليمن الجنوبية
باب المندب
منطقة عمل المدمرات
خليج عدن
مسرح عمليات البحر الأحمر

عمليات الوحدات البحريه في القطاع الشمالي لمسرح البحر الاحمر واستعاضتها بتكثيف حقول الالغام في مياه المدخل الجنوبي لخليج السويس لاعاقة نشاط اسرائيل البحرى وخاصة نقل بترول سيناء عبر الخليج الى ميناء " ايلات " .

أما العامل الرئيسي الذى تحكم فى التخطيط لعملياتنا البحريه على المستويين التعبوى والتاكتيكى فكان الافتقار " لعنصر الجو " . فالعمليات البحريه لاغنى لها عن المسانده الجويه سواء أكان ذلك على شكل طلعات استطلاع لأوضاع وتحركات وحدات العدو البحريه أم فى شكل اشتراك مباشر فى القتال البحرى ،أو حمايه الوحدات والقواعد البحريه ضد هجمات العدو الجويه . وكما سبق أن قلنا ، كان على القوات الجويه المصريه التزامات تكاد تستنفذ جل جهودها : الضربه الجويه الأولى المركزه ، والتى قدر لنجاحها استخدام نحو ٢٠٠ طائره ،ومطاردة طائرات العدو التى تحاول التدخل فى عمليات مرحلة الاقتحام الحرجه ، والمعاونه فى التمهيد النيرانى ،والدعم المباشر لمعارك الدبابات،والتصدى لطائرات العدو الاسرائيلى التى قد تحاول الضرب فى عمق الأراضى المصريه . أما قوات الدفاع الجوى فقد تركزت فى " حائط الصواريخ " المضادة للطائرات التى أقيمت على الضفه الغربية لقناة السويس،وعهد اليها بأصعب،واعقد المهام الا وهى حماية خط المواجهه ، ٢٥٠ كيلو متر طولا وبعمق ٥٠ كيلو متر،ضد تدخل طيران العدو الاسرائيلى فى مراحل الاقتحام،وعبور القوات ... هذا فضلا عن مهامها المألوفه فى الدفاع عن الأهداف الحيويه داخل أرض الوطن ،بل وحماية مواقع مرابض الصواريخ ذاتها ضد القصف الجوى . وأمام كل هذا ،لم يكن لنا خيار الا أن نقبل النذر الضئيل من المجهود الجوى الذى أمكن ـ بصعوبه ـ تدبيره لمعاونه عملياتنا البحريه فى مواجهة قوات اسرائيل الجويه التى تجيد الاعمال القتاليه فوق البحر . ولم يكن افتقارنا لقدر كاف من المعاونه الجويه بالأمر الهين نظرا لما ينجم عن " العرى الجوى " من زيادة نسبة خسائرنا فى الوحدات والمعدات

والافراد يقابلها خفض نسبه خساثر العدو ،هذا فضلا عما يترتب على ذلــــك من آثار تحط من نفسيه ومعنويات القوات .

واذا كنا قد تفادينا جانبا من آثار هذا " العرى " بالتعديلات الـــتى أدخلناها على أسلوب العمل البحرى فى أشكاله الثلاثه السابق عرضها : الابرار البحرى ،والمعاونه بالنيران والتعرض لخطوط المواصلات،فان الأمر لم يكن بمثل هذه السهوله بالنسبه للأشكال الأخرى للعمليات البحريه ،وفى مقدمتهـــــا المعارك التصادميه مع العدو الاسرائيلى الذى أعد نفسه وأتقن أساليب القتال البحرى الجوى المشترك . لذلك رأينا ان نستعوض بعضا من هذا النقص عـــن طريق اضافه مزيد من المدافع المضاده للطائرات الى تسليح وحداتنا البحريه ، واستغلال فترات الظلام - لأقصى مدى - لستر عملياتنا والتخفيف ،بقدر الامكان ، من خطر هجوم العدو الجوى ،واستبعاد الوحدات الكبيره - مثل المدمرات - من العمل فى المناطق التى تقع تحت التهديد الجوى المباشر ،واحـــــلال الوحدات الخفيفه الصاروخيه محلها .

ويمكن القول بأن خسائرنا - نتيجة لهذه التدابير - قد انخفضت بنســـبة كبيره عما كان مفروضا ان تتكبده لو أننا لم نعالج هذا النقص .

وجهة النظر البحريه فى اختيار توقيت بدء العمليه الهجوميه

سبق أن عرضنا الظروف ،والعوامل التى تدخلت فى اختيار أنسب التوقيتات لبدء العمليات بصفه عامه ،ونعرض هنا دور الدراسة البحريه فى اختيار تلـــك التوقيتـات .

هناك عدة عوامل طبيعيه تؤثر بشكل ملحوظ على العمليات البحريه بوجه عام، وفى مقدمتها الأحوال الجو بحريه ولاسيما حالة البحر التى تلعب دورا كبيرا فى كفاءة أداء الوحدات البحريه من حيث المناوره ،والسرعه ،واستخدام الأسلحـــة ، الأمر الذى يستوجب دقه بحث ودراسة النمط الذى سارت عليه مثل هذه الظواهر

فى السنوات الماضيه ،والتنبؤ العلمى لما ستكون عليه فى الفترة من سبتمبر الى ديسمبر عام ١٩٧٣ ،لاختيار الشهر الذى تقل فيه النوات البحريه ،والعواصف الرمليه ،والتقلبات الجو بحريه ،والتنبؤ بما ستكون عليه فى مسرحى البحر الاحمر والبحر المتوسط،ولعل دراسة ماضى الأحوال الجو بحريه ،والتنبؤ بما ستكون عليه فى مسرح البحر الاحمر كانت أشق بكثير من قرينتها فى البحر المتوسط ، نظرا لأن المسرح الأول امتد ليغطى طول البحر الأحمر الذى يضم ثلاث نطاقات هيدروجرافيه ،وجو بحريه متباينه لكل منها خصائص ،وأنماط تختلف عن الأخريين ،كان علينا أن ندرس كل منها على حده ،ثم التنسيق بين نتائج دراسة هذا المسرح ،ونتائج دراسة مسرح البحر المتوسط ، للخروج بتوقيتات متجانسه .

ومن ناحيه أخرى ،هناك عوامل تنبع من واقع امكاناتنا القتاليه ،وامكانات العدو والتى كان تفوق الاسرائيليين الجوى فوق البحر أهمها ،وأكثرها خطرا خصوصا أن وحداتنا البحريه لم تتوافر لها وسائل الدفاع الجوى بالقدر الذى يسمح لها باحباط التفوق الاسرائيلى . وعلى ذلك فان فترات الظلام تلائم عمليات وحداتنا ،هذا فضلا عما يتيحه الظلام من فرص مواتيه ،للحفاظ على سريه تحركاتنا ،وبالتالى مفاجأة العدو ،بل انه كلما طالت فترة الاظلام كلما ازداد العمق الذى يمكن دفع قواتنا اليه بما يكفل تنفيذ مهامها ،والعوده قبل أول ضوء اليوم التالى .

بناء على ذلك ،قامت الأجهزه البحريه المختصه بدراسة الظواهر الطبيعيه المؤثره خلال السنوات السابقه ،للخروج بالشكل المنتظر لحاله الطقس،والبحر فى المسرحين فى الثلث الاخير من عام ١٩٧٣ ،وقدمت هذه الأجهزة رسما بيانيا ـ غايه فى الدقه ـ لحركة العوامل التاليه :

١ـ حالات البحر(القوه ،ارتفاع الامواج ، سرعه واتجاه التيارات البحرية ،والرياح ... الخ) ،وقد أخذت دراسة منحنى حركة المد والجزر،ومايتجم عنها من تغير فى منسوب سطح البحر عناية كبيرة نظرا لتحكمها فى توقيت وأسلوب اقتحام قناة السويس ،وفى توقيت تنفيذ عمليات الابرار البحرى .

٢ـ ساعات الليل من آخر ضوء (الشفق) الى اول ضوء اليوم التالى .

٣ـ فترة الاضاءه القمريه ،وأوجه القمر وموعدى شروقه ،وغروبه .

٤ـ الضباب الصباحى ،وتوقيتات أشد الكثافه ،والانقشاع .

أسفرت محصلة المنحنيات البيانيه الى أن أى يوم من الأيام الواقعه فى الفترة بين الأسبوع الأخير من شهر اكتوبر ،والأسبوع الأول من شهر نوفمبر ، يعتبر صالحا لاختياره يوم (ى)،نظرا لأن تلك الفترة تتمتع بأكبر قدر من الاستقرار المناخى ،وتتجمع فيها أفضل الأحوال الجو بحريه والظروف الهيدروجرافيه ،والفلكيه المناسبه لعملياتنا فى مسرحى البحر المتوسط،والبحر الأحمر .

أما بالنسبه لاختيار ساعه الصفر ـ لحظة بدء الهجوم ـ من وجهه النظر البحريه فقد كان الوضع الأمثل يقتضى توافر فترة إظلام تتراوح بين ١٠و١٢ ساعه ، ليتاح الوقت لوحداتنا لاتخاذ مواقع عملياتها ،وتنفيذ مهامها ،والعودة الى نطاق الدفاع الجوى عن الجمهوريه بين آخر ضوء يوم بدء الهجوم ،واول ضوء اليوم التالى . وقد توافرت هذه المتطلبات أيضا فى ليالى أيام الفترة السابق تفضيلها ،حيث تراوحت مواعيد انتهاء آخر ضوء بين الساعه ١٨ر٥ و ١٠ر٥ مساء ، وتراوحت مواعيد بدايه أول ضوء اليوم التالى بين الساعه ٥٠ر٤ و٣٥ر٤ صباحا .

ولكن الأمر لم يكن يخص أو يعنى القوات البحريه وحدها ،فهناك قواتنا الجويه ،والبريه وقوات سوريا التى يجب أن تدخل فى الحساب الختامى لاختيار أنسب توقيت لبدء العمليه الهجوميه . وقد أمكن التوفيق بين متطلبات العمليات البحريه ،وعمليات سائر القوات والجبهات وفى مقدمتها متطلبات مرحلة اقتحام قناة السويس ،واقامة الجسور ،والكبارى عبرها ،واقتحام خط بارليف بالمواجهه . هذا فضلا عن بعض العوامل السياسيه ،وتوقيتات الأعياد الاسرائيلية التى سبق أن أشرنا اليها ،والتى تضافرت جميعها ـ فى النهايه ـ على تحديد توقيت بدء

العمليات الهجوميه ، ليكون الساعه الثانيه من بعد ظهر يوم السبت السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ الموافق العاشر من رمضان عام ١٣٩٣ هجريه .

الخطوط الرئيسية لفكرة العمليات البحرية الهجوميه

شهد مبنى قيادة القوات البحريه بالاسكندريه فى الفترة بين شهرى مايو وسبتمبر ٧٣ ،عده اجتماعات مصيريه مع ضباط هيئة الأركان ،والفنيين الاخصائيين استهدفت اضافة لمسات للخطة الأصليه لتساير أى تغير فى الموقف ،أو لادخال تعديل على أحد الاتجاهات أو على أحد الأسلحه ـ كالألغام ،والطوربيدات مثلا ـ قمت أثناءها بزيارات متكرره الى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحه بالقاهره لتبادل الرأى فى موقف ما ،أو لاستعراض فكره . كما انتقل القائد العام للقوات المسلحه ،المشير احمد اسماعيل ـ رحمه الله ـ الى الاسكندريه مرارا ليلتقى بالضباط ،والجنود ،وفحص دقائق التخطيط ،والتعرف على الطبيعه على خصائص الوحدات البحريه ،وأطوار تجهيزها الأخيره . ولم يكن الاتصال قاصرا على كبار قادة القوات ،بل اتخذت الاتصالات الأدنى أسلوب الاعداد المشترك بين الأجهزة المتجانسه ،وفى التخصصات المتوافقه .

وفى النهاية تبلورت فكرة العملية البحريه فى خطوط عريضه ،نوجزها فيما يلى :

١- الحرص الشديد على التمسك بعنصر المفاجأه للعمليه الهجومية الرئيسية العامة ولاسيما بالنسبه للجيوش الميدانيه ،والقوات الجويه ،حتى ولو كان ذلك على حساب جانب من المبادأة البحريه .

٢- العمل على أوسع مواجهة ممكنه فى مسرحى البحر المتوسط ،والبحر الأحمر لتشتيت جهود العدو مستفيدين فى ذلك بالعمق العربى الاستراتيجى .

٣- العمل بأقصى جهد ،وبتركيز شديد عند بدء العمليات ،وتكبيد العدو أقصى قدر من الخسائر .

٤- تركيز المجهود الرئيسي على المستوى التاكتيكي ، في معاونة أو دعـــم العمليات الهجوميه للجيوش الميدانيه على الجبهة المصريه .

٥- الاغارة بحرا على قواعد وموانئ ومراسي العدو في المسرحين بالنيـران ، وبعناصر من الصاعقة البحريه .

٦- إحباط أي محاوله قد يقوم بها الاسرائليون لابرار قواتهم على أي جزء من سواحل مسرحي البحر المتوسط، والبحر الأحمر، أو التدخل بأي شكـــل آخر في عمليات قواتنا البريه من جهة البحر .

٧- الاستعداد للقيام بعمليات إبرار محدوده بعناصر من قوات الصاعقـــه ، وقوات الجيش شرقي نقط العدو القويه : شرقي بورفؤاد ، وعلى الساحـــل الشرقي لخليج السويس ، بالاضافه الى المعاونه بالنيران لتسهيل مهمـة الاستيلاء على النقطه القويه شرقي بورفؤاد .

- تشديد قبضه الحصار بفرض سيطرتنا على حركة النقل البحرى التجـــارى بمياه " باب المندب " ، والتوسع في استخدام الأسلحة والوحدات المناسـبة في إعاقة حركة الملاحه الاسرائيليه بخليج السويس، وعلى مشارف الموانـــي الاسرائيليه ، والمداخل الملاحيه بغربي البحر المتوسط .

نخلص من ذلك الى ان الهدف التعبوى للعمليه البحريه في اطار الاستراتيجيه الشامله للعمليه الهجوميه كان انجاح عمليه اقتحام قواتنا لقناه السويس وخـط بارليف ، وتأمين نطاقات الجيوش من ناحيه البحر ، على حين كان الهـــدف الاستراتيجي للعمليه البحريه هو الضغط على الاقتصاد الاسرائيلي .

لأول مرة .. خداع العدو الاسرائيلي

كانت المبادأة ، والمفاجأة دائما بيد اسرائيل ، وكان لها كل الحريه فـــي اتخاذ ماتشاء من تدابير خداعيه على الصعيدين السياسي والعسكري قبل أن تشن عدوانها ، الا أن الأمر يختلف - لأول مره - في حرب اكتوبر لاننا قررنا ، لأول مره أيضا ، أن نملك زمام المبادأة . ولقد تعرضنا فيما سبق ، لما قدمته القيــاده

السياسيه المصريه من صنوف الخداع الدبلوماسي ،والمبادرات السياسيه، ونعرض هنا - بصفه عامه - لبعض جوانب خطة الخداع التعبوى التى وضعناها فى قيادة القوات البحريه فى اطار خطة الخداع الاستراتيجيه الشامله للقوات المسلحه .

استهدفنا أولا ايهام العدو الاسرائيلى بأن قواتنا لم تفرغ بعد من استكمال استعداداتها الدفاعيه ،وأن استكمالها مازال بحاجه الى فترة زمنيه طويلة ، بمعنى أن تبدو حالة القوات، وكأنها غير قادره على الاضطلاع بعمليات هجوميه ذات شأن . وفى هذا المجال وضعنا خطه لخداع العدو ذات شقين رئيسيين : إبعاد انتباهه عن التجميع الرئيسى لقواتنا واتجاهاته الرئيسيه قبل العمليات ، وأثناءها ،واخفاء الهدف المباشر للعمليه الهجوميه ، وحرمانه من استنتاج صحيح لتوقيت بدء الهجوم . وكنا نود أن نعطى للقارئ صوره مفصله لهذه الخطه ، وما حققته من نجاح ،الا أننا نرى أن الوقت لم يحن بعد لازاحه الستار عن الكثير من عناصر الخداع التى تضمنتها الخطه البحريه . ومع ذلك فسوف نوجز - فيما يلى - بعض التدابير الخداعيه التى يمكن الافصاح عنها فى الوقت الحاضر :

١- تنشيط الاتصال مع شركات أجنبيه لطلب أسلحه ،ومعدات، بل ووحدات أيضا، يستغرق توريدها شهورا عده .
٢- قبول الدعوه التى وجهتها الأدميراليه البريطانيه لرئيس أركان القوات البحريه لزيارة معرض " جرينتش" بالمملكه المتحده ،وبصحبته عدد من الضباط رغم قرب موعد هذه الزياره لموعد بدء العمليات .
٣- الاستفاده من الطلب الذى تقدمت به ليبيا باشتراك البحريه المصريه فى الاحتفال العسكرى الذى كان مزمعا فى ميناء " طبرق "،لارسال وحدات بحريه للغرب لأغراض الفتح التعبوى تحت ستار مشاركتها فى الاحتفال .
٤- استغلال الترتيبات العلنيه المتعلقه باصلاح الغواصات بباكستان ،لكى تتخذ الغواصات مواقعها فى مسرح البحر الأحمر - فى سريه - والايحاء بأن شدة حاجتها للاصلاح تجعلها غير صالحه للعمليات، والتى أبرزناها

بتكثيف اتصالنا ، عن عمد ، مع السلطات الباكستانيه لسرعه نقل التجهيزات الخاصه بأحواض اصلاح الغواصات الى ميناء كراتشى .

٥- استغلال المناوره التعبويه السنويه للقوات البحريه فى رفع درجات استعداد القوات، وتحميل الالغام، واتخاذ الوحدات مواقع عملياتها تحت ستار التجهيز التمهيدى للمناوره، ثم تنفيذ الفتح الفعلى على أنه تحركات داخل اطار المناوره، وفى حدودها .

ومرة أخرى اعتذر للقارىء عن الافصاح بمزيد ، أو حتى الدخول فى دقائق تلك التدابير رغم ماتحمله من كل أسباب الفخار، التى يحق لكل مصرى أن يتيه بها على العدو الاسرائيلى .

تنظيم القوات، وتوزيع الأدوار

تعيش القوات البحريه حياتها اليوميه - فى زمن السلم - من خلال تنظيم " نوعى " للوحدات البحريه على هيئة " ألويه " ينضم تحتها نوع واحد من أدوات الحرب البحريه مثل : المدمرات، الغواصات، زوارق الطوربيد ، زوارق الصواريخ ، السفن المساعده ... لكل لواء قائد . ومن وحدات هذه الألويه تشكل - عند الاستعداد للحرب - " مجموعات قتال " يراعى عند تشكيلها أن تكون متكامله القوة متوازنة العناصر بحسب المهام التى ستكلف بها كل مجموعه وبما يتناسب مع طبيعه منطقة عملياتها ، وبعدها عن قاعدة ارتكازها ... وهو مانسميه " التنظيم القتالى " للقوات .

ومن ناحيه أخرى ، يقوم تدريب القوات على أساس التنظيمين : تدريب عام متجانس لكل لواء طبقا لخصائص وحداته ، ووظائفها الأساسيه ، وتدريب خاص طبقا للمهام القتاليه لأشكال العمليات المختلفه والذى يتم " بالمجموعات القتاليه" .

هذا فضلا عن التدريب المشترك طبقا لمهام خاصه تشترك فيه عناصر من الجيش، أو من قوات الصاعقه، أو حتى من المظليين . وبانتهاء التدريبات، أو المناورات تعود الوحدات والقوات الى أوضاعها الأصليه فى " التنظيم النوعى " الى أن يحل موعد التدريبات، والمناورات التاليه وهكذا، أو عندما يأزف وقت الدخول فى العمليات، فتنتقل القوات المقاتله - فى سهوله، وفى أقل وقت - الى تنظيم " المجموعات القتاليه " .

وعلى هذا أخذت القوات البحريه تنتقل - تباعا، وبتكتم شديد - الى تنظيم الحرب بتنظيم الوحدات البحريه فى مجموعات قتال نوجزها فيما يلى :

١- أربع مجموعات ضاربه للعمل بمسرح البحر المتوسط .
٢- مجموعتين ضاربتين للعمل بمسرح البحر الأحمر .
٣- مجموعه قتال مستقله للعمل بمنطقه باب المندب .
٤- ثلاث مجموعات قتال مستقله تضم عددا من الغواصات للعمل بمسرحى البحر المتوسط، والبحر الاحمر .
٥- مجموعتى قتال مستقلتين تضم عناصر من قوات الصاعقه للعمل بمسرحى البحر المتوسط والبحر الأحمر .
٦- احتياطى تعبوى خفيف الحركه فى كل من المسرحين .

ونظرا لأن "التنظيم النوعى" للقوات البحريه الرئيسيه، وقواتها العضويه وكذلك قوات الصواريخ، والمدفعيه الساحليه لاتختلف كثيرا عن " تنظيم الحرب "، فقد أبقينا على تنظيماتها مع دعم دفاعتها لمواجهه احتمالات تعرضها للقصف بالصواريخ الاسرائيليه .

وبدأت " مجموعات القتال " و " المجموعات الضاربه " تتخذ مواقع عملياتها فى مسرحى الحرب - وهو مايعرف باسم " الفتح التعبوى " - على مراحل، وفى فترات متباعده حتى لا تلفت الانظار، أو تثير انتباه أجهزة المخابرات والاستطلاع التى تعمل لصالح العدو الاسرائيلى .

ولم تواجهنا صعاب تذكر فى " فتح القوات " بمسرح البحر المتوسط نظرا لأن قواعد ومراسى هذا المسرح كانت مجهزة مسبقا ،على عكس قواعد ومراسى البحر الاحمر التى زاد عدد ها كثيرا لتغطى متطلبات عمليات التعرض لخطوط مواصلات العدو البحريه التى تمتد بطول هذا البحر ،هذا فضلا عن تعزيز تجهيزات القواعد البحريه ،والمراسى الصديقه المحيطه " بباب المندب " ،لخدمة الوحدات البحريه المصريه العامله بالمنطقه . ومع كل ماصادفناه من مشكلات اداريه ،وصعاب فنيه فى تجهيز مسرح البحر الأحمر ،الا اننا نجحنا - بفضل التعاون البناء بين أجهزة القوات البحريه ،وأجهزة سائر أفرع القوات المسلحه ، وسلطات الدول الصديقه المعنيه - فى الانتهاء من تلك التجهيزات فى الوقت المناسب ،لاستقبال وحداتنا البحريه طبقا لتوقيتات خطه " الفتح التعبوى" وبالقدر المطلوب من السريه والتمويه .

نهايه وبدايه

تحت ستار مشروع تدريب استراتيجى تعبوى مشترك ،والمناوره البحريه السنويه ، رفعت درجه استعداد القوات المسلحه المصريه الى الحالة الكامله فى تمام الساعه الثامنه من صباح يوم أول اكتوبر عام ١٩٧٣ ،وتم احتلال جميع مراكز القياده والسيطره على مختلف المستويات ... وهو الوقت الذى بدأ فيه " الفتح " الفعلى للقوات والتشكيلات البحريه فى مناطق عملياتها ،واتخاذ أوضاعها النهائيه فى البحرين المتوسط ،والأحمر .

وبدأت آلة الحرب الضخمه تدور بسرعه عجيبه مع دوران عقارب الساعه ، بعد أن كنا قد انتهينا - خلال الثمانى والأربعين ساعه السابقة - من " تلقين" قادة القواعد ،والتشكيلات وكبار ضباط الأركان بالمهام التى سيضطلعون بها ، وأسلوب القيادة والسيطره . ومع بدايه اليوم الأول من اكتوبر ،اتخذ ضباط مجموعات العمليات البحريه مواقعهم بمركز قيادة القوات المسلحه ،وقيادتى الجيشين الثانى ،والثالث الميدانيين،ومراكز قيادة كل من القوات الجوية وقوات الدفاع الجوى والقواعد الجويه ذات الصله بالتعاون مع القوات البحريه .

هذا وقد حددت تعليمات القيادة العامه للقوات المسلحه الساعة السادسه من صباح الخامس من اكتوبر عام ١٩٧٣ موعدا لتمام استعداد القوات المسلحه المصريه للعمل في جميع المسارح ،والجبهات .

وفي خلال المده بين التوقيتين ، ٩٤ ساعه ، قامت القوات البحريه بأكثر من ١٥٠ تحركا وطلعه في اتجاهات مختلفه ،بعضها فعلي لأغراض العمليات ، والبعض الآخر تمويهي لأغراض الخداع(١) . وامعانا في التضليل ،أذكر انني توجهت ـ كعادتي ـ الى نادى اليخت المصرى بالاسكندريه أيام الثلاثاء ، والاربعاء ،والخميس (٢ ، ٣ ، ٤ اكتوبر) للاشتراك في مسابقات القوارب الشراعيه ، والتي يشترك فيها أيضا مجموعه كبيره من الضباط البحريين والضيوف الأجانب ،فبدت الأمور طبيعيه . وأذكر أيضا أنني اتفقت مع بعض أعضاء مجلس ادارة النادى ـ بوصفي رئيس المجلس ـ على الاجتماع بهم بعد ظهر يوم السبت ٦ اكتوبر للنظر في بعض الأمور ، واشترطت أن يكون اجتماعنا عقب انتهائي من سباق ذلك اليوم ... ومن الطبيعي انه لم يكن هناك مايدعو لعقد هذا الاجتماع عندما استمع العالم ، في الساعه الثانيه والربع من اليوم الموعود ،للبيان العسكرى رقم "١" يعلن اطلاق " شراره " اكتوبر .

---

(١) رصدت وسائل الاستطلاع نشاطا محدودا للعدو الاسرائيلي في الأيام الأولى لهذه الفتره تجاه سواحله ،وسواحل سيناء المطله على البحرين المتوسط والأحمر عباره عن داوريات حراسه روتينيه ،وحركات نقل بترول خليج السويس الى ميناء " ايلات " . ثم تزايد هذا النشاط خلال يومي ٤ و ٥ اكتوبر بأن دفع زوارق الصواريخ (سعر) في داوريات استطلاع قتالي ضمت مساحه متسعه من " حيفا " حتى المياه تجاه " راس كنائس " غربا وبعمق وصل الى ١٥٠ ميلا في البحر صاحبه نشاط استطلاع جوى الكتروني امام سواحلنا الشماليه ،في الوقت الذى كان فيه يدفع ببعض الوحدات الخفيفه الى مراسي خليج السويس المحتله ،من مراسيها بمنطقه شرم الشيخ ، ورغم ذلك فلم يتدخل العدو الاسرائيلي في عملية بث الألغام التي قامت بها وحداتنا ليله ٤/٥ لكتوبر .

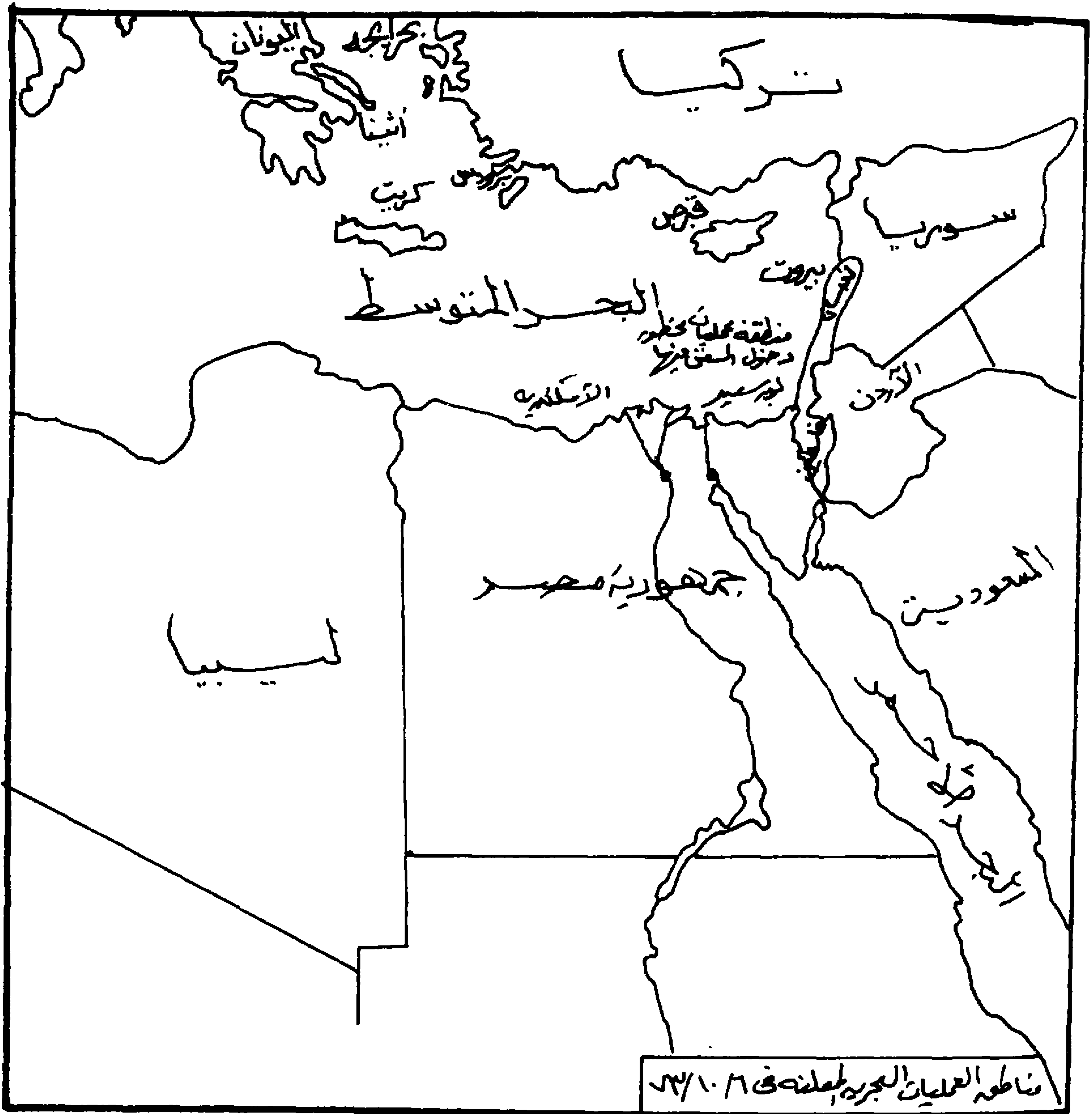
ليسمح لي القارئ في قفزه نقفزها سويا فوق التسلسل الزمني للأحداث، لنعبر الى الجانب الآخر، ونلقى نظره سريعه على ماكان يجرى في اسرائيل الذى كشفت عنه النقاب رسائل الصحفيين ، والكتب التى نشرت في أعقاب الحرب، وفي مقدمتها كتاب " التقصير" (" المحدال " باللغه العبريه) الذى وضعه سبعه من المع الصحفيين الاسرائيليين (١) . فقد جاء في الفصل الثاني من النسخه المعربة تحت عنوان " لهم عيون ، ولا يبصرون (٢) . ، تفسيرات لجوانب كثيره للقصور الاسرائيلي السياسي والعسكرى في الأيام ، والساعات ، القليله السابقه على لحظة بدء الهجوم العربي .

فبعد مقارنة ماحدث على الجبهه الروسيه في الحرب العالميه الثانيه قبيل الهجوم الألماني بما حدث على جبهتي الجولان ، وسيناء قبيل الهجوم العربي في ٦ اكتوبر ٧٣ ، وبين ماحدث في " بيرل هاربر " ساعه الهجوم الياباني المفاجئ في ديسمبر عام ١٩٤١ ، وماحدث على ضفاف قناة السويس في ٦ اكتوبر ٧٣ ، يعطى المؤلفون صوره لما يمكن ان نسميه بارتبــاك ، وتخبط القيادتين السياسيه والعسكريه في تفسير تحركات مصر السياسيه والعسكريـة ، والتى أدت الى استنتاجات خاطئه ، وبالتالي الى تخلف التحرك الاسرائيلي المضاد ليصبح مجرد " رد فعل بطئ " للتحرك العربي . واليكم مقتطفات من الفصل الثاني من كتاب " التقصير " ..

يقول مؤلفو الكتاب ، أن الشعار الذى أطلقه الرئيس عبد الناصر " ما أخذ بالقوه لا يسترد بغير القوه " لم ينته بوفاته ، بل تبناه أنور السادات ، ولكن في بعض الأحيان لم يعمل بهذا الشعار لأغراض سياسيه ، والأهم القيام بعمليه

(١) قامت مؤسسه الدراسات الفلسطينيه ببيروت بترجمه هذا الكتاب، ونشرته في أوائل عام ١٩٧٤ ورغم ماتحويه أجزاء هذا الكتاب من محاولات " مداراة " أو اختلاق المعاذير للتقصير الاسرائيلي الا أنه يضم حقائق عن " القصور الاسرائيلي " نظرا لان الكتاب صدر - بلغته الأصليه - عقب الحرب مباشرة بعد عودة مؤلفيه من " خطوط النار " مباشرة وهم مازالوا يحملون حرارة انطباعاتهم الميدانيه .

(٢) من صفحه ٢٥ الى صفحه ٤٤ من النسخه المعربة .



مناطق العمليات البحرية المعلنة في ٦/١٠/٧٣

تضليل لم يسبق لها مثيل فى التاريخ . فقد تم تليينه (يعنى الشعار) ، وتغييره ، واعطاؤه تفسيرات جديده حتى أنه - فى لحظه معينه - أخلى مكانه لاعلان السادات استعداده للتوصل الى سلام مع اسرائيل . وينحصر التقصير الاسرائيلى فى سلسله اخطاء مأسويه فى ثلاثة مجالات : (١) خطأ المخابرات الاسرائيليه (٢) خطأ الوزاره الاسرائيليه فى تقويم الوضع، فوقعت الحكومة فى مصيدة الخداع التى نصبها العدو ، (٣) خطأ القيادة العليا فى الجيش الاسرائيلى فى عدم نقضها لتقديرات المخابرات والوزاره ولم تهيىء نفسها لاحتمال هجوم شامل على الجبهتين ، ولم تعمل بسرعه ، وفعاليه عندما فرضت الحرب فعلا على اسرائيل .

ومع أن الرئيس السادات لم يكف - منذ توليه الحكم - عن اعلان عزمه على شن حرب ضد اسرائيل فى وقت قريب ، وأن الصحف المصريه نشرت تصريحات رسمية عقب تولى السادات رئاسة الوزاره المصريه فى مارس ٧٣ مؤداها " ان مهمة الحكومة المصريه الجديده هى اعداد مصر للحرب القريبه " ، وأن صحيفة "النهار" البيروتيه كتبت فى عددها الصادر فى مايو ٧٣ تقول " ان نقل الجيش المصرى يتم ليلا ونهارا من القاهره الى منطقة القناه ... لمواجهة امكان تنفيذ قرار مصرى قد يصدر فى أية لحظه " ، ومع أنه لم يمر يوم الا ونشرت فيه صحيفة من صحف العالم خبرا وتقريرا يتعلق بالحرب القريبه التى تنوى مصر شنها على اسرائيل ... ومع كل ذلك كان رد الفعل الاسرائيلى الدائم " هذا غير جاد (يقصدون السادات) ، لن يحدث أى شىء " ، . إن رد الفعل هذا ، أو بدقة أكثر عدم وجود رد فعل ، كان النتيجة المرجوه لخطة التضليل المصريه ... وهذا كان أساس الكارثه فى هضبة الجولان ، وسيناء فى السادس من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

ونأتى الآن الى الأيام القلائل السابقه على الحرب . ففى الثانى من شهر اكتوبر تجمعت لدى المخابرات الاسرائيليه ، وقيادة الجيش الاسرائيلى معلومات كثيره عن تعزيز المواقع المصريه فى الضفه الغربية لقناه السويس ، كما وصلت تحذيرات وتنبيهات أخرى جاء فيها بوضوح أن القاهره تستعد لبدء القتال ،

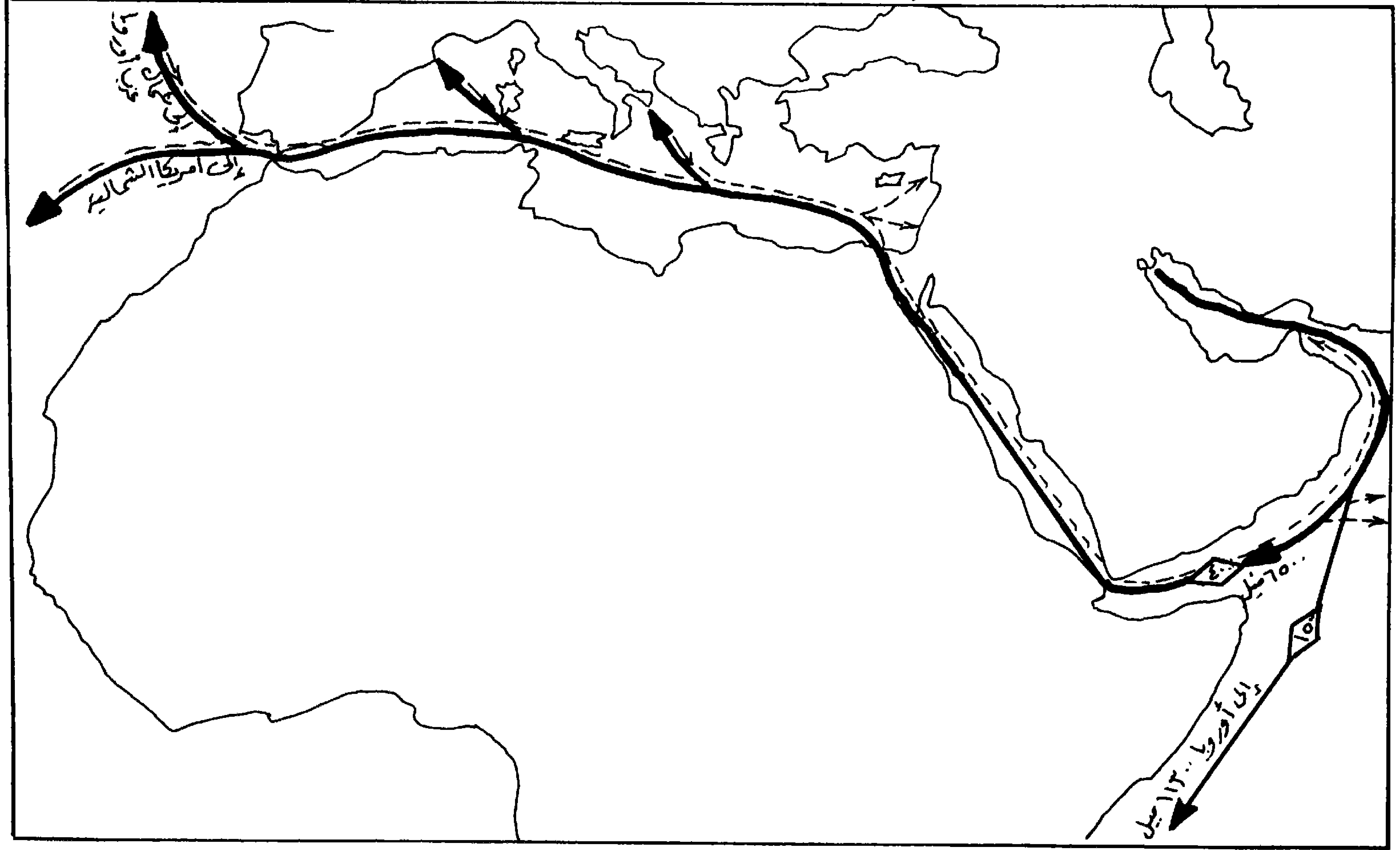
لكن المخابرات العسكريه فى اسرائيل ،والمخابرات العسكرية الأمريكيه التى تابعت هى أيضا تحركات الجيش المصرى والسورى ،قدرت كل على حدة ان المقصود هو مجرد مناورات الخريف .

وفى يوم الأربعاء ٣ اكتوبر ،عقدت السيده "مائير" - بعد عودتها من زيارة النمسا مباشرة - اجتماعا على مستوى عال عرف فى أوساط الجماهير باسم " وزارة الحرب المصغره " وصفت فيه حشود القوات المصريه ،خلال النقاش ،بأنها " معززة " ولكنها لاتتجاوز الاستعدادات التى تتبع عادة فى المناورات ، كما حدث أحيانا فى الماضى . . كما اتفق على أن هناك احتمالا ضئيلا للحرب ، وانه لا لزوم لدعوة الاحتياط .

وفى يوم الخميس ٤ اكتوبر ،مثلت السيده " مائير " أمام لجنة الخارجية والأمن بالكنيست الاسرائيلى ولم تناقش اللجنه ،ولا طرحت رئيسة الوزراء الا موضوعا واحدا هو محادثاتها مع " برونوكرايسكى " مستشار النمسا .

وفى يوم الجمعه ٥ اكتوبر ،دعت مائير لعقد اجتماع عاجل للوزاره ،إثر وصول خبر مثير للذعر من مصدر موثوق به مؤداه أن طائرات سوفيتيه تنقل المستشارين السوفييت ،وعائلاتهم المرحلين من دمشق والقاهره . وكان لتقرير المخابرات العسكريه الذى عرض فى الاجتماع دلالة اكثر أهميه واقترح رئيس الأركان اعلان حالة التأهب (ج) كما أعلن أنه أصدر التعليمات بالغاء أجازات الجنود ... ولكن لم يقترح أحد - ولا ،" موسى ديان " وزير الدفاع - دعوة الاحتياط . والجدير بالملاحظه أن رئيس الأركان قال - بعد انتهاء المناقشة - أنه لايستطيع أن يضمن عدم وقوع الحرب ،كما أنه غير قادر على الجزم بأنها ستقع .

وفى نفس ذلك اليوم - الجمعه ٥ اكتوبر - اكتملت حلقة التضليل المصرية ، كما يصفها مؤلفو كتاب التقصير ،باجتماع محمد حسن الزيات (مستشار الرئيس السادات) بالدكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجيه الأمريكى . وفى حديث هادىء تناول الاجتماع مبادرة السلام التى كان كيسنجر يزمع القيام بها بعد الانتخابات الاسرائيليه (تبدأ فى ٢٩ اكتوبر) ،ولم يدرك كيسنجر الا بعد نشوب المعارك


العمق الاستراتيجي للوطن العربي
على خريطة حركة التجارة العالمية المنقولة بحراً
إلى شمال غرب أوروبا
إلى أمريكا الشمالية
٦٥٠٠ ميل
٤٠
١٥٠
إلى أوروبا ١١٣٠٠ ميل
الشحنة بملايين الأطنان
حركة نقل البترول الخام
حركة نقل البضائع الجافة

ان الزيات ،الذى كان دون شك على علم بموعد بدء الحرب، قد أتقن دوره فى عملية التضليل التى كان مخططا لها بتفصيل دقيق .

أما عن الساعات الأولى ليوم ٦ اكتوبر، فتقول صفحات هذا الفصل من الكتاب أن " موسى ديان " استيقظ من نومه قبل دقائق من الساعه الرابعه فجر ذلك اليوم على رنين الهاتف بمنزله لابلاغه بأن الحرب اكيده ،وأن مصر، وسوريا ستبدآن اليوم ـ يوم الغفران بالذات ـ فى الساعه ١٨٠٠ تماما هجوما منسقا على كلا الجبهتين . وفى نحو الساعه السابعه صباحا عقد اجتماع مع رئيسة الحكومة فى مكتبها ،تم الاتفاق فيه على البدء فى الساعه العاشرة " بتعبئة هادئه" تشمل المدرعات كلها تتلوها تعبئه كامله . وقد علق نائب رئيسه الوزراء على انذار الحرب المتوقعه مساء ذلك اليوم بقوله " ٦ مساء، هذا غير معقول ،فهم (يقصد السوريون والمصريون) بحاجه الى بضع ساعات من النهار، وبعد ذلك يحتمون بالظلام من سلاح الجو ... ربما لم يكن المقصود الساعه ٦ وانما ١٦٠٠" أى الرابعه بعد الظهر .

وفى ظهر نفس اليوم ـ السبت ٦ اكتوبر ـ اجتمعت وزارة الحرب، واستعرضت تقريرا قدمه وزير الدفاع تمت بعده الموافقه بالاجماع على قرار عدم الاقدام على ضربه وقائيه (اجهاض) ،والقرار بالتعبئه الجزئيه التى كانت قد بدأت بالفعل ... وبينما الاجتماع فى ذروته ،انطلقت صفارات الانذار فى " تل ابيب " .

انتهت صفحات الفصل الثانى " لهم عيون ولكن لا يبصرون " من كتاب " التقصير " الذى وضعه سبعة من ألمع الصحفيين الاسرائيليين ... لنقول : وشهد شاهد من أهله .

وفى مكان آخر من الفصل الثالث بعنوان " يوم الغفران الأسود " يواصل المؤلفون وصف الروايه فى اللحظات التى أعقبت البلاغات عن بدء الهجوم المصرى السورى ، فيقولون : " بعد الثانيه ظهرا ببضع دقائق انطلق " اليعازار" ونائبه الجنرال " يسرائيل طل " الى غرفه شعبة العمليات، كانا عصبيين ،ومنفعلين ، وقد ظهرت المفاجأه على وجهيهما ،وحركاتهما ،وأجوبتهما ،وكلاهما . . . .

دخل رئيس هيئة الاركان ونائبه الى غرفة العمليات وطلبا مشاهدة الخرائط مشارا اليها ـ بواسطة الأسهم ـ الى تحركات العدو، ومحور اقتحامه، إلا أن المفاجأه كانت كبيره جدا خلال تلك الدقائق الدراميه الى حد أنه لم يستطع احد رسم الأسهم " .

وفى نهايه الفصل ،يقول المؤلفون بالنص : " إن صفارة الانذار التى شقت سماء اسرائيل الساعه ١٤٠٠ دهمت سكان اسرائيل وهم فى ذروة خلودهم الى السكينه ،وانعدام التأهب . فالتقصير الكبير ازاء انعدام التأهب للحرب كان مشتركا بين الجبهه والمؤخره .

ونقول مرة أخرى ،قبل أن نعود الى تسلسل حوادث الحرب ،لهم عيون ولا يبصرون .

٦ اكتوبر، يوم ى

ساعه الصفر ،ناقص ستون دقيقه

المشهد جد رهيب : الغواصات المصريه تتسلل بهدوء الى مناطق عملياتها عند مشارف مينائى " حيفا " ،و" أسدود " ، وعلى طرق الاقتراب منها ، والى مناطق عملياتها فى وسط وجنوب البحر الأحمر، المدمرات تنطلق بسرعه الى مواقعها داخل وخارج مضيق باب المندب فى أقصى جنوب البحر الأحمر، وحدات التلغيم تناور وتخادع فى مياه خليج السويس لبث حمولاتها بمياه المدخل الجنوبى للخليج ،قوات الصاعقه تنقل فى صمت قواربها وأسلحتها عند بورسعيد ، وفى مراسى الساحل الغربى لخليج السويس، والمركبات والزوارق فى حركة دائبة تحمل الصواريخ والألغام الى مواقع سريه على ضفاف المسرحين ،ناقلات البترول بحركاتها الرتيبه المألوفه تقترب من مناطق عمليات مجموعه " باب المندب " لامداد وحداتها بحاجتها من الوقود .. ثم صمت، وترقب، وعيون تبرق داخل مراكز القياده بعد أن رفعت خرائط المناوره التعبويه ،وحلت محلها خرائط العمليات البحريه الفعليه .

ولابد أن يكون العدو الاسرائيلي قد استشعر شيئا نتيجه لحدثين كادا ان يكشفا نوايا هجومنا الوشيك لو أنهما لقيا مايستحقانه من دراسة وتدقيق من أجهزة المخابرات الاسرائيليه .

ففي يوم الجمعه الخامس من اكتوبر .. اليوم السابق على الحرب ، وقع حدثان : أولهما كان هبوط طائرات سوفيتيه بمصر ، وسوريا ، لاخلاء الرعايا السوفييت من البلدين على وجه السرعه (١) ، أما الحدث الثاني فكان قرار وزارة الطيران المدني المصريه بايقاف حركة الطيران المدني في سماء مصر اعتبارا من ظهر ذلك اليوم وهو قرار أذيع على جميع مطارات ، وشركات طيران العالم . الا أن القياده العامه سارعت الى تدارك الموقف باصدار الأمر بالغاء هذا القرار واعلان استئناف حركة الطيران المدني بشكلها الطبيعي المعتاد ، والاعتذار بأن الايقاف كان لأسباب فنيه أمكن ملافاتها .

---

(١) كان الرئيس السادات قد استدعى السفير السوفيتي بالقاهره يوم الاربعاء ٣ اكتوبر لجس نبض موقف الاتحاد السوفيتي في حاله قيام مصر بتحرك عسكري ، وفعل نفس الشيء الرئيس الأسد مع السفير السوفيتي بدمشق يوم الخميس ٤ اكتوبر . (عن حديث للرئيس السادات اجراه الصحفي المصري الاستاذ / عبدالرحمن الشرقاوي وذكره الاستاذ / موسى صبري في كتابه " وثائق حرب اكتوبر " في هامشي صفحتي ٢٧٨ ، ٢٧٩) . هذا وقد ابلغتنا المخابرات المصريه قبل فجر يوم ٦ اكتوبر ان الملحق العسكري السوفيتي أخطرهم بأنه من المقرر أن تصل الاسكندريه مجموعه من السفن تضم ناقله جند ، وكاسحة ألغام ، وقانصة غواصات في السادسة من مساء يوم ٦ اكتوبر لترحيل العائلات السوفيتيه .

ورغم أن الحدث الأول تم سرا والثانى علنا ،الا أننا نعود للقول بأن العدو الاسرائيلى لا بد وأنه استشعر شيئا ،لأن الوزارة الاسرائيليه عقدت اجتماعا صباح يوم السبت ٦ اكتوبر ـ الحاقا للاجتماع الذى عقدته فى اليوم السابق ـ وانتهى ظهرا ،الى أنه لا خطر لحرب ولا احتمال لهجوم عربى وشيك ، والى تكليف السيده جولدا مائير رئيسة الوزاره باجراء اتصالات سياسيه لتخفيف حدة التوتر ،فطلبت " مائير " من وزير خارجيتها " أبا ايبان " ـ الذى كان موجودا بامريكا وقتئذ ـ الاتصال بوزير الخارجيه الامريكى بدعوة لطمأنه العرب، ولا يخشوا هجوما اسرائيليا ،لأن اسرائيل لاتعتزم القيام بأى هجوم . والطريف أن المحادثه التليفونيه بين " ايبان " و " كيسنجر " تمت فى حوالى الساعة السادسه من صباح يوم السبت ٦ اكتوبر بتوقيت واشنطن ،أى الواحده بعد الظهر بتوقيت القاهره ... قبل أقل من ستين دقيقه من بدء الهجوم العربى .

يالتصاريف القدر ،أين نحن من يونيه ٦٧ . تريد اسرائيل أن تمارس هوايتها فى التضليل والخداع . ولكن هيهات فالضربه العربيه الشامله كانت أقرب بكثير مما حدثت . فقد توقعت " جولدا مائير " ـ عقب اجتماع مجلس الوزراء ،ومن تحذيرات الجنرال " اليعازر " فى ذلك اليوم ـ أن القوات المصرية ستشن هجوما عقب غروب شمس اليوم السادس من اكتوبر ،فأرادت ان تكسب الوقت، أو على الأصح تسابقه ، بأن تعد نفسها لتوجيه " ضربة اجهاض " ضد القوات المصريه الى أن تنتهى من التعبئه العامه ،والتى بدأت اجراءاتها بالفعل ، فى نفس اليوم بعد أن رفعت درجة استعداد القوات الاسرائيليه الى اقصى حالاتها (١) .

---

(١) كتب مراسل " الأوبزيرفر " فى واشنطون فى عددها الصادر فى ١٤ اكتوبر ١٩٧٣ مقالا جاء فيه : " كان جهاز الحرب الاسرائيلى يعتمد على مخابرات عظيمه ،وعلى رد توقعى مضاد ،فلماذا اخفقوا هذه المره فى تفسير الحقائق التى كانت تحملق فى وجوههم " . (عن مجلة " السياسة الدوليه " بعددها الصادر فى أول يناير ١٩٧٣ ،ص ٨٤ ـ ص ٩٠) .

ولكن الوقت ـ لأول مره ـ كان قد فات ، وانحسر التخطيط الاسرائيلي ـ لأول مرة أيضا ـ أمام روعة التخطيط العربي ، ليجد شعب اسرائيل نفسه وجها لوجه أمام المارد المصرى يطل عليه بشموخ من فوق حطام " بارليف " ، و " الله اكبر " تدوى اصداءها فى سماء سيناء الحبيبه .

فى الساعه الثانيه تماما من بعد ظهر السادس من اكتوبر ٧٣ بتوقيت القاهره بدأ العد التنازلي الى ساعة الصفر ، وماكادت عقارب الساعة تشير الى خمس دقائق بعد الثانيه حتى انطلقت شراره اكتوبر .

وانفتحت أبواب الجحيم

فى تمام الساعه الثانيه وخمس دقائق بعد ظهر السادس من اكتوبر ، عبرت ٢٥٠ طائره مصريه خطوط العدو الاسرائيلي شرقى قناة السويس ، لتبدأ ضربتها المفاجئه لقوات العدو الجويه فى سيناء ... وفى نفس الوقت انطلقت فوهات أكثر من ألفى مدفع من الضفه الغربيه للقناه تصب حممها على العدو الاسرائيلي على طول الجبهه ، .. وبعدها بخمس دقائق دخلت زوارق الصواريخ والمدفعية الساحليه المصريه معركة التمهيد النيرانى ضد العدو شرقى بورفؤاد ، وتجاه منطقة رأس مسله / عيون موسى عبر خليج السويس ... وتفجرت الأرض ، والسماء ، والمياه بنيران الجحيم واندفعت الموجات الأولى لجيوشنا تقتحم المستحيلين : قناة السويس ، وخط بارليف . ولم تكد تمضى ثلاثون دقيقه على بدء الهجوم ، حتى كانت أعلام مصر ترفرف فوق سيناء وصيحات " الله اكبر " تنطلق من أعماق قلب المقاتل المصرى ، لتطغى على أصداء هدير المدافع ، وأزيز الطائرات ، وقرقعة الصواريخ .

وفى الساعة الثالثه والنصف ، أعلنت مصر فى بيان عالمى أصدرته وزارة الخارجية المصريه عن مناطق العمليات الحربيه فى مسرحى البحر المتوسط ، والبحر الأحمر وهى المياه التى يحدها خط العرض ٣٣° شمالا وخط الطول ٢٩٫٥° شرقا فى المسرح الأول ، والمياه الواقعه شمالى خط العرض ٣٣° شمالا فى المسرح الثانى .

وأصدرت أيضا حكومة جمهورية اليمن الجنوبية اعلانا مشابها يشمل مياه منطقة " باب المندب " ،وصارت العمليات البحريه المصريه ضد اسرائيل تغطى اكثر من نصف مليون كيلو متر مربع من مياه البحرين المتوسط والأحمر .

ويجدر الاشاره هنا الى أن غالبية هذا المسطح الكبير تعتبر مياهها صالحة لجميع أشكال العمليات البحريه ،فيما عدا أجزاء مضايق خليجى السويس والعقبه ،ومياه أقصى جنوب البحر الأحمر التى يمكن الاستفاده بعوائقها الطبيعيه فى ممارسه أشكال خاصه من العمليات مثل " الألغام " و انقضاضات" زوارق الطوربيد ،و " قصفات " المدفعيه والصواريخ الساحليه .

هذا وقد مرت العمليات البحريه - فيما عدا عمليات الحصار عند باب المندب والقطاع الجنوبى للبحر الاحمر - فى نفس المراحل التى مرت بها سائر العمليات الحربيه ،والتى يمكن تقسيمها ،بشكل عام ،على النحو التالى :

١- الاقتحام ،واحتلال رؤوس الكبارى ،فى المده ٦-١٣ اكتوبر .
٢- تطوير الهجوم ،والضربات المضاده ،فى المده ١٤-١٦ اكتوبر .
٣- تطوير أعمال القتال غربى القناه ،فى المده ١٧-٢٦ اكتوبر .
٤- ايقاف النار حتى فصل القوات

ونرجو ألا يتصور القارىء أن هذا التقسيم معناه وجود فواصل أو وقفات بين كل مرحله والتاليه لها ،بل هو يعنى انه حدث اثناء " انسياب " العمليات ما أدى الى تحول استراتيجى أو تعبوى بارز فى مسار الحرب ككل .

****

الباب الثالــــث

الحرب ،والمخاطره المحسوبـــــه

المرحله الاولى للحرب (٦ - ١٣ اكتوبر ١٩٧٣)

أفتتحت هذه المرحله في الساعه الثانيه وعشر دقائق من بعد ظهر يــوم ٦ أكتوبر، بالقصف الذى قامت به قوات المدفعيه ،والصواريخ الساحلية بقاعــدة بورسعيد البحريه على النقطة القويه الاسرائيليه الموجودة شرقــى " بورفــؤاد "، في الوقت الذى كانت فيه قواتنا تقتحم قناه السويس . ويرجع السبب فى أهميـة هذه النقطه الى أن الطريق الساحلى بشمال سيناء يؤدى - مباشرة - الى مركز قياده العدو الاسرائيلى فى " رمانه " ،فكان من المنتظر أن يوجه الاسرائيليــون جانبا من احتياطيه المدرع، وجزءا كبيرا من مجهوده الجوى الى هذه المنطقه ، لايقاف هجوم القوات المصريه عن طريق الشريط الساحلى . وقد نجحت هــذه القصفات في قطع هذا الطريق وجذبت الى المنطقه جانبا كبيرا من مجهـــود العدو الجوى ، واحتياطيه المدرع. هذا فضلا عن تمكين الصاعقه المصريه - لا يزيد حجمها عن سريه (١) - من التمسك بمواقعها شرقى النقطه القويه لمدة يوميــن ، وقد عادت بعد انتهاء مهمتها ،لتنضم الى قوات بورسعيد . وفى الجنــوب ، اشتركت المدفعيه الساحليه - المتمركزه بمنطقه السويس - مع قوات الجيش الثالث الميدانى في التمهيد النيرانى لاقتحام قواتنا قناة السويس والعبور الى الضفــة الشرقيه .

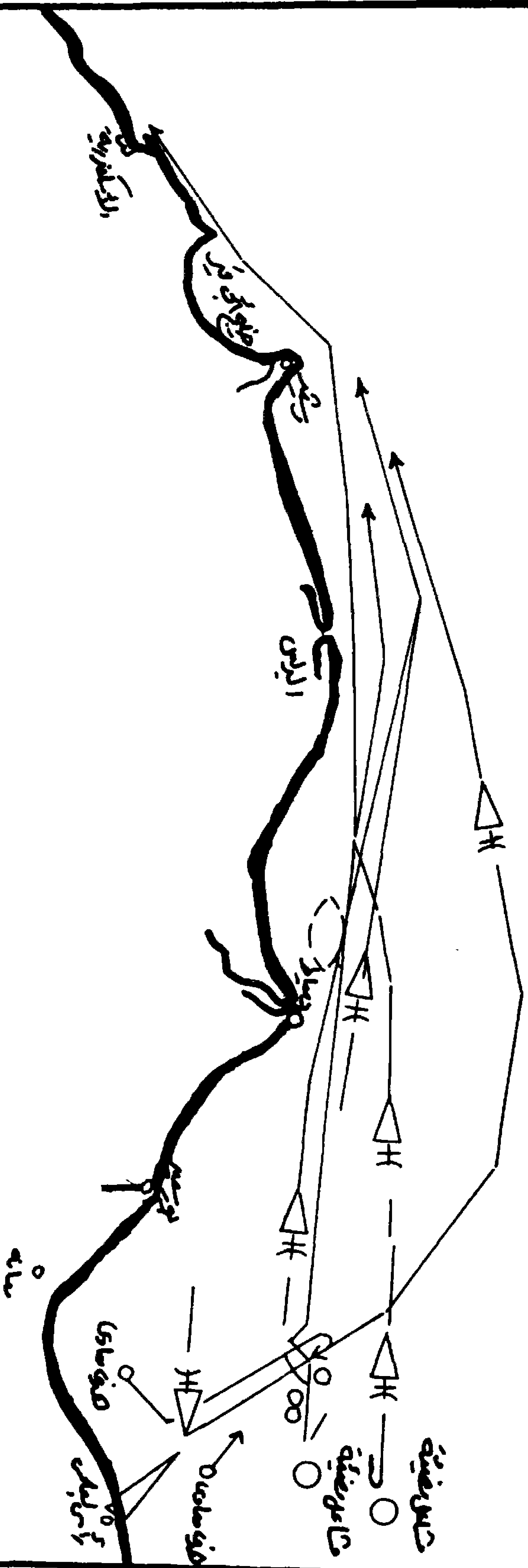
توالت بعد ذلك - خلال مساء يوم ٦ اكتوبر، وصباح اليوم التالى - الأعمال البحريه في المسرحين . واحقاقا للحق ،فان العدو الاسرائيلى برغم ما منى به

---

(١) أبحرت هذه السريه الساعه ١٥ر٤٥ بعد الظهر بعد تحميلها من بورســعيد حيث تم ابرارها شرقى النقطه القويه فى الساعه ٥ مساء نفس اليوم .

من خسائر فى قواته ،وما أصابه من شلل فكرى ،وفقدان سيطرته على قوته الجويه فى الساعات الأولى للهجوم على جبهة سيناء ،فقد تمكن من إعادة تجميع مجهود جوى استخدمه فى نطاق محدود ضد عملياتنا البحريه فى منطقه خليج السويس، وبفعاليه اكثر من تشكيلاته البحريه فى مسرح البحر المتوسط .

ومنذ غروب يوم ٦ اكتوبر وحتى فجر اليوم التالى نشطت العمليات فى كلا المسرحين . فقد أبحر من قاعدة اسكندريه قبيل غروب يوم ٦ اكتوبر تشكيل ضارب قوامه ٦ زوارق صواريخ ،وزورق طوربيد مجهز بصواريخ (ب م ٢١) ، متجها الى الساحل الشمالى لسيناء ، لقصف منطقة " راس برون " بالصواريخ غير الموجهه على حين يقوم التشكيل بعملية " قنص حر " لوحدات العدو البحريه على طول خط ذهابه ،وعودته ،وفى منطقة " راس برون " . ووصل التشكيل الى المنطقه ـ دون ان يلتقى بأى وحدات بحريه للعدو ـ وأطلق ،فى الدقيقه الثلاثين بعد منتصف ليله ٦ / ٧ اكتوبر، ثمانين صاروخا غير موجه من عيار ١٢٢ مم على " راس برون " ، واستدار للعوده الى الاسكندريه . ولكن ماكادت تمضى دقائق الا وكانت السماء خلفه تضئ بأكثر من ٢٥ مشعلا ألقتها الطائرات الاسرائيليه أعقبها هجوم جوى مركز استخدمت فيه القنابل ،والرشاشات،والصواريخ ، تلاه هجوم آخر بالصواريخ من طائرات الهليكوبتر مع استمرار اضاءة مياه المعركه بالمشاعل الجويه لتعاود القاذفات هجومها على وحدات التشكيل الذى كان قد اتخذ وضع الانتشار المفتوح للسماح بالقيام بمناورات تفادى الهجوم الجوى . وأثناء الاشتباك ظهرت ٤وحدات بحريه خفيفه معاديه حاولت مهاجمه زورق الطوربيد بالمدافع،والصواريخ ،ولكنها باءت بالفشل فانسحبت من المعركة التى انتهت حوالى الساعه الثانيه صباح يوم ٧ اكتوبر بعد أن أسقطنا للعدو طائره واحده ،وفقدنا زورق صاروخ ،لتعود باقى وحدات التشكيل الى قاعدتها بالاسكندريه . ويرجع الفضل الأكبر الى تخفيف نسبه خسائرنا فى هذه المعركه الى " الطلعه " الخداعيه التى قام بها تشكيل ضارب آخر من زوارق الصواريخ ،وزوارق الطوربيد ـ فى نفس تلك الفتره ـ تجاه شمالى الاسكندريه بعمق ١٠٠ ميل داخل البحر لايهام العدو بهجوم على " حيفا "


زوارق الصواريخ المصرية
طلعة القصف الحر (٦-٧ أكتوبر ١٩٧٣)
الإسكندرية
خليج أبو قير
رشيد
البرلس
دمياط
بورسعيد

(وهي عمليةأعتاد العدو على توقعها في جميع لقاءاتنا السابقه معه) وبالتالي يعمد الى التركيز على حماية قاعدته الرئيسيه، بعيدا عن منطقة" راس برون "، وهو ماحدث بالفعل مما كان له اكبر الأثر في خفض حجم خسائرنا في تلك المعركه، وعودة التشكيل الضارب الآخر الى قاعدته - فجر يوم ٧ اكتوبر - سالما.

ومع أن ضربة " رأس برون " كانت ذات أهميه خاصه لعمليات ذلك اليوم، الا أن الخطة كانت تقضي بتوجيه ضربة رئيسيه بالصواريخ على " رمانه " وهي الضربه التي وجهها أحد أسراب زوارق المدفعيه الصاروخيه في الساعه ١٨٠٠ يوم ٦ اكتوبر، وعاد بعدها السرب الى قاعدته " بورسعيد " سالما.

ولكن للأسف الشديد، لم تكلل عملية الغواصات التي عهد اليها بمهمة تلغيم مداخل مينائي " حيفا "، و" أسدود " (والتي كان مخططا لتنفيذها ليلة ٥/٦ اكتوبر) بالنجاح. فبعد ان وصلت الغواصات الى مواقعها في مواعيدها المحددة حدثت بعض الأعطال الفنيه في احداها مما استوجب سحبها، وحفاظا على سريه نوايانا، وحرصا على عدم انكشاف توقيت بدء العمليات، صدرت الأوامر بعودة الغواصة الثانيه - أيضا - الى قاعدتها.

ولم يكن نشاط العدو الجوى بمنطقة خليج السويس - في نفس تلك الفترة ٦/٧ اكتوبر - اقل كثافه من نشاطه فوق مسرح البحر المتوسط ان لم تكن أشد، فنجحت بعض العمليات في تحقيق أهدافها بالكامل على حين لم يتحقق للبعض الآخر الا نجاح جزئي. فقد تم استكمال حقل الألغام في مياه الممر الرئيسي لمدخل خليج السويس، دون خسائر في وحداته البته ... وقامت وحدات أخرى خفيفه بقصف مرسى " راس سدر " بالصواريخ، وعادت جميعها لقواعدها سالمه. ومن ناحية أخرى أبحرت مجموعة قتال قوامها زورقا صواريخ وزورقا مدفعيه صاروخيه الساعه ٢٠٣٠ يوم ٦ اكتوبر متجهه الى منطقه " شرم الشيخ " حيث قصفت - الساعه ٠١٠٠ يوم ٧ - المرسى بالصواريخ الموجهه الا أن تدخل الطيران

الاسرائيلى حال دون وصول الزورقين الآخرين الى موقع الاطلاق مما اضطر المجموعة لسرعة الارتداد الى قاعدتها دون أى خسائر . وفى نفس الوقت تقريبا شرعت عناصر من الصاعقة المتمركزه بالشاطئ الغربى لخليج السويس فى انزال معداتها للبحر توطئه لعبور الخليج والتسلل الى شواطئه الشرقيه ، الا أن هجوم العدو الجوى على مناطق التحميل أدى الى تعطيل انزالها ولما أعيدت المحاوله أفسد سوء حالة البحر عملية العبور ... فتأجلت العملية برمتها .

وفى تلك الأثناء ، وعلى وجه التحديد فى الساعه ١٩٣٠ ، كانت الفرق المصرية الخمسه ، وقوات قطاع بورسعيد قد أتمت اقتحام قناة السويس على طول المواجهه ، واستولت على ١٥ نقطه قويه للعدو ، وأتمت حصار باقى النقط القويه ، وأقامت رؤوس الكبارى على الضفه الشرقيه للقناه بعمق وصل الى ٢-٤ كيلو متر(١) . وكان لهذه الأنباء التى سارعنا باذاعتها على جميع قواتنا ووحداتنا فى جميع أرجاء مسرحى الحرب ، أثرها فى رفع معنويات القوات ، وشد عزائمهم الى مزيد من الانتصارات .. ففى أقل من ست ساعات اقتحمت الاراده المصريه أحد المستحيلين ، وأطاحت بالمستحيل الثانى ، وتحطمت أسطورة قوة اسرائيل التى لا تقهر .

ومع الساعات الأولى لصباح يوم ٧ اكتوبر ، بدأ نزيف دم الاقتصاد الاسرائيلى يخضب صفحه المياه من باب المندب فى أقصى جنوب البحر الأحمر الى قبرص شمال مسرح البحر المتوسط وغربا حتى جزيره صقليه ... ولكن هذه احداث لا يجوز سرد وقائعها طبقا للتسلسل الزمنى لسائر أحداث العمليات البحريه لأنها ذات طابع خاص متكامل سوف نتعرض لها بالتفصيل فيما بعد .

---

(١) من بلاغ مرسل من مركز قياده القوات المسلحه الرئيسى الى مركز قيادة القوات البحريه بالاسكندريه ، وان الفرق حققت مهامها المباشره ... والذى أعقبه ـ فى الساعه ٠٢٤٠ يوم ٧ اكتوبر ـ بتحذير عن احتمال ان يوجه العدو ضربه جويه انتقاميه عنيفه ضد وسائل الدفاع الجوى ، والمعابر ، وفى العمق ، وذلك اعتبارا من اول ضوء يوم ٧ اكتوبر .

معركة زوارق الصواريخ

٨ - ٩ اكتوبر ١٩٧٣

أهداف ثابتة غير مميزة
أهداف رادارية
بلطيم
البرلس
دمياط
بورسعيد
رمانة
خليج أبو قير
الإسكندرية

استهلت الغواصات النشاط البحرى فى الفتره التاليه - فجر يوم ٧ حتى غروب يوم ٨ اكتوبر - عند ما أصابت طوربيدات احدى غواصاتنا واحده من بواخر اسرائيل التجاريه ، فى الساعه ١١١٥ يوم ٧ اكتوبر ، بالبحر الأحمر فى المنطقة شمالى بورسودان . ولم يكد يخيم ظلام ذلك اليوم الاوكانت الانفجارات تمزق - مرة أخرى - نقط العدو القويه شرقى بورفؤاد اثر قصفها بأربعين صاروخا أطلقها زورق مدفعيه صاروخى وعاد بعدها سالما الى مرساه فى بورسعيد .

ومرت ساعات هدوء نسبى ، الى أن كان بعد منتصف الليل بقليل عند ما بدأت مصادر المعلومات تبلغ عن رصد نشاط بحرى معادى تجاه الساحل الشمالى لسيناء ، يتمثل فى خمسة أهداف صغيره (محتمل زوارق سعر الاسرائيليه) على مسافة نحو ٦٠ ميلا شمال شرقى بورسعيد . وبموالاة رصد وتتبع حركة العدو تكشف أنه عبارة عن أربعة زوارق " سعر " وسفينتى انزال جند تقتربان - بسرعه متوسطه - من منطقة رمانه / النقطه القويه شرقى بورفؤاد ، لأجل ابرار تعزيزات لقواته المحاصره بالمنطقه . وبحذر شديد ، أبحر زورقا صواريخ من قاعدة بورسعيد ، للتصدى لقوة العدو ، التى كانت تتقدم فى مجموعتين بفاصل حوالى عشرة أميال بينهما ، ولكن مسارعة مقدمه قوة العدو بتغيير اتجاهها ، والانطلاق بأقصى سرعة لجهة الشرق ، كشف عن نواياها لاغراء زورقينا على مطاردته ، وايقاعهما فى مرمى صواريخ المجموعتين ، بعيدا عن نطاقات دفاعات بورسعيد الجويه . الا أن الحيله لم تخف على قائد زورقنا المتقدم ، فعاجل أحد زورقى مقدمه العدو بقصفه صاروخية قضت عليه فى الوقت الذى اصدرت اليه قاعدة بورسعيد الأمر بعودة الزورقين الى الميناء نظرا لاكتشاف نشاط جوى معاد فوق مياه المنطقه . وفعلا عند أول ضوء واثناء اقتراب زورق المقدمه من مدخل ميناء بورسعيد ، شاهد طاقم الزورق احدى قاذفات العدو المقاتله تقطع خط سيره من الخلف على ارتفاع منخفض على حين القت طائرة اخرى مشاعل مضيئة على اتجاه اقتراب الزورق من الممر الملاحى للميناء ، الا ان العدو الاسرائيلى فشل فى مهاجمة الزورقين ، أو غيرها من الوحدات التى كانت راسيه على اجناب الممر الملاحى تقوم بواجبات الاستطلاع الرادارى . وقد

استغرقت العمليه نحو خمس ساعات نجح خلالها زورقا صواريخ مصرية فى التصدى لأربعة زوارق صواريخ اسرائيليه ،واغرقت احداها ،واحبطت محاولة العدو تعزيز قواته المحاصره شرقى بورفؤاد .

وفى الوقت الذى كانت تقترب فيه زوارقنا من مشارف بورسعيد ،كانت جماعات من الضفادع البشريه المصريه تتسلل عبر خليج السويس الى الضفه الشرقيه حيث قامت - فى الساعه ٤٣٠٠ يوم ٨ اكتوبر - باغارة ناجحه على " مرسى بلاعيم " ، وفجرت حفار البترول ،ثم عادت سالمة الى مرابضها . والجدير بالذكر ،ان احد هذه الجماعات لم تتمكن من اللحاق بسائر الجماعات فى نقطه اللقاء فى الموعد المقرر للارتداد ،فقام افرادها بعبور مياه خليج السويس - سباحه - من شرقيه الى غربيه حيث مرابضها . وهذا العمل الذى أقدمت عليه هذه الجماعه بشجاعه بعد عناء المهمه ومخاطرها ،وماقد تتعرض له - فى الماء - من خطر اكتشاف العدو لها ، أو هجوم اسماك القرش المفترسه ... لهو خير دليل على جدوى التدريب ،فى وقت السلم ،تحت ظروف أقرب ماتكون لظروف القتال الفعلى ،وتعكس أيضا كفاءة الأداء أثناء الحرب التى يكتسبها الأفراد من التدريب الشاق فى وقت السلم .

لم يقتصر نشاطنا على العمليات القتاليه الهجوميه فحسب ،وانما شمل أيضا اعمال الدفاع عن القواعد ،والمراسى البحريه ،والأهداف الساحليه الحيويه المنتشره على شواطىء الجمهوريه . وتختلف وسائل واجراءات الدفاع باختلاف موقع كل منها ،وطبيعه عملها : فهناك القواعد الرئيسيه مثل الاسكندرية ،وبورسعيد والسويس ،وهناك القواعد المتقدمه مثل الغردقه وسفاجه ،وهناك القواعد الثانويه مثل مطروح ،والسلوم ... كما توجد أيضا المراسى المفتوحه والمراسى المؤمنه ، وماتسمى بنقط ارتكاز ،أو انطلاق . اما الأهداف الساحليه الحيويه فقد تكون مواقع مدفعيه ،أو صواريخ ،أو محطات رادار وانذار ،أو صهاريج بترول ،وماشابه ذلك .

ولم تكن تدابير الدفاع عن مثل هذه الأغراض، وحمايتها ،لتتوقف ليلا ،أو نهارا أو تحت أى ظرف من ظروف الطقس، على عكس العمليات القتاليه الهجوميه التى يمكن - لحد ما - التحكم فى توقيتاتها خصوصا اذا كانت المبادأة بأدينا .وتعتبر

القواعد البحريه الرئيسيه اكثر الأهداف اغراء لهجوم العدو : القصف البحرى ، القصف الجوى ، أعمال الكوماندوز التخريبيه ، الابرار البحرى ، أو الاسقاط الجوى على أجنابها ، أو تلغيم مداخل الموانىء ، وطرق الاقتراب منها . لذلك تحظى دفاعات القواعد البحريه بصفه عامه ، والقواعد الرئيسية بصفه خاصه ، بعنايـــه فائقة ولا سيما فيما يتعلق بوسائل المراقبه ، والانذار ، والتدابير الوقائيه ضد كل أشكال الهجوم .

وحتى غروب يوم ٨ اكتوبر لم تتعرض أى من قواعدنا ، أو مراسينا البحريه فى أى من المسرحين لهجوم جدى من جانب العدو الاسرائيلى ، الا أنه ـ اعتبارا من مساء ذلك اليوم وبعد ان بدأ يفيق من آثار الصدمه الاولى ـ شرع فى توجيه جانب من مجهوده البحرى المدعم جوا ، لمهاجمة المراسى البحريه المصريـــه ، أو الاغاره عليها بعناصر من الكوماندوز ، فضلا عن محاولة اختراق نطاقات الدفاع التعبوى لقواعدنا كوسيله لجس النبض ، والتعرف على النظام الوقائى ، والدفاعى لهذه النطاقات ومدى كفاءة ادائه .

ففى حوالى الساعه ١٩٠٠ يوم ٨ اكتوبر جاءتنا معلومات مفادها أنـــه من المحتمل أن يقوم العدو الاسرائيلى بعملية إبرار فى المنطقة بورسعيد / دمياط ، وعلى الفور أبحر أحد تشكيلات زوارق الصواريخ الضاربه من قاعدته بالاسكندريه للقيام بداورية استطلاع قتالى بغرض تأمين النطاق التعبوى للمسرح ، وتدميـــر وحدات العدو البحريه ، وتجمعاته البرمائيه ، بحيث لا يتجاوز تقدم تشكيلنـــــا الضارب خط الطول ٥ر٣١° شرقا (الخط المار غربى مدينه دمياط) حتى لا تتداخل عملياته مع عمليات تشكيلات ، ودفاعات قاعدة بورسعيد البحريه . وترجع أهميـــه الحفاظ على " بورسعيد " ، لمكانتها الخاصه كقاعده بحريه على خط المواجهـــه المباشر مع اسرائيل ، والحرص الشديد على القضاء على اى محاولة ابرار تهـــدد أوضاع القوات . وبناء على معلومات الاستطلاع الرادارى تأكد وجود نشاط بحرى ، وجوى كبير بمنطقة بورسعيد / دمياط ، وتحركات لوحدات بحريه أخرى تجاه مدينة " البرلس " ، والتى قد يستخدمها العدو كمينا لتشكيلنا الضارب على طريق تقدمه

الى " دمياط " . وعند منتصف الليل التقطت رادارات زوارق الصواريخ المصريه هذه الوحدات، والتى تبين أنها ٩ زوارق صواريخ مقسمه الى ثلاثة مجاميع، كل منها من ثلاث وحدات، فاتخذ تشكيلنا الضارب أوضاع الهجوم . وفي الدقيقة ٢٤ بعد منتصف ليله ٨ / ٩ اكتوبر انطلقت صواريخ الزوارق المصريه، لتصيب خمسا من زوارق العدو، ودارت الباقيه على اعقابها نحو الشرق مطلقه لسرعاتها العنان . ولم تكد تختف هذه الوحدات من على شاشات الرادار، ويبدأ تشكيلنا الضارب فى العودة الى الاسكندريه حتى انقضت عليه طائرات العدو الهليكوبتر " هل " - الى كانت تحوم فوق ساحل منطقة دمياط / البرلس - واخذت تقصف زوارق التشكيل بالصواريخ الموجهه . ورغم المناورات البارعه لتفادى هجوم طائرات العدو الا أن تفوقه الجوى ، وضعف دفاعنا المضاد للطائرات أدى الى اصابه بعض زوارقنا ، فانخفضت سرعة سير التشكيل ككل ، مما اتاح للعدو وقتا كافيا لجمع شتات ماتبقى من قوته ، ومعاودة الهجوم - بحرا وجوا - بالصواريخ فأقعد ثلاثة من زوارقنا عن العمل ، ثم قضى عليها ، وعلى عدد كبير من أفراد طاقمها - فى المياه - بمدافعه من عيار ٧٦مم ، و ٤٠مم . هذا وقد أسفرت هذه المعركه - التى استغرقت نحو تسعين دقيقه - عن اغراق خمسة زوارق اسرائيليه مقابل ثلاثة من زوارقنا .

واذا كنا قد أسهبنا بعض الشىء فى وصف هذه المعركه ، فهذا يرجع الى انها أول معركه تصادميه بالصواريخ فى تاريخ الحروب البحريه . فاذا كان اغراق المدمره الاسرائيليه " ايلات " بالصواريخ البحريه المصريه (٢١ اكتوبر سنة ١٩٦٧) يعتبر أول استخدام للصواريخ الموجهه فى تاريخ الحروب البحريه فان " معركة البرلس " هذه تعتبر أول معركه - فى تاريخ الحروب البحريه - يحدث فيها " اشتباك " بالصواريخ الموجهه بين قوتين بحريتين متضادتين . ومن ناحيه أخرى ، فهذه المعركه تعكس ، وتؤكد مدى ارتباط نجاح العمليات البحريه بعنصر الجو ، ومدى كفاءة أسلوب اسرائيل فى استخدام زوارق الصواريخ سطح / سطح مع طائرات " الهل " حاملة الصواريخ جو/ سطح كقوة ضاربه ، لحرمان زوارقنا من

ميزة تفوق مدى صواريخها على الصواريخ " جبرييل " الاسرائيليه ،اعتمادا منهم على افتقار تشكيلاتنا لعنصر جو عضوى مما يتيح الفرصه لطائراتها " الهل " بتوجيه ضربات جويه أوليه بغرض اصابة مايمكن اصابته من زوارقنا ،أو شغلها أو تعطيلها حتى تتمكن الزوارق الاسرائيليه من الاقتراب الى المدى المؤثر لاطلاق صواريخها الموجهه ،وهى بذلك الأسلوب تكسب ميزتين : حرية العمل فى أى وقت من أوقات الليل أو النهار ،وانتاج كميه اكبر من النيران .

وفى نفس هذه الليله ،وحتى مطلع فجر اليوم التالى ٩ اكتوبر ،نشطت اغارات البحريه ،بالنيران على جانبى خليج السويس : فقد قامت اسراب زوارق الصواريخ ـ الموجهه وغير الموجهه ـ بطلعتى قصف فى منطقة " راس محمد " فى أقصى الطرف الجنوبى لسيناء ، لتدمير نقط المراقبه الفنيه المعاديه ،وعادت جميع وحداتنا سالمه الى قواعدها . وفى محاوله للعدو للاقتراب بحرا من مواقعنا للاغاره على " مرسى السادات " نشبت معركه بين زوارقه الثلاث ،وأحد زوارقنا المزوده بالصواريخ غير الموجهه انتهت باحباط المحاوله بعد اغراق احد الزوارق الاسرائيليه ،واصابه آخر مقابل غرق زورقنا الذى تصدى للهجوم ،وعقب انتهاء هذه المعركه بحوالى سبعين دقيقه ،قدمت احدى سرايا مدفعيتنا الساحليه معاونة بالنيران لقصف تجمعات العدو البرى بمنطقه " رأس مسله " على الجانب الشرقى لخليج السويس تجاه ميناء الادبيه .

ولعلنا نكون قد لاحظنا ان العمليات فى القطاع الشمالى لمسرح البحر الأحمر (خليجى السويس ،والعقبه والمياه المتاخمه) اتخذت ـ حتى الآن ـ طابع الاغارات الخاطفه المحدوده من الجانبين ،الا أن قدره العدو على اعادة تجميع جانب من مجهوده الجوى أدى الى اتساع نطاق ،وحجم هذه الاغارات فى الفترة التاليه ،أعنى ،من مساء يوم ٩ حتى فجر يوم ١٤ اكتوبر .

افتتحت قوات الصاعقه البحريه تلك الفتره فى الساعه ٢٢٢٥ يوم ٩ اكتوبر باغاره جريئه على منطقة ابو دربه شمالى " مرسى ابورديس " التى يحتلها العدو

نجحت خلالها فى تلغيم الطرق ،ونسف خزانات البترول ثم عادت - بعد نصف ساعه من منتصف تلك الليله - الي قواعدها سالمه . وقد رد الاسرائيليون على هذه الغاره بمحاولة التسلل بزوارق خفيفه الى الغردقه لانزال بعض أفراد من الضفادع البشريه بالميناء ،الا أن زوارق الطوربيد ،والمدفعيه البريه تعاونتا على احباط المحاوله ،فانسحب العدو على عجل تاركا خلفه احدى عواماته بحمولتها كامله من ألغام ومعدات الضفادع البشريه . ولم يتوقف سيل الاغارات المتبادله على ضفتى خليج السويس ،ولعل أعنفها الاغارتان اللتان شنتهما قوات الكوماندوز الاسرائيليه ليلة ١١ اكتوبر،وفجر اليوم التالى . ففى الأولى تقدمت مجموعة من قوارب العدو محمله بقوات الكوماندوز - يقطرها احد الزوارق المسلحة - نحو منطقة ميناء " الأدبيه " تدعمها طائرات " الهل " ، الا أن القصف المدفعى الشديد الذى صبته مدفعيتنا الساحلية على المجموعه الاسرائيليه أصاب بعض زوارقها المسلحه ، وقواربها باصابات مباشره ، وراح ضحيته عدد كبير من الأرواح مما اضطرها للانسحاب قبل أن تصل الى أهدافها . أما الغاره الثانيه فوقعت فجر يوم ١٢ اكتوبر عندما تسلل بعض أفراد الضفادع البشريه الاسرائيليه الى مرسى قاعدة الغردقه وتمكنت من لصق عبوات ناسفه بقاع أحد زوارق الصواريخ غير الموجهة ، فى الوقت الذى كانت فيه قوة نقط المراقبه الخارجية مشتبكه مع قارب مطاط يحمل سائر أفراد العدو ،ونجحت فى اغراقه . وقد أسفرت هذه العمليه عن اصابة زورقنا بثغرة كبيرة فى القاع،أمكن ترميمها بعد سحب الزورق الى الشاطئ .

هذا وقد ردت قواتنا على الغارة الأولى باطلاق قصفه بالصواريخ غير الموجهه - فى أول ضوء يوم ١٢ اكتوبر- الى منطقه " رأس سدر " التى انسحبت اليها قوات الكوماندوز الاسرائيليه . وفى خلال الثمانى والأربعين ساعه التالية نشطت عناصر من قوات الصاعقة البحريه ، الضفادع البشريه فى استطلاع بعض مواقع العدو على الساحل الغربى لسيناء المطل على خليج السويس ،بجمع معلومات عن أوضاع القوات الاسرائيليه فى القطاع الجنوبى .

أما في مسرح البحر المتوسط فقد عاودت مدفعيتنا الساحليه ـ المتمركـزه في بورسعيد ـ قصف نقط العدو القويه شرقي بورفؤاد بالصواريخ ،لحرمانه مـن تعزيز قوات هذه النقط ،وفك الحصار عنها .

ومن ناحية أخرى ،فقد لاحظنا ـ في هذه الفترة ـ طفره كبيره في قـدرات العدو الجوى فوق مسارح العمليات البريه ،والبحريه على السواء مع ازديـاد ملموس في كثافه التداخل الالكتروني ،والاعاقة الراداريه . وقد دلت الشواهـد على ان الدعم العسكرى الامريكي كان وراء هذا التحول المفاجئ .

وفي يوم ١٣ قامت طائره استطلاع امريكى باستطلاع منطقه الجبهة والعمق الاستراتيجي للجمهوريه على ارتفاع شاهق . ولم يكد يمضي يومان الا وكانـت وزارة الخارجيه الامريكيه تؤكد ـ في بيان أعلنته يوم ١٥ اكتوبر ـ ان الولايات المتحدة الأمريكيه بدأت خلال اليومين الماضيين (١٣ ، ١٤ اكتوبر) في امداد اسرائيـل بالعتاد الحربي الثقيل . ومن الطبيعي أن تكون طلعه الاستطلاع الجـوى الامريكيه قد أدت الى كشف مواقع دفاعاتنا الجويه ،وأوضاع القوات ،وأبلغـت الاسرائيليين بما كان يعوزها من معلومات .

__تقييم المرحله (٦ - ١٣ اكتوبر ٧٣)__

كما يدل الاسم الذى أطلقناه على هذه المرحله ،كانت العمليات الحربيـة ـ بصفه عامه ـ تستهدف اقتحام قناة السويس ،واحتلال خط بارليف ،والاستيلاء على رؤوس الكباري ثم تعزيزها ،لذلك تركزت جهود كل أفرع ،وأجهزة القـوات المسلحه ،لتحقيق هذه الغايه مهما كان الثمن ... ونجحنا في تحطيم ماسمـاه الاسرائيليين " المستحيلات " .

ولعل أبرز معالم هذه المرحله - من وجهة نظرنا - هو أنها بدأت ، وزمام " المفاجأة " بيدنا ، وأن العمليات الهجوميه كانت الطابع العام لأعمال قواتنا في جميع المسارح ، هذا فضلا عن " التعاون " الوثيق الذى تميزت به عمليات القوات المسلحه على المستويين الاستراتيجى ، والتعبوى على الجبهتين السوريه والمصريه ، وان هذا التعاون وصل الى ترابط جبهة القتال ، والجبهه الداخلية في مصر ، والتى ساعد صدق بياناتنا العسكريه على تعزيز هذا الترابط ، وتماسك الجبهتين .

وبغض النظر عن نتيجه حساب الخسائر ، والأرباح التاكتيكيه - والتى سنوجزها فيما بعد - فان مايعنينا فى تقييمنا لهذه المرحله هو الدور الذى لعبته القوات البحريه على المستوى الاستراتيجى ، وما أحرزته العمليات البحريه من انجازات على المستوى التعبوى .

فعلى المستوى الاستراتيجى : توقفت شحنات البترول الايرانى وبترول حقول سيناء المحتله الى ميناء " ايلات " ، واحتجزت السفن التجاريه بهذا الميناء ، وتحولت حركة تجارة اسرائيل عن طريق البحر الأحمر الى الطريق الأطول حول رأس الرجاء الصالح الى الموانى الاسرائيليه المطله على البحر المتوسط مما أدى الى زيادة الضغط على امكانات هذه الموانى ، وبالتالى تعطيل أعمال الشحن ، والتفريغ . هذا وقد ترتب على وجود غواصاتنا بمناطق عملياتها على خطوط مواصلات اسرائيل عبر البحر المتوسط أن تحولت حركة الملاحه بين الموانى الاسرائيلية ، والعالم الخارجى الى أقصى الشمال عبر المياه شمالى جزيره "قبرص" ، أو توجيه السفن القاصده موانى اسرائيل الى موانى اخرى انتظارا لتعليمات أخرى ، الأمر الذى أدى الى حرمان اسرائيل من كميات كبيرة من وارداتها وأوشكت صادراتها من موانيها المطله على البحر المتوسط على التوقف فى الوقت الذى كانت فيه حركة صادراتها من ميناء " ايلات " قد توقفت تماما . وسوف نعود الى هذا الأمر - تجاره اسرائيل المنقوله بحرا - بالتفصيل فى مكانه المناسب من هذا الكتاب عند تناول موضوع " الحصار " .

أما على المستوى التعبوى ،فان العمليات البحريه ،أحبطت كل محـــاولات العدو لابرار قواته على الساحل ،غربى بورسعيد ،وشرقيها لدعم قواتـــه بالمنطقه وأسهمت بقسط كبير فى تأمين النطاق التعبوى لمسرح عمليات قواتنـا على جبهه سيناء ضد تدخل العدو البحرى وشاركت بفعاليه فى تكثيف الانـذار الجوى ،والدفاع المضاد للطائرات فى جميع النطاقات التى كانت بها نقط تمركـز لوحداتنا البحريه . ومن ناحيه أخرى أسهم القصف البحرى المتكرر الذى قامـت به زوارق الصواريخ ،والمدفعيه الساحليه – بدقه متناهيه – على تحصينات العدو ونقطه القويه شرقى بورفؤاد ،وابرار سرايا من قوات الصاعقه خلف هذه النقـط، أسهم فى تشديد الحصار على قوات اسرائيل بهذه النقط،وشل حركتهـــا وحرمانها من تلقى اى تعزيزات لفك حصارها .

ولعلنا نكون قد لاحظنا ان المجهود البحرى الرئيسى كان مركزا – اثنـاء هذه المرحله – فى الاتجاه الاستراتيجى ،والتعبوى العام ،أعنى انجاح ومعاونـة الأعمال القتاليه للجيوش الميدانيه على أساس أنها – أى الجيوش – هى القـــوة الأساسيه القادره على تحرير الأرض ،وتحقيق النصر ، وهو مبـــدأ اعتنقـــه العقيده الاستراتيجيه المصريه منذ أقدم العصور .

وايمانا بهذا المبدأ ،وتمسكا بتحقيق هدف هذه المرحله ،تكبدت القـوات البحريه خسائر نعتبرها نسبيا عالية اذا ماقورنت بالفترة الزمنيه القصيرة الـــتى استغرقتها المرحله ،والتى لم تتجاوز سبعة أيام . ولكن اذا قورن حجم الخسائر بحجم ،وأبعاد المنجزات على الصعيدين الاقليمى ،والعالمى لوجدنا أن كفـــة المكاسب أرجح بكثير من كفة الخسائر .

ومع أن هذه المرحله من الحرب لم تتجاوز سبعة أيام فقط،إلا أنها – مـن وجهة نظر اسرائيل – تعتبر فتره طويله لاسيما أن قواتها أمضتها ،وهى تحـت ضغط هجوم القوات العربيه المتواصل ،وتحت ضغط الحصار الاقتصادى ،الأمـــر الذى كان له ردود فعل متباينه على الصعيدين الاقليمى ، والعالمى .

فعلى الصعيد الاقليمى ، دعت دولة الكويت — فى التاسع من اكتوبر — لعقد اجتماع طارئ لجميع الأقطار العربيه المنتجه للبترول ، لبحث دور البترول العربى فى المعركه الناشبه ، كما أصدر البرلمان الكويتى — فى ١١ اكتوبر — بيانا يدعو الى سحب المدخرات الكويتيه من بنوك الولايات المتحده الأمريكيه ، واعادة النظر فى صادرات البترول اليها ... وفى السابع من نفس الشهر أصدر مجلس قيادة الثورة العراقى قرارا بتأميم حصة شركتى " اكسون " و " موبيل أويل " من عمليات " شركة بترول البصره " ، وهما التحركان اللذان على اثرهما — فى ١٧ اكتوبر — دخل البترول العربى سلاحا فى المعركه . وفى أفريقيا قطعت أربع دول افريقيه (داهومى ، رواندا ، فولتا العليا ، الكاميرون) علاقاتها الدبلوماسيه مع اسرائيل خلال هذه المرحله ... وأعلن الرئيس الأوغندى " عيدى امين " ان ثلاثة ملايين أوغندى تطوعوا للاشتراك مع القوات العربيه فى المعارك ضد اسرائيل . (١)

الا أن الأحداث فى أوروبا والأمريكتين كانت اكثر اثاره ، وأشد عنفا . فقد أعلنت الحكومة الأسبانيه — فى الثامن من اكتوبر — أنها لن تسمح للقوات الامريكية باستخدام قواعدها فى حالة تدخلها فى القتال بالشرق الأوسط ... وبدأت سائر الدول الاوروبيه أعضاء حلف شمال الأطلنطى تظهر امتعاضها للولايات الأمريكيه من استخدام قواعد بلادها فى نقل شحنات العتاد الحربى لاسرائيل ، ثم تحول امتعاضها — فيما عدا هولندا ، والبرتغال — الى رفض سافر لهذا الوضع ، بل وحتى مجرد تقديم تسهيلات للطائرات الامريكيه التى حملت شحنات العتاد من الولايات المتحده الى اسرائيل ، أو مرور هذه الطائرات وهبوطها بأراضيها ،

---

(١) هذا فضلا عن تسع دول أفريقيه أخرى كانت قد قطعت علاقاتها الدبلوماسيه حتى يوم ٤ اكتوبر ١٩٧٣ ... ثم ارتفع هذا العدد الى ٢٩ دوله اثناء ، وبعد الحرب . (عن مجلة " السياسه الدوليه " بعددها الصادر فى يناير ١٩٧٤ : ص ١٥٠ ، ص ٢٣٨) .

مما اضطر الامريكيون الى الاعتماد على حاملات الطائرات فى القيام بهـــذه المهمه. (١) وقد ترتب على ذلك نشوب خلافات حادة بين اعضاء الحلف مــن جانب ،والولايات المتحده الأمريكيه من جانب آخر .

أما أروع المكاسب على الاطلاق التى فجرتها هذه الايام السبع فكانـــت " المقاتل المصرى " ذلك العملاق الذى طال احتجابه ،بقلب عامر بالايمـان ، وعزم صادق راسخ وروح مطمئن ،وبثقه بالنفس،والسلاح ،أزاح " المقاتل المصرى" من طريقه كل ماصنعته الطبيعه ،وصنعه الانسان من صنوف الهول ،وشـــوامخ العقبات،وأطاح بالاساطير،وهزم الهزيمه ،وأتى للأمه العربيه بأحلى انتصارات ... واندفع كالاعصار يكمل الرساله بنفس الايمان ،والعزم ،والثقه ،والاطمئنان .

المرحلة الثانيه للحرب، ١٤-١٦ اكتوبر ١٩٧٣

استهدفت هذه المرحله - فى بدايتها - تخفيف ضغط قوات العدو البريـه والجويه على الجبهه السوريه ،وذلك بتطوير الهجوم على الجبهه المصريه شرقـــا نحو مضايق سيناء الغربيه ،واجبار العدو على زيادة تركيز مجهوده الرئيســى علـى الجبهه المصريه .

وقد لاحظنا - فى مركز قيادة القوات البحريه بالاسكندريه - انه منذ بدايـة المرحله الأولى والعدو البحرى يوجه هجمات مركزه ،ومتتاليه الى قوات سوريـــا البحريه بقصد سرعة التخلص منها . ولعل ذلك مرجعه سببان ،أولا : ان التفوق البحرى الجوى الاسرائيلى فى الشمال يساعد على مبادأة البحريه السوريـــه بالهجوم ،والقضاء على تهديدها ،ثم التحول للقوه البحريه المصريه ،وثانيا : أن تماسك القوه البحريه السوريه يشكل خطرا على الخط الملاحى الجديد الـــذى

(١) نفس المصدر السابق ص ١٦٠، ١٦١ .

أجبرت على اتخاذه حركة تجارة اسرائيل عبر البحر المتوسط وهو الخط المار بشمال جزيره قبرص ، وينحدر جنوبا الى الموانى الاسرائيليه بمحاذاة الساحل السورى ، وعلى مسافة قريبه منه لاتتجاوز ٥٠ ميلا . فقد نشبت معارك بحريه ضاريه بمنطقه " اللاذقيه " ، ومنطقة " بنياس / طرطوس " بين تشكيلات العدو التى تضم زوارق الصواريخ من طرازى " سعر " و " ريشيف " المدعمه بطائرات " هل " ، وزوارق الصواريخ والمدفعيه الساحليه السوريه ، أسفرت عن خسائر كبيره فى الجانبين . ونعتبر الغارة التى شنها الاسرائيليون على سوريا فى الساعات الأولى من يوم ١١ اكتوبر ، هى أعنف هجوم بحرى جوى قامت به اسرائيل على الجبهه السوريه . ففى الساعه ١٣٠٠ بدأت قوة بحريه كبيره تضم زوارق الصواريخ ، ووزوارق المدفعيه فى قصف الأهداف الحيويه على الساحل السورى بين " اللاذقيه " و " طرطوس " فتصدت لها المدفعيه الساحليه وزوارق الصواريخ ، واستمر تبادل النيران ، والقصف لمدة ساعتين . وازداد ضغط العدو الاسرائيلى على الجبهة السوريه ، مما دعا القوات المصريه لتطوير هجومها شرقا فى سيناء لتخفيف الوطأة عن الجبهه السوريه .

نجحت الخطه المصريه فى تحقيق أهدافها ، فما كاد يوم ١٤ اكتوبر يشرف على نهايته الا كان العدو الاسرائيلى قد أعاد تركيزه على الجبهه المصريـة ، وتوقعت القياده العامه للقوات المسلحه المصريه أن يبدأ الاسرائيليون فى شن هجمات ، وضربات مضاده عنيفه خلال اليوم التالى - ١٥ اكتوبر - بغرض تدمير رؤوس الكبارى على طول المواجهه .

العمليات البحريــه

استهلت قوات قاعدة بورسعيد البحريه عمليات هذه المرحله بتوجيه قصفه بالصواريخ ضد تحصينات العدو شرقى بورفؤاد فى الساعه ١٥٣٠ يوم ١٤ اكتوبر أعقبتها - فى العاشره مساء - بقصفه ثانيه لمنع الاسرائيليين من تعزيز مواقعهم فى تلك المنطقه . ودون استباق للحوادث ، نود أن نشير هنا الى أن نشاط قوات

منطقة بورسعيد سواء بالمدفعيه الساحليه ،أو زوارق الصواريخ ،أو بالابـــرارات المتكرره ضد مواقع العدو وعلى الشريط الساحلى شمال سيناء ،بالاضافه لكفاءة أداء عناصر الاستطلاع الالكترونى ،دفعت العدو الى شن هجمات جويه متعاقبـــة ، وبعنف شديد على منطقة بورسعيد / دمياط فى الأيام القليلة التاليه مركزا هجومه على القاعدة البحريه ،ووحداتنا المتمركزه بها . الا أن هذا لم يحل دون قيـام هذه الوحدات ،فى أول ضوء يوم ١٥ ، بابرار سرية من قوات الصاعقـة التابعـة لقطاع بورسعيد على الساحل الشمالى لسيناء خلف تحصينات العدو ،وأن توجـه زوارق المدفعيه - فى مساء نفس اليوم - قصفه مركزه بالصواريخ عيار ١٢٢مم علـى الحشود الاسرائيليه بمنطقه " رمانه / بالوظه "،وقد تمت هذه العمليات دون تدخل العدو البحرى فى أى منها .

وظلت الاغارات المتباد له هى سمة العمليات البحريه فى القطاع الشمالـى لمسرح البحر الاحمر خلال هذه المرحله ،فيما عدا العمليه التى قامت بها مجموعه من زوارقنا المتمركزة بمنطقه السويس . ففى الساعه الرابعه من صباح يوم ١٥ اكتوبر وجهت زوارقنا قصفه عنيفه بالصواريخ الى التجمعات الاسرائيليه بمنطقـة " رأس دهيسه " لمعاونة قوات الجيش الثالث الميدانى المتقدمه بحذاء الساحل الشرقى لخليج السويس . وبعد غروب نفس اليوم قام سرب من زوارق الصواريخ بقصف مواقع ومنشآت العدو " برأس محمد " فى أقصى جنوب شبه جزيره سيناء ، ورغم تدخـل العدو البحرى والجوى الا أن زوارقنا عادت سالمه الى قواعدها . ولم تكد هـذه العمليه تنتهى الا وكانت احدى فصائل الصاعقه البحريه تغير على منطقة " الشيخ بيتان " جنوبى " الطور " حيث قامت بتلغيم الطرق ،ووضع كمائن لتعطيل تحركـات العدو البحرى وتخريب جانب من منشآته الهامه . هذا وقد أحرز حقل الألغـام عند المدخل الجنوبى لخليج السويس ثانى نجاح له عندما اصطدمت به سفينتـان اسرائيليتان مساء يومى ١٤ و ١٦ اكتوبر وأصيبتا باصابات جسيمه ولم نعرف على وجه التأكيد ما انتهى اليه أمرهما .

هذا وقد اشتدت كثافة الاستطلاع الجوى الاسرائيلي يومى ٥ و١٦ اكتوبر، وامتد جنوبا الى القطاع الأوسط لمسرح البحر الاحمر حيث منطقة عمليـــات الغواصات ،وامتد غربا الى قطاع رشيد / أبو قير في مسرح البحر المتوسط حيث مناطق انتشار زوارق الصواريخ ،والتى تقع داخل النطاق التعبوى لقاعده اسكندريه، القاعدة الرئيسيه للقوات البحريه . ولما لم يكن هناك خطر يذكر يهدد القطاع الأوسط لمسرح البحر الاحمر ،فقد ركزنا اهتمامنا وجهودنا على رصد ،ومراقبة نشاط العدو البحرى ،والجوى تجاه شمال الدلتا . وقد أسفر تحليلنا للموقف عن توقع قيام العدو ـ فى الساعات القليله التاليه ـ بعمليات قصف بحرى وجوى لمراسى وحداتنا بخليج أبى قير وللمواقع العسكريه الساحليه ،قد يصاحبها أو يتلوها مباشرة ابرار عناصر من الكوماندوز لمحاولة تخريب نقط المراقبه الرادا ريه . وصحت توقعاتنا ، ففى الدقائق الأولى من بعد منتصف ليلة ٥ ، ١ اكتوبر التقطت رادارات أحد اسراب زوارق الصواريخ المكلفه بتأمين خليج أبى قير أربعة زوارق صواريخ اسرائيليه تقترب تجاه مدينه " رشيد " على الطرف الشرقى لفتحة الخليج . وبمجرد اتخاذ زوارقنا لأوضاع الهجوم ،سارعت زوارق العدو بالدوران متجهة شرقا الا أن صواريخنا عاجلتها قبل أن تخرج من مرماها ،فأغرقت زورقين ،وأصابت زورقا آخر لم يتمكن من الفرار مع الزورق الرابع،فقضت عليه طائراتنا فى الفجر. وكالعاده ،اشتركت طائره " هل " للعدو فى هذه المعركة المقتضبه ،وهاجمت زورق القياده بالصواريخ (١) فاصابته اصابه مباشرة لحظه اطلاقه صاروخه الأول ،ومع ذلك وبرغم الحريق الذى اندلع،وتسرب المياه الى غرفة الماكينات واصل قائد الزورق اطلاق باقى صواريخه اصرارا منه على تحقيق اغراق زوارق العدو . وبفضل هذا الاصرار ،والانضباط امكن السيطره على الحريق ،ونزح المياه ،ليعود الزورق مع سائر رفاقه ـ دون اى خسائر فى الارواح ـ الى قاعدته حيث بدئ فى اصلاحه ،واعادة صلاحيته للقتال .

---

(١) حدث عطل مفاجئ بماكينات هذا الزورق قبل دقائق من اكتشاف العدو البحرى ، وكان العطل اكبر من امكانيه اصلاحه بالبحر ،ومع ذلك أصر قائده على دخول المعركه رغم علمه بأن زورقه لم يعد به سوى ماكينتين فقط صالحتان للعمل ، ومايفرضه هذا من قيود على سرعة الزورق ،ومناورته .

واذا كانت الغارات،واللقاءات المقتضبه هى سمة العمليات البحريه فى هذه المرحله فان العمليات البريه فى سيناء اختلفت سماتها تماما . فبعد أن تلقى العدو الاسرائيلى مايفوق حاجته من العتاد الأمريكى ،شن - خلال يومى ١٥و١٦ اكتوبر - هجمات،وضربات قويه على رؤوس الكبارى أخذت فى الاشتداد بحلول ظلام يوم ١٥ مستخدما ٦ لواءات مدرعه ولوائين ميكانيكيين ولواء مشاه الى ان تمكن فى النهايه من التسلل ، بقوات صغيره عبر الطرف الشمالى للبحيرات المره الى الضفه الغربيه للقناه حيث بدأت - فى صباح يوم ١٦ - فى الاقتراب من مواقع الصواريخ المصريه المضاده للطائرات،وهاجمتها بالنيران من مسافات بعيده ... واحدثت القوات الاسرائيليه هذه ما اشتهرت عالميا باسم " الثغره "،أو " المعركةالتليفزيونيه" كما سماها الجنرال الفرنسى " بوفر " .

وقد أفاض الرئيس السادات،والقاده العسكريون والأجانب فى وصف " الثغرة" وشرح القصد منها ،وماحققته ،ومالم تحققه ،واطنبت الدعايه الاسرائيليه فى براعة العسكريه الاسرائيليه ،وتفوقها ،ولا أجد ما اضيفه لما قاله الخبراء العسكريون فى شأن " الثغره " الا أن أردد قول الكولونيلالأمريكى " ديبوى " فى الندوة الدولية لحرب اكتوبر ٧٣ : " لقد تحاشيت حتى الآن ذكر اسم آريل شارون الضابط الاسرائيلى الذى لحقت به أسوأ سمعه خلال الحرب" ... فقد كان آريل شارون هو مخطط ومنفذ عملية " الغزالة " التى قادت قواته الى " المعركة التليفزيونيه" .

وفى بداية المعركة التليفزيونيه" بدأت المرحلة الثالثه لحرب اكتوبر ٧٣ .

<u>المرحلة الثالثه للحرب ١٧، - ٢٧ اكتوبر ١٩٧٣</u>

مما لا شك فيه أن " الجيب الاسرائيلى " عند " الدفرسوار " ،ومحاولة العدو توسيعه ،أدى الى ادخال بعض التعديلات على أوضاع قواتنا غربى قناه السويس ، لا سيما قوات الدفاع الجوى ،ومواقع الصواريخ المضادة للطائرات التى كانت الهدف الرئيسى لعملية " الغزالة " ولم نر فى هذا الجيب،رغم نجاح العدو فى توسيعه ، مايهدد مباشرة أوضاع قواتنا البحريه ،أو عملياتها فى مسرحى البحر المتوسط ،

والبحر الأحمر اللهم الا توقع تزايد هجمات العدو الجوي على قاعدتى بورسعيد ، والسويس .

لم يكن ثغر السويس ـ فى الحقيقه ـ هو نقطة التمركز الرئيسى لقواتنا العامله بالقطاع الشمالى لمسرح البحر الأحمر ، وانما كانت " الأدبيه " هى قاعدة ارتكاز هذه القوات . والأدبيه التى تقع على حوالى ١٢ كيلو متر جنوبى مدينة السويس ، والتى آلت الينا هى ، و " الجزيره الخضراء " عقب جلاء القوات البريطانيه عن منطقة القناه ، عباره عن مرفأ مفتوح تحيط به رقعه كبيره من الأرض أقمنا عليها منشآت قاعدة إداريه وفنيه ، وبمضى الوقت ـ خصوصا بعد عدوان ٥٦ ـ دعمنا هذه القاعده بغرفة عمليات حديثه ، وببعض ورش الاصلاح ومستودعات الذخيره ، وبدفاعات محليه متحركه ساحليه ، ومضاده للطائرات . وكثيرا ماكان مرفأ " الأدبيه " يستخدم ـ فى وقت السلم ـ كميناء تجارى لتفريغ بعض شحنات المواد التموينيه ، فالأدبية تتصل بالسويس ، ومن شمالى القاهره ، بطريق برى معبد وتتصل جنوبا ـ بامتداد هذا الطريق وعلى مسافه ٢٦٠ كيلو متر تقريبا ـ بمدينه " الغردقه " حيث نقطة الارتكاز الثانيه لوحداتنا البحريه . والأدبيه يحدها غربا مساحه كبيره من الأرض الصحراوية تنتهى عند سفح جبل " عتاقه " الذى يرتفع قممه نحو ٥٤٠ مترا فوق سطح البحر . أما من الشرق فهى تطل على مياه أقصى شمال خليج السويس باتساع لا يزيد عن ثمانية أميال تقريبا تنتهى عند الساحل الغربى لسيناء المحتله حيث مراسى العدو البحرى فى " عيون موسى " و " راس مسالو " و " رأس دهيا " . ولم تكن الأدبية فى يوم من الأيام حصنا منيعا ، أو نقطه قويه ، فدفاعاتها تعتمد على وسائلها الذاتيه المحدوده ، وعلى بعض عناصر من قوات الجيش ، وحرس الحدود للحمايه الأرضيه . .. أما الدفاع المضاد للطائرات ، فانها تعتمد ـ أساسا ـ على الوقايه العامة التى تقدمها قوات الدفاع الجوى لأراضى الجمهوريه . ولطالما تعرضت منطقة الأدبية لغارات العدو البحرى ، والجوى ، منذ " هزيمة " يونيه ٦٧ ، وحتى " اكتوبر ٧٣ " كبدتها خسائر محسوسه فى الأرواح ، والمعدات ، والوحدات ، مما جعلنا نتوقع ـ بعد نجاح العدو فى توسيع جيب " الدفرسوار " ، وتدفق سيل الدعم العسكرى الامريكى عليه ـ تزايد عنف هجمات العدو الجوى على السويس والأدبيه .

ونود أن نشير هنا الى أن منطقة الأدبيه/ السويس - فى حرب اكتوبر٧٣ - كانت ضمن النطاق التعبوى للجيش الثالث الميدانى ، وبذلك تكون قوتنا البحريـة بالمنطقه مرتبطه بعمليات قوات الجيش الثالث الميدانى سواء أكانت فى سيناء ، أم فى الضفه الغربيه للقناه ، وتتعرض - بصفه عامه - لما يتعرض له الجيش الثالث مـن عمليات العدو الجوى ، والبحرى ، ولا سيما اذا انتقل القتال الى أراضى غربـى القناه ، فضلا عما تتعرض له المنطقه - أصلا - من هجمات العدو البحرى ، والاغارات الجويه الموجهه خصيصا ضد قوات الأدبيه البحريه .

ومع نجاح العدو فى توسيع " جيب الدفرسوار " ، وشروعه فى دفع قواتـه جنوبا فى اتجاه السويس ، تزايدت احتمالات تعرض الأدبيه لخطر ثالث يأتيهـا من الخلف من ناحيه البر بقوات لا قبل لها على التعامل معها .

ويمكن تقسيم هذه المرحله - من وجهة نظر العمليات البحريه - الى فترتين ، الأولى : من يوم ١٧ الى يوم ٢٢ اكتوبر ، وهو اليوم الذى صدر فيه قرار مجلـس الأمن بوقف اطلاق النار ، أما الفترة الثانيه فتبدأ فى نفس يوم قرار وقف اطلاق النار الى يوم ٢٧ اكتوبر ، وهو اليوم الذى وصلت فيه قوات الطوارئ الدوليه الى مدينـة السويس .

بورسعيد الباسله

أعادت قوات الجيش الثانى ، والجيش الثالث ، وقوات الدفاع الجوى تنظيـم أوضاعها غربى القناه ، وفشلت محاولات العدو المتكرره ، للتقدم شمالا نحو الاسماعيليه فأخذ يحاول التسلل - بعناصر صغيره - فى اتجاه الجنوب .

استهل العدو البحرى هذه الفتره بعمليه جريئة قامت بها عناصر مـن الضفادع البشريه الاسرائيليه داخل ميناء بورسعيد . ففى أول ضوء يوم١٧ اكتوبر اكتشفت قوات المراقبه البحريه وجود بعض الضفادع البشريه يسبحون تحت المـاء

على مقربه من أرصفة الميناء ،ومراسي وحداتنا البحريه ،فهاجمتها جماعات الأمن بقنابل الأعماق ،وقضت عليهم . هذا وقد أصيب لنا زورق صواريخ ،وزورق مدفعيه ، وناقله جنود نتيجه لانفجار العبوات الناسفه التي لصقتها الضفادع البشريه بقاع هذه الوحدات . وعلى امتداد صباح ذلك اليوم لم يكف العدو البحرى عن محاولات الاقتراب من بورفؤاد ،وبورسعيد ،الا أن اصطدامه بالالغام ،وبنيران المدفعيه الساحليه ردته على أعقابه . وبعد أقل من نصف ساعه من انسحاب العدو البحرى وبالتحديد الساعه ١٣٠٥ ،شن العدو الجوى هجمات كثيفه على مدينه بورسعيد ،والميناء مستهدفا وحداتنا البحريه ،ونقط المراقبه الالكترونيه ، ومواقع المدفعيه الساحليه .. فاستخدمت الوحدات البحريه بواعث الدخان ، لتغطيه مناورتها — المحدوده — داخل الميناء في الوقت الذى كانت تشارك سائر مصادر النيران في صد هذه الهجمات التي أصابت بعض المنشآت البحريه ،والمواقع العسكريه باصابات متفاوته أمكن ترميمها ،واعادة كفاءتها القتاليه في بضع ساعات، وكان واضحا لنا منذ البدايه ،أن هجوم الضفادع البشريه المعاديه كان يستهدف تدمير زوارق الصواريخ المصريه ،ولكن قضاء قواتنا عليهم حرمت القيادة الاسرائيليه من معرفة حقيقه هذه العمليه ،ومدى تحقيقها لهدفها .

لذلك لم يكف الاسرائيليون عن محاولة الاقتراب بحرا من بورسعيد اعتقادا منهم بأن المدينه تكاد تكون بلا دفاعات تردهم عنها ،ونسوا — مره أخرى — امكانات الانسان المصرى ، ومكانه بورسعيد في فؤاده . وامعانا في ايهامهم بصدق وهمهم ،تركنا المجموعه البحريه الضاربه الاسرائيليه المتقدمه نحو المدينه الباسلة — في ليله ١٨/١٧ اكتوبر — تقترب ،ولم نتعرض لها الا بقصفات ٤٠ مم متفرقة لطمأنتها ... وعلى حين غره فتحت المدفعيه الساحليه النيران عليها ،واغرقت وأصابت وحدتين من المجموعه ،وارتدت الوحدات السته الباقيه — بسرعه فائقه — تجاه الشرق ، على حين حاولت قاذفات العدو المقاتله ،التي كانت تحوم عن بعد ،مهاجمه مواقع مدفعيتنا الساحليه ولكن وسائل دفاعنا الجوى ردتها على أعقابها .

ليس ثمة شك أن هذه العمليه الأخيره لم تكن الا عملية استفزازيه ترمي الى استدراجنا للكشف عن حقيقه موقف زوارق الصواريخ المصريه التى كانت - أساسا - هدفا لهجوم الضفادع البشريه فجر يوم ١٧ اكتوبر . وقد أحجمنا عن استخدام زوارق الصواريخ هذه فى التصدى للمجموعه البحريه المقتربه من بورسعيد ، مدخرينها ، لمواجهة احتمال قيام الاسرائيليين بعمليه ابرار بحرى على مشارف " بورسعيد " ، وهو احتمال كان واردا فى ظروف الثغره ، وذلك فى محاولة لتمكين القوات الاسرائيليه المتعثره فى " الدفرسوار " من التقدم شمالا نحو الاسماعيليه وبورسعيد .

وعليه ، تحول العدو البحرى - مرة أخرى - من الهجوم الى أسلوب الاغاره ، فقام بقصفه عشوائيه على منطقة رأس البر/ بلطيم قبيل فجر يوم ٢٠ اكتوبر ، وعاد وكررها مساء نفس اليوم ، ولكن هذه المره استخدم قوة اكبر ، قوامها ثلاثة زوارق صواريخ تدعمها الطائرات " هل " وبات واضحا انه يستهدف تدمير نقطة المراقبه الالكترونيه بالمنطقه ، ولكن مدفعيتنا الساحليه ردته قبل أن يحقق هدفه . ولما تأكد عجز القوات الصغيره ، أو الاغارات الخاطفه عن الوصول الى غايتها ، جمع العدو البحرى نحو ٨ زوارق صواريخ ومدفعيه المدعمه - دائما - بطائرات الهل ، واقترب بها - فى الدقائق الأولى من ٢٢ اكتوبر - من ساحل بلطيم حيث قصف المنطقه بالصواريخ ، ثم واصل مسيرته نحو " رشيد " فى محاوله لقصف الرادار البحرى بمنطقه أبى قير فتصدت له المدفعيه الساحليه بالنيران ، والصواريخ فانسحب العدو شرقا بعد أن غرق له زورقان ، وأصيب زورق ثالث ، دون ان يحقق أى نتيجه من هذه الطلعه الكبيره .

أما فى القطاع الشمالى لمسرح البحر الأحمر ، فقد رصدت قوات المراقبة نشاطا بحريا للعدو فى مناطق متفرقه على امتداد الشاطىء الشرقى لخليج السويس منذ الساعات الأولى ليوم ١٧ اكتوبر ، ومع تشديد المراقبه والتأهب فاجأت احدى فصائل مدفعيتنا الخفيفه (٣٧مم) زوارق اسرائيليه عندما اقتربت من مواقع قواتنا بمرسى ثلمت ، وأغرقت احداها ، وارتدت الباقيه الى الضفه

الشرقيه . هذا وقد تعرضت قاعدة " الغردقه " الى هجمتين بعناصـــر مـن الكوماندوز الاسرائيليه ليلتى ١٨ و ١٩ اكتوبر، وتمكنت قواتنا من صدها ، ولكـن يبدو أن بعض افراد هذه العناصر نجحت فى الاختباء فى بعض الجزر الكثيـره التى تحيط بمرفأ الغردقه حيث اكتشفت ـ بعد غروب يوم ٢٠ ـ وهى تحـاول التسلل الى مراسينا البحريه ، ففتحت قواتنا " نيران حاصده " و " نيران تفتيشيه " على الجزر، للتأكد من تطهيرها من أى عناصر أخرى معاديه ... وفشـلت المحاوله . ولعل هذه المحاوله كانت ردا على الاغاره العنيفه التى قامت بهـا قوات الصاعقه البحريه على منطقة " الشيخ بيتان " بالضفه الشرقيه لخليج السويس، وتلغيم الطرق ، والعدائات بها فجر يوم ١٩ اكتوبر. وكانت منطقة رأس سـدر المحتلـه هدفـا لقصفتين مركزتين : الأولى ، قبيل فجر يوم استخدمنا فيها الصواريخ غير الموجهه من زوارق خاصه ضد تجمعات العدو ، والمنشآت البترولية بالمنطقه ، أما القصفه الثانيه فانطلقت فى الساعه ١٣٣٠ يوم ٢١ اكتوبر بناء على طلب قائد الجيش الثالث الميدانى ، وكانت هذه المره موجهه من مدفعيتنـا الساحليه ضد قول مدرع متحرك بحذاء الساحل من " رأس سدر " الى " راس مسله" فى الشمال وتم ايقاف القول بعد تدمير عدد من الدبابات ، والمركبات ، فارتـد جنوبا خارج مدى نيران مدفعياتنا . وللمرة الأولى ـ فى هذه الفترة ـ يتعـرض أحد مواقع مدفعيتنا الساحليه لهجوم العدو الجوى ، وذلك بعد ظهر يـوم ٢١ اكتوبر ، فأسقطنا له طائرة فانتوم ، وفرت سائر الطائرات نحو الشرق . وانتهت هذه الفترة بهجوم شنه العدو البحرى على " الغردقه " ـ للمرة الرابعه ـ بثلاثة زوارق مدفعيه مستهدفا وحداتنا البحريه الراسيه بالمرفأ التى فتحت نيرانهـا تعاونها المدفعيه الأرضيه على الزوارق الثلاث فانسحبت من المعركة بعـد اصابتها ببعض الاصابات المباشرة .

قرار مجلس الامن

فى الساعه ٦٤٥ مساء يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، اذاع الفريق أول (مشير) احمد اسماعيل وزير الحربيه ، والقائد العام للقوات المسلحه نداء الى جميع أفرع وتشكيلات القوات المسلحه جاء فيه :

" صدر أمر القائد الأعلى للقوات المسلحه بايقاف اطلاق النار اعتبارا من الساعه ١٨٥٢ اليوم ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ بتوقيت القاهره إذا التزم العدو بايقاف اطلاق النار فى هذا الموعد .. وفى نفس الوقت فانى آمر الجميع باتخاذ كافة اجراءات التأمين والحذر لقواتهم من العدو كما يجب أن تبدأ القوات فورا فى إعادة تنظيم وحداتها فى أماكنها ،وأن تكون مستعده لاستئناف القتال فورا ،وفى أى وقت إذا مابدأ العدو ذلك " .

وكان مجلس الأمن قد أصدر ـ فى يوم الاثنين ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ فى الساعة ٥٠ر٦ صباحا بتوقيت القاهره ـ قراره بوقف اطلاق النيران ،والانهاء الفورى لكل نشاط عسكرى (١) ،ووافقت مصر واسرائيل على قبول قرار المجلس .

ولكن القياده العامه للقوات المسلحه المصريه أخذت فى اعتبارها ـ كما يتضح من البيان الذى اذاعه المرحوم المشير احمد اسماعيل ـ احتمال خرق العدو الاسرائيلى لقرار مجلس الأمن ،لذلك صدرت تعليمات عملياتها فى هيئه تحذير(٢) إذ نصت فى نهايتها على أن : " تبقى القوات المسلحه فى الحالة الكاملـه

---

(١) نص القرار رقم ٣٣٨ : " يدعو مجلس الأمن جميع الأطراف فى القتال الدائر الى وقف اطلاق النار،والانهاء الفورى لكل نشاط عسكرى فى مدة لاتتجاوز ١٢ ساعه بعد لحظه اقرار المجلس لهذا القرار،وذلك فى المواقع التى يحتلونها الآن . ويدعو مجلس الأمن كل الأطراف المعنيه الى البدء فورا ، بعد وقف اطلاق النار،فى تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ سنه ١٩٦٧ بجميع اجزائه . يقرر مجلس الأمن أن تبدأ المفاوضات فورا ،وفى وقت واحد مع وقف اطلاق النار بين الأطراف المعنيه تحت الاشراف الملائم بهدف اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط ".
(عن مجلة السياسه الدوليه، عدد يناير ١٩٧٤ : ص ٢٠١)

(٢) صدرت هذه التعليمات الى جميع قيادات أفرع،وتشكيلات القوات المسلحة المصريه فى تمام الساعه ١٢٢٠ يوم ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣ .

للتأهب لحين صدور تعليمات أخرى " .

ومع التزام القوات البحريه المصريه بقرار وقف اطلاق النار الا أنها كانت اكثر التزاما بتعليمات العمليات الصادره من القياده العامة للقوات المسلحه ، ولذلك فقد واصلنا تأمين النطاقات التعبويه بمسارح العمليات ، وتشديد الدفاعات عن القواعد ، ونقط التمركز البحريه ، وكذا تنشيط أعمال استعادة الوحدات لكفاءتها القتاليه ، واستعواض الخسائر ، والمستهلك ... مع استمرار تواجد الوحدات القائمه بأعمال الحصار البحرى بمناطق عملياتها .

وحدث ماتوقعته القياده العامه بعد أقل من ثلاث ساعات من لحظة سريان قرار مجلس الأمن عند ما التقطت أجهزة الاستطلاع اللاسلكي على الجبهه المصرية أوامر صادره عن القياده الاسرائيليه تحث قواتها على الاسراع فى العبور الى غرب القناه " لأن الموقف خطير ، ويهدد بكارثه " .

ملحمة " الأدبيه "

منذ الساعة الحاديه عشرة مساء يوم ٢٢ اكتوبر ، بدأ العدو البرى يتسرب جنوبا من الدفرسوار بقوات صغيره نسبيا متجنبا الاصطدام بقواتنا البريه ، وخلال يومى ٢٣ ، ٢٤ اكتوبر واصلت قوات العدو البريه انتشارها جنوبا نحو مدينه السويس . وحاول العدو الاسرائيلى اقتحام المدينه - أول مره - يوم ٢٣ اكتوبر الا أن المدينه الباسله تصدت له بقوات الجيش ، وشعبها ، وردته عنها ، .. فتابع الانتشار صوب الجنوب حيث تسللت عناصره الى منطقه " الأدبيه " ... لتبدأ واحده من أروع الملاحم التى شهدها الصراع العربى الاسرائيلى ، والتى أرجو أن أنجح فى نقل صورتها - ساعة بساعه - الى القارىء .

ففى الساعه العاشره والنصف من صباح يوم ٢٣ اكتوبر ، وعلى مدى ست ساعات ونصف تعرضت الأدبيه لهجمات جويه عنيفه استهدفت مركز قيادة ومنشآت القاعدة البحريه ولسان مرفأ الأدبيه ، وقطاع " عتاقه " ، والطريق الموصل بينهما ، ومواقع

المدفعيه الساحليه ،ولم يكن بوسع قواتنا صد غارات العدو المتتاليه بما فـــي حوزتها من أسلحه لا يزيد عيار أكبرها عن ٤٠ مم والتسليح الشخصي للافــراد ، مما أدى الى تمكين العدو من قطع الطريق الموصل الى مــدينه السويس ،واصابه بعض اجزاء من رصيف الميناء ،وأحد زوارق الصواريخ ،وسقوط عدد كبير من القتلى والجرحى ... فى الوقت الذى كانت فيه عناصر من دبابات العدو - على هيئـــة قول - تزحف جنوبا صوب الأدبيه بعد أن فشلت فى اقتحام مدينه السويس .

وماكادت الساعه تجاوز العاشرة والنصف من مساء ذلك اليوم الا وكانت طلائع دبابات العدو قد بلغت مشارف " الأدبيه " .

وحتى ذلك الوقت لم يظهر أى نشاط غير عادى للعدو البحرى بخليـــج السويس ،فهل قصد الاسرائيليون جذب اهتمامنا الى هجومهم البرى ،لينفتـح أمامهم طريق البحر ،لاقتحام مرفأ " الأدبيه " الذى لا يبعد عن مواقعهم اكثـر من ثمانيه أميال ؟ولكنا سرعان ما استبعدنا فكرة الاقتحام البحرى ،ورجحنا احتمـــال قيام العدو بعمليه ابرار على منطقة" بير عديب " جنوبى الأدبيه ،لصلاحيــــــه شواطئها لمثل هذه العملية وما تتيحه من امكانيه تطويق قواتنا من ناحيه البـــر أو ضغطها نحو البحر حيث لا تتوافر وسائل اخلائها ،وحتى لو توافرت لوقعـــت فريسه الطائرات الاسرائيليه .

وكما سبق أن قلنا ،تقع منطقة الأدبيه ضمن النطاق التعبوى للجيش الثالـث الميدانى الذى يضم أيضا قطاع " بير عديب " حيث تتمركز بعض عناصر من الجيـش المصرى ،والجيش المغربى ،وقوات حرس الحدود، لا تكفى الا لصد هجوم العـــدو المدرع ،أو صد ابرار العدو البحرى ... وليست المهمتان فى وقت واحد ،ومـــن الطبيعى أن تتحمل القوات البريه العبء الاكبر فى التعامل مع العدو البــرى ، وان تتحمل القوات البحريه العبء الاكبر فى التعامل مع العدو البحـــرى ،وأن تتعاون جميع القوات فى التعامل مع العدو الجوى . ومما تجدر الاشاره اليــــه أن " الأدبيه " منطقة عسكريه معزوله خاليه تماما من الأهالى المدنيين ،ورغـــم

مايهيئه هذا الوضع من فرص تركيز جهود القوات العسكريه على أعمال القتـــال بعيدا عن مشاكل الدفاع عن المدنيين ، وتأمين سلامتهم ، الا أن الكثافه السكانيه اذا وجدت فى مثل الموقف الذى كانت فيه الأدبيه فى تلك الليله لساعدت كثيرا فى دعم الجهد العسكرى بتضافرهما فيما يسمى " بقتال المدن " ، وتكبيد العدو خسائر كبيرة تضطره للعدول عن تنفيذ نواياه مثلما حدث بمدينه السويس .

ومما زاد من سوء موقف قوات الأدبيه - فى تلك الليله - انقطاع الاتصـــال بقيادة الجيش الثالث الميدانى واهتمام قواته بالدفاع عن السويس ، وتأمين طريـق الامداد والمواصلات الرئيسى الذى يربطها بالقاهره ، وحماية معابر الجيش الـى سيناء . وغنى عن القول أن تسليح قوتنا البحريه بالأدبيه - وغيرها من القواعد ، والمواقع - يخلو من الأسلحه المضاده للدبابات التى بوسعها التعامل مع هـــذا التهديد الغريب تماما على القتال البحرى ، وهى لذلك تعتمد فى الدفاع عـن مواقع تمركزها على ماتوفره له قوات وأسلحه الجيش ، وقوات الدفاع الجوى الـــتى تحيط بهذه المواقع ، أو المجاوره مثل قوات قطاع " بير عديب " فى حالة "الأدبيه" . ولكن تأزم الموقف البرى أدى الى سحب عناصر المشاه الميكانيكيه التى كانـــت مشتركة فى حماية الأجناب البريه للقاعده ، والذى ترتب عليه انكشاف تلك الأجنـاب للعدو ، فواصل اندفاعه جنوبا الى ان تجمعت دباباته ، وعرباته المدرعه ، عنـــد منتصف ليله ٢٣ / ٢٤ اكتوبر ، على " لسان الأدبيه " (الحافه الجنوبيـه لجـــون الأدبيه) حيث لحق به - بعد ساعات قليله - الدعم الجوى بطائرات " الهـل " .

وليس أبلغ فى التعبير عن الموقف فى تلك الساعات الحرجه ، من إشاره قائـــد قاعدة الأدبيه التى بعث بها الى مركز القياده الرئيسى الساعه ٢٣٥٥ يـوم ٢٣ والذى يقول فيها بالحرف الواحد : " جارى الاشتباك بجميع أنواع الأسلحـــة مع العدو ، وسنخطركم بالموقف أولا بأول " . ولابد ان يكون القارئ قد تبـــادر الى ذهنه أن يتسائل عما يعنيه قائد القاعده بعباره " جميع الاسلحه " .

لم يكن أمام قائد القاعده الا أن يواجه الموقف بامكاناته الذاتيه ، وما يمكن ان تقدمه له القوات المغربيه ، وقوات حرس الحدود من معاونة مباشرة برغم افتقارهمـا

لأهم العناصر الا وهو الأسلحه المضاده للدبابات . وانحصرت هذه الامكانات في : قوات الحراسة المحليه ،ووسائل الدفاع الجوى الذاتي ،وعناصر ضئيله من الصاعقه البحريه،والضفادع البشريه التي أمكن تزويدها ببعض الأسلحه الخفيفه المضاده للدبابات (آر بي جي) بالاضافه الى بعض زوارق المدفعية الخفيفه التي وزعت بطريقه تمكنها من تصويب نيرانها (٣٧مم و ٤٠ مم) ناحيه البر . الا ان محاولات قائد القاعدة فشلت في تحريك المدفعيه الساحليه الى مواقع تسمح لها بالضرب على الأهداف الأرضيه ،والأهداف البحريه في نفس الوقت . ومن ناحيه أخرى كان هناك شبه استحاله في استخدام صواريخ الزوارق نظرا لانها من الانواع غير الموجهه مما يعرض قواتنا لخطر الاصابه ، فضلاعن الحاجه اليها في الدفاع عن شواطئ منطقة " بير عديب " ضد إبرار العدو البحرى الذى بدت طلائعه فجر يوم ٢٤ اكتوبر .

مع الساعات الأولى ليوم ٢٤ اكتوبر كانت قوات الصاعقه البحريه قد نصبت كمائن الاشتباك بالأسلحه المضادة للطائرات قريبه المدى ،والاسلحه المضادة للدبابات الخفيفه (آر بي جي) في الوقت الذى كانت فيه بعض زوارق الصاعقة البحريه المحمله بالعتاد ،والتموينات في طريقها الى رأس كوبرى الجيش الثالث الميداني بالضفه الشرقيه لقناه السويس ،وخرجت زوارق طوربيد أخرى لتلغيم مياه ساحل منطقة " بير عديب " مما عرضها لقصف جوى عنيف أسفر عن اصابات شديده في الزوارق والأفراد ،على حين تقدمت وحدات بحريه أخرى في أقصى الجنوب لتكثيف حقل الغام مدخل خليج السويس .

وفي الساعه ١٤٠٥ . بدأت واحده من أغرب المعارك التي شهدها تاريخ القتال البحرى : مجموعات من الضباط والجنود البحريين رابضه في حفر ،وفوق التلال ،وأسطح المباني ،وخلف مدافع زوارقهم يصبون نارا حاميه - ولكنها للأسف الشديد صغيره العيار ،قصيره المدى - على دبابات ومدرعات العدو التي كانت فوهات مدافعها تومض بين الحين والآخر بسيل من قذائفها الثقيله على مصادر نيراننا التي انهالت عليها هجمات طائرات " الهل " الاسرائيليه واخذت الاشلاء

تتطاير هنا وهناك ،والدماء تغطى أرجاء المكان .. ولم تكن اشلاء معداتنا هى وحدها التى تطايرت ،ولا دماء رجالنا هى وحدها التى سالت ،وانما كان للعدو نصيبه أيضا فى المعركه . فقد خسر العدو فى الساعات الثلاث التى استغرقتها هذه المعركه الفريده جانبا من دباباته ،وعرباته المدرعه وغير معروف عددها على وجه التحديد . وعندما هدأ أوار المعركه بعث قائد القاعدة الى مركز القياده البحرى الرئيسى باشاره يقول فيها : " لم يبق أى وسائل دفاع جوى ... تم الاشتباك مع العدو المدرع ... سنقاتل بما تبقى " .وكانت الساعة تشير الى الرابعه وخمس وأربعين دقيقه من صباح يوم ٢٤ اكتوبر .

وفى الساعه ٠٥٢٠ يوم ٢٤ اكتوبر أبلغنا مركز القيادة الرئيسى للقوات المسلحه أن وزاره الدفاع الاسرائيليه تطلب الموافقه على وقف اطلاق النار اعتبارا من الساعه ٠٧٠٠ يوم ٢٤ اكتوبر ،وان القياده العامه المصريه وافقت على ذلك ، وان على جميع التشكيلات ،والوحدات الالتزام بايقاف اطلاق النار فى الوقت المتفق عليه الا اذ بدأ العدو بفتح النيران .

وفى تمام الساعه السادسه من صباح يوم ٢٤ اكتوبر ،بدأ العدو الجوى قصفه المركز على نقطه تمركز القوات البحريه بالأدبيه تعاونه مدفعيات دباباته ،ومدرعاته مستعينا فى الهجوم على النقطه بقوات مشاه ميكانيكيه وصلته بحرا أثناء الليل . الا أن عنف المقاومه واستماتة قوات الأدبيه ،وقوات حرس الحدود فى الدفاع عنها ، أجبرت العدو على ايقاف هجومه ،وانسحاب بعض دباباته شمالا نحو مدينة السويس . وعند الساعه السابعه هدأ اطلاق النار ،وتوقفت الدبابات الاسرائيلية بلا حراك ـ خارج أسوار الأدبيه ـ متظاهره بحبس النيران احتراما منها لقرار وقف اطلاق النار .

ويجدر بنا ان نوضح للقارىء أن أهميه " الأدبيه " ـ من وجهة النظر الاسرائيليه لا ترجع الى أنها نقطه تمركز بحرى ،وانها قاعدة اداريه كبيره نسبيا ، أو لأنها تشترك بفعاليه فى حماية مستودعات البترول المصرى بالمنطقة ،وانما

لأن القوات البحريه المتمركزه بها كانت أيضا مصد ر ازعاج مستمر للقوات الاسرائيليه ، ومراسى البترول عبر خليج السويس منذ حرب الاستنزاف . وكثيرا ماتعرضت الادبيه لمحاولات تخريب ،أو لاغارات من ناحية البحر احبطت جميعها ،وكبدت العدو خسائر كبيره فى الأرواح ،مما اضطره لايقاف هذه الاعمال ،ولكنه لم يكف عن استطلاع المنطقه بحرا وجوا .

هذا وقد ازداد اهتمام الاسرائيليين بنقطة تمركز الأدبيه منذ الساعات الاولى لحرب اكتوبر ٧٣ ،نظرا لأنها تقع على مقربه من معابر الجيش الثالث الميدانى ،ولأن الطريق الساحلى بسيناء المحتله يقع فى مدى نيران المدفعية الساحليه الموجوده بموقع " مرسى السادات "(١) ، وفى متناول صواريخ الزوارق الخفيفه .. وهى بذلك تمثل قوة نيران معاونه لعمليات الجيش الثالث الميدانى ، ومصدر خطر على تحركات العدو البحرى بالقطاع الشمالى لخليج السويس ،وعلى ضفته الشرقيه .

أضف الى ذلك أن فشله فى اقتحام مدينه السويس دفع العدو الى البحث عن نقطة أقل مناعه قد يكون فى التغلب على دفاعاتها مايغطى به فشله فى السويس ،وفى نفس الوقت يخدع العالم ويوهمه بأن القوات الاسرائيليه تحتل الضفه الغربيه لقناة السويس من الدفرسوار شمالا ،وحتى الأدبيه جنوبا ويرفع بذلك معنويات الشعب الاسرائيلى .

ولا يفوتنا أن نذكر أن نقطة تمركز الأدبيه كانت مكونه من قطاعين ، الأول : يشغل الميناء ،ورقعة الأرض المقامه عليها المنشآت الاداريه ،وأماكن الاعاشه ، وورش الاصلاح ،وجميعها محاطه بسور حجرى ،أما القطاع الثانى فيحتل جزءا

---

(١) التسميه " السادات " هى أصلا " أسياد " نسبه الى المشايخ ،واولياء الله الصالحين المدفونين بالمنطقه ... وبمرور السنين حدث تحريف فى "اسياد" الى " سادات " نظرا لأن المساحين ،وصانعى الخرائط كانو فى ذلك الوقت من الانجليز ،فلم يحسنوا نطق الكلمه ،أو كتابتها .

من الأرض الصحراويه الواقعه غربى طريق السويس / الغردقة على مسافه بضعة أمتار من منشآت القاعده الاداريه، ويضم مخزنا للذخيره، و " غرفة العمليات" المحصنه تحت سطح الأرض، تعلوها كثبان رمليه تبرز منها فتحات التهويه، وهوائيات أجهزة اللاسلكي .

ونعود الآن للعدو الذى قلنا انه تظاهر بحبس نيرانه احتراما لقرار وقف اطلاق النار .

الساعه ٠٧٣٠ يوم ٢٤ - بعد بدء سريان قرار وقف اطلاق النار بثلاثين دقيقه (١) - اندفعت القوات الاسرائيليه تقتحم الأدبيه، وكان المشهد جد رهيب. فقد دكت نيران الدبابات أسوار القاعده، وأخذت تصب نيرانها على مركزالقياده، ومواقع المدفعيه الساحليه وعلى أرصفه الميناء، وهدير جنازيرها يكاد يطغى على صوت طلقات المدافع ، ومن وقت لآخر تترددد أصداء طلقات المدافع الرشاشه المصريه من أماكن متفرقه فى ساحه القاعده، وفوق أسطح المبانى، ومن الحفر المحيطه بها ... ثم تتلاشى فى زئير مدافع العدو .

الساعه ٠٨٣٢، أحكمت قوات العدو حصارها للقاعده، واقتحم بدباباته موقع المدفعيه الساحليه، ومركز قيادة القاعده، ولم يعد أمام " حاميه الادبية"، الا الخروج للعدو، وملاقاته وجها لوجه بالسلاح الأبيض، ولكن ماكاد قائد القاعده يتخذ هذا القرار ويبدأ فى إصدار أوامره بذلك - الساعه ٠٩٣٥ - إلا كان القصف المتجدد قد أطاح بخطوط وسائل الاتصال الداخلى بعد أن انضم

---

(١) كان مجلس الأمن قد أصدر قرارا ثانيا - رقم ٣٣٩ - يوم ٢٣ اكتوبر يؤكد فيه قراره رقم ٣٣٨، ويدعو الى اعادة قوات الجانبين الى المراكز التى كانت تحتلها لحظة سريان وقف اطلاق النار، ويطلب من السكرتير العام " اتخاذ التدابير، لارسال مراقبى الأمم المتحده فورا، للاشراف على مراعاة وقف اطلاق النار بين قوات اسرائيل، وجمهورية مصر العربيه مستخدما لهذا الغرض أفراد الامم المتحده الموجودين حاليا فى الشرق الأوسط وأولهم الافراد الموجودين بالقاهره " .

(عن مجلة " السياسة الدوليه " عدد يناير ٩٧٤ / ص ٢٠١)

للعدو ٥٠ دبابه أخرى . وفى الساعه ١٠٢٠ انقطع اتصال الأدبيه نهائيا بالعالم الخارجي . وفى الساعه ١٣٤٠ يوم ٢٤ اكتوبر(١) وصلنا بلاغ من مركز الدفاع الجوى يقول : ان طائرات " الهل " المعاديه شوهدت تهبط بمنطقة الأدبيه ،وان القتال مازال مستمرا بها ... فما الذى حدث فى هذه الساعات السته ؟

التفت الدبابات الاسرائيليه حول منطقة الأدبيه فى ثلاث مجموعات : واحدة تعمل ضد القطاع الغربى حيث غرفة العمليات،ومخازن الذخيره ،والثانية داخل قطاع الميناء ،والثالثه فى الجنوب تحمى عمليات المجموعتين .

كان قائد القاعده ،ومعه بعض ضباط الأركان مازال ـ حتى ذلك الوقت ـ بغرفه العمليات،عند ما حاولت دبابات العدو ـ فى الساعه ٠٧٥٠ ـ اقتحام ابواب الغرفه ،وفى نفس الوقت صبت نيران مدافعها على مخازن الذخيره التى اخذت انفجاراتها تزلزل أرض المنطقه . وفشلت محاولات اقتحام أبواب الغرفه كما فشل أيضا القصف فى أن ينال من مناعتها ،فزحفت الدبابات الاسرائيليه ،وضربت نطاقا حولها ،واعتلت احدى الدبابات الكثبات الرمليه التى تغطى الغرفة ،وأخذ بعض جنود العدو يلقون بقنابل الدخان من فتحات الهوايات الى داخل الغرفة بعد أن أطاحوا بهوائيات أجهزة اللاسلكى وكانت الساعه تشير الى العاشرة والدقيقه العشرين من صباح يوم ٢٤ اكتوبر . وامتلأت الغرفه بالدخان الذى انتشر،وتكاثف بسرعه كبيره ولم تنجح الأقنعه ـ بطبيعه الحال لانها ضد الغازات ـ فى وقايه الرجال من الاختناق ، وأدى تكاثف الدخان الى حجب الرؤيا ،وأصبح من المتعذر تماما تمييز وقع الاقدام وما اذا كان مصدرها صديق أم عدو .

---

(١) فيما بين التوقيتين ٠٩٣٥ ، ١٣٤٠ كانت قوات الطوارىء الدوليه تحاول الوصول الى منطقة الأدبيه ،الا أن القتال الناشب فى السويس ،والأدبيه ،وهجمات العدو الجوى حالت دون وصولهم الى تلك المناطق فى ذلك اليوم .

قبل انقطاع اتصال نقطة تمركز الأدبيه بالعالم الخارجي بدقائق ،أي في حوالي الساعه ١٠١٥ ،تلقى قائد النقطه آخر اشاراته ،والتي تضمنت أن " قـوة الطوارئ الدوليه في الطريق اليه " ... وبمرور الساعات تحولت غرفة العمليـات المنيعه الى " مصيده " لافكاك منها ،وبعد قليل ستصبح " مقبرة " لصفوة من خيرة رجال البحريه المصريه .

من أشق الأمور على نفس القائد أن يجد نفسه في موقف العجز عن ملاقـاة عدوه ،وانه مكره على الاختيار بين انقاذ مايمكن انقاذه من ارواح رجاله ، وبين رؤياهم يتساقطون الواحد تلو الآخر دون ثمن ،وكلا الاختيارين مرير ... غايـة المراره .

وقرر قائد نقطه تمركز الأدبيه - أن ينقذ حياه رجاله ،ويسلم غرفـة عمليـات الأدبيه للعدو الاسرائيلي الجاثم فوقها ... وكانت عقارب الساعه تشير الـى الواحده والنصف بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٤ اكتوبر ١٩٧٣ ،وبعدها بأربعه أيام وصلت طلائع قوات الطوارئ الدوليه الى مشارف الأدبيه الذبيحه .

الجوله الثانيه ،في حمى قرار وقف اطلاق النار

استغل العدو البحرى ،أحسن استغلال ،قرارات إيقاف اطلاق النار وسارع - في حماها - بتوسيع نطاق نشاطه في الشمال تجاه سواحل سيناء ،وبورسعيد ، وبلطيم ، بينما هو في الجنوب يواصل دفع قواته في جميع الاتجاهات بخليـج السويس . هذا ولم يتوقف العدو الجوى أيضا عن تكرار هجماته على رأس كوبـرى الجيش الثالث الميداني شرقي القناه ،ولم تتوقف موجات هجوم الدبـابـات الاسرائيليه على مدينه السويس محاولا اقتحامها لثالث مرة خلال الفتره ٢٣ - ٢٥ اكتوبر ،والمدينه بشعبها ،وجيشها ترده المرة تلو المرة .

ومع احترامنا لقرارى إيقاف اطلاق النار إلا أن تعذر تدخل قوات الطوارئ الدوليه ، وافتقارها الى امكانيه رصد أوضاع الجانبين ، أو حصر نشاطهما - بافتراض نجاحها فى الوصول الى مواقع القتال - جعلنا اكثر تشددا فى التمسك بتأمين قواتنا ، ووحداتنا ضد انتهاكات العدو الاسرائيلى المتكرره لقرارات مجلس الامن .

ومن ناحيه أخرى ، فقد اتضح - من مجمل تحركاته ، واتجاهات هجماته - أن العدو يبيت النيه لاثبات وجود قواته على الضفه الغربيه للقناة ، وعلى الساحل الغربى لخليج السويس قبل وصول قوات الطوارئ الدوليه الى مواقع المعارك فى تلك الاجزاء . وكان هذا هو السبب الرئيسى وراء توسيع العدو الاسرائيلى لنطاق نشاطه خلال يومى ٢٥ ، و ٢٦ اكتوبر ١٩٧٣ ، حيث رصدت وسائل وقوات الاستطلاع المختلفه طائرات " هل " الاسرائيليه ، وهى تحوم فوق منطقة " رأس البر" غربى بورسعيد ، وظهور وحدات بحريه خفيفه ، ومتوسطة تجاه الساحل الشمالى لسيناء سرعان ماتختفى فى اتجاه الشرق ... بينما كانت وحدات بحريه خفيفه وكبيره تتراوح أعدادها بين ٨ و ١٠ وحدات من الأسطول الاسرائيلى تدعمها طائرات " الهل " تجوب مياه شمال خليج السويس بين منطقة " عيون موسى " على الضفه الشرقيه ، ومنطقة " الادبيه/السخنه " على الضفه الغربيه . ولم يكن هناك الا تفسير واحد لنشاط العدو البحرى الا انه يزمع القيام بعمليات ابرار بغرض تثبيت أقدامه على أجزاء من الأرض المصريه شمالى ، وغربى شبه جزيره سيناء .

وعلى الفور ، اتخذنا الاجراءات التى تكفل احباط محاولات العدو الاسرائيلى ، والعدول عن نواياه : انتقلت احدى غواصاتنا الى منطقة ترقب منها تحركات الوحدات البحريه الاسرائيليه تجاه ساحل سيناء الشمالى ، ومهاجمتها ، بث حقل الغام فى مياه سواحل منطقة دمياط/ رأس البر ، دعم نقط الانذار والدفاع الساحلى بشمال الدلتا . أما فى خليج السويس ، فقد نجحت قوات المدفعية الساحليه فى اصلاح الأعطاب ، واستعادت كفاءتها القتاليه بتكثيف حقل الألغام بالمدخل الجنوبى للخليج ، واعادة تنظيم أوضاع زوارق الطوربيد وزوارق الصواريخ المتمركزة فى الجنوب بما يسمح بتدخلها السريع ضد أى محاولة ابرار معاديه على

منطقة " السخنه/ الادبيه " والتصدى - فى نفس الوقت - لأى عمليات إغارة قد يقوم بها الكوماندوز الاسرائيلى على المنطقة " راس ديب / راس غارب " ، والتى كانت كل الدلائل تشير الى احتمال حدوثها خصوصا على منطقة " غارب " البتروليه ،وانضمام ضباط، وافراد أطقم الزوارق المصابه ،أو الزائده عن الحاجه على قوات قطاع " بير عديب " لتعزيز الدفاع الساحلى عن القطاع،وانتقال جماعات اصلاح وانقاذ من الاسكندريه الى نقط تمركز القوات البحريه بخليج السويس ، للمعاونه فى سرعه نهو أعطاب المعدات والوحدات .

وفى ظهر يوم ٢٧ اكتوبر ١٩٧٣ وصل الى مشارف مدينه السويس الفوج الأول لقوات الطوارئ الدوليه حيث وجه رئيس قوات الطوارئ الدعوه الى عقد اجتماع - فى نفس اليوم - على المستوى العسكرى تحت علم الأمم المتحده وذلك لتنظيم : تطبيق قرارات وقف اطلاق النار فى الساعه ١٨٥٢ يوم ٢٢ اكتوبر ،وتمركز قوات الطوارئ فى الأماكن التى ستباشر منها مهامها ،وذلك تنفيذا لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ بتاريخ ٢٢/١٠/١٩٧٣ الذى تبنته وضمنت تنفيذه الدولتان العظميان (١) . وبذلك نكون قد وصلنا الى نهايه الفترة الثانيه من المرحلة الثالثه لحرب اكتوبر ٧٣ .

اتسمت المرحله التاليه - الرابعه - بهدوء نسبى عقب وصول قوات الطوارئ الدوليه الى مدينه السويس يوم ٢٧ اكتوبر ٧٣ ،والى أن تم التوصل الى اتفاقية الفصل بين قوات الجانبين يوم ١٨ يناير ١٩٧٤ ،وهى المرحلة التى سنوجزها فيما يلى :

---

(١) البيان الصحفى الذى أذاعه الدكتور/ أشرف غربال المستشار الصحفى لرئيس الجمهوريه يوم ٢٧/١٠/١٩٧٣.
(عن مجلة السياسه الدوليه " عدد يناير ١٩٧٤ : ص ٢٠٠)

ايقاف القتال الى ...اتفاقية الفصل

المرحلة الأخيره للحرب ، ٢٨ اكتوبر ٧٣ - ١٨ يناير ١٩٧٤

وصلت قوات الطوارئ الدوليه الى منطقه السويس يوم ٢٧ اكتوبر٧٣ ، ولكنها لم تتمكن من اتخاذ مراكزها بين القوات المتحاربه الا ظهر اليوم التالى ، وساد الهدوء جميع جبهات القتال بعد أن كان العدو الاسرائيلى قد أتم احتلاله " للأدبيه " ودفع ببعض قواته - عبر خليج السويس - الى منطقة جنوب الأدبيه .

الا أن الاشتباكات - غرب قناة السويس - تجددت منذ ٣١ اكتوبر ١٩٧٣ ، واستمرت حتى يوم ١٧ يناير سنة ١٩٧٤ أى قبل ساعات من توقيع اتفاقيه الفصل بين القوات ، وواصلت القوات المصريه تعديل أوضاعها التاكتيكيه لحصر نشاط العدو الذى سارع الى اقامة تجهيزات هندسيه لاضفاء نوع من الاستقرار على موقفه الحرج . ومن ناحيه أخرى تعثرت مباحثات الفصل بين القوات اكثر من مره الى أن قررت مصر وقف هذه المباحثات ، والتى وصفها المتحدث الرسمى المصرى فى بيانه الذى اذيع مساء يوم ٢٩ نوفمبر : " قررت مصر وقف مباحثات الكيلو ١٠١ نظرا لمراوغه اسرائيل المستمره فى تنفيذ البند الثانى من النقاط الستهالتى تم توقيعها (١)

(١) تضمنت النقاط السته :

١- موافقه الجانبين المصرى ، والاسرائيلى على الاحترام الدقيق لوقف اطلاق النار الذى أمر به مجلس الأمن .
٢- موافقه الطرفين على مناقشه موضوع العودة الى مواقع ٢٢ اكتوبر فورا ، فى اطار الموافقه على الفصل بين القوات .
٣- تتلقى مدينه السويس حاجتها اليوميه من الغذاء ، والماء ، والدواء وترحيل الجرحى المدنيين منها .
٤- الا يكون هناك عقبات أمام وصول الامدادات غير العسكريه الى الضفه الشرقيه
٥- تستبدل نقط المراقبه الاسرائيليه على طريق القاهره/السويس بنقط المراقبه من الأمم المتحده .
٦- بمجرد تولى الأمم المتحده نقط المراقبه ، يتم تبادل جميع الأسرى بما فيهم الجرحى .

هذا وقد أعلنت الحكومة الاسرائيليه على لسان رئيسة وزرائها "جولدا مائير" - مساء يوم ١٠ نوفمبر - موافقتها على بنود الاتفاق بعد ان ظلت على =

يوم ١١ نوفمبر الحالى . ان مصر لتحمل اسرائيل كل النتائج المترتبه على عـــدم تنفيذ قرارات مجلس الأمن الاخيره ".

شرعت القوات البحريه فى تعديل أوضاعها على ضوء احتلال قوات العــــدو للأدبيه فبادرنا الى انشاء نقطه تمركز بحريه بمنطقة " بيرعديب " جنوبى الأدبيـه ، والاستعداد للتصدى لأى محاوله قد يقوم بها الاسرائيليون ، لدعم قواتهم عـــن طريق المدخل الجنوبى لخليج السويس . وفى الوقت نفسه تابعنا تكثيف التدابير الدفاعيه والوقائيه بمسرحى البحر الأحمر ، والبحر المتوسط مع الاستمرار فى أعمـال الحصار البحرى عند باب المندب ، والعمل على استعواض الخسائر ، واعادة الكفاءة الفنيه ، والقتاليه للوحدات البحريه .

ففى البحر الاحمر : تم تشكيل نقطة تمركز جديده بمنطقة " راس الســادات" جنوبى لسان الأدبيه ، ودعمها بالقوات ، والوحدات ، والأسلحة التى نقلت اليهـــا برا فى الوقت الذى أصبحت فيه مواقع المدفعيه الساحليه بالمنطقة على أهبـــه الاستعداد للعمل بنفس الكفاءة التى كانت عليها قبل " انقضاضة الأدبيه" ، علـى حين دفعنا ببعض الزوارق الخفيفه وعناصر من الصاعقه البحريه للانضمام على مجموعه العمليات البحريه التى تعمل مع الجيش الثانى الميدانى ، وذلك بغرض تأمين المسطح

= اتصال بالحكومه الامريكيه بشأن ثلاثه تحفظات هى :

أـ عدم الاشاره الى باب المندب

ب ـ مشكله خطوط ٢٢ اكتوبر

جـ ـ مسأله الامدادات من الضفه الغربيه الى سيناء

وفى الثالثه بعد ظهر يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٣ تم توقيع العسكريين من الجانـب المصرى والجانب الاسرائيلى على اتفاقيه النقاط السته ، وذلك عند الكيلو ١٠١ على طريق السويس تحت اشراف الأمم المتحده ، التى يمثلها الجنرال " سلاسفو".

(عن مجلة " السياسه الدوليه " عدد يناير ١٩٧٤ ص ١٤٨ ، وعدد ابريــــل ١٩٧٤ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤) .

المائى لبحيرة التمساح .

أما مسرح البحر المتوسط، فلم يكن بحاجه الى دعم كبير، أو تعديل يذكر فى أوضاع القوات، اللهم الا بعض الترميمات لمنشآت قاعدة بورسعيد ، واضافات طفيفه للدفاعات الساحليه بمناطق راس البر، وبلطيم، ورشيد ، وأبى قير بمدافع من مختلف الأعيره مع تعزيز نقط المراقبه على امتداد الساحل .

وفى ٢٩ نوفمبر ٧٣ ، عقب اعلان مصر قرارها بايقاف مباحثات " الكيلو ١٠١" ، كانت القيادة العامة للقوات المسلحه قد انتهت من وضع خطه هجوميه تهدف الى تدمير قوات العدو الاسرائيلى غرب القناه ، يبدأ فى تنفيذها - بأوامر من القياده العامه - اعتبارا من يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣ . الا أن اعلان " كيسنجر " من " تل ابيب " يوم ١٧ ديسمبر عن موافقة اسرائيل على حضور مؤتمر جنيف للسلام، جعل القياده العليا فى مصر توقف - مؤقتا - تنفيذ خطة تصفيه الثغره ، وتصدر تعليماتها للقوات البحريه بالبدء فى التخفيف - تدريجيا - من اجراءات الحصار البحرى وفقا لما تسفر عنه الاتصالات السياسيه .

ومع أن المسرح البحرى ساده هدوء نسبى خلال شهر ديسمبر ٧٣ ، وحتى منتصف شهر يناير ٧٤ ، الا أن المسرح البرى لم ينعم بمثل هذا الهدوء . . . فقد حدث أثناء هذه الفتره اكثر من ٤٠٠ اشتباكا بين القوات المصريه ، والقوات الاسرائيليه الى أن صدر - فى مساء يوم الخميس ١٧ يناير سنة ١٩٧٤ - بيان " فك الاشتباك " الذى أذيع فى القاهره و تل ابيب، وفى واشنطون جاء فيه أنه : " سيوقع على الاتفاق كل من رئيسى أركان حرب القوات المسلحه المصريه ، واسرائيل ظهر ١٨ يناير بالكيلو ١٠١ على طريق القاهره السويس . . . وقد طلبت الأطراف من الجنرال انزيو سلاسفو قائد قوات الطوارئ التابعة للامم المتحده ان يشهد التوقيع(١)"

(١) تشمل أبرز بنود هذا الاتفاق النقاط الآتيه :

١- انسحاب القوات الاسرائيليه من غربى القناه ، ومن شرقها الى منطقة الممرات، وتفصل قوات الامم المتحده بينها وبين القوات المصريه

وفى الساعه العاشره من صباح يوم الثلاثاء الموافق ٢٩ يناير سنة ١٩٧٤ ارتفع علم مصر على صاريه قاعدة الأدبيه بعد استلامها من قوات الطوارئ التابعه للأمم المتحده .

= ٢- ان هذا الاتفاق يمثل خطوة أولى نحو سلام عادل ،ودائم .

٣- تجرى المحادثات الخاصه بتنفيذ هذا الاتفاق عند الكيلو ١٠١ علــى أن تنتهى خلال ٥ أيام يبدأ تنفيذ الفصل بعدها خلال ٤٨ ساعه وتتم عملية الفصل كلها فى مدة لاتتجاوز ٤٠ يوما .

(مجلة السياسه الدولية عدد ابريل ١٩٧٤ :- ص ٦١-٦٣ ،ص ١٨٧ ، ١٨٨)

الباب الرابع

الحرب غير المباشـــــــره

اسرائيل بين المندب ومالطه

يعتبر الحصار البحرى من أعقد أشكال العمليات البحريه ، واكثرها تشابكـــــاً لا على الصعيد العسكرى فحسب ، بل على صعيد السياسه الدوليه أيضا . فالمعروف أن " الحصار " أو " الحصر " هو عمل من أعمال الحرب تضطلع به السفن الحربيــة لأحد الاطراف المتحاربه بقصد " منع الوصول أو الخروج من جزء محدد من ساحل الطرف الآخر " . والحصار اما أن يكون " حصارا حربيا " أو " حصارا اقتصاديـــا " أى محاصره اقتصاد الخصم . والحصار الاقتصادى لا يستهدف مباشرة الوصول الى أحد الأغراض الحربيه ، وانما يستهدف اجبار العدو على التسليم ، أو قبول شـــروط خصومه عن طريق قطع اتصالاته عبر البحار . وقد يلجأ الطرف المحاصر الى استخدام السفن التى ترفع اعلام دول محايده فى نقل مهربات حربيه تحت ستار مبدأ معتـرف به يقول ان " مايسرى على العلم يسرى على الشحنه " أو " السفينه الحرة تعـــنى حموله حره " . (١)

وقد تعاملت دول العالم مع التجارة المنقوله بحرا ابان الحرب العالميه الثانيه بحسب موقفها من الحرب ، فمن كان طرفا فيها استخدم كافه وسائل واسلحـــــه " حرب الحصار الاقتصادى " فى الهجوم ، والدفاع بينما استخدم المحايدون مبدأ " حرية العلم " فى الحيلوله دون توقف تشغيل أساطيلهم التجاريه ، ومايترتب عليـــه من خسائر ماليه جسيمه .

وفى عام ١٩٥٦ ، فى الولايات المتحده الأمريكيه التى اصبحت قوة بحريه كبرى ذات نفوذ ، صدر تعريف مقترح يلخص معنى " المحاصره الاقتصاديه " بأنها " استخدام اجراءات اقتصاديه للهجوم على أهداف اقتصاديه "... وأن " هذا لا يعنى استبعاد الحرب كوسيط بجانب الوسائل الدبلوماسيه " (٢)

(١) عن دائره المعارف البريطانيه ، جزء ٢

(٢) عن دائرة المعارف البريطانيه ، جزء ٢

وتستهدف أعمال القوات المضطلعه بمهام الحصار الاقتصادى : ١ـ اغراق اكبر عدد من سفن النقل ،والتجاره بأعالى البحار ،وبالمياه الساحليه ، ٢ـ اعاقة حركة الملاحة الى ومن موانى الخصم ، ٣ـ تعطيل أعمال الشحن ، والتفريغ بموانى الخصم ، ٤ـ الحط من امكانيات ترسانات الخصم البحريه .

ويتوقف حجم اعمال هذه القوات على عاملين أساسيين : أولا ،حجم تجاره الخصم المنقوله بحرا ،ومقدار كثافه حركتها ،وثانيا مقدار طول خطوط شبكة مواصلاته البحريه . وتعتبر مناطق المياه الضيقه والمناطق التى تتقارب ،أو تتلاقى عندها خطوط المواصلات البحريه اى ماتعرف باسم " البؤرات " ،هى أنسب الأماكن لغرض السيطره على حركة تجارة الخصم والتحكم فيها ،نظرا لما تهيئه مثل هذه المناطق من ظروف تتيح اكبر قسط من الاقتصاد فى مجهود الطرف الحاصر .

ومن ناحيه أخرى ،على الطرف " الحاصر " أن يعد نفسه للحيلوله دون قيام الطرف الآخر " بحصار مضاد " عند أول فرصه مواتيه .

ولعل أهم مايجدر التنبيه اليه فى أمر هذا الشكل من الحروب البحريه هو ، أن الحصار الاقتصادى لا يؤتى ثماره الا على المدى البعيد بشرط مواصلة تشديد قبضته ،واحكام حلقاته لمدة طويله الى أن يستنفذ العدو اكبر قدر من احتياطيه ومخزونه الاستراتيجى ،ويعجز عن استعواضه ،أو حتى عن مجرد سد حاجات حياته اليوميه .. وهنا تنهار مقاومته ،وتتحطم ارادته ،فيرضخ لشروط خصمه . والأمر فى النهايه يخضع لتداخل عدة عوامل منها : الموقف الدولى من الصراع الناشب ،مدى تأثير الحصار على الأطراف غير المتصارعه ،مدى تأثر الملاحه الدوليه ،وصناعة النقل البحرى العالميه بالحصار ،وأخيرا ـ وهو الأهم ـ قدرة طرفى الصراع على تحمل أعباء متطلبات الحصار ،ونتائجه . (١)

---

(١) شنت المانيا حرب الحصار الاقتصادى على بريطانيا منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب العالميه الثانيه (٣ سبتمبر عام ١٩٣٩) حتى آخر يوم فيها (٨ مايو عام ١٩٤٥) أى طوال ايام وليالى ٦٩ شهرا ،استخدمت خلالها كل أدوات ، واسلحه الحرب من غواصات ،وطائرات ،وسفن ،والغام ،وزوارق طوربيد انتشرت فى ارجاء المحيطين الاطلسى ،والهندى مركزه مجهودها الرئيسى =

ولو نقلنا هذه الصوره العامه الى واقع الأمر فى الصراع العربى الاسرائيلى لوجدنا ان اسرائيل - بطبيعة نشأتها ، وبحكم موقعها الجغرافى - تعتمد اعتمادا شبه كلى على تجارة الصادرات ، والواردات المنقوله بحرا . لذلك وجهت الحكومة الاسرائيليه اهتماما فائقا نحو تنمية أسطولها التجارى ، وتوسيع مجالات التبادل التجارى وفتح أسواق جديده لصادراتها مع غالبيه الأقطار التى لها علاقات دبلوماسيه معها . ولعل أهم واردات اسرائيل - عبر البحار - هى المواد الأوليه ، والوسيطه ، والتى فى مقدمتها البترول ، ومشتقاته ، أما أهم الصادرات الاسرائيلية فتنحصر فى بعض المنتجات الزراعيه ، ولا سيما الموالح ، واعادة تصدير جانب من وارداتها البتروليه .

وحتى عام ١٩٦٧ ، أى قبل الاحتلال الاسرائيلى لشبه جزيره سيناء وانغلاق قناة السويس ، كان الحجم الأكبر للحركة التجاريه البحريه مع اسرائيل يسلك طريق البحر المتوسط الى الموانىء الاسرائيليه المطله على هذا البحر ، وكان هذا معناه أن على السفن الآتيه من بلدان الشرق الاقصى ، وشرق أفريقيا ، أو الذاهبه اليها

= فى شمال الاطلسى ، والمياه المحيطه بالجزر البريطانيه ... وكان عنف الحصار ومواصلته على امتداد سنوات الحرب سببا فى أن اطلق عليه " تشرشل " إسم "معركه الاطلنطى " ، والتى انتهت بتكبيد الحلفاء ٥٠١٥ باخره تجاريه بلغت قيمة جملة حمولتها ٢١,٥ مليون طن ، تحملت بريطانيا القسط الأعظم منها ، اذ قدرت قيمة خسائرها ، وحدها بنحو ١٢ مليون طن ، وذهب ضحيتها قرابة ٣٠ الفا من الأيدى العامله بالبحريه التجارية البريطانيه هذا فضلا عن عجز الترسانات البحريه فى بريطانيا عن رفع معدلات انتاج السفن التجاريه - إبان السنوات الثلاثه الأولى للحرب - عن مليون طن سنويا فى الوقت الذى وصل فيه معدل خسائرها ٤ مليون طن طن تقريبا سنويا ، ولم ينقذها من هذا المأزق المميت الا دخول الولايات المتحدة الامريكيه الحرب ، فارتفع معدل الانتاج الى ١٤ مليون طن خلال عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ وبذا أمكن استعواض خسائر السنوات الخمسه ، وتحقيق فائض - فى عام ١٩٤٥ - يقدر بنحو ١٩ مليون طن من السفن التجاريه .
(عن كتاب : "The War at the sea", Roskill , Vol. 3)

أن تتخذ طريق رأس الرجاء الصالح حول القاره الأفريقيه الى البحر المتوسط . الا أن احتلال اسرائيل لسيناء أدى الى تغيير هذا الوضع اذ أصبحت حركة تجارة الشرق تسلك طريق البحر الأحمر الى ميناء " ايلات " الاسرائيلى بأقصى شمال خليج العقبه ، وبذلك اختصرت السفن نحو ٦٠ ٪ من المسافه التى كانت تقطعها بين موانى الشحن والتفريغ، وبالتالى انخفضت تكاليف نقل تجارة اسرائيل عبر البحار مع تلك المناطق .

ومن ناحيه أخرى ، عمدت اسرائيل - بعد احتلال سيناء ، والهيمنه على الملاحة فى مضايق خليج العقبه - الى توسيع ميناء ايلات ، وشرعت فى اقامة خط أنابيب بترول بين هذا الميناء ، وميناء " عسقلان " على البحر المتوسط طاقته القصوى ٤٠ مليون طن سنويا ، وقد بدئ فى تشغيله فى عام ١٩٧١ (١) ، واعتمدت اسرائيل فى تشغيل هذا الخط على البترول الايرانى واعادة شحن غالبيه كمياته من "عسقلان" الى أسواق دول أوروبا الشرقيه ، وفى مقدمتها " رومانيا " . كما نشطت حركة نقل البترول من الحقول المصريه بسيناء المحتله خلال خليجى السويس ، والعقبه الى ميناء ايلات ، حيث قامت مصاف ضخمة للتكرير ، ومعامل لتصنيع البترول . وكان ميناء ايلات يستقبل أيضا شحنات كبيره من واردات " الكبريت " المستخدمه فى انتاج مناجم النحاس التى أقامتها اسرائيل بمنطقة " تيمنا " على مقربه من " ايلات " (٢).

ويمكن القول بأنه على الرغم من أن صناعه النقل البحرى فى العالم قد أصابها الضرر بصفة عامه عقب اغلاق قناه السويس فى يونيه ١٩٦٧ ، الا أن اسرائيل لم تضار كثيرا من هذا الاغلاق ، نظرا لأن القناه كانت دائما مغلقه فى وجه الملاحة الاسرائيليه الا من بعض المهربات على السفن غير الاسرائيليه . وعلى العكس استفادت اسرائيل من هذا الوضع، ومن احتلالها لسيناء بفتح مجال اقتصادى جديد هو عائدات استخدام البترول الايرانى لخط انابيب ايلات / عسقلان ،

(١) عن مجلة :
" Journal of Transport Economics and Policy p. 106

(٢) عن مجلة " السياسه الدوليه " عدد يناير ١٩٧٤ ص ١١٣

واعادة شحنه الى أسواق أوروبا الشرقيه ، بالاضافه الى زيادة ايرادات هذين الميناءين .

ويرصد حجم وكثافة حركة النقل البحرى للسفن التى تتردد على الموانىء الاسرائيليه خلال الفترة أبريل ـ سبتمبر ١٩٧٣ ، حصلنا على المعدلات التاليه :ـ

- فى البحر المتوسط : ١٥٢ رحلة للسفينه الاسرائيليه ، وغير الاسرائيليه و ٥٠ رحله أخرى لناقلة البترول .
- فى البحر الأحمر : ١٥ رحلة للسفينه الاسرائيليه ، وغير الاسرائيليه و ٢٤ رحلـه أخرى لناقلة البترول .

فى ظل هذه المفاهيم ، والموازين العامه ، مارست القوات البحريه المصريه ـ فى حرب اكتوبر ٧٣ ـ أعمال " الحصار الاقتصادى " بالقدر الذى يمكن ان يسمح به موقف الدول الأخرى حيال هذا الحصار ، ودون أن نثير أو نقلب الرأى العام العالمى ضدنا ، وأيضا بالقدر الذى يجعل اسرائيل تشعر بوطأة الحصار ، وعجزها عن الفكاك منه . ومع أن الامكانات والقدرات لم تكن تعوزنا لفرض الحصار فى أى مكان ، ولأى مدى نريد ، الا أن تلك الاعتبارات كان لها دخل كبير فى تضييقنا لنطاق عمل قوات الحصار فى أضيق الحدود ، وفى أقل عدد ممكن من المناطق ـ وما أكثرها ـ وأيضا فى الحد من حجم القوات التى ستضطلع بمهام الحصار .

وانتهينا الى قرار بتحديد أسلوب ، ومناطق الحصار نوجزه فيما يلى :

١ـ <u>فى البحر المتوسط</u>

- تلغيم مداخل موانىء اسرائيل الرئيسيه والتى تكثر بها حركة الملاحه البحرية سواء كانت تجاريه ، أم حربيه ، ووقع اختيارنا على مينائى " حيفا " و " اسدود " .
- استخدام متوازن للغواصات ضد خطوط المواصلات البحريه المؤدية الى الموانى الاسرائيليه .

٢ـ <u>فى البحر الاحمر</u>

- تلغيم الممر الملاحى عند المدخل الجنوبى لخليج السويس لاعاقة حركة نقل البترول من حقول سيناء المحتله الى ايلات .

- قصف مراسى البترول على الضفه الشرقيه لخليج السويس ،وتدمير الحقول ، ومعداتها .
- السيطره على حركة النقل البحرى التجارى عند مضيق باب المندب بواسطة سفن السطح .
- استخدام الغواصات فى التعرض لخطوط المواصلات البحريه - مع اسرائيل - فى مياه القطاع الأوسط للبحر الأحمر .

وبناء على ذلك تشكلت أربع مجموعات قتال مستقله : اثنتان قوامهما الغواصات احداهما للعمل فى البحر المتوسط،والأخرى فى البحر الأحمر،واثنتان قوامهما المدمرات للعمل بمنطقتى " باب المندب " و " جزيره مالطه " .

هذا وقد التزمت غواصاتنا - فى المسرحين - بقصر هجومها على السفن التى تحمل علم اسرائيل فقط ماعدا داخل حدود مناطق العمليات الحربيه المعلنه حيث سمح لها بمهاجمة جميع السفن على مختلف جنسياتها . وبرغم ماقد تتعرض له الغواصات من اخطار تهدد سلامتها نتيجة لالتزاماتها بالتعرف على جنسيات السفن قبل مهاجمتها فضلا عن الكشف عن مناطق عملياتها،الا أننا لم نحد - ولو مره واحده - عن هذا المبدأ تحت أى ظرف من الظروف ،وقد يكون هذا التمسك الشديد من جانبنا بهذا الالتزام هو السبب الرئيسى فى افلات عدد من السفن الاسرائيليه من هجوم غواصاتنا فى مسرح البحر المتوسط .

ولكنا نود ان نبرز هنا أن المعيار الحقيقى لنجاح الحصار لا يقاس بحجم الخسائر التى يتكبدها العدو فى سفنه التجاريه التى تنجم عن العمليات البحريه ، فالعبره فى نجاح أو فشل " حرب الحصار الاقتصادى " تكمن فى حجم ،ومدى الأضرار التى تصيب اقتصاد العدو ،ومدى الشلل الذى ينتاب حركه نقله التجارى - بل والحربى أيضا - نتيجة لأعمال الحصار بغض النظر عن حجم خسائر العمليات البحريه .

بمجرد اعلان وزارة الخارجيه المصريه عن مناطق العمليات البحريه في البحرين المتوسط والأحمر - في ٦ اكتوبر ٧٣ - اضطربت حركة النقل البحري الاسرائيلي نظرا لما ينطوي عليه هذا الاعلان، في العرف الدولي، من معان. فهو يعني أولا أن مصر ستمارس كافه أشكال العمليات البحريه داخل هذه المناطق دون اعتبار لجنسية السفن - حربيه كانت أو تجاريه - التي ترتاد مياه هذه المناطق، وأن مصر ستستخدم حقها في ايقاف وحجز السفن التجاريه، والاستيلاء عليها وعلى حمولتها كغنائم حرب. ولعل أهم اشكال العمليات، وأخطرها - في اطار هذا المعنى - هو بث الألغام، نظرا لما يمثله هذا السلاح من خطر على السفن التجاريه بصفه خاصه لافتقارها لوسيله اكتشاف الألغام، وبالتالي تفادي الاصطدام بها. أما المعنى الآخر لهذا الاعلان فهو أن مصر ستفرض سيطرتها على خطوط المواصلات البحريه التي تربط اسرائيل بالعالم الخارجي، وهو اجراء يعتبر - ضمنيا - أحد أعمال " الحصار البحري " (١).

وقد عكست الأيام الأولى للحرب مظاهر اضطراب حركة النقل الاسرائيلي، والتي من أمثلتها : تحويل السفن المتجهه الى الموانئ الاسرائيليه الى موانى بجزيره صقليه، اصدار شركة زيم الاسرائيليه تعليمات للبواخر التجاريه التابعه لها بعدم المرور شرقي جزيره كريت، وعليها الانتظار حيث هي لحين صدور تعليمات أخرى، احتجاز السلطات الاسرائيليه لجميع السفن التجاريه الموجوده بميناء ايلات. وقد شمل هذا الاضطراب - في الأيام الأربعه الأولى للحرب كرد فعل مباشر للاعلان عن مناطق العمليات - حركة اكثر من ٥٠ سفينه تجاريه كانت في طريقها الى الموانى الاسرائيليه أو مبحرة منها. (٢)

---

(١) لمزيد من التفاصيل القانونيه، والقواعد العرفيه المتعلقه بمناطق العمليات البحريه، وشرعية حرب الالغام، انظر مقال الدكتور/ سمعان بطرس فرج الله بعنوان " دور الحصار البحري في المعركه " المنشور بمجلة السياسة الدوليه عدد يناير ٧٤ - الصفحات من ٢٩ الى ٣٨.

(٢) من هذا العدد احدى عشرة سفينه كانت بميناء ايلات، أربعة منها ناقلات بترول وسفينتا بضاعه ترفع العلم الاسرائيلي والباقي يرفع الاعلام "دول السماح".

أما بعد يوم ١٠ اكتوبر ٧٣ ،عند ما بدأت اسرائيل تشعر بوطأة الحصار الحقيقى الذى اضطلعت به سفن السطح عند مضيق باب المندب وما لطه ، والغواصات بالقطاع الأوسط للبحر الأحمر والمتوسط، فقد انتقلت حركة النقل البحرى الاسرائيلى من مرحلة " الاضطراب " الى مرحلة " التصدع " .

ومن أمثلة هذا التصدع ما اتخذته اسرائيل من اجراءات تحويل مسار السفن الآتيه من المحيط الهندى قاصدة ميناء ايلات الى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومن ثم الى البحر المتوسط، حيث حولت أيضا مسار السفن به عن الطريق التقليدى الى الطريق المار بشمال جزيرتى كريت، وقبرص لتنحدر جنوبا الى موانى حيفا ، وأسدود وعسقلان . وقد تناول هذا التغيير(المحيط الهندى / موانى البحر المتوسط الاسرائيليه) تحويل مسار اكثر من ست سفن بضاعة جافه ،ونحو اثنتى عشرة ناقلة بترول ،نجم عنه زيادة فى مسافة الرحلة تقدر بحوالى ٣٤٠٠ - ٣٦٠٠ ميل بحرى عن مسافه الرحلة المباشرة الى " ايلات " ،مما أدى الى زيادة أسعار " النولون " ،وفئات التأمين وبالتالى الى رفع تكاليف النقل البحرى الى ،ومن اسرائيل . ومن ناحية أخرى فان تحول هذا القدر من الشحنات الى موانى البحر المتوسط الاسرائيليه يلقى على عاتق هذه الموانى اعباء اضافيه تعجز امكاناتها ، وطاقاتها عن التعامل معها ،فتنشب حالة تكدس ،ومايصاحبها من غرامات تأخير أو أن تؤجل سلطات الموانى استقبال السفن الزائده عن معدلات التعامل معها .. وكلا الأمرين يؤدى الى خفض حجم الواردات، والصادرات الاسرائيليه .

أما المظهر الثانى من مظاهر التصدع فكان توقف حركه الملاحه تماما من خارج البحر الأحمر الى ايلات وبالعكس اللهم الا من بعض البواخر التى عبرت مضيق باب المندب - من خارجه - وأفرغت شحناتها فى أحد الموانى الأثيوبيه وظلت هذه الشحنات به الى أن رفعنا الحصار . هذا وقد قامت قواتنا بباب المندب باعتراض اكثر من مائتى سفينه تجاريه ارتادت مياه تلك المنطقه .

حصاد الحصار

ونأتي الآن الى الحساب الختامي لحصيله الحصار البحرى الذى فرضناه على اسرائيل او مايمكن أن نسميه محصله نتائج اعمال الحصار التى بدأت فى ٦ اكتوبر ٧٣ وانتهت فى أوائل شهر فبراير ١٩٧٤ .

ولنبدأ بالنتائج المباشره :

١- اهدار نظريه الأمن الاسرائيلى التى تعتمد على التحكم فى مضايق مدخل خليج العقبه .

٢- انخفاض معدل واردات اسرائيل من البضائع الجافه بمقدار واحد مليون طن بالنسبة لموانى البحر المتوسط وبمقدار ١٢٠ ألف طن بالنسبه لميناء ايلات، وانخفاض معدل وارداتها البتروليه بمقدار ٣,٥ مليون طن . (١)

٣- ارتفاع تكلفه النقل البحرى الى اسرائيل بنحو ٥٠٪ عن تكلفته السابقه قبل فرض الحصار .

٤- انخفاض ايرادات الموانى الاسرائيليه بحوالى ٥٠٪ نتيجة للهبوط الحاد فى عدد السفن المترددة عليها .

٥- توقف دخل اسرائيل الذى كانت تجنيه من رسم مرور البترول الايرانى فى خط انابيب ايلات/عسقلان ،ومن فرق سعر اعادة بيعه الى أسواق أوروبا الشرقيه .

٦- البطاله التى أصابت جانبا من أسطول اسرائيل التجارى كبدها مصروفات تشغيل سفنه دون عائد . (٢)

---

(١) كنتيجه لانخفاض معدل كثافه حركة النقل الاسرائيلى منذ نشوب الحرب الى ٢٠٪ عن معدلاتها فى الفترة السابقه على الحرب،وعلى أساس أن متوسط الحموله الساكنه لسفينه البضاعه الجافه فى حدود ٨٠٠٠ طن ،وأن متوسط حموله ناقله البترول فى حدود ٤٠ الف طن ،وهى حمولة تقل عن حمولة الناقلتين "سيروس" و "بترا" اللتين اصطدمتا بالالغام،والتى تبلغ حمولة الواحدة منها نحو ٤٥ الف طن .

(٢) تقدر قيمة مصروفات تشغيل السفينه التجاريه الواحده بنحو ٣٠٠٠ دولار فى المتوسط فى اليوم الواحد ،فاذا تعطلت السفينه عن العمل كان هذا معناه "خساره" مقدارها ٣٠٠٠ دولار فى اليوم،والأمر فى النهاية يتوقف على عدد السفن العاطله عن العمل ،ومدة البطاله .

أما النتائج غير المباشره ،أو التى ترتبت على الحصار ،وظهرت آثارها فيمـــا بعد ،فنوجزها فيما يلى :

١- الغت رومانيا ، أكبر عملاء خط انابيب ايلات / عسقلان ،عقودها مع اسرائيل بعد ان قررت جلب وارداتها البتروليه من ايران مباشره (١) ... مما أدى الى توقف الخط عن العمل ،وبالتالى ضياع العائدات التى كان يدرها على الخزانه الاسرائيليه .

٢- تحميل وسائل ،وامكانات النقل البرى باعباء اضافيه ،علاوة على اعباء النقــل الحربى ،لموازنة التوزيع الاستراتيجى للسلع الوارده نتيجة لتحويل حركـــة السفن الى الموانى الاسرائيليه المطله على البحر المتوسط .

٣- توقف استفاده الاسرائيليين بحقول البترول المصريه فى سيناء المحتله لتوقف حركة نقله عبر خليج السويس الى مصافى البترول فى ايلات .

٤- توقف انتاج مناجم النحاس بمنطقة " تيمنا " القريبه من ايلات لتوقــف واردات الكبريت .

٥- هبوط قيمة صادرات اسرائيل الصناعيه ،خلال شهر اكتوبر ٧٣ وحده ، الـى ٧٤ مليون دولار مقابل ٩٠ مليون دولار عن الشهر نفسه من العام السابق . (٢)

واذا أدخلنا فى حساباتنا عاملى الوقت والمسافه بالنسبه لحركة النقـــل البحرى الاسرائيلى لوجدنا أن زيادة مسافة رحلة السفينه بين المناطق المحيطـــه بالمحيط الهندى ، وموانى البحر المتوسط الاسرائيليه بحوالى ٣٥٠٠ ميل بحـرى، أدت الى زيادة مدة دورة السفينه (فى الذهاب والعودة) بنحو ١٧ يومـــا عـــن دورتها العاديه الى ميناء ايلات .

واذا كنا نفتقر الى الأرقام الداله على الخساره الماليه التى تكبدتها اسرائيل نتيجة للحصار ،الا أنه من المؤكد أن رفع الحصار لم يقل أهميه - فى نظـر الحكومـة

(١) عن مجلة " النفط والتنميه " عدد يناير ١٩٧٧ .

(٢) عن تصريح أدلى به " حاييم بارليف " وزير التجاره ،والصناعه الاسرائيلـــى لجريده " هاارتس " فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٧٣ .

الاسرائيليه ـ عن موضوع تبادل الأسرى . وليس أدل على ذلك من أن "هنري كيسنجر" وزير الخارجيه الأمريكي ـ في اجتماعه بالرئيس السادات بالقاهرة في ٧ نوفمبر ١٩٧٣ لبحث تنفيذ انسحاب القوات الاسرائيليه الى خطوط ٢٢ اكتوبر ـ نقل الى الرئيس المصري أن أهم ماتطالب به الحكومة الاسرائيليه هو موضوع تبادل الاسرى، وموضوع رفع حصار مصر على باب المندب (١) . وكانت السيده "جولدا مائير" قد التقت بالوزير الأمريكي في واشنطون في أول نوفمبر قبل لقائها الأول بالرئيس "نيكسون" ، وأكدت له أن عليه ، أي دكتور كيسنجر، أن يجد حلا لقضيتي: تبادل الأسرى، ورفع الحصار عن باب المندب" إن هو أراد الحفاظ على وقف القتال، وخلق جو يتيح انعقاد مؤتمر السلام" (٢) .

ونحن نعلم مدى عنايه واهتمام اسرائيل "بالعنصر البشري" ، ونقدر لهفتها على استعادة أسراها فاذا هي وضعت موضوع "حصار باب المندب" في نفس الدرجه، كشرط للحفاظ على وقف القتال، والذهاب الى مؤتمر السلام ... لما كان من الصعب علينا تقدير مدى الضرر الذى ألحقه "حصار باب المندب" على الاقتصاد الاسرائيلي ، والذى لم يكن قد مضى على بدايته اكثر من أربعة وعشرين يوما .

وباصرار رئيسة وزراء اسرائيل، ولهفتها على "باب المندب" نكون قد وضعنا أمام القارئ أصدق صوره للحساب الختامي لحصيلة الحصار البحري الذى فرضناه على الاقتصاد الاسرائيلي .

---

(١) مجلة السياسه الدولية، عدد يناير ١٩٧٤، ص ٢٤٧

(٢) كتاب "التقصير" ، النسخه المعربه، ص ٢٦٨ ، ٢٧٣

وعلى الجانب الآخر ،ومن الناحيه العسكريه البحته ،فلم تلحق بوحداتنا التى قامت بأعمال الحصار أى خسائر كما لم يتدخل العدو الاسرائيلى فى عملياتها ، وعلى وجه الخصوص عمليات الغواصات التى أحاطت بسواحله ،وبخطوط مواصلاته البحريه فى البحرين المتوسط ،والأحمر ،كما أنه عجز أيضا عن التخلص من حقول الألغام ،أو حتى تفاديها لافتقاره لوسائل اكتشافها ،أو كسحها .

وعن الوجه الآخر لحرب الحصار البحرى ،وعمليات تصديع خطوط مواصلات العدو البحريه الا وهو تأمين خطوط مواصلاتنا البحريه ،فلم تبدر من العدو الاسرائيلى أى بادرة تنم عن عزمه على التدخل فى هذا الاتجاه . الا أن هذا لم يصرفنا عن التخطيط لتأمين حركه النقل البحرى من والى الموانىء المصريه . ولما كان ميناء السويس والأدبيه هما اكثر موانىء مصر تعرضا لخطر العدو البحرى والجوى ،فقد اتفقنا مع الجهات والأجهزة المعنيه على تحويل حركة النقل التجارى بالبحر الاحمر الى مينائى " سفاجا " و " القصير " اللتين جهزتا - مسبقا - لهذا الغرض ،مما أدى الى انتظام حركة نقل التجاره بين مصر ،والشرق الأقصى ،وبلدان جنوب شرقى آسيا ،والهند . ومع أن ثغر الاسكندريه وموانئيه كانت بمأمن من أى تدخل جوى من جانب اسرائيل ،الا أن تكثيف دفاعات الاسكندريه ،وتشديد المراقبه والانذار بالاضافه الى تشغيل ميناء مرسى مطروح فى أقصى الغرب ،وتوفير الحمايه له ،أدى الى انتظام حركة تجارة مصر فى البحر المتوسط بنفس المعدلات التى كانت عليها قبل اشتعال حرب اكتوبر ٧٣ ،ووفقا للتوقيتات العاديه لحركة الواردات ، والصادرات فى مثل هذا الوقت من السنه .

هذا وقد أثبتت اعمال الحصار البحرى ، والتصاقها بالوطن العربى الذى يمتد من المحيط الأطلسى غربا حتى الخليج العربى شرقا أنه لم يعد هناك مسارح عمليات بحريه متمايزه ،وانما هى مسرح واحد يضم المحيط الهندى ،والبحر الاحمر ، والبحر المتوسط وأن هذه المنطقه الشاسعه هى - فى الحقيقه - وحدة ضخمة جغرافيه ،سياسيه ،واستراتيجيه جغرافيه فى آن واحد . وقد أثبتت هذه الوحده

ـ من جانب آخر ـ فعاليتها فى احكام الرقابه على حركة تجارة اسرائيل البحريـــه من جزيره " مالطه " بالبحر المتوسط حتى " القرن الأفريقى " بالمحيط الهنـــدى .

العالم بين بترول العرب، وقناه السويس

يمكن القول بأن العمليات القتاليه لحرب اكتوبر ٧٣ قد توقفت، وهـــدأ اوار المعارك بعد ان حققت اهدافها الاستراتيجيه .

ويمكن القول أيضا أن الهدف السياسى المباشر لمعركة اكتوبر ٧٣ قد تحقق بعد أن تحركت القوتان العظمتان (١) على طريق " مؤتمر جنيف للسلام " .

وبذلك أحرزت حرب اكتوبر النصر العسكرى ، والنصر السياســـى اللذيـــن استهدفتهما .

ولكن هل تكتمل صوره نصر اكتوبر بدون الدور الذى لعبه " بترول العرب " فـــى المعركه ؟ ودون الدور الذى لعبه نصر اكتوبر فى اعادة الملاحه العالميه لطريـــق قناه السويس ؟ ... وهى أدوار كان لها أكبر الأثر فى اقتصاد العالم .

البترول العربى ، سلاحنا فى المعركه (٢)

فى ٩ اكتوبر سنه ١٩٧٣ دعت الكويت لعقد اجتماع طارئ لجميع الدول العربيه المنتجه للبترول ، لبحث دور البترول العربى فى المعركه الناشبه فى الشرق الأوسـط ، وكان مجلس قياده الثورة بالعراق قد أصدر ـ فى ٧ اكتوبر ـ قرارا بتأميم حصة شركـــة اكسون ، وموبيل أويل البالغه ٢٣٫٧٥٪ من عمليات شركة بترول البصره .

(١) اعادت الحكومة المصريه علاقاتها الدبلوماسيه بحكومة الولايات المتحدة الأمريكيه فى ٢٨ فبراير سنه ١٩٧٤ اظهارا لثقتها فى حسن النوايا الأمريكيه حيـــال السلام ، وتقديرا للجهود البناءة التى اضطلع بها الدكتور " هنرى كيسنجر " وزير الخارجيه الأمريكية ، والتى أصبغت عليه صفة " المكوك " .

(٢) مراجع هذا الجزء :ـ
أ ـ مجلة Petroleum Economist Various issues , 1974-76
ب ـ كتاب " سلاح البترول ، والصراع العربى الاسرائيلى " للدكتور / حامد ربيع (يوليو ١٩٧٤)
جـ ـ مجلة " السياسة الدولية " الأعداد يناير ، أبريل ، اكتوبر سنه ١٩٧٤ ، وعدد يناير ١٩٧٥ .

منذ ظهور البترول خارج أمريكا ،والأقطار الجديده المنتجه للبترول تحاول أن تكون لها كلمة مسموعه في بترولها ، ولكنها أخفقت في تحقيق ذلك حتى بعد تكوين منظمتها الدوليه (أوبك OPEC) ، ولم تشذ الدول العربية المنتجه للبترول عن هذه القاعده برغم أنها أقامت فيما بينها" منظمة الأقطار العربيه المصدره للبترول " (أوابك OAPEC) في بدايه عام ١٩٦٨ .

وعجزت المنظمة الدوليه - على مدى عشر سنوات منذ انشائها - في أن ترفع سعر برميل البترول بأكثر من ١٣ سنتا فقط(عام ١٩٧٠) ،ومن الطريف ان هذه الزيادة لاتمثل الا ٦٪ فقط من السعر الذى كان عليه عام ١٩٦٠ ،بينما ارتفع سعر البرميل بنسبه ٧٪ خلال المده بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٣ على الرغم من خفض قيمة الدولار الأمريكي (١) ... وفي يوم واحد ،السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ ،قفز سعر البترول في جميع أقطار البترول العربيه بمقدار ٧٠٪ تنفيذا للقرارات التي صدرت عن اجتماع وزراء البترول العرب الذى انعقد بالكويت .

وفي ١٧ اكتوبر سنة ١٩٧٣ اجتمع بالكويت وزراء بترول عشر دول عربية (٢) واعلنوا في نفس اليوم عن قرارهم التاريخي : يتناقص الانتاج البترولي لكل دولة عربيه مصدره للبترول فورا بنسبة شهريه متكرره لاتقل عن ٥٪ ابتداء من الشهر الأول من رقم الانتاج الفعلي لشهر سبتمبر سنة ١٩٧٣ ... وهكذا حتى تفرض المجموعه الدولية على اسرائيل التخلي عن أراضينا المحتله .

= د - الندوه الدوليه لحرب اكتوبر ٧٣ (القطاع السياسي المجلد الثاني) ، التي عقدت بالقاهره في المده ٢٧-٣١ اكتوبر ١٩٧٥ .
هـ - كتاب " حرب البترول " للأستاذ / محسن محمد .

(١) في الشهور الأولى من عام ١٩٧٣ انخفض انتاج أمريكا من البترول بمقدار ٢٪ على حين ازداد استهلاكها بمقدار ٥ر٥٪ بينما تستورد أوروبا قرابة ٧٠٠ مليون طن سنويا وتستعوض بلدان الشرق الأقصى النقص في انتاجها باستيراد حوالى ٣٠٠ مليون طن سنويا ،في الوقت الذى ينتج فيه الشرق الأوسط وحده ما يناهز ١٠٠٠ مليون طن سنويا يصدر منها ٩٠٠ مليون طن .
(نفس المراجع) ..

(٢) هذه الدول هي : السعوديه ،الكويت،العراق ،أبو ظبي ،البحرين ،قطر ، سوريا ،الجزائر،ليبيا ،مصر .

وفى ٤ نوفمبر، عقد وزراء البترول العرب اجتماعا ثانيا بالكويت، وقرروا فيه خفض فورى لانتاج البترول بمقدار ٢٥٪ من متوسط انتاج شهر سبتمبر ٧٣ ثم خفضه - مره ثانيه - فى شهر ديسمبر بنسبة ٥٪ عن معدلات انتاج شهر نوفمبر ٧٣ ... ووقف تام لشحنات البترول الخام، ومنتجاته الى كل من الولايات المتحده الأمريكيه وهولندا .

وكان معنى هذه القرارات انخفاض واردات الدول المتقدمه صناعيا من البترول على النحو الآتى : الولايات المتحده الأمريكيه بنسبة ٣٥٪ وأوربا الغربيه ٢٥٪ واليابان حوالى ٣٣٪ . ومن ناحيه أخرى رفع أسعار البترول الخام يؤدى الى رفع الفائض النقدى للدول العربيه المصدره للبترول الى أكثر من ٦٠ بليون دولار فى عام ١٩٧٤ يقابله عجز فى ميزان مدفوعات الدول الصناعية يصل الى حوالى ٥٢ بليون دولار فى نفس العام ... مما جعل من الدول العربية المصدره للبترول قوة مؤثره فى الاقتصاد العالمى .

ومع أن قرار الاجتماع الأول - ١٦ اكتوبر - فاجأ العالم الغربى الذى كان دائما يحط من قدرة الدول العربيه على اتخاذ مثل هذا القرار، فان قرارات الاجتماع الثانى (٤ نوفمبر) لم تكن مفاجأة فحسب وانما هى صدمة عنيفه، لأنها جاءت بعد اثنى عشر يوما من قرار ايقاف اطلاق النار الذى أصدره مجلس الأمن فى ٢٢ اكتوبر ٧٣، الأمر الذى يعنى أن الدول العربيه مصممه على أن تخطو ببترولها على الطريق الذى رسمته له والى أبعاد لم يحسب لها الغرب حسابا (١)

(١) جاء بديباجه قرار الاجتماع الأول المقتطفات التاليه : " بما أن الهدف المباشر للمعركة التى تدور رحاها حاليا هو تحرير الأرض العربيه المحتله فى حرب يونيه ١٩٦٧، واستعادة الحقوق المشروعه للشعب الفلسطينى ... وبما أن الدول الصناعيه الكبرى تسهم بشكل، أو بآخر فى بقاء الوضع الراهن رغم ماعليها من مسئولية عامة لتنفيذ قرارات الأمم المتحده ... وبما أن الوضع الاقتصادى فى كثير من الدول العربيه المنتجه للبترول لا يبرر زيادة انتاجها البترول ... ولذلك فان المجتمعين يقررون ... " الى آخر البيان السابق الاشاره اليه .

واذا كان البترول بالنسبه للولايات المتحده الأمريكيه " مصدر طاقة " فانـه بالنسبه لهولندا " مصدر ثراء " . فميناء " روتردام " الهولندى هو اكبر ميناء بترول فى العالم حيث استقبل ١٨٨ مليون طن من البترول عام ١٩٧٣ اعادت هولندا تصدير ١١٦ مليون طن منها وقامت معاملها بتكرير الباقى (٧٢ مليون طن) صدرت منها نحو ٥٠ مليون طن منتجات بتروليه ،واستهلكت الكميات المتبقيه . وتكفى هذه الأرقام لتوضيح مدى اعتماد اقتصاد هولندا على البترول ، والى أى حد يمكن أن يضار الاقتصاد الهولندى بقرار خفض انتاج البترول العربى ،فما بالنا بايقاف شحناته . (١)

ولعل أبرز المواقف التى فجرتها قرارات العرب البترولية ،والتى كانت لها أثر مباشر فى معركة اكتوبر ٧٣ هو الموقف الذى اتخذته دول أوروبا أعضاء حلف شمال الأطلنطى برفضها التعاون مع أمريكا فى نقل امدادات السلاح الى اسرائيل ،وحذو اسبانيا أيضا حذوها ،ثم اعلنته دول السوق الاوربيه المشتركة فى بيانها الذى أصدرته يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٧٣ والذى نددت فيه بموقف اسرائيل ،وطالبتها بضرورة وضع حد لاحتلالها للأراضى العربيه فى حرب ١٩٦٧ ، كما أعلنت عن استعداد الدول التسعه أعضاء السوق لبذل كل مافى وسعها للمساهمه فى دفع عجلة المفاوضات لاعادة سلام عادل ،ودائم فى الشرق الأوسط، تطبيقا لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .

وفى اسرائيل رفعت الحكومة الاسرائيليه - فى أواخر شهر اكتوبر ٧٣ - أسعار المازوت والبنزين بنسبه تتراوح بين ٤٠٪ ، ٥٠٪ نتيجه لانخفاض كميات البترول المعروضه فى الأسواق العالميه ،وارتفاع أسعاره .

وفى الولايات المتحده الأمريكيه ،أعلن الرئيس نيكسون أن توقف شحنات البترول العربى الى أمريكا يحرمها من ١٧٪ من استهلاك البترول وأن هذا

(١) الأهرام الاقتصادى ١٥ ديسمبر ٧٣ ص ٢٧ - ٢٩ .

سيؤدى الى أخطر أزمة فى الطاقه يمر بها الشعب الأمريكى منذ الحرب العالميه الثانيه ،كما أصدر الرئيس الأمريكى عددا من القرارات العاجله : منها تحديد السرعه القصوى للسيارات ،وانقاص عدد الرحلات الجويه التى تقوم بها طائرات هيئة الطيران الفيدراليه .

وحدث ماكانت تخشاه الدول المتقدمه صناعيا ،فقد رفعت الدول غيرالعربيه المصدره للبترول (أوبك) أسعار بترولها الخام ،فازدادت حدة أزمة الطاقه ، مما دفع الرئيس الأمريكى " نيكسون " الى دعوة الدول المستهلكة للبترول الى مؤتمر يعقد فى " واشنطون " ،لتنسيق الجهود ،ولايجاد حل لأزمة الطاقه .(١)

وواصلت الدول العربيه استخدام البترول كسلاح ضغط سياسى ،واقتصادى . ففى ٩ نوفمبر ١٩٧٣ ،قررت الدول العربيه اجراء خفض ثان فى انتاجها البترولى بنسبه ٥ ٪ ابتداء من يناير ١٩٧٤ ،كما قررت أيضا أن يتم رفع الحظر عن الولايات المتحده الأمريكيه فور قيام اسرائيل بتوقيع اتفاقيه تنص على انسحاب قواتها فى وقت محدد من الأراضى المحتله ،وضمان حكومة واشنطون تطبيق هذه الاتفاقيه .

وفى ١٨ نوفمبر اجتمع وزراء البترول فى " فيينا " وقرروا اعفاء دول السوق الأوروبيه المشتركه فقط من خفض نسبة الخمسة بالمائه المقرر تطبيقها فى شهر ديسمبر .

---

(١) انعقد هذا المؤتمر بواشنطون فى المده من ١١-١٣ فبراير سنه ١٩٧٤ ، وحضره ممثلون عن ١٣ دوله تستهلك اكثر من ٨٥ ٪ من بترول العالم ، والذى افتتحه الدكتور " هنرى كيسنجر " وزير الخارجيه الأمريكى . واتفق فى المؤتمر ـ سرا ـ على ألا تدخل أى دوله منها فى اتفاقيات بتروليه ثنائيه مع الدول العربيه . وفى ختام المؤتمر صدر بيان يدعو الى عقد مؤتمر تشترك فيه الدول العربيه ،والدول الأخرى المنتجه للبترول مع الدول المستهلكه فى محاولة " لتخفيف الآثار المترتبه على أزمة البترول فى العالم " ... وبعدها بأسبوع أعلن وزير خارجيه فرنسا أن بلاده لن تشترك فى اجتماعات " لجنه التسويق " التى شكلها " مؤتمر الطاقه " .

وفى الفترة من ٢٦ الى ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ انعقد بالجزائر مؤتمر القمة العربى ، وأصدر قرارا – ضمن ما أصدره من قرارات – باستخدام البترول بنفس الأسس التى وضعها وزراء البترول العرب ،واعفاء اليابان من خفض نسبة الخمسه بالمائه خلال شهر ديسمبر ٧٣ أسوة بما اتبع مع دول السوق الأوربيه تقديرا لليابان على البيان الذى أصدرته تأييدا للقضيه العربيه . والجدير بالذكر أن هذه الاعفاءات لم تمتد الا لشهر ديسمبر فقط، وطبقت نسبة الخفض المقرره لشهر يناير ١٩٧٤ على جميع الدول التى تخضع لقرار مؤتمر الكويت الأول ، دون استثناء مع استمرار الحظر على الولايات المتحده الأمريكيه ،وهولندا .

وفى ٢٣ ديسمبر قررت الدول العربيه زيادة قدرها ١٠٠٪ على أسعار بترولها .

وفى ٢٥ ديسمبر قرر وزراء البترول العرب خفض الانتاج من ٢٥٪ الى ١٥٪ فقط اعتبارا من أول يناير ١٩٧٤ .

وفى ١٧ مارس سنه ١٩٧٤ ،قرر وزراء البترول العرب رفع الحظر البترولى عن الولايات المتحده الأمريكية تقديرا لجهودها فى التوصل الى اتفاقيه الفصل بين القوات المصريه ،والقوات الاسرائيليه وتنفيذها .

وفى ١٠ يونيه سنه ١٩٧٤ ،تم رفع الحظر البترولى عن هولندا بعد نجاح وزير الخارجيه الأمريكى فى جعل سوريا ،واسرائيل توقعان على اتفاقيه الفصل بين القوات على جبهه الجولان .

ولعلنا لانكون مغالين اذا نحن قلنا أن قوة البترول العربى الضاغطة ، وماترتب عليها من نفوذ سياسى عربى فى المحافل الدوليه ،كان السبب الرئيسى وراء القرار الذى اتخذته الجمعيه العامه للأمم المتحده فى ١٥ اكتوبر ١٩٧٤ ، بدعوة منظمة التحرير الفلسطينيه للاشتراك فى مناقشة المسألة الفلسطينيه .

عودة الملاحه لقناة السويس ، رخاء لشعوب العالم(١)

اذا كان اغلاق قناة السويس عام ١٩٥٦ لمدة ستة شهور قد لفت أنظار العالم لما يمكن أن يحيق بحركة وحجم التجارة البحريه من تصدع، فان توقف الملاحه عبر القناه في يونيه ١٩٦٧ ترتب عليه آثار اقتصاديه عمت كل قطاعات النقل البحرى ، وبالتالى الاقتصاد العالمى :

١- تحملت التجارة البحريه ، في ثلاث سنوات ونصف التاليه على غلق القناة ، زيادة في تكلفه النقل ، وخسائر ماليه بلغت ٧٠٨٠ مليون دولار أى بمعدل زيادة قدرها ١٧١٥ مليون دولار سنويا نجمت عن :

- زيادة تكلفه نقل البضائع الجافه ، والشحنات البترولية بمقدار ٤٣٥٥ مليون دولار .

- خسائر ترتبت على تحول حركة التجارة بين موانئ الشحن ، والتفريغ بلغت ٢٥٦٠ مليون دولار .

- قيمة السفن المحتجزة بالقناه ، وشحناتها ، والتى قدرت بنحو ٣٠ مليون دولار .

- ارتفاع اسعار الفائده التجاريه ، والعمليات الاستثماريه بمقدار ١٣٥ مليون دولار .

---

(١) مراجع هذا الجزء :

a)The Economic Effects of the closure of the Suez Canal. UNCTAD Publication, 1873

b)Suez , One Year on, Seatrade Study, June 1976

c) UnCTAD Review of Maritime Transport, 1974- 1977.

d) World Bulk Trade, Fearnley and Eggers Chartering Co.,1976.

٥- مجله " السياسه الدوليه" ، عدد أبريل ١٩٧٥ : قناه السويس والاستراتيجيه الدولية ، ص ٤١ - ١٣٨ .

٦- " الندوة الدولية لحرب اكتوبر " المنعقده بالقاهره في المده ٢٧ - ٣١ اكتوبر ٧٥ القطاع العسكرى والقطاع السياسى .

٢- خسارة مصر للعائد السنوى من رسوم مرور السفن بقناة السويس ، والتى بلغت ٢٢٤ مليون دولار تقريبا فى العام السابق على غلقها .

٣- ركود حركة تردد السفن التجاريه على الموانى الواقعه على خط التجاره المار بقناه السويس مما أدى الى هبوط حاد فى عائداتها سواء كان من رسوم ، ومكوس الموانى ، أو من مبيعات الوقود (عدن ، جيبوتى ، بورسودان ، السويس) .

٤- ركود عمليات اصلاح ، وترميم السفن بعدد كبير فى موانى البحر المتوسط ، وفى مقدمتها موانى اليونان ، وايطاليا ، وجزيره مالطه .

٥- تزايد حركة تردد السفن التجاريه ، ولا سيما ناقلات البترول ، على الموانى الواقعه على طريق رأس الرجاء الصالح مثل " ممباسا " ، و " موريشوسى " و " جنوب افريقيا " و " لاس بالماس " أدى الى ارتفاع عائداتها بنسب تتفاوت بين ٨٠ ٪ ، و ٤٥ ٪ عما كانت عليه قبل اغلاق القناه .

ويرجع السبب الرئيسى لهذه التغيرات الى تحول حركة التجاره المنقوله بحرا بين الشرق والغرب الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وماترتب على ذلك من زياده فى المسافات التى اصبح على السفن قطعها بين موانى الشحن والتفريغ يتراوح بين ٥٦ ٪ ، ٤٠ ٪ عما كانت تقطعه بطريق قناه السويس . (١) وقد تحمل قطاع نقل البترول — ولا سيما بين موانى الخليج العربى ، وموانى شمال غرب اوربا ، روتردام مثلا — العبء الأكبر من الخسائر وزيادة التكلفه التى نجمت عن هذا التحول ، والتى بلغت ٢٨٦٠ مليون دولار فى الثلاث سنوات ونصف التاليه على اغلاق قناه السويس. (٢) ومن ناحيه أخرى ارتفع سعر نقل طن البترول الخام

---

(١) على سبيل المثال : المسافه بين موانى الخليج العربى وموانى شمال غرب أوروبا عن طريق قناه السويس تبلغ ٦٥٠٠ ميل بحرى بينما هى ١١٣٠٠ ميل بحرى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وهذا يعنى أنه بعد أن كانت السفينه تقوم بتسع رحلات دائريه فى السنه أصبحت تقوم بخمس رحلات فقط .

(٢) تحملت صادرات بترول الشرق الأوسط وحدها ٢٠٠٠ مليون دولار أى بمعدل ٥٠٠ مليون دولار سنويا .

بمقدار ١٫٤٠ دولار بين موانئ الخليج العربى، وموانى شمال غرب أوروبا، وفى نفس الوقت لم يعد أسطول ناقلات البترول العالمى كافيا لنقل الشحنات البتروليه الأمر الذى ترتب عليه : ١- زيادة الاقبال على بناء الناقلات، ٢- نمو حجم الناقله لتعويض نقص عدد الرحلات الدائريه، وبالتالى الحفاظ على حاجة العالم من المواد البتروليه، ٣- اضطراد نمو حجم أسطول الناقلات حتى أصبح ،فى نهاية عام ١٩٧٣، يضم ٣٢٩٣ ناقله قيمة حمولتها ٢١٢٫٢ مليون طن أى مايعادل نصف حجم أسطول العالم التجارى .

وفى نهايه عام ١٩٧٣ بلغ حجم شحنات البترول الخام المنقوله عبر البحار نحو ١٨٤٠ مليون طن انخفضت الى ١٣٦٠ مليون طن تقريبا فى نهايه عام ١٩٧٤ منها نحو ٨٩٠ مليون طن من منطقة الخليج العربى الى جميع أنحاء العالم وبلغ نصيب بلدان شمال غرب أوروبا، وحوض البحر المتوسط من بترول الخليج قرابه ٣٧٠ مليون طن .. سلكت جميعها طريق رأس الرجاء الصالح .

ولو أن قناة السويس لم تغلق، وسارت مشروعات توسيعها، وتطويرها وفقا للخطط التى وضعت لها، وبرامج تنفيذها، ماتصاعد حجم ناقله البترول بهذا القدر الكبير ولاتسعت القناة لمرور ٩٠ ٪ من سفن أسطول النقل العالمى، وماتحمل العالم كله هذه الأضرار الاقتصاديه .

ومن جانب آخر، أعطى اغلاق قناة السويس دفعه قويه لمشروعات بناء خطوط أنابيب البترول عبر أراضى الشرق الأوسط لايصال بترول الخليج العربى الى البحر المتوسط حيث يعاد شحنه الى الأسواق الأوروبيه، والتى من أهمها خط أنابيب " سوميد " المار بالأراضى المصريه من " العين السخنه " على البحر الاحمر الى " سيدى كرير " على البحر المتوسط والذى تبلغ طاقته ٨٠ مليون طن من البترول الخام سنويا . (١) وتبع مشروع خط " سوميد " ، المشروع العراقى التركى

---

(١) فى ٢٩/٩/٧٣ تم توقيع عقد تأسيس " الشركة العربيه لأنابيب البترول" بين مصر ، والسعوديه ، والكويت، وقطر، ودولة الامارات العربيه برأس مال قدره ٤٠٠ مليون دولار موزعه على ٤٠ ألف سهم اكتتبت مصر فى نصفها . والخط

بين كركوك ،والاسكندرونه ،والذى بدئ في تشغيله - بطاقه ٣٠ مليون طـــن سنويا - في عام ١٩٧٧ ،ثم مشروع خط الأنابيب السعودى الضخم الذى ينتهـى عند ميناء " ينبع " على البحر الأحمر ،والذى تقدر طاقته القصوى عند اتمامه بنحو ١٠٠ مليون طن سنويا . والمعنى الذى تنطوى عليه هذه الخطوط أنه في حالة اعادة فتح قناة السويس وعدم قدرتها على استيعاب مرور الناقلات العملاقـــه (٢٧٠٠٠٠ طن ،وأكبر) فان هذه الخطوط - باستبعاد الخط الاسرائيلى - بوسعها تعويض هذا النقص بأن تقوم مجتمعه بنقل ماقيمته ٣٠٠ مليون طن مـن بترول الخليج العربى سنويا الى أوروبا متجنبه طريق رأس الرجاء الصالح .

وتقدر تقارير خبراء الاقتصاد ،وتقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصـادى الأوروبيه (OECD) أن واردات أوروبا من بترول الخليج العربى ستصل الـى حوالى ٦٠٠ مليون طن سنويا ابتداء من عام ١٩٨٠ ،أى أنه ينبغى أن يصل الى الأسواق الأوروبيه ٣٠٠ مليون طن أخرى من بترول الخليج عن غير طريق خطوط الأنابيب ،وهى كمية يمكن أن تمر عبر قناة السويس لو أعيد فتحها للملاحه ... ولكن هل بالامكان فتح القناه ،وتأمين سلامة حركة الملاحة بها ،والعدو الاسرائيلـى جاثم على ضفتها الشرقيه ؟ بالقطع لا ..

جاء نصر اكتوبر ليزيح الأخطار التى كان الوجود الاسرائيلى يشكلها علـى سلامة ، وأمن حركة الملاحه بالقناه لتبدأ - في فبراير سنة ١٩٧٤ - عمليات نـزع الألغام ،والمفرقعات على جانبى القناه ،والتى أعقبتها فى الشهر التالى ،عمليات تطهير القناه التى أسهمت فيها بقسط وافر كل من الولايات المتحده الأمريكيـه ، والمملكة المتحده ،والاتحاد السوفيتى ،واليابان ،وفرنسا بجانب الجهد المصـرى الذى اشتركت فيه عناصر ،ووحدات من قواتنا البحريه .

= مصمم أساسا لنقل خام البترول السعودى ،والكويتى ،والايرانى مخلوطـا بخام حقل " مرجان " المصرى . وقد بدئ في تشغيله بطاقه ٤٠ مليـون طن في ديسمبر سنة ١٩٧٦ ،ترتفع تدريجيا الى ٨٠ مليون طن ،ثم الـى ١١٧ مليون طن اذا لزم الأمر .

وفى يوم ٥ يونيه ١٩٧٥ ، افتتح الرئيس محمد أنور السادات - فى مشهد بحرى مهيب - الملاحه بقناة السويس بعد توقفها ثمانى سنوات ليعيد للعالم شريانا من أهم شرايين حياته الاقتصاديه ، ويهدى لكل شعوب العالم جرعه من حب مصر للسلام وتعبيرا من الرئيس المصرى عن تقديره للضروره الحضاريه التى تنطوى على اعادة فتح قناة السويس للملاحة العالميه .

وبدأت خطط مشروعات تطوير القناه ، وتوسيعها تأخذ طريقها نحو التنفيذ ، والتى بانتهائها (عام ١٩٨١) تتسع القناه لمرور ناقلات البترول حتى حمولة ٢٦٠ الف طن بكامل حمولتها ، وللناقلات حمولة ٣٠٠ الف طن بالمرور بشحنات مخففه ، ومازادت حمولتها عن ذلك يمكنها استخدام قناة السويس وهى فى طريق عودتها فارغه من موانئ اوروبا الى موانئ الخليج العربى بدلا من الطريق الأطول حول رأس الرجاء الصالح . أما بالنسبه لسفن البضاعه العامه ، وسفن البضاعه الصب الجافه التى تعمل بين الشرق والغرب ، فلا يوجد مايحول دون عودتها لاستخدام القناه من اليوم الأول لاعادة فتحها .

هذا وتشير الاحصائيات الصادره عن " هيئة لويدز " العالميه للتأمين البحرى الى أن اسطول ناقلات البترول العالمى الذى يضم الناقلات من حمولة ١٠ آلاف طن الى ٢٥٠ الف طن بلغ - فى نهاية عام ١٩٧٦ - نحو ٣١٩٠ ناقلة مجموع قيمة حمولتها ٢١٦٫٧ مليون طن فى مقابل ٣٥٣ ناقله تزيد حمولة الواحدة عن ٢٥٠ الف طن اجمالى حمولاتها حوالى ١٠١٫٦ مليون طن . وفى نفس الوقت ، بلغ مجموع ماتحت الطلب من الناقلات من فئه ١٠ ألف الى ٢٥٠ الف طن مايقرب من ٢٣٦ ناقلة (١٦ مليون طن) ... أى انه بحلول عام ١٩٨٠ سيكون بوسع قناة السويس التعامل مع قرابة ٣٤٢٦ ناقله كامله الحموله أى مايعادل أكثر من ٨٩٪ من عدد سفن أسطول الناقلات العالمى ، ومايناهز ٦٦٪ من مجموع حمولته ، هذا فضلا عن الناقلات التى تقل حمولة الواحده عن ١٠ آلاف طن .

ومن ناحية أخرى ،أدى اعادة فتح القناه الى الغاء الكثير من عقود بنـاء الناقلات العملاقه (أكبر من ٢٥٠ الف طن) وتسببت فى حدوث بطاله فى سوق هذه الناقلات قدرت ،فى عامى ٧٦ و ٧٧ بنحو ١٠ مليون طن .

ومع الأخذ فى الاعتبار أن البترول مازال ،وسيظل أرخص مصادر الطاقه ، وان منطقه الخليج العربى هى أكبر مصدر له ،وتتمتع بأكبر مخزون بترولى فى العالم ،وأن قناة السويس هى أقصر طريق بحرى لنقله الى أسواق أوروبا ، وأن هذه الأسواق لاتقل وارداتها عن ٦٠٠ مليون طن سنويا من بترول الخليج ، فان قناة السويس وحدها قادرة على استيعاب حركة هذه الكميه على الناقلات حمولة حتى ٢٥٠ ألف طن . ولكن اعتبارات الحفاظ على سلامة القناة ، وبعض الاعتبارات الفنيه والملاحيه المتعلقه بحركه المرور ،وضرورة توفير حصة لحركة مرور سائر أنواع السفن تقتضى فرض نوع من القيد على عدد رحلات الناقلات العابرة للقناه من طرفيها ،وهو أمر متروك لحسابات هيئة قناة السويس .

ومما لا شك فيه أن لعودة الملاحه للقناه آثاره ،ونتائجه التى نوجزها فيما يلى :

١- تحقيق وفر للسفن قدره ٥٠٪ من مصروفات الوقود ،و ٤٠٪ من القيمة الاجمالية لنفقات التشغيل .
٢- تحقيق دخل للقناه قدره ١٠٠٠ مليون دولار تقريبا فى السنه .
٣- زوال كل المصروفات الاضافيه التى كانت تتحملها السفن اثناء اغلاق القناه ، والتى عرفت فى الدوائر البحريه بأسم " علاوة قناة السويس " ،والتى كانت تمثل نحو ٣٪ من قيمة مصروفات تشغيل السفينه فى السنه .
٤- عودة الانتعاش للموانىء الواقعه على الخط الملاحى المار بقناة السويس بين الشرق والغرب ،وغالبيتها لدول صديقه وقفت بجانب الحق العربى اثناء وبعد حرب اكتوبر .
٥- زيادة قيمة التجارة بين الشرق والغرب بحوالى ٦٠٠ مليون دولار سنويا .
٦- تنشيط حركة سفن الدحرجه (Roll on - Roll off) والحاويات (Containers) وبالتالى الاسهام فى سرعه نهو مشروعات التعمير

الضخمه بالدول العربيه المطله على البحر الاحمر، والخليج العربي ، وخفض تكلفتها .

٧- انشاء " مناطق حره " بمنطقة قناة السويس لمختلف الصناعات التصديريه في اطار سياسة الانفتاح الاقتصادى .

٨- انخفاض نسبة تعرض السفن لأخطار سوء الأحوال البحرجويه نظرا لقصر مدة الابحار بين موانىء الشحن والتفريغ، وما تتمتع به مياه البحرين الأحمر، والمتوسط من اعتدال لا يتوافر بالمحيطين الهندى ، والأطلسى .

٩- بصفه خاصه : تنشيط حركة صادرات فوسفات الأردن ، والمغرب ، وخفض تكلفه نقل واردات بلدان جنوب شرقى آسيا من المنتجات الزراعيه ، ولا سيما الدقيق الهولندى ، والقمح الأمريكى ، واعادة الرواج لصادرات الموزالصومالى ، والأثيوبى الى أسواق أوروبا ، واعادة الحياه لصغار ملاك سفن البضاعه الجافه لما اتاحته القناه لسفنهم من فرص القيام بعدد اكبر من الرحلات فى مياه مأمونه .

كان هذا ايجازا للجانب الاقتصادى المرتبط بقناة السويس ، فماذا عن الجانب الاستراتيجى ؟

يرى فريق من المحللين السياسيين ، والعسكريين أن قناة السويس لم تعد لها نفس أهميتها الاستراتيجيه التى كانت لها من قبل بالنسبة للمصالح الغربيه على وجه الخصوص، وقد يكون فى هذا الرأى شىء من الحقيقه ، ولكنا يجب أن ننظر الى الأمر من وجهة النظر العربيه .

ان عودة الملاحه الى قناة السويس ، وما ترتب عليها من انتعاش اقتصادى لدول أوروبا الغربيه ، يسهم فى دعم التعاون العربى الأوروبى ، وهو فى حد ذاته كسب كبير ، واضافه اكيده لقوة العرب السياسيه على الصعيد الدولى . هذا فضلا عن أن ماستجنيه الدول غير الأوروبيه التى تستخدم قناة السويس من مزايا اقتصاديه يعتبر كسبا اضافيا للمصالح المشتركة بين هذه الدول ، وبالتالى دعما محققا لقوة العرب السياسيه على الصعيدين الاقليمى ، والدولى .

ومن ناحيه أخرى فلايمكن الفصل بين الخليج العربى ،وبين قناة السويس . فطالما ظل البترول ومنتجاته يحتل مكان الصداره فى قائمه المواد الاستراتيجيه ، فان قناة السويس ستظل محتفظه بأهميتها الاستراتيجيه ، لاسيما بعد أن أصبح المحيط الهندى - المنفذ الرئيسى لبترول الخليج - هو المسرح الجديد لصراع بين الولايات المتحده الأمريكيه ،والاتحاد السوفيتى . وهنا تلعب قناة السويس دورا من أهم الأدوار فى الاستراتيجيه السوفيتيه البحريه المتصلة بالبحرالمتوسط، والمحيط الهندى أى توطيد النفوذ السوفيتى فى منطقة " الحزام الجنوبى للشرق الاوسط " ،وامكانية ممارسة تأثير سياسى ضخم على دول منطقة الخليج العربى ، وفى مقدمتها ايران ،والعراق .

فاذا انتقلنا الى دور قناة السويس فى الصراع العربى الاسرائيلى ، فسنجد أنها فقدت - بعد حرب اكتوبر ٧٣ - الكثير من أهميتها كمانع مائى ،ولكنها ، على العكس ،أكدت مدى أهمية الدور الذى تلعبه فى اتصال العمق الاستراتيجى للوطن العربى ،وفعالية تأثيره فى الاستراتيجيه البحريه العربيه ،لا بالنسبه للصراع العربى الاسرائيلى فحسب ،بل وأيضا فى مواجهة أى تدخل غريب فى المنطقه لاسيما ضد منابع البترول الذى يزخر بها العالم العربى .

ولعل خبرة الحصار البحرى الذى مارسناه ضد اسرائيل فى حرب اكتوبر ٧٣ هى أبرز المؤشرات لما يمكن أن يقدمه هذا العمق - فى المستقبل القريب - من امكانات توازن استراتيجيه العرب البحريه ،وتكاملها خصوصا بعد تزايد أهميه البحر الأحمر بالنسبة لسياسات القوى الكبرى تجاه منطقة الشرق الأوسط، وهى امكانات تقل فرص استثمارها فى حالة اغلاق قناة السويس،وتهديد سلامة ،وأمن حركة الملاحه بها .

وترجع أهميه البحر الأحمر - كطريق ملاحى مأمون يحمل ٦٠ ٪ من واردات البترول الى أوروبا ،و ٨٠ ٪ من واردات منطقة الخليج العربى من المصادر الاوروبيه - الى أنه ينتهى عند طرفيه بمناطق حاكمه : ففى أقصى الجنوب يوجد

مضيق باب المندب ،وفى أقصى الشمال قناة السويس ... وعلى هذا فان اليـد التى تقبض على أى النهايتين تتحكم فى مصالح الدول خارج البحر الأحمـر، وداخله ،وهنا تبرز الأهميه الخاصه لهذا البحر بالنسبة لاسرائيل .

فمنذ احتلال اسرائيل لشبه جزيره سيناء فى أعقاب " حرب يونيه ١٩٦٧ (١) وتجارتها فى نمو مطرد مع كثير من الدول الأفريقيه ،وخصوصا فى شرقى القـاره ، فقد بلغ حجم التبادل التجارى بين اسرائيل ،وثمانى عشرة دولة أفريقيه - فى عام ١٩٦٩ - نحو ٢٩ مليون دولار ارتفع الى ٥٦ مليون دولار فى عام ١٩٧١ . (٢) هذا وقد بلغت قيمة الصادرات الاسرائيليه الى دول شرقى افريقيا وحدهـا حوالى ٧ر١٠ مليون دولار فى عام ١٩٧٣ لتقفز الى ٥ر١٩ مليون دولار عـام ١٩٧٤ والى ٤ر٢٩ مليون دولار بنهاية عام ١٩٧٥ (٣) . هذا فضلا عن وارداتهـا البتروليه التى كانت تأتيها من ايران ، والتى تقدر بنحو ٤٠ مليون طن ،بخـلاف الكميات الأخرى التى يعاد شحنها عن طريق خط الانابيب ايلات/ عسـقلان . فلا غرو أن يصرح " ابا ايبان " أمام الكنيست الاسرائيلى فى ٢٨ آذار ١٩٧٣ "أن أمن اسرائيل محدد ببقاء مخرجها الأمين والحر الى البحر الأحمر،وأن اسرائيل ستدافع عن مخرج البحر الأحمر بأى ثمن " ، وأن يدعو الأدميرال " بنيامين تيلم" قائد البحريه الاسرائيليه - بعد اعادة فتح قناة السويس للملاحه - الى ضـرورة تعزيز القوه البحريه الاسرائيليه لأن " فتح قناة السويس ينهى فترة الفراغ فـى منطقة القناة " ، ثم يقول الأدميرال تيلم " ان أى قوة تعمل لاغلاق باب المندب، ووقف الملاحه الاسرائيليه ستجعل سلاحنا البحرى يعمل مع سلاح الجو لوقـف

---

(١) نجح العدو الاسرائيلى بعد انتصاره فى هذه الحرب فى أن يكون له وجود عسكرى فى ميناء " عصب " ،و " مصوع " ،وفى بعض مجموعه جزر " دهلك " ، كما نجح فى استئجار جزيرتى " حالب " ،و " فاطمه " الواقعتين فى أقصـى جنوب البحر الأحمر .

(٢) عن مجلة " النفط والتنميه " ،العدد (٩) حزيران ١٩٧٧ ،ص ٩١-١٠٢ .

(٣) نفس المصدر .

هذه العمليه . (١)

واذا نحن جمعنا بين البترول العربى لدول الخليج ، وقناة السويس فستجد أن اجتماعهما - بعد انتصار اكتوبر ، ولأول مره - يشكل أداة استراتيجيه لهـا دور لا يمكن اغفال أهميته على المسرح الدولى . فدول الخليج تصدر للعالم الغربى نحو ٧٠٠ مليون طن من البترول الخام نصيب الدول الغربيه وحدها منه يبلغ حوالى ٤٦٠ مليون طن سنويا ينتظر أن يمر بقناة السويس قرابة ٣٥٠ مليون طن من هذا المقدار أى مايمثل ٧٦٪ من اجمالى واردات بترول العالم الغربى الذى يأتيها من دول الخليج العربيه . وهذه النسبة بدورها تعادل ٣٨٫٦٪ من مجموع واردات العالم الغربى من البترول الخام المنقوله بحرا . (٢) والمعنى الذى تنطوى عليه هذه الارقام - بعيدا عما حاولت الدعايات المعاديه تسميته " بالابتزاز البترولى " - أن العرب ببترولهم وقناتهم بوسعهم فرض ارادة عربية موحدة على الاتجاهات السياسيه ، والاقتصاديه العالميه اذا تعارضت تياراتها مع مصالح الأمة العربيـه .

---

(١) من جريده " دافار " الاسرائيليه الصادره فى ١٢/٦/١٩٧٥ .

(٢) هذه الارقام مستخرجه من الاحصائيات الوارده بالمراجع الآتيه :

١- Petroleum Economist , 1975-1977, (various Issues)

٢- World Tanker Fleet, February, 1977

٣- Sea trade, 1977, (Various Issues)

الباب الخـــامس

اكتوبـر فى ميزان الحــــروب

العبرة فى الحروب ليست بمقدار الخسائر التى تنزلها قوات طرف بقـــوات ومعدات الطرف الآخر، ولا هى بالانتصار فى معركة، وهزيمه فى معركة ثانيه . . . وانما العبرة بما حققته من أهداف سياسيه . فقد " تتعادل " خسائر الجانبيــن المتحاربين الناجمه عن العمليات القتاليه ومع ذلك يخرج أحد الجانبين منتصـرا من هذه الحرب لمجرد أنها أدت الى تحقيق أهدافه السياسيه، وأمانيه الوطنيه ... وحرب اكتوبر ٧٣ تعد نموذجا لهذا الطراز من الحروب .

فمع أن حرب أكتوبر ٧٣ تعتبر حربا محدوده زمانا، ومكانا الا أنها شــدت اليها انتباه العالم كله : بأحداثها، بمعاركها، بخسائرها، وبما ترتب عليها من نتائج، وردود فعل .

فبادى ذى بدء، حققت حرب اكتوبر ٧٣ كل الأبعاد السياسيه والاستراتيجيه التى استهدفتها القياده المصريه : كسر " حالة اللاسلم واللاحرب " ... اهـدار " نظريه الأمن الاسرائيلى القائمه على ضم الأراضى بالقوه " ... تنبيه الرأى العـام العالمى الى حتميه " اقرار سلام عادل بالمنطقه " ... استعادة كرامة العسكريـة المصريه .

وعلى هذا جاء حجم العمل العسكرى ـ تخطيطا وتنفيذا بقدر حجم وأبعاد الهدف السياسى، لا هو يتجاوزه، فتضيع معالم الطريق، ولا هو يتدانى عنه فيفقد مغزاه . ولذلك عند ما هب المجتمع الدولى مطالبا بايقاف القتال قبلت مصــر الدعوه، وعند ما جاء " كيسنجر " الى المنطقة يجمع خيوط السلام رحبت مصــر بجهوده، وعند ما طلبت اسرائيل فك حصار باب المندب لم تتعنت مصر، وبمبـادره مصريه خففت الدول العربيه من القيود على صادراتها البتروليه، وحدت من ارتفاع

أسعاره ... وبمبادرة مصريه أعيد فتح قناة السويس اسهاما في رخاء شعوب العالم .. وبمبادرة مصريه - لا تقل جرأة عن قرار الحرب - بدأت رحلة " السادات للسلام " الى القدس .

والترجمه العربيه لكل هذا أن " اكتوبر ٧٣ " كان حربا من أجل السلام .. سلام دائم قائم على العدل تأخذ الأمه العربيه مكانها فيه من مركز القوه الذى نبع من النصر العسكرى .

وقد يكون لاسرائيل دوافع غير دوافعنا في قبول وقف القتال ، وقبول جهود كيسنجر ، وهو أمر لم يؤثر في المسيره المصريه على طريق السلام العادل لجميع شعوب المنطقه بما فيها الشعب الاسرائيلى .

ردود الفعل الاقتصاديه ، والسياسيه

كانت الخطوه التى اتخذتها الدول العربية المصدره للبترول - في اكتوبر ١٩٧٣ - هى البدايه لما عرف فيما بعد باسم " البترودولار " ، و " الفوائض البتروليه العربيه " . فقد بلغ دخل الدول العربيه المصدره للبترول ، وايران حوالى ٨٦ ألف مليون دولار في عام ١٩٧٤ بعد أن كان ١٩ ألف مليون دولار في عام ١٩٧٣ (١) ، ومن ناحية أخرى ارتفعت قيمة الفوائض البترولية للدول العربية المصدره للبترول وحدها ، لتصل الى ٣٦٫٧ بليون دولار في عام ١٩٧٦ بعد أن كانت ١٠٫٢ بليون دولار في نهاية عام ١٩٧٣ (٢) ، وهو فائض يمثل ١٫٤ ٪ تقريبا

(١) عن دراسة قام بها " معهد الدراسات الاقتصاديه للشرق الأوسط " باليابان ، نشرته جريدة الأهرام بعددها الصادر في ١٣/١٢/١٩٧٤ .
(٢) عن التقرير الاحصائى السنوى الصادر عن منظمة الأقطار العربيه المصدره للبترول عام ١٩٧٧ .
- وعن كتاب " الفوائض البتروليه العربيه ، وامكانيات تدفقها الى مصر " للاستاذ / طه عبد العليم طه ، اصدار مركز الدراسات السياسيه ، والاستراتيجيه بالاهرام .

من الاحتياطي العالمي في العالم في منتصف عام ١٩٧٦ . (١) ومن ناحيه أخرى قرر " الصندوق العربي للأنماء الاقتصادي ،والاجتماعي " أن مجموع فائض الدول العربيه المصدره للبترول ستتراوح بين ٤٠٠ مليار و ٦٠٠ مليار دولار في خلال المده بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٨٥ .

هذا وقد اتجهت الدول العربيه المصدره للبترول نحو استثمار جانب كبير من عائداتها البتروليه في تصنيع البترول ،واقامه المصافي ،والصناعات الأخرى التكميليه ،كما أنها خصصت جانبا آخر للصناعات البحريه مثل تنمية أساطيلها التجاريه ،وتطوير الموانئ ،واقامة موانى جديده ،وبناء أحواض ومجمعات لاصلاح وصيانة السفن ،ولا سيما ناقلات البترول . ويتوقع المراقبون البحريون أن أسطول ناقلات البترول العربي سيتسع - في الثمانينات - لنقل قرابة ٤٠٪ من صادراتها البتروليه ،وهذا الانجاز ،بجانب المشروعات البحريه الأخرى ،يعتبر اضافة كبيرة لقوة العرب البحريه ،ودعما للاراده العربيه .

وفي أفريقيا ،لم يعد لاسرائيل - بنهايه عام ٧٣ - علاقات دبلوماسيه الا بأربع دول فقط . ويعتبر قطع ٢٣ دوله أفريقيه لعلاقاتها الدبلوماسيه باسرائيل عقب حرب اكتوبر ٧٣ مباشرة تعبيرا عن التضامن الأفريقي ،وبدء مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات العربيه الأفريقيه (٢) . وقد أكدت منظمة الوحدة الافريقيه في اجتماعات مجلس المنظمه ،وفي اجتماع مؤتمر القمه الأفريقي بمقديشيو في المده ٨-١٦ يونيه ١٩٧٤ ،أكدت استمرار موقف افريقيا من قضيه الشرق الأوسط ،

(١) نفس المصدرين السابقين .
(٢) أبرز سمات العمل الجماعي العربي الأفريقي انشاء : (١) " اللجنه السباعيه" لاجراء اتصالات افريقيه مع الدول العربيه من خلال الجامعه العربيه ، (٢) ادارة الشئون الافريقيه بجامعة الدول العربيه ، (٣) المصرف العربي للتنميه في افريقيا ، (٤) صندوق القروض العربيه للدول الافريقيه ، (٥) صندوق المعونة الفنيه للدول الافريقيه .

والتوصيه بأن تتقدم الدول الأعضاء بمساندة ،ودعم منظمة التحرير الفلسطينيه (١).

ووقفت الدول الآسيويه نفس موقف الدول الأفريقيه حيال القضيه العربيـة والحقوق المشروعه للشعب الفلسطيني ،وازداد تأييد الصين ،واليابان للـدول العربيه ،وهاجمت موقف اسرائيل من قرارات الأمم المتحده ،واصرارها على احتلال الأرض بالقوه . ومن جانب آخر ،أخذت أوروبا تدعو الى اقامة حوار بين الشمال والجنوب ،وبين الدول الغنيه والدول الفقيره ، وسارعت المنظمات الاقتصاديـه الأوروبيه الى تنمية علاقاتها التجاريه بأقطار الشرق الأوسط ، وتسهم في الطفرة الصناعيه التي اجتاحت العالم العربي ،ولا سيما دول الخليج المنتجه للبترول .

وجذبت مشروعات تطوير قناة السويس ،والموانى المصريه ،ومشروعات تنميـة أسطول مصر التجارى اهتمام دوائر المال ،والاقتصاد العالميه ،فتدفقت على مصر رؤوس الأموال ، والقروض الحسنه تشارك - بالخبره وبالمال - في انجـاز هـذه المشروعات ،وكانت الدول العربيه المصدره للبترول ،وايران في مقدمه المشاركين في المشروعات البحريه ،والبتروليه المقرر اقامتها بمنطقة القناه ،وخليج السويـس .

ولعل أبرز التطورات التي ترتبت على نصر اكتوبر ،والمواقف التضامنيه الـتى وقفتها الدول العربيه والأفريقيه ،والآسيويه ،هو التحول في سياسـة الولايـات المتحدة الأمريكيه من المؤازره المطلقه لاسرائيل الى التوازن بين الجانبيـن العربي ،والاسرائيلي ،خصوصا بعد رحلة السلام التي قام بها الرئيس السـادات الى القدس في نوفمبر ١٩٧٧ .

أما النتائج - غير العسكريه - لحرب اكتوبر ٧٣ بالنسبه لاسرائيل فكثيـره ومتعدده الجوانب ،ويمكن القول بأن أهمها هو التحول الذى طرأ على علاقاتهـا التقليديه بالولايات المتحده الأمريكيه ،ودول السوق الأوروبيه المشتركه . كمـا خسرت أيضا جانبا من أسواقها في أفريقيا ،وضاعت منها شحنات البترول الايراني

---

(١) مجلة السياسة الدولية ،عدد اكتوبر ١٩٧٤ ،ص ١٦٤ - ١٦٧ ،ص ٢٤٢ .

وأسواقه فى أوروبا الشرقيه ،أما قائمة خسائرها الماليه ، وزيادة المصروفـــات الناجمه عن حرب اكتوبر ٧٣ فتتضمن : (١)

١- بلغت تكاليف الحرب نحو ٢٥٠ مليون دولار فى اليوم الواحد ،أى أن مجموع ما انفقته اسرائيل على هذه الحرب تجاوز ٦ بلايين دولار .

٢- ارتفعت أسعار الوقود بنسب تتراوح بين ٤٠٪ ،و ٥٠٪

٣- احتاج تجديد المعدات ،والأسلحة التى أضيرت أثناء الحرب الى حوالــى ٤٥ مليون دولار .

٤- زاد العجز فى ميزان المدفوعات الاسرائيلى لعام ١٩٧٣ الى اكثـــر مــن ٢٥٠٠ مليون دولار ،وبلغ فى الربع الأول من عام ١٩٧٤ نحـــو ٤٣٦ مليون دولار . (٢)

٥- انخفض احتياطى اسرائيل من العملات الأجنبيه الى أقل من مستوى حـــد الأمان ،طبقا لما أعلنه بنك اسرائيل المركزى فى شهر أغسطس ١٩٧٤ ، فقد وصل الى ١ر٢ مليار دولار خلال شهر يوليو ١٩٧٤ .

٦- انخفضت الهجره الى اسرائيل بنسبه ٣٣٪ فى الشهور الستة الأولى لعـام ١٩٧٤ ،على عكس ماحدث فى اعقاب حرب ١٩٦٧ ،وذلك طبقا لما اذاعتـه ادارة الهجره فى الوكاله اليهوديه فى شهر أغسطس ١٩٧٤ . (٣)

٧- بلغ الدين الوطنى ٥٧٥٠ مليون دولار أى بمعدل ١٧٠٠ دولار للفـــرد وهى أعلى نسبة ديون فى العالم (اعلان " بنحاس سلبير " وزيـــر الماليـه الاسرائيلى فى يناير ١٩٧٤) .

٨- حدثت بطاله حادة فى صناعات رئيسيه هى : النسيج ،والماس ،والمنتجـات الغذائيه والأخشاب (تصريح " موشى بارام " وزير العمل الاسرائيلى فـــى شهر نوفمبر ١٩٧٤) .

---

(١) عن تصريحات المسئولين الاسرائليين ،والبنك الدولى المنشوره بمجلـــة السياسه الدوليه فى اعدادها يناير ،أبريل ، يوليو ،اكتوبر ١٩٧٤ ،وعـــدد يناير ١٩٧٥ .

(٢) عجز ميزان المدفوعات الاسرائيلى مع السوق الاوروبيه المشتركة وحدها ١٠٠٠ مليون دولار فى عام ١٩٧٣ ارتفع الى ١٥٠٠ مليون دولار فى عـام ١٩٧٤ (عن نفس المصدر) .

(٣) أعلنت الوكالة اليهودية ـ فى يناير ١٩٧٥ ـ أن أكثر من ٨٠٠٠ اسرائيلـــى هاجروا من اسرائيل خلال عام ١٩٧٤ ،وهو أكبر عدد من نوعه منذ قيـــام اسرائيل (عن مجلة السياسه الدوليه عدد ابريل ١٩٧٥ ،ص ٢١٦)

وبفضل التحرك البارع لقيادة مصر السياسيه ،أخذت العزله تحيط باسرائيل من كل جانب ، وبدأت تفقد حظوتها لدى الشعوب والحكومات التى كانت تقف الى جانبها ،ولعل الموقف الأخير الذى اتخذه رئيس رومانيا - أقرب دول أوروبا الشرقيه الى قلب اسرائيل - من التصلب الاسرائيلى ،وتأييده لجهود السادات من أجل السلام فيه الكفايه للتدليل على انفضاض الأصدقاء من حول اسرائيل .

أمس واليوم

فى يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٦٧ أعلنت قيادة مصر السياسيه على العالم انها قررت اغلاق مضايق خليج العقبه فى وجه الملاحه الاسرائيليه ،وفى اليوم الأول من شهر يونيه ١٩٦٧ اجتمعت وزاره الحرب الاسرائيليه ،وأعلنت التعبئه الشامله ... وبعدها بأربعة أيام تلقت مصر الضربه الجويه الاسرائيليه ،وحقت علينا الهزيمه . وفى ٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣ اعتمد رئيس جمهوريه مصر العربيه ، والقائد الأعلى للقوات المسلحه - فى تكتم شديد - خطة الهجوم على اسرائيل ، وفى ٤ اكتوبر سنة ١٩٧٣ تسربت - عن قصد - معلومات عن تسريح ٢٠ الف جندى مصرى ،وفى ٦ اكتوبر ٧٣ اجتمعت وزاره الحرب الاسرائيليه ،وأعلنت التعبئه بعد أن كانت قواتها قد تلقت ضربه مصر الجويه الأولى ،وحق لنا النصر.

ومن مفارقات القدر ،أنه فى ثانى أيام حرب يونيه ٦٧ بدأ انسحاب القوات المصريه فى سيناء ،وأنه فى ثانى أيام حرب اكتوبر ٧٣ توجه الجنرال " موسى ديان" وزير الدفاع الاسرائيلى الى رئيسه الوزراء يقترح عليها الانسحاب من سيناء والجولان معا . (١)

إن ماحدث فى مايو/ يونيه ٦٧ وماحدث فى سبتمبر/ اكتوبر ٧٣ هو الفرق بين الطريق الى الهزيمه ،والطريق الى النصر،وهو ما أبرزته تحاليل الخبراء ، والمعلقين العسكريين لمعركة اكتوبر من وجهتى النظر الاسرائيليه ،ووجهة النظر العربيه .

(١) من مقال للكاتب الصحفى " مارك جيفن " عن سلوك وزير الدفاع الاسرائيلى خلال حرب اكتوبر ٧٣ (" عال همشار " ٢٥/ ٧٤) .

التقييم العـــام

انعقدت ندوة دوليه فى كل من اسرائيل (١٢-١٧ اكتوبر ١٩٧٥) ، ومصـر (٢٧ - ٣١ اكتوبر ١٩٧٥) لبحث ودراسة حرب اكتوبر ٧٣ ،ونتائجهاالعسكريه ، والسياسيه ،والاقتصاديه على الصعيدين المحلى والعالمى ،واستنباط الـدروس والخبرات الاستراتيجيه ،والتعبويه ،والتاكتيكيه التى تولدت من هذه الحـرب ، وردود فعلها ، واصدائها على الفكر العسكرى الحديث .

ولم يكن اهتمام العالم بحرب اكتوبر ٧٣ قاصرا على هاتين الندوتين ، بل انهـا شدت اليها - منذ الأيام الاولى لنشوبها ،وحتى الآن - اهتمام جميع الدوائـر العسكرية فى جميع أنحاء العالم،نظرا لما أحدثته من متغيرات فى موازين القوى فى منطقة الشرق الأوسط،وما كان لهذه المتغيرات من نفوذ على الاستراتيجيه الدوليه ، ولا سيما استراتيجيتى العملاقين الأمريكى ،والسوفيتى .

وقد أجمعت آراء الخبراء العسكريين على أن الوقت مازال مبكرا لاعطـاء تقييم واف لحرب اكتوبر ٧٣ ،نظرا لأن أصداءها - محليا وعالميا - مازالت تتـردد حتى الآن ،وأن نتائجها السياسيه النهائيه " سلام دائم وعادل لمنطقة الشرق الاوسط" ، لم تؤت ثمارها بعد . ومع ذلك ، فهناك نتائج وخبرات عسكرية مباشـرة أسفرت عنها حرب اكتوبر ٧٣ بوسعنا تقييمها ،والتى يمكن على ضوئها رسم ملامـح ماستكون عليه صورة الاستراتيجية فى المستقبل المرئى لمنطقة الشرق الأوسط ،وأى صراع مسلح مقبل قد ينشب بالمنطقه .

بصفة عامه ،فقد أجمل الفريق محمد عبدالغنى الجمسى وزير الحربيـه المصريه - فى ندوه القاهره - أهم هذه النتائج ،والخبرات نوجزها فيما يلى :

١- ان حرب اكتوبر ٧٣ ،هى حرب محليه شامله تميزت بالتوسع فى اسـتخدام الصواريخ وأدوات الحرب الالكترونيه .

٢- امكان تحقيق المفاجأة الاستراتيجيه ،والتعبويه رغم التطور الهائل فى وسائل الاستطلاع والمخابرات الحديثه .

٣- المعركة الحديثه معركة أسلحه مشتركة سواء على المستوى التاكتيكى ،أو علـى المستويين التعبوى ،والاستراتيجى .

٤- ستظل القوات الجويه تلعب دورا رئيسيا فى الصراع المسلح مهما تطورت أو تقدمت نظم ، ووسائل الدفاع الجوى .

٥- حتى الحروب المحليه أصبحت باهظه التكاليف ، وفادحه الخسائر فى الأفراد والمعدات .

٦- الفضل فى النصر يرجع أولا وأخيرا الى الفرد .

ويقول البريجادير (جنرال) " كنيت هنت " فى بحثه الذى قدمه للندوه العسكريه :

١- تأثرت الحرب (حرب اكتوبر ٧٣) بعدة عوامل خارجيه ، كما كان لها فى نفس الوقت تأثيرها على العالم الخارجي ، فقد دعت عدة دول الى اعادة بحث مواقفها السياسيه وامعان النظر عسكريا فى استراتيجيتها ، وتاكتيكاتها ، ونظم الاسلحه فيها .

٢- تحقيق عنصر المفاجأه نتيجه للخداع على الرغم من وفرة المعلومات ، والتى كانت تشير كلها فى أوائل اكتوبر الى أن الحرب وشيكة الوقوع .

٣- قضت وسائل الدفاع الجوى المتمثله فى الصواريخ ، والمدافع ، جزئيا ، على نشاط القوات الجويه الاسرائيليه ، أو على الاقل قيدت هذا النشاط .

٤- اظهرت حرب اكتوبر ، والحظر البترولى الذى صاحبها تماسكا وثقه فى العالم العربى .

ويقول الجنرال " البرت ميرجلين " فى معرض بحثه للدروس العسكريه لحرب اكتوبر :

١- ان الدروس المستفاده بالنسبه لأوروبا هو أنه اذا قامت حرب تقليديه فى فى المستقبل القريب فانها ستمضى ضد حلف الأطلنطى ، وأن العاملين الاساسيين وهما عنصر المفاجأه ، والصواريخ يعتبران عنصرين ايجابيين فى صالح دول " حلف وارسو " .

٢- بالنسبه لدولة عظمى مثل الصين ، فان اثبات كفاءة الصواريخ الخفيفه المضادة للدبابات والطائرات يعتبر درسا هاما .

وفى تحليله المسهب لتأثيرات حرب اكتوبر ٧٣ ، يقول الميجور "ادجارأوبالدتس" :
" كانت حرب اكتوبر نقطة تحول في تاريخ الشرق الأوسط اذا نظرنا اليه قبلهـــا ، وبعدها ، إن أشياء كثيره فى المجالين العسكرى ، والاستراتيجي لن تعود أبـدا الى ماكانت عليه قبل هذه الحرب التى كانت سببا فى إعادة تقييم الاستراتيجيـات القوميه ، والدوليه . . ، كما أنها شهدت مبعث المقاتل العربى فى ميدان قتالـي حديث ، وظهرت طفرة فى ثقته بنفسه ، وفى روحه المعنويه ، كما أنها بددت أسطورة الجندى الاسرائيلى الذى لا يقهر . وبالنسبه للاسرائيليين فان هذه الحرب بثت فى نفوسهم كثيرا من المخاوف والشكوك . "

وفى ايجاز شديد يقول الكولونيل " تريفور ديبوى " فى تحليله لحرب اكتوبر ٧٣ :

١- خاض المصريون الحرب البحريه فى جوهرها بأسلوب استراتيجي ، وخاضهـا الاسرائيليون بأسلوب تاكتيكى .
٢- فرض المصريون حصارا ناجحا على حركه الملاحه الى ميناء ايلات ، وذلك باغلاق مضيق باب المندب ، ويبدو أن حصارهم فى البحر المتوسط منع معظم السـفن المحايده ، والاسرائيليه من الاقتراب من شواطىء اسرائيل .
٣- كانت الحرب صدمه نفسيه قاسيه للشعب الاسرائيلى .

خلاصة القول ، أن العالم فوجىء - فى اكتوبر ٧٣ - بالمارد العربى يطل عليه من كل شبر من هذا الكون الواسع ، ويطرق أبواب كل مرفق من مرافق حياة شعوبـه . وعندما أفاق من الصدمه أخذ العالم يتساءل عما حدث ، وعما يحدث ، وماذا عـن المسـتقبل ؟

ببساطه شديده ، حطم انتصار اكتوبر أسطورتين : العسكريه الاسرائيليه التى لاتقهر ... والجثه العربيه الهامده .

لم يكن الهدف هو قتل اكبر عدد من الاسرائيليين فى ساحات القتال .. أبدا ، ولم يكن الهدف هو مجرد تحطيم خط بارليف .. أبدا ، ولم يكن الهدف هو حرمـان العالم المتقدم صناعيا من أسباب تقدمه .. أبدا ، وانما كان الهدف الحقيقى هو نزع

النقاب عن الوجه الحقيقى لاسرائيل وعدالة القضيه العربيه ،ووضع المجتمع الدولى امام مسئولياته حيال أمن منطقة الشرق الاوسط،وتفتيح عيونه على الوضع الصحيح لمصالحه فى المنطقه .

القوه البحريه فى ميزان اكتوبر ٧٣

رغم وفره مانشر،وأذيع عن حرب اكتوبر ٧٣ ،الا أن الجانب البحرى لم ينل القدر الذى يستحقه من الدراسه ،والتحليل ،ولعل ذلك مرجعه الى أن الدور الذى لعبته القوات البحريه المصريه فى حرب اكتوبر ٧٣ كان - فى المقام الأول- دورا استراتيجيا استهدف، أساسا ،العمل على إنجاح " العمليات القتاليه للجيوش الميدانيه " . أما الدور الرئيسى الثانى "الحصار الاقتصادى لاسرائيل"، فهو أيضا من الادوار الاستراتيجيه التى لاتظهر ثمراتها الا على المدى الطويل ،وهو مالم تتحه له تدخل العوامل السياسيه ،والاقتصاديةالتى أدت الى انهاء الحصار قبل أن يبلغ غايته النهائيه ،وبالتالى قل حجم المادة التى يبنى عليها التقييم .

ومع ذلك ،ورغم النقص الكبير فيما كتب ،وقيل عن الجانب البحرى لحرب اكتوبر ٧٣ فيكفى دليلا على فعاليه العمليات البحريه المصريه ،صرخه " جولدا مائير " رئيسه وزراء اسرائيل فى حمى انفعالها ، وانزعاجها - " أيها المصريون ،ارفعوا أيديكم عن باب المندب" !

وأنتقل الآن الى تحليل دور القوات البحريه فى حرب اكتوبر٧٣ ،ونتائج خبرات العمليات البحريه فى هذه الحرب،لنلقى سويا نظرة على المستقبل البحرى لهذه المنطقه .. سواء انتهت مبادرة السادات بسلم دائم وعادل لشعوبها أو فرضناه بقوة السلاح .

العمليات البحريه ،نظرة مقارنه

قد يكون ميزان حجم الخسائر التى نجمت من عمليات حرب اكتوبر ٧٣ فى صالح اسرائيل ولكن ماذا كانت النتائج النهائيه للحرب البحريه ؟

يقول الأدميرال " بينامين ثيلم " قائد البحريه الاسرائيليه فى الندوة الدولية التى عقدت بمدينة القدس فى المده ١٢-١٧ اكتوبر ١٩٧٥، ردا على اسئلـــه بعض الصحفيين : " أما عن المهمة الرئيسيه للقوات البحرية فكانت حماية السواحل الاسرائيليه ... والمهمه الثانيه كانت الحفاظ على أن تظل خطوط مواصلاتنـــا البحريه مفتوحه، ليست كليا، ولكن جزئيا " .

ولن نناقش مهام البحريه الاسرائيليه فهى مهام تقليديه معروفــة لا خـــلاف على مفهومها رغم اختلاف اساليب تنفيذها بين الجانبين المتحاربين . الا أن العبره هى فيما تحرزه هذه المهام من نتائج تضاف ـ فى النهايه ـ الى حصيله الحـــرب ككل . وانطلاقا من هذه القاعده سنبدأ بتقييم أعمال الحصار البحرى الذى فرضناه على اسرائيل فى مقابل المهمه الثانيه التى اسندت للبحريه الاسرائيليه ـ الحفـاظ على ان تظل خطوط المواصلات البحريه مفتوحه ـ باعتبارهما، من وجهه نظرنـــا، يمثلان اتجاهين استراتيجيين متضادين .

استخدمنا الألغام فى الممرات الملاحيه الضيقه بخليج السويس ـ كنطاق حصر قريب ـ لأن البحريه الاسرائيليه تعوزها وسائل الكشف عن الالغام وازالتهـــا، فنجحنا فى أن نوقف حركة نقل بترول سيناء المحتله الى ميناء ايلات رغم سيطـــرة القوات الاسرائيليه على مضايق مدخل خليج العقبه . واستخدمنا الغواصـــات والمدمرات فى البحرين المتوسط، والأحمر بوضعهما فى المناطق الحاكمة بغـــرض تصديع حركة النقل من والى موانىء اسرائيل بعيدا عن امكانات تدخل القـــوات الاسرائيليه البحريه والجويه، فنجحنا فى ايقاف حركة الملاحه فى البحر الأحمر، وايقاف حركة خروج السفن التجاريه من موانى البحر المتوسط الاسرائيليه وتعطيل وصول الشحنات الى تلك الموانى طوال فترة الحصار ... أى أننا أحرزنا الهـدف الثانى من الحصار الا وهو تصديع حركة النقل البحرى الاسرائيلى . واستخدمنا سفن السطح ـ كنطاق حصر بعيد ـ عند مضيق باب المندب لتشديد قبضة الحصار بعيدا عن امكانات التدخل الاسرائيلى البحرى والجوى، فنجحنا فى ايقاف حركـة

النقل تماما الى ومن ميناء ايلات، وفى مقدمتها نقل البترول الايرانى . وبذلك نكون قد استثمرنا خصائص وحداتنا البحريه بطريقه متوازنه ، ومتكامله للحصول على اكبر عائد من الحصار بأقل التكاليف .

ومن المؤكد أن البحريه الاسرائيليه نجحت فى مهمتها الرئيسيه - حماية السواحل الاسرائيليه - اذا اعتبرنا ان الساحل الاسرائيلى ، فى اكتوبر ٧٣ ، كان ينتهى عند " غزة " على البحر المتوسط ، وعند "إيلات" على خليج العقبه بالبحر الأحمر ... وهى مناطق لم تكن واردة فى خطتنا البحريه الا كأحد الاتجاهات الثانويه . فكما سبق أن قلنا كان الاتجاه الرئيسى هو انجاح عمليات جيوشنا الميدانيه ، أى العمل ضد المحاور الساحليه المحيطه بشبه جزيره سيناء . وقد حققنا أهدافنا باستخدام زوارق الصواريخ ، والمدفعيه والقيام بعمليات ابرار محدوده ضد النقط الحصينه ، ومراكز القياده فى شمال سيناء ، وشرقى بورفؤاد ، وبنفس الأسلوب حققنا أهدافنا فى خليج السويس أى المحور الساحلى غربى وجنوبى سيناء . ويجدر الاشاره هنا الى أن العمل العسكرى المصرى - ككل - كان بالقدر وفى الاتجاه الذى يحقق الهدف السياسى المراد بلوغه ، ولذلك لم يكن ضرب العمق الاسرائيلى أو اصابة مراكزه الآهله بالسكان من الاعمال الواردة فى فى خططنا الا - كما أسلفنا - كاتجاه ثانوى ، أو اذا ما اكرهتنا ردود الفعل الاسرائيليه على تنفيذها .

وعلى العكس ، حافظنا نحن على سلامة ، وأمن خطوط مواصلاتنا البحريه مع العالم الخارجى ، وفى نفس الوقت حرمنا العدو الاسرائيلى من هذه الميزه . . . وهما شقا الدور الاساسى ، والرئيسى الذى تلعبه القوه البحريه فى زمن الحرب ، وقد ترى اسرائيل فى حرمان قواتنا من نقطة تمركزها بالأدبيه ، وفى غاراتها على الغردقه نوعا من التهديد لحركة تجارتنا البحريه بالبحر الأحمر ، الا أن الحقيقة المعروفه للجميع هى أن الحكومة المصريه - منذ عام ١٩٦٧ ، وحتى اعادة فتح قناة السويس فى عام ١٩٧٥ - اتخذت التدابير التى تكفل الاقلال من الاعتماد على مينائى السويس ، والأدبيه ، وحولت الحجم الأكبر من الحركة التجارية الى موانى

أخرى على البحر الأحمر . ونحن لا ننكر على الدبابات الاسرائيليه نجاحها فى تدمير نقطة تمركز قواتنا بالأدبيه فى ٢٤ اكتوبر ٧٣ ،ولكن هل كانت الأدبيه هى هدف عملية " الغزاله " الاسرائيليه أم هدفا " طارئا " أريد به تغطيه فشل العمليه فى تحقيق هدفها،إن كانت حقيقه استهدفت شيئا .

الخبرات القتاليه

أما عن الدروس،والخبرات المكتسبه عن العمليات البحريه لحرب اكتوبر٧٣ ، فبعضها يرجع أصله الى السنوات الأولى للصراع العربى الاسرائيلى مثل :أسلوب العمل البحرى/جوى المشترك الذى ينتهجه كل من الجانبين ،ومثل التفوق التكنولوجى الذى يتمتع به الجانب الاسرائيلى ،والذى أتاحه له السخاء الأمريكى ، والأوروبى على مدى ثلاثين عاما من الصراع ... بينما كان علينا أن نعتمد على أنفسنا وامكاناتنا الذاتيه ،للتغلب على هذا التفوق ،أو - على الأقل - الحد من فعاليته . وعلى هذا فيمكن القول بأن حرب اكتوبر لم تكن الا تأكيدا لهذه الدروس،والخبرات،وحافزا لنا للاستفاده بها ،وبالفكر البحرى المتقدم الذى تتحلى بها القياده البحريه من أجل مواصله العمل على تطوير أساليب قتالنا ، وأدوات ، وأسلحة الحرب بما يتمشى مع متطلبات الحرب الحديثه .

ومن ناحيه أخرى ،هناك دروس،وخبرات أخرى تولدت عن حرب اكتوبر لعل أبرزها هو اتساع رقعه مسارح الحرب البحريه ،وهو أمر كان فى حسابنا منذ بدأنا التخطيط للعمليات . فهذا الاتساع يتطلب وحدات،وأسلحه بنوعيات،وخصائص لاتتوافر فى أسطولنا الذى دخلنا به الحرب بالقدر الذى يكفل لنا احراز نتائج حاسمه فى أى لقاء مقبل . ومن أمثلة هذه الدروس أيضا تغير مفهوم نظريه الأمن القومى الاسرائيلى التى تعتمد - من وجهة نظر البحريه - على السيطره على حركة الملاحه البحريه فى مضايق مدخل خليج العقبه .

وحتى يجيء تقييمنا لحرب اكتوبر البحريه أقرب مايكون للحقيقه ،فلابـــد أن نتناول تقييم الأعمال القتاليه التى قامت بها قواتنا على المستويين التعبـــوى والتاكتيكى .

مما لا شك فيه ان ميزان القوى -عدديا- كان فى صالحنا على النحو المبين بالجدول :

الوحدات البحريــه	اسرائيل	مصـر
زوارق صواريخ سطح / سطح موجهه	١٤	١٧
زوارق صواريخ سطح / سطح غير موجهه	-	٣
زوارق طوربيد	٩	١٩
زوارق حراسه	١٢	-
غواصـــات	٣	١٠
زوارق قانصه الغواصات (قناصات)	-	١٢
مدمرات، وفرقاطات	١	٨
كاسحات الغام	-	١٤
مدفعيه ساحليه	-	٨ سريه
صواريخ ساحليه	-	٢ كتيبه
سفينه انزال	١	٣
زوارق انزال	٩	١٣

وبطبيعة الحال فان التفوق العددى لايعنى أنه العامل الحاسم فـى احراز النصر فى المعارك ولا سيما اذا كان حجم المهام الهجوميه ،والدفاعيـــه الموكله للأسطول تمتص جانبا كبيرا من هذا التفوق ، وهو ماحدث بالنسبه لنا فى

حرب اكتوبر بالاضافه الى تميز عمليات اسرائيل البحريه بالدعم الجوى المباشر .

ومن أهم العوامل التى قللت من فرص الاستفاده لأقصى مدى بتفوقنا البحرى هو ادخالها طائرات " الهل " كعنصر عضوى فى تشكيل قوة زوارق الصواريخ الضاربه ، الأمر الذى أدى - فى بعض الحالات - الى حرمان زوارقنا من ميزة تفوق مدى صواريخها على مدى صواريخ " جابرييل " الاسرائيليه ... وهذا أيضا نعتبره أحد الدروس الهامه المكتسبه من حرب اكتوبر ٧٣ .

ولا نعدو الحقيقه اذا نحن قلنا أن " المفاجأه " كانت أهم العوامل التى ساعدت على نجاح القوات البحريه فى انجاز مهامها . ولم تكن المفاجأة قاصرة على تكتم نوايانا واستعداداتنا ، وانما ما أعنيه هنا هو قرارنا المسبق بتعميق النشاط البحرى ، وابعاده عن النطاق التاكتيكى لدفاعات اسرائيل خروجا على النمط الذى اعتادته فى لقاءاتنا السابقه ، مما أدى الى وضع القوات البحريه الاسرائيليه امام عمل بحرى استراتيجى تعبوى - جديد عليها - لم تكن مستعده لمجابهته . كما فوجىء العدو البحرى - على المستوى التاكتيكى - بمصادر نيران جديده لم يكن يتوقعها باستخدامنا لزوارق خفيفه مسلحه بصواريخ بحر / أرض غير موجهه لم تكف عن الاغارة بالنيران على مواقع متفرقه ، ومتباعده كبدته خسائر جسيمه . ومما لا شك فيه أن هذه الاعمال المفاجئه قد تضافرت على تشتيت مجهود العدو البحرى ، واضطراب قيادته مما ساعد كثيرا فى تمكين قواتنا من انجاز مهامها بنجاح . ومفاجأة أخرى كانت بانتظار العدو الاسرائيلى لا تقل أثرا عن سابقتيها ألا وهى استخدام الألغام البحريه - لأول مره - كسلاح هجومى تم بثها ، فى تكتم شديد ، فى القنوات الملاحيه الضيقه عند مدخل خليج السويس أخذت العدو البحرى على غره ، فتوقفت حركة النقل الاسرائيلى - لا سيما شحنات بترول حقول سيناء المحتله - إثر اصطدام ناقلتى بترول بالغام هذه الحقول وغرقها . والمعروف أن اصابه السفن ، أو غرقها يكشف عن وجود الألغام ، ويبطل مفعول المفاجأه ، وقد يؤدى الى محاولة العدو ازالتها ، أو فتح ممرات فى حقول

الالغام، ومع علمنا بأن البحريه الاسرائيليه تعوزها وسائل الكشف عن الالغام، وازالتها الا أننا قمنا بتكثيف الحقول أكثر من مرة أثناء سير العمليات تحوطا ضد أى خلل يكون قد طرأ عليها بالاضافه الى بث كمائن الغام فى الممرات المؤدية الى مراسى سيناء المحتله مثل ميناء " الطور "، ومرسى " بلاعيم " البترولى .

أما المعارك القتاليه الرئيسيه فقد نشبت أساسا بين تشكيلات ضاربه قوامها زوارق الصواريخ الموجهه . ونظرا لافتقار تشكيلاتنا لوسيلة مضادة للطائرات الهل، اتسم استخدامنا لزوارق الصواريخ الموجهه بالحذر الشديد مثل التركيز على العمليات الليليه، وتحاشي التورط فى معارك بمناطق خارجه عن مدى عمل طائراتنا مهما كان الاغراء، وانما على العكس محاولة جذب تشكيلات العدو البحرى الى المناطق التى تغطيها نيران مدفعيتنا الساحليه، والجويه . ولعل هذا، بالاضافه الى قصر مدة النشاط الحربى ككل، كان هو السبب الرئيسى فى أن معارك زوارق الصواريخ لم تتعد أربع معارك نشبت جميعها فى الأيام العشرة الأولى للحرب، وأنها اسفرت عن تعادل الجانبين فى حجم الخسائر والاصابات.

ويمكن القول بأن المعارك القتاليه بين زوارق صواريخ الجانبين لم تؤد الى نتائج ذات أثر حاسم فى مسار الحرب البحريه ككل . فقد توالى قصفنا للأهداف الحيويه المتناثره على سواحل سيناء المحتله، وقمنا بابرارات بحريه باحجام متفاوته على شواطئ سيناء، ومن ناحيه أخرى قام العدو البحرى - المدعم جوا - باغارات وقصفات مماثله على بعض أجزاء الساحل غربى مدينه بورسعيد، وشمال الدلتا . ومما لا شك فيه أن البحريه الاسرائيليه - أيضا - اتخذت جانب الحذر فى استخدام زوارق " سعر " و " رشيف " الصاروخيه، فتوقفت المعارك بين الجانبين بعد آخر لقاء ليله ١٥/١٦ اكتوبر ١٩٧٣ .

وقد يبدو من العمليات القتاليه التى دارت خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ أن الجانبين تصرفا بطريقه كان فيها اهدار لأحدى الوظائف الأساسيه للأساطيل

الحربيه الا وهى " تدمير وحدات العدو البحريه " ،ولكن الحقيقه أن معارك زوارق الصواريخ ـ باعتبارها القوى الضاربه الرئيسيه ـ أسفرت عن خسائر فى كلا الجانبين لا تقل عن ٣٠٪ من حجم القوه التى دخل بها كل منا الحرب وهى نسبة خسائر عاليه اذا ماقورنت بالمده الفعليه التى دارت اثناءها هذه المعارك ، والتى لا يتجاوز عددها أربع معارك فقط . هذا بالاضافه الى الخسائر الناجمه عن العمليات الجويه ،وعمليات الدفاع الساحلى التى ترفع نسبة خسائر كل من الجانبين الى قرابة ٤٠٪ وهى نسبة حرجه ومؤثره .

وعلى هذا فيمكن اعتبار معارك زوارق الصواريخ التى دارت اثناء حرب اكتوبر ٧٣ ،وتنوع استخدامات الصواريخ ،مقدمه واقعيه لما يمكن ان تكون عليه صورة حرب الصواريخ البحريه فى المستقبل سواء كانت الصواريخ مزودة برؤوس نوويه ،أو غير نوويه .

وتبادل الاسرائيليون معنا عمليات الاغاره بالنيران ،وبالقوات ،واختلفت نوعية ،واتجاهات مجهود كل من الجانبين فى كل من المسرحين . فبينما كان اعتمادنا الأساسى على نيران المدفعيه الساحليه ،وعلى الصواريخ بحر/أرض فى الاغاره على المواقع، والمنشآت الاسرائيليه المنتشره على ساحل شبه جزيرةسيناء ، نجد أن العدو استخدم عناصر من الضفادع البشريه فى اغارته على مواقعنا فى الغردقه ،وميناء بورسعيد ،واستخدم زوارق الصواريخ فى الاغارة بالنيران على بعض المناطق بشمال الدلتا .

وباستثناء اشتراكنا فى التمهيد النيرانى لعمليات الاقتحام الأولى يوم ٦ اكتوبر ٧٣ ، قمنا بتنفيذ احدى عشرة اغارة بالنيران كان أبرزها قصف : النقطة القويه شرقى " بورفؤاد " ومناطق تجمع العدو فى " رمانه " ،و" راس برون " فى شمال سيناء ، وتجمعات العدو البريه ،ومنشآته ،ومواقع راداراته " برأس سدر " ، و" راس دهيسه " غربى سيناء ، وشرم الشيخ " ،و" راس محمد " فى جنوب سيناء . أما القصف بنيران المدفعيه الساحليه فقد تركز ضد التجمعات

الاسرائيليه فى " عيون موسى " ،وضد تجمعات العدرعات الاسرائيليه على الطريق الساحلى -غرب سيناء- عند منطقة " راس مسله " ،والتى بلغ عددها ست قصفات بخليج السويس ،بالاضافه الى قصفات أخرى ضد النقطه القويه شرقى بورفؤاد بشمال سيناء .

وعلى الرغم من الامكانات المحدوده التى كانت متاحه لقوات الصاعقة البحريه ،فاننا لم نتردد فى استخدامها فى اغارات مركزه ضد مواقع، ومنشآت العدو العسكريه والبتروليه ومراسيه بالضفه الشرقيه لخليج السويس . وقد نجحت عناصر الصاعقه - بفضل جرأتهم ، واصرارهم - فى القيام بعمليات تخريب ،وبث كمائن ألغام أسفرت عن تخريب حفار بترول واعطاب ناقلة البترول " باتريا" (٤٥ الف طن) " بمرسى بلاعيم " ،وأغراق ناقله أخرى حمولتها ٢٠٠٠ طن تقريبا " بمرسى ميناء الطور " .

وعلى الجانب الآخر، قامت زوارق الصواريخ الاسرائيليه المدعمه بالطائرات " هل " باغارات متكرره على ماتصورته مراكز قيادة ،ونقط مراقبة وانذار فى بعض مناطق متفرقه غربى بورسعيد ،والشريط الساحلى شمال دلتا النيل . وقد فشلت هذه الاغارات فى تحقيق أهدافها اما لأن بعض المواقع كانت مواقع خداعيه ، أو نقطا متحركه يسهل ابعادها عن مصدر الخطر، واما لأن الوحدات المغيره ارتدت على أعقابها تحت وابل من نيران المدفعيه الساحليه ،والهجمات المضادة التى شنتها عليها زوارق صواريخنا .

الا أن الضفادع البشريه الاسرائيليه كانت أسعد حظا فى اغاراتها على مينائى بورسعيد ،والغردقه ،حيث تمكنت من اعطاب ثلاثة زوارق ،وناقله جند خفيفه .

والجدير بالذكر أنه عندما لاحظ العدو الاسرائيلى ضآلة ثمرة اغاراته البحريه لجأ الى تكثيف غاراته الجويه على نقط التمركز البحريه ،ولاسيما نقط " بورسعيد " و " السويس " ، و " الغردقة " ، مما أدى - بطبيعه الحال - الى زيادة حجم خسائرنا فى المعدات وارتفاع نسبة الاصابه فى المنشآت البحريه بالموانى .

والتقييم الواقعي للاغارات البحريه التى حدثت فى اكتوبر ،تؤكد فعاليه هذا النوع من العمليات خصوصا اذا أستخدمت فيها معدات ،وأسلحة متقدمه ، وتنوعت أساليب شنها .

اسندت للقوات البحريه المصريه ـ ضمن خطط معاونة اعمال قتال الجيوش الميدانيه ـ مهمة ابرار عناصر من قوات الصاعقه البريه . وقد اقتصرت متطلبات العمليات فى شمال سيناء على ابرار سريتين ،تمكنت السريه الأولى من بلوغ الساحل ـ من سفن الصيد الصغيره التى استخدمت لهذا الغرض ـ ونجحت فى احتلال الكوبرى الموجود على الطريق الساحلى . أما السريه الثانيه فقد تم ابرارها فجر يوم ١٥ اكتوبر على نفس المنطقه باستخدام قوارب " ولكى " الصغيره بغرض دعم حصار نقطه القوات الاسرائيليه القويه ،وحرمانها من أى تعزيزات تصل اليها عبر الطريق الساحلى .

وقد عادت جميع وحداتنا البحريه التى قامت بابرار السريه الأولى (٦ اكتوبر) الى قاعدتها سالمه تحت جنح الظلام ،أما الابرار الثانى (١٥ اكتوبر) فقدنا فيه ثلاثه قوارب نظرا لأن الوحدات عادت ـ بعد انتهاء مهمتها ـ فى وضح النهار مما سهل للعدو مهمة التعرض لوحدات الابرار .

الا أن قواتنا لم تتمكن من تنفيذ نفس المهمة بخليج السويس ،نظرا لأن القوارب كانت أخف من أن تتحمل ظروف البحر ،والطقس ،ولأن صغر حجمها ، وبالتالى سعة تحميلها المحدوده أدت الى استخدام عدد كبير من القوارب ، ومع استمرار تأجيل تنفيذ المهمه لحين تحسن الأحوال الجويه اكتشف الاسرائيليون أماكن نقط تحميل القوات ،فسارعوا بمهاجمتها جوا وبحرا مما جعلنا نعدل عن القيام بالعملية بعد أن انتفى الغرض منها .

ولعل أهم محاولة أقدم عليها الجانب الاسرائيلى هى محاولته انزال بعض القوات على منطقة " الأدبيه/ السادات " مساء يوم ١١ اكتوبر ٧٣ باستخدام عوامات " الزودياك " المحمله بعناصر من القوات الخاصه تقطرها أربعة زوارق

مسلحه طراز " دبور " تعززها طائرات " الهل " . الا أن انكشاف أمر هذه القوة ، وتصدى مدفعياتنا الساحليه لها ردتها على أعقابها وأحبطت المحاوله بعد أن تكبد الاسرائيليون خسائر فادحه فى الأرواح ، والوحدات .

نخلص من ذلك الى أن " الابرار البحرى " - مهما صغر حجمه - سيظل هو السبيل الأمثل لدعم ، ومعاونة اعمال قتال القوات الميدانيه ، ولا سيما على المحاور الساحليه .

القواعد البحريه ، بين الدفاع والهجوم

من المعروف أن للقوات البحريه مهام هجوميه ، وأخرى دفاعيه يتعذر فى كثير من الأحيان التفرقه بينهما ، الا انه من المسلم به ان العمليات البحريه تمتاز بالتكامل ... بمعنى أن النجاح فى تنفيذ المهام الهجوميه يؤدى الى استخدام اجزاء من البحار لنقل حاجتنا من المواد الاستراتيجيه ، وحرمنا العدو من مثل هذه الامكانيه ، فتكون قواتنا البحريه - بذلك - قد نجحت فى حرمان العدو من فرصة الابرار على سواحلنا أى انها تحقق واجبا دفاعيا فى نفس الوقت الذى تنجز فيه مهمة هجوميه . من جهة أخرى ، فهذا يعنى أيضا أن القوات البحريه بوسعها الدفاع عن جزء من الساحل ، وحمايته مما يوفر لقواتنا المسلحه مشقة تخصيص قوات بريه للدفاع عن هذا الجزء ، وبالتالى امكانية استغلال هذه القوات فى واجبات ، واتجاهات أخرى .

وانطلاقا من هذه المفاهيم يمكن القول بأن قواتنا نجحت فى تأمين النطاق التعبوى لقاعدة الاسكندريه بمسرح البحر المتوسط ، وقاعدة سفاجا بمسرح البحر الأحمر نجاحا تاما ، وبقدر محدود لنطاق قاعدتى بورسعيد ، والسويس .

ولعلنا نذكر أنه حتى حرب اكتوبر ٧٣ ،والى أن أعيد فتح قناة السويس للملاحه فى عام ١٩٧٥ ،لم تكن تجارة مصر الخارجيه تعتمد - كثيرا - على مينائى بورسعيد والسويس،وكان الاعتماد الأكبر على مينائى الاسكندريه ، وسفاجا اللذين ظلا مفتوحين أمام حركة التجاره البحريه ،طوال مدة الحرب بفضل كثافه التدابير،والاجراءات التى اتخذت لاحباط أى محاولة لتدخل العدو البحرى خصوصا بالنسبه للاسكندريه باعتبارها الميناء الرئيسى لتجارة مصر ، والقاعده الرئيسيه للأسطول فى نفس الوقت .

الا أن هذا لا يعنى أننا لم نوجه نفس العنايه لتأمين النطاق التعبوى لبورسعيد والسويس ،والغردقه ،ولكن ظروف هذه الأماكن ،ومواقعها الجغرافيه تختلف كثيرا عن سائر مواقع القواعد الأخرى . . . ومع ذلك قوبلت جميع محاولات تسلل الاسرائيليين الى بورسعيد ، والسويس ،والغردقه بدفاعات قويه يقظه . غير أنه احقاقا للحق كان لاصرار العدو واستعداده لتقبل خسائر كبيره أثره فى احرازه نجاحات محدوده كبدتنا بعض الخسائر، والاصابات التى أمكنا سرعه استعواضها .

وعلى الجانب الآخر،يبدو أن الاسرائيليين أحكموا الدفاع عن قواعدهم فى حيفا ،وأسدود ،وايلات،ومرسى شرم الشيخ ،وأحاطوها بوسائل انذار ساحلى ، وجوى كافيه ولكنهم افتقروا وسائل اكتشاف الألغام البحريه ،وازالتها مع أنها احدى الحلقات التى لاغنى للدفاعات الساحليه عنها . والمعروف لنا أن البحريه الاسرائيليه على درجه عاليه من الدرايه بأعمال مكافحة الغواصات،ولا بد أن قيادتها على علم بأن الطريقه المثلى لتعطيل حركة الملاحه من والى الموانىء الاسرائيليه ، لاسيما المطلة على البحر المتوسط، هى بث الألغام فى الممرات المؤديه الى هذه الموانى باستخدام الغواصات ومع ذلك تمكنت غواصاتنا من الوصول الى مواقعها عند مشارف مينائى " حيفا " ،و" اسدود" استعدادا لتلغيم مياه هذه الممرات بمجرد بدء عملياتنا الهجوميه فى ٦ اكتوبر ... ولولا الأعطال الفنيه التى فاجأت غواصاتنا ،والغاء عمليه التلغيم فى نفس يوم بدء الهجوم

لتكبدت اسرائيل خسائر لا قبل لها على تحملها ، ولا نقطع ـ تماما ـ اتصالهـا البحرى بالعالم الخارجي .

ولا عطاء القارئ صوره مصغره لجسامة الاعباء التى تضطلع بها القـواعد البحريه بصفه عامه ، والقواعد الرئيسيه على وجه الخصوص سنأخذ " قاعـدة اسكندريه " نموذجا لالتزامات مثل هذه القواعد فى وقت الحرب .

تغطى منطقة عمليات قاعده اسكندريه شريطا ساحليا طوله ١٣٠ ميـل بحرى ، وبعمق ٥٠ ميلا داخل البحر بمحاذاة الساحل ، وهى منطقه تضم ـ علاوة على الأهداف والمواقع العسكريه ـ العديد من الأهداف المدنيه الحيويه أهمها ميناء الاسكندريه ذاته ، ومراسى البترول ، والكثير من المصانع ، والمجمعات الانتاجيه فضلا عن التجمعات السكانيه . ويتردد على ميناء الاسكندريه اكثر من ٢٢٠ سفينه تجاريه فى مثل هذا الوقت من السنه أى شهر اكتوبر(١) ، تلتزم القاعده بتأميـن حركتها الى ومن الميناء ، وحمايتها داخله أثناء التفريغ والشحن . أمـا مـن الناحيه الحربيه البحته فان ميناء الاسكندريه كان ـ فى اكتوبر ٧٣ ـ يتعـامل مع نحو ٩٠ وحده حربيه من مختلف الأنواع ، والأحجام سواء ماكان منها تابعا للقيادة القاعدة مباشرة ، أو كان يرتكز عليه فى عملياته ، لابد من تأمينها ضد أى أعمـال عدوانيه أثناء وجودها داخل الميناء ، أو بالمراسى الأخرى المنتشره فى نطـاق عمل القاعده ، بالاضافه الى رعايه كافة شئونها الاداريه . ومع ارتفاع كفاءة أدوات وأسلحه الحرب البحريه والجويه لدى اسرائيل ازدادت الأخطار التى يمكـن أن تهدد الموانى ، والقواعد البحريه وبالتالى ازدادت الأعباء على كاهل الدفاعـات عن منطقه القاعده .

---

(١) انخفض هذا القدر خلال شهر اكتوبر ٧٣ بحوالى ٢٨٪ عن معدلات نفس الشهر من عام ١٩٧٢ لا بسبب تهديد العدو لحركه الملاحه ، ولكن لأننا حولنا جانبا من هذه الحركه الى موانينا الأخرى بالساحل الغربـى ، واحترام بعض ملاك السفن لاعلان الحكومة المصريه عن منطقة العمليـات الحربيه . وعلى العكس انخفض حجم حركة تردد السفن التجاريه على ميناء حيفا بمقدار ٨٥٪ تقريبا عن الحجم العادى لمثل هذا الوقت من السنه .

وعلى هذا كلفت قيادة قاعدة اسكندريه بالمهام الدفاعيه الرئيسية الآتيه : ضد الغواصات والالغام ، والمتسللين (الضفادع البشريه على وجه الخصوص) وضد سفن السطح (زوارق الصواريخ أساسا) ، وتكثيف الدفاع المضاد للطائرات ، والدفاع الأرضى ، بالاضافه الى الوقايه المضاده لآثار استخدام أسلحه التدمير الشامل ، وقد أثمرت اجراءات الدفاع واحتياطات الوقايه فى حرمان العدو البحرى والجوى من المساس بأمن منطقة قاعدة الاسكندريه ، وفى إحباط اكثر من محاولة أقدمت عليها زوارق الصواريخ ، والطائرات الاسرائيليه لقصف الأهداف الساحليه أو الابرار ، جوا أو بحرا ، عليها .. هذا وقد بلغ مجموع عدد الطلعات التى قامت بها قوة قاعدة اسكندريه إبان شهر اكتوبر فقط نحو ٥٢٠ طلعه بحريه و ١٤٢ طلعه جويه .

ننتهى من ذلك الى أن كل جانب أحكم دفاعاته عن موانيه ، وقواعده المطله على البحر المتوسط بما يتعذر انتهاكها باستثناء دفاعات اسرائيل المضادة للغواصات ، والمضادة للالغام . أما فى البحر الأحمر ، فكما سبق أن أوضحنا ، فالأوضاع لم تكن تسمح باتخاذ الاجراءات التى تتيح للقواعد ، والمراسى نفس المناعه ، فتبادلنا مع اسرائيل الاغارات على النحو السابق ذكره .

المعلومات ، عن الجانب الاخر

غنى عن الذكر أن أى عمليات لابد لنجاحها من توافر قدر معين من المعلومات عن العدو وتحركاته ، وتعتبر الطائره ، والغواصه من أنجح وسائل الاستطلاع . الا أن الالتزامات الكثيره التى اضطلعت بها قواتنا الجويه حرمتنا من فرصه الاستفاده القصوى بالاستطلاع الجوى فوق المسرح البحرى ، بينما أمكن استخدام غواصاتنا من مسافات بعيده نسبيا من الساحل الاسرائيلى (نظرا لكثافة نشاط الداوريات البحريه ، والجويه تجاه موانى اسرائيل المطله على البحر المتوسط) . ومن ناحيه أخرى قام الاستطلاع الالكترونى بدور فعال ، وكان فى بعض الأحيان هو وسيله الاستطلاع الوحيده المتاحه ، كما استخدمنا جماعات استطلاع مؤخرة القوات الاسرائيليه بالضفه الشرقيه لخليج السويس ، ووافتنا بمعلومات قيمه قبل تنفيذ المهام .

وبطبيعه الحال لم يكن بوسعنا استخدام سفن السطح فى أعمال الاستطلاع بصوره فعاله ، نظرا لتفوق العدو الجوى بالمسرح البحرى ، وقرب المسرح من قواعده الجويه ، ولكنا استعضنا عن السفن الحربيه بعدد من قوارب الصيد فى تعميق المراقبه على تحركات العدو البحرى ، وقد قامت هذه القوارب ـ فى حدود امكانياتها ـ بمهمتها على الوجه الأكمل رغم ماتعرضت له من أخطار .

الا أننا نجحنا فى استطلاع ، ومراقبة حركة النقل البحرى التجارى فى القطاع الأوسط للبحر المتوسط ـ بعيدا عن نشاط العدو الجوى ـ مستخدمين فى ذلك الغواصات ، وسفن السطح مما كان له أكبر الأثر فيما عانته اسرائيل من تصدع خطوط مواصلاتها البحريه عبر هذا المسرح .

وعلى الجانب الآخر ، فنحن نعترف للاسرائيليين بتفوقهم فى الاستطلاع الجوى ، والالكترونى ـ تعبويا وتاكتيكيا ـ والذى يرجع له الفضل الاكبر فيما أحرزوه من نجاحات ، هذا بالاضافه الى ما أغدقه عليهم أصدقائهم من معلومات عن تحركات تعجز المصادر الاسرائيليه عن الحصول عليها .

ولا تقتصر حاجة العمليات البحريه الى معلومات عن العدو فحسب ، وانما هى بحاجه أيضا الى معلومات عن الأحوال الجو بحريه ، ومعلومات فلكيه دقيقه ، وذلك لتحديد أنسب توقيت للعمليات ، واختيار أصلح الوحدات التى تضطلع بها بما يكفل لها أكبر قدر من مقومات النجاح . ولم يكن الحصول على مثل هذه المعلومات أمرا عسيرا نظرا لتوفر مصادرها ، الا أن المهم فى هذا الشأن هو استنباط النتائج السليمه ، واستغلالها لصالح عملياتنا ، أو لمعاكسة عمليات الخصم ... وهو أمر استخدمه الجانب الاسرائيلى بكفاءة لاتقل عن كفاءة استخدامنا له .

هناك أيضا نوع آخر من المعلومات لا يمكن اغفال أهميته بالنسبه للاعمال القتاليه الا وهو النتيجه المباشره للمعركه ، أو الاشتباك ، ولا سيما فى أعمال القتال البحرى ، فمثل هذه المعلومات تحمل أهميه خاصه خصوصا اذا أمكن الحصول عليها

فور انتهاء المعركه ، أو فض الاشتباك . وترجع أهميتها الى أنها تحمل في طياتها بيانا تقريبيا عن حجم خسائر العدو ، واصاباته ، وأنواع الوحدات المصابه ، أو المغرقه ، وبالتالي يمكن اعادة تقدير ، وتقييم قوة العدو التي سيدخل بها المعركه المقبله ، أو أن حجم خسائره أكبر من امكانات مواصلة القتال ، أو انها تضطره لانتهاج أسلوب آخر ... أو قد يكون العكس ، بمعنى أن نحصل على صورة اكثر وضوحا لما سيكون عليه شكل وحجم الأعمال القتاليه المقبله ... أو التعرف على أسباب سلبيه نتائج المعركه ، أو الاشتباك ، وبالتالي امكانيه معالجتها . ويلزم ـ للحصول الفوري على مثل هذه المعلومات ـ توفر معدات تصنت الكتروني على درجه عاليه من كفاءة الأداء يعمل عليها أطقم مدربه تدريبا عاليا ، أو الحصول عليها عن طريق الاستطلاع الجوي . لذلك يبذل كل جانب ـ أثناء سير العمليات ـ أقصى مجهود لاخفاء حقيقة خسائره ، واصاباته ، أو يعمد الى تسريب معلومات مضلله وبذلك يحرم الجانب الآخر من اعادة تقدير الموقف الحالي ، والمقبل تقديرا صحيحا . أما المعلومات التي نحصل عليها عادة بعد انتهاء القتال بفترة فان قيمتها تنحصر في التحليل النهائي للعمليات ، وتقييمها .

والمؤسف أننا ـ في القوات البحريه ـ كنا نفتقر لامكانات الحصول الفوري على نتائج صحيحه لمعظم عملياتنا القتاليه الا ماكشف عنه الجانب الاسرائيلي مضطرا .. . وهو نقص نضعه في اعتبارنا ، ونحن نخطط لسياسة تطوير قواتنا البحريه .

الحاضر والمستقبل

خلفيه لابد منها

جاءنا التسليح أساسا من دول الكتله الشرقيه ، وكانت الوحدات التي حصلنا عليها وحدات مستعمله مما تم بناؤه في نهايه الأربعينيات ، واستلمناها بعد أن أجريت عليها بعض الاصلاحات ، والعمرات الرئيسيه بالاتحاد السوفيتي . وكانت زوارق الصواريخ ـ على وجه الخصوص ـ هي أحدث ما أمكن الحصول عليه من وحدات ، نظرا لانها مبنيه بعد منتصف الخمسينات بقليل ، وتسلمناها في بدايه

الستينات ،أى أن معداتها ،وأجهزتها تعتبر متخلفه بالمقارنه بما طرأ على الصواريخ ،والرادارات من تطوير كبير فى السنوات الخمسة عشر التى مضت على بنائها ،والمؤسف ان الجانب السوفيتى نزع جميع تجهيزات الحرب الالكترونيه التى كانت على هذه الزوارق قبل تسليمها لنا . وليس سرا أننا منذ عام ١٩٦٤ لم يورد لنا الاتحاد السوفيتى أى وحدات جديده أو أسلحه متقدمه .

وعلى هذا ،دخلت القوات البحريه المصريه عمليات اكتوبر١٩٧٣ بأسطول بلغ العمر التاكتيكى لغالبيه وحداته عشرين عاما ،وسلاحنا الرئيسى هو الصاروخ سطح / سطح الذى تحمله الزوارق طراز " كومار " ،و " أوزا " السوفيتيه الصنع... وكانت نقطه القوة الوحيدة التى تعتمد عليها هذه الزوارق هى طول مدى الصاروخ ،والذى ثبتت كفاءته فى اللقاء الذى انتهى باغراق المدمرة الاسرائيليه " ايلات " فى اكتوبر ١٩٦٧ والتى كان اغراقها نقطه تحول فى الفكر البحرى الاسرائيلى ،وفى تسليح البحريه الاسرائيليه .

وفى نفس الوقت كان لدى اسرائيل زوارق سريعه تحمل صواريخ سطح / سطح (جابرييل) أقصر مدى من صواريخنا الا أن الزورق نفسه ـ طراز " سعر " ، ثم " ريشيف " ـ يتفوق على زورقنا بما يحمله من تجهيزات الكترونيه ،ومدافع متقدمه مضادة للطائرات . ولتقليل " فجوه المدى " بين الصاروخين ، شرعت البحريه الاسرائيليه ـ عقب اغراق المدمره " ايلات " ،وبمساندة التكنولوجيا الغربيه ـ فى تطوير الأجهزة الالكترونيه ،لتصبح ، فى نهاية عام ١٩٧٢ ،من أكفأ ،وأحدث أدوات الحرب الالكترونيه التى يمكن لمثل هذه الزوارق محدوده السعهأن تحملها . وللقضاء نهائيا على " فجوة المدى " أدخلت البحريه الاسرائيليه عنصر الطائرات " هل " المزوده بصواريخ جو/ سطح ضمن تشكيل مجموعات زوارق الصواريخ الضاربه بقصد الاشتباك مع زوارقنا ،وهى مازالت خارج مدى اطلاق الصواريخ ،إما لشغلها أو تعطيلها لتأمين الزوارق الاسرائيليه ضد الاصابه بصواريخنا ،حتى يمكنها الاقتراب ـ سالمه ـ الى نقطه اطلاق صواريخها .

ومما لا شك فيه أن التطور الكبير فى أسلحة ، ومعدات الزوارق الاسرائيليه والذى لم يكن بمقدور امكانياتنا الذاتيه مقابلته بنفس الخطى ، بالاضافه الى دعمها بمعدات خداع الكترونى حديثه ، كان له الفضل الأكبر فيما تمتعت به زوارق الصواريخ الاسرائيليه من حرية العمل ، وفى خفض نسبة خسائرها عما كان متوقعا .

وفيما عدا ذلك ، فقد استخدمنا وحداتنا بطريقه متوازنه ، ومتكامله على أساس قدراتها ، وامكانياتها الفعليه ، ومايمكن أن تحققه من مهام فى مواجهه قدرات ، وامكانات العدو ، وبمايهيء لها أكبر قدر من الأمن . وبذلك أمكن احراز نتائج ايجابيه فى عمليات اكتوبر ٧٣ ، وأمكن فى الوقت نفسه الخروج بخبرات تضيء أمامنا طريق المستقبل .

خبرات الحرب

أولا وقبل كل شيء ، تعتبر حرب اكتوبر ٧٣ نموذجا للحرب المحليه التى يمكن أن تنشب بين دولتين تستخدم فيها أحدث ماقدمه العلم من تطور ، وتكنولوجيا وجاءت تأكيدا بأن الصراع المسلح ـ تحت ظروف الحرب الحديثه ـ هو بالضرورة ، وفى المقام الأول معركه جميع أفرع ، وتشكيلات القوات المسلحه تساندها جبهة داخليه متماسكه وثيقة الارتباط بالعمل السياسى ، لضمان تحقيق أهداف الأمة الاستراتيجية .

ومن جهة أخرى تعتبر حرب اكتوبر ٧٣ أطول فترة عمليات متصله استغرقتها أى حرب سابقه مع اسرائيل ، استخدمت فيها كميات من الأسلحه لا نظير لها من قبل ، واستنفذت كميات هائله من الذخائر ، والقذائف ، وكثرت فيها المعارك التصادميه ، مما يجعل تقييمها أقرب مايكون للواقع ، والحقيقه ، وبالتالى الاستفاده بتلك الخبرات فى اضاءة طريقنا الى مستقبل أفضل .

ولعل أبرز النتائج التى كشفت عنها حرب اكتوبر ٧٣ هو مايتميز به الوطن العربى من عمق استراتيجى يهيء ظروفا مواتيه للعمل ضد أى تدخل يضر بالمصالح العربيه ، ومن ناحيه أخرى ، فان هذا العمق ، الذى تمتد حافته الساحليه مسافة

٦٠٠٠ ميل بحرى بطول البحرين المتوسط، والأحمر، وشمال المحيط الهندى، والخليج العربى، يلقى على عاتق الأمه العربيه مسئوليات جسام، لأجل الحفاظ على تماسكه، وتطويعه، لخدمة المصالح العربيه المشتركه، والتصدى لمحاولات جعله حلبـــه لصراع القوى الكبرى الدخيله .

ومما يزيد من أهمية - بل حتمية - الحفاظ على تماسك، وصون هذا العمق الاستراتيجى ما يختزنه الوطن العربى من ثروات طبيعيه لاغنى لشعوب الأمـــة العربيه عنها، ولا غنى لسائر شعوب العالم عنها . وبات واضحا الدور الفعـــال الذى يمكن أن تلعبه القوة البحريه فى هذا المجال خصوصا عند النقط الحاكمه، وبؤر المواصلات مثل مضيق " جبل طارق " (المملكه المغربيه)، ومضيق " بـــاب المندب " (عدن وجيبوتى، وجمهوريه الصومال) ومضيق " هرمز (دولة الامارات العربيه)، والمياه الضيقه تجاه ساحل تونس .

ومن ناحيه اخرى نجد أن الدول العربيه- وفى مقدمتها الدول المنتجـــه للبترول - أخذت فى اقامة مشروعات ضخمه، لتكرير، وتصنيع البترول، وتوســـيع، وتطوير موانيها، وتشييد أحواض، ومجمعات كبيره لاصلاح السفن، وهى مشروعات صاحبتها طفره واسعه نحو تنمية الأساطيل التجاريه، ولا سيما فى قطاع نقـــل البتروليات والغاز الطبيعى، والمسال .. ومعنى هذا أن الأمه العربيه سيتوفر لها فى القريب العاجل عنصران (الموانىء، والاسطول التجارى) من العناصر الثلاثه التى تقوم عليها القوه البحريه ... أى أن اهتمامنا منذ الآن يجب أن يتجه الى بناء أسطول حربى ذى بأس نستكمل به بنية القوة البحريه العربيه القـــادره على اقرار السلام فى هذا الجزء من العالم، والحفاظ عليه .

هذا وقد كشفت عمليات اكتوبر عن حاجة القوات البحريه المصريه المسلحه الى تطوير شامل حتى تكون قادره على الوفاء بالتزاماتها بأسلوب حديث، وبكفاءه عاليه . وكما سبق أن قلنا فان الوظائف الأساسيه للقوه البحريه ستظل كما هـى دون تغيير وأن مايحتاج الى تغيير - أو على الأصح تطوير - هو الأسلوب الذى

تنتهجه القوة البحريه فى الاضطلاع بوظائفها .

مرة أخرى نسترجع " العمق الاستراتيجى " للوطن العربى ، وموقعه على خريطه المصالح الدوليه . فمع كل مايتيحه هذا العمق من ميزات الا أنه يعتبر فى الوقت نفسه مصدر تهديد للأمة العربيه ، وخصوصا فى المجال الاقتصادى . فتزايد تجارة العرب الخارجيه التى صاحبت التوسع فى مشروعات الانماء الاقتصادى والعمرانى واعتماد هذه المشروعات على الصادرات البتروليه ، وبالتالى الازدياد المطرد فى حجم النقل عبر البحار ... فان تحكم أى قوة معاديه فى خطوط النقل ، والتجاره البحريه المؤديه الى الدول العربيه يؤدى الى اختناق اقتصادى بعيد الأثر . ومما يزيد من فرص نجاح هذا التدخل ، أن المسرح البحرى الكبير الذى يحيط الوطن العربى يسهل فيه ممارسة :

١- غلق المضايق ، جبل طارق فى أقصى الغرب ، وباب المندب فى أقصى الجنوب ، وهرمز فى أقصى الشرق .
٢- مهاجمة حركة النقل فى المياه الضيقه ، حول جزيرة كريت ، وعند مدخلى خليج السويس والعقبه ، وداخل الخليج العربى .
٣- تعطيل عمل الموانى عند نهايات خطوط النقل ، والمواصلات .
٤- تدمير التجمعات الصناعيه وفى مقدمتها المجمعات البتروليه التى يكتظ بها الشريط الساحلى ، وجزر الخليج العربى .

ومن ناحية أخرى ، فان الشريط الساحلى للوطن العربى يمتد قرابة ٦٠٠٠ ميل متصله على طرق النقل البحرى العالمى التى تربط الشرق بالغرب عبر قناة السويس والبالغ طولها نحو ٩٥٠٠ ميل بحرى ، بمعنى أن الشريط الساحلى للوطن العربى يمثل ٦٢٪ من طول خطوط النقل ، والملاحه بين الشرق والغرب ، ونحو ٨٥٪ من طول خط نقل البترول من الخليج العربى الى شمال غرب أوروبا عبر قناة السويس .

نخلص من ذلك الى أن العمق الاستراتيجي للوطن العربي ، ومكانه من المصالح الدوليه ومايدور حوله حاليا من صراعات ، بالاضافه الى موقع مصر في قلب هذا العمق ، يفرض علينا التزامات وطنيه ، وقوميه ، لاقرار السلام بين ربوعه . وغني عن الذكر ان السلام بحاجه الى قوة لاقراره ، والحفاظ عليه ، واذا نحن نظرنا الى طبيعة مسرح المستقبل ، وجغرافيته فسنجد أنهما يحتمان أن يكون قوام هذه القوة بنية بحريه من الطراز الأول .

اليوم ، والغـــد

على ضوء التقدم الذى أحرزته أدوات ، وأسلحة الحرب البحريه الحديثه (غير النوويه) وما صاحبه من تطور في تكنيك العمليات القتاليه ، وعلى ضوء الخبرات المكتسبه من اكتوبر ، يمكن رسم الهيكل الذى يجدر أن تقوم عليه البنيه البحريه الجديده من الخطوط الرئيسيه التاليه :

١- أسطول حربي حديث متوازن العناصر متكامل التسليح .
٢- قواعد بحريه حديثه التجهيزات متطوره الدفاعات .
٣- مجهود جوى بحرى .

الأسطول الحربي

أصبح من المحتم أن يتكون الأسطول الحربي من وحدات بحريه تجمع بين السرعه العاليه ، وخفة المناوره مجهزه بكل وسائل الحرب الالكترونيه ، وأسلحه حرب الصواريخ فوق وتحت سطح البحر ، وفي الجو . وهي صفات أصبحت الطابع الذى تتسم به تصميمات السفينه ، والغواصه ، والطائره الحديثه على اختلاف احجامها ، ووظائفها . ويمكن تحقيق التوازن ، والتكامل المرجوين بأن نعيد بناء أسطولنا الحربي ، ليضم الوحدات الآتيه :

١- سفن سطح متوسطة الحجم، ولتكن من نوع الفرقاطات الحديثه متعددة الاغراض ،فمثل هذا النوع يتميز بصغر وزنه (٢٠٠٠ طن تقريبا) ،ورغم صغر حجمها فانها تتسع لحمل العديد من التجهيزات، وخاصة تجهيزات السيطره والحرب الالكترونيه وتوجيه الطائرات، واقتناص الغواصات، والتي يزيد من فعاليتها طائرة " هل " خفيفه أو أكثر تحملها الفرقاطه على سطحها . وتعتمد قوة نيران هذا الطراز على الصواريخ سطح / سطح ذاتيه التوجيه ،والصواريخ سطح /جو التي تفتقدها وحداتنا الحاليه ، ويتيح بنيان هذه الفرقاطات، وتجهيزاتها امكانية العمل في جميع الظروف الجويه ،والبحريه سواء كانت في عمليات بمجموعات منفرده في النطاق البعيد أو بالاشتراك مع زوارق الصواريخ في النطاق القريب . وتؤكد خصائص مثل هذه الوحدات صلاحيتها التامه للاضطلاع بمهام حماية خطوط النقل ، والمواصلات البحريه ،ومهاجمة خطوط العدو ،وأيضا حراسة التشكيلات والقوات القائمه بالعمليات البرمائيه ،والدفاع عنها .

٢- وحدات بحريه أصغر حجما ،وأخف وزنا ،وأكبر سرعه ،هي زوارق الصواريخ وذلك للعمل في النطاق القريب لسواحلنا ،وشن الاغارات الخاطفه بالنيران على مراكز التجمعات العسكريه ،والسكنيه المعاديه التي تقع في مدى عمليات مثل هذه الزوارق . وكان التفوق الوحيد الذى تميزت به زوارقنا في حرب اكتوبر ينحصر في طول مدى الصاروخ ذاته ،والقوة التدميريه لرأس الحرب الذى يحمله ،وهو تفوق قلل من شأنه :

(١) البطء النسبي في سرعه الزورق ،وقصر مدى عملياته ،
(٢) ضعف التسليح المضاد للطائرات .
(٣) الامكانات المحدوده لأجهزة الانذار والتوجيه ،
(٤) ارتفاع زاويه طيران الصاروخ .

وهي عيوب يجب أن تخلو منها زوارق وصواريخ المستقبل حتى تتهيأ لها امكانات النجاح في عملياتها المقبله .

٣- الغواصه ،أحد أدوات الحرب البحريه الأساسيه التي لاغنى لنا عنها سواء في الهجوم ،أو الدفاع لما تتميز به من قدرة على الاختفاء ،وتجنب الهجمات

الجويه . والغواصه الحديثه (التقليديه) صارت هى الأخرى متعـــددة الأغراض بعد أن أضيف الى خصائصها الأصلية امكانات زادت من سرعتها فوق وتحت سطح البحر، ومن قدرتها على الغطس لمدد طويله، وقد راتها القتاليه سواء ضد السفن ،أو الغواصات،أو الدفاع ضد الطائرات . . . فضلا عن امكانية بث أعداد كبيره من الألغام، وابرار بعض عناصر من قوات الكوماندوز . والغواصه ـ بالاضافه لكل هذا ـ تعتبر من وسائل استطلاع، وتتبع نشاط العدو البحرى . ورغم أن حرب اكتوبر لم تمتد ـ زمانا ـ بالقدر الذى يسمح باعطاء غواصاتنا ماتستحقه من تقدير، فقد ثبتت فعالية الدور الذى تلعبه، وستلعبه فى الحرب البحريه . ويمكن القول، على ضوء التقدم الذى أحرزته قوات، وتاكتيكات مضادة الغواصات، بأن غواصاتنـــــــا بامكانياتها الراهنه لن تكون قادره ـ مستقبلا ـ على أداء وظائفها بالكفاءة المرجوه . وهو أمر يجب معالجته، من الآن ،بالعمل على أن تحل محلها غواصات ذات الخصائص السابق الاشارة اليها .

٤ـ طالما أن النصر النهائى فى الحرب يتوقف على نتيجه القتال الدائر علــى أرض المعركه، فستظل العمليات البرمائيه محتفظه بأهميتها كأحد العناصر المؤثره فى مصير الحرب . والعمليات البرمائيه تستهدف ابرار قـــوات ، أو اخلاءها، وامداد القوات البريه بحاجتها من العتاد والمؤن ... وهـى عمليات معقده تستخدم فيها طرازات، وأنواع من السفن ذات تصميمـــات خاصه تتفق وطبيعه وظيفتها، فمنها سفن نقل الجند، ونقل الدبـــابات وزوارق الابرار الساحليه، وزوارق القصف ... وغيرها . وقد أكدت عمليـات أكتوبر ٧٣ عدم صلاحيه وحدات العمليات البرمائيه التى فى حوزتنـــــا للاضطلاع بمهمة دعم، ومعاونة العمليات البريه، وهى مهمة نتوقع أن تتزايد أهميتها فى المستقبل . ومع اتساع مسرح العمليات، واختلاف طبيعـــــه وتضاريس السواحل، والشواطىء التى تحف به، فمن المؤكد اننا بحاجـــه ماسه الى تدعيم مالدينا من سفن ابرار بوحدات عمليات برمائية حديثـــه مثل " مركبات الوساده الهوائيه " ضمن التشكيلات البرمائيه، نظرا لما تتيحه خصائصها التاكتيكيه من امكانية تخطى معظم أنواع العوائق الساحليـــه ، وسرعه الاستيلاء على " نقط الابرار" توطئه لنقل، وانزال القوات الرئيسيـه .

ووحدات العمليات البرمائية الحديثه التى نتكلم عنها مصممه ومجهزه بحيث يمكن استخدامها فى ابراز القوات، والعتاد، والمؤن، أو بالعكس فى عمليات الاخلاء .

٥- ومع تعاظم خطر " حرب تحت الماء " والذى تلعب فيه الغواصات، والألغام الدور الرئيسى فيها، وما أحرزته تصميماتها، وتاكتيكات استخدامها من تقدم كبير، تصبح وسائلنا المضاده لمصادر هذا الخطر بحاجه هى الأخرى الى تطوير شامل مع ادخال عنصر الجو فى أعمال الكشف عن الغواصات، واقتناصها، وأعمال الكشف عن الألغام، وازالتها . وتعتبر " الضفادع البشريه " أحد أدوات، وأسلحة حرب تحت الماء التى لا يمكن انكار فعالية الدور الذى تقوم به سواء فى الهجوم، أو الدفاع، ورغم أننا لم نتوسع فى استخدامها فى حرب اكتوبر الا أن هذا النقص نفسه هو مايدعونا الى معالجة اسبابه، والعمل على دعم امكانات قوات الصاعقه البحريه، والضفادع البشريه، وادخال وسائل حديثه لاكتشاف الضفادع البشريه المعاديه قبل وصولها لأهدافها .

٦- وحتى تتكامل عناصر هذا الأسطول، فلابد أن تكون بعض وحداته مصممه خصيصا للعمل " مراكز قيادة وسيطره " مزوده بأدوات، وأسلحة الحرب الالكترونيه، وبأجهزة الاستطلاع الالكترونى، لتتيح امكانية ادارة عملياتها القتاليه بطريقه مباشره، وسريعه بما يكفل لها اكبر قدر من الأمن ضد خطر المباغته التاكتيكيه، والحصول على معلومات فوريه عن سير المعركة، ونتائجها . ومن المؤكد أن توفر مثل هذه الوحدات سوف يؤدى - من ناحيه اخرى - الى تخفيف ضغط الطلب على الاستطلاع الجوى التاكتيكى، وبالتالى توجيه مجهوده الى اتجاهات أخرى . الا أن هذا لا يعنى أن العمليات البحريه ستكون فى غنى عن الاستطلاع التعبوى، والاستراتيجى الذى ستظل الطائره هى وسيلته الأساسيه .

القواعد البحريـــه

مع ازدياد التقدم فى تاكتيك مهاجمة الموانى' وحصارها ،ازداد الخطـر على القواعد البحريه ،وعلى الوحدات والقوات التى ترتكز عليها . ولعـل اكثـــر هذه الاخطار تأثيرا ،واشدها فتكا ،هى تلك التى تشكلها الغـارات الجويـــه وأسلحه تحت الماء نظرا لما تحرزه - غالبا - من مفاجأة تأخذ دفاعات القاعـــده على غره .

وحتى تتمكن قواعدنا من أداء وظائفها بالكفاءة المرجوه ،فيجب احاطتهـا بسلسله من شبكات الانذار ،والدفاع الحديثه ،جنبا الى جنب مع تطوير وســائل التأمين المحلى لمنشآت الميناء ،والوحدات البحريه الراسيه به . هذا فضــــلا عن تعزيز الدفاعات الساحليه بمدفعيات صاروخيه متحركه يمكن نقلها من موقــع لآخر ،أو تحويل نيرانها ضد أهداف أرضيه عند ما تقتضى الضرورة ذلك .

ومصر - بل وسواحل الوطن العربى كله - لاتعوزها الموانى' التى تصلح للعمل كقواعد بحريه سواء من حيث موقعها بالنسبه لمسرح العمليات ،أو قدرتها على تقديم الخدمات الفنيه والاداريه للوحدات والقوات . ومن المعروف أن الحكومه المصريه - وسائر الحكومات العربيه - بصدد تنفيذ مشروعات توسيع ،وتطـــوير موانيها ،واقامة موانى' جديده ،الأمر الذى يتيح الاستفاده بها" كقواعد تبادليه" أو " نقط تمركز متقدمه " ،أو " مراكز خدمة اداريه وفنيه " .

المجهود الجوى البحرى

ان طبيعه ،وخصائص الحرب البحريه تقتضى اشتراك الطائرة فى العمليـات البحريه بشكل مباشر ،وسريع ،الأمر الذى لا يتأتى الا بتخصيص مجهود جـــوى مناسب - نوعا وكما - للعمل مع القوات البحريه ،واختيار قواعد تسمح مواقعهـــا لطائراته بتغطية المسرح البحرى . وليس ثمة شك فى أن هذه الخطوة ســـوف تزيد من صلابة البنيه البحريه ،وتضفى مزيدا من المرونه على العمليات البحريـه ، بجانب الدور التقليدى الذى تلعبه الطائره فى الدفاع ضد العدو الجوى .

طريق ما بعد أكتوبـــر

ان قوة بحريه بمثل هذا القدر من التوازن ، وتكامل العناصر ، هى الأداة القادرة على تأمين تحركنا على الاتجاهات الاستراتيجية باستغلال " بــؤرات " الارتكاز ، التى انبثقت عن خبرة حرب أكتوبر ، فى وسط البحر المتوسط ، وعلـــى امتداد البحر الأحمر ، وخارجه ، وبالتالى تمكنا من الحفاظ على المنطقـــــة الاستراتيجية التى تصون أمن مصر .

وليس ثمة شك ، أن الأسطول المصرى - ترتيبا على ذلك - سوف يكتسب مزيــدا من الاستقلال ، والمرونة على الصعيدين الاستراتيجى ، والتعبوى ، فضــلا عــن امكانية اعادة تنظيم أوضاع المجهود الجوى بما يتفق ومتطلبات العمليـــــات البحرية ... مهما طال أمدها أو أتسعت رقعة مسارحها .

وغنى عن الذكر أن بناء قوة بحرية ذات بأس ، يستنفذ مالا يقل عن ثلاثيـــن عاما من العمل المضنى الجاد . وقد نجحنا - برغم كل الظروف - فى ارساء دعائم قوة بحرية حديثة متوازنة مدربة أحسن تدريب تدين بعقائد مصرية صميمة مستمدة من تاريخها العريض وحضارة مصر العريقة ... أختبرت عمليا فى المعركة .

واذا كانت البحرية المصرية قد شقت طريقا وعرا الى أكتوبر ٧٣ عبر خمســون قرنا من الزمان ، فان السادات .. بقرار الحرب - يكون قد أحيا أمجاد ساحورع ، ورمسيس الثانى فوق صفحة البحار ، وعلى أرض سيناء . وانطلاقا من تاريخ مصـــر الحضارى ، توج السادات انتصارات أكتوبر بمبادرة السلام ، مستهدفا أمن ورخـــاء أمته والأمة العربية .

بهذه الانجازات ، وبدماء وعرق أبناء مصر ، أضاءت الشمس طريق مابعد أكتوبـر أمام الأجيال البحريه المقبلة ، وعليهم أن يكملوا المسيرة بنفس الخطى التى قادتنا الى النصر ، والعزة ، والكرامة .

مطبعـــة القـــوات البحرية
٢٨٦ - ١٢٠٠ - ٨ / ٨٦

